الشرق العربي القديم وحضاراته

بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة

إعداد
دكتور
حلمي محروس إسماعيل

الشرق العربى القديم وحضارته

بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة

دكتور
حلمى محروس أسماعيل

١٩٩٧

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة
ت : ٤٨٣٩٤٧٢ الاسكندرية

المقدمة

نتناول فى هذه المقدمة نبذة عن موضوعات كتاب «الشرق العربى القديم وحضاراته»، فقد شهدت مناطق الشرق العربى القديم قيام حضارات عريقة فى بلاد ما بين النهرين (العراق) والشام، وفى شبه الجزيرة العربية وخاصة فى بلاد اليمن، وعلى أطراف بادية الشام والحجاز قبل ظهور الإسلام.

وتوجد سمات مشتركة تميزت بها حضارات المشرق العربى، باعتبارها تشكل وحدة جغرافية متكاملة، وينتمى سكانها غالباً إلى أصل واحد.

وقد شهدت بلاد ما بين النهرين فى العصور التاريخية القديمة حضارات عريقة، أهمها الحضارات السومرية والبابلية والأشورية.

ويعتبر السومريون من أوائل الشعوب التى سكنت فى بلاد ما بين النهرين، حيث استقروا فى منطقة «سومر» فى جنوب العراق فى حوالى عام ٤٠٠٠ ق. م.

وكانت الحضارة السومرية غير سامية، بينما الحضارتان البابلية والأشورية من الحضارات السامية.

وفى البداية تأسست فى بلاد ما بين النهرين مدن مستقلة بعضها عن بعض، ووقعت هذه المدن السومرية فى صراع مرير فيما بينها، بسبب تطلع كل مدينة لتوسيع رقعتها على حساب المدن المجاورة.

وبعد غزو «سرجون» الأكادى للمدن السومرية نشأت امبراطورية واسعة فى حوالى عام ٢٣٥٠ ق. م.

وكان انهيار الإمبراطورية الأكّادية فى حوالى عام ٢١٥٠ ق.م، على أثر غارات الجويتيين عليها، وكانوا يقطنون فى المناطق الجبلية فى شمال شرق البلاد.

وبعد أن اعتلى العرش فى مملكة بابل «حامورابى»، تمكن من الانتصار على الملوك الأقوياء فى الدول الكبيرة المجاورة، وأمكنه توحيد وادى الرافدين، ومد حدود دولته جنوبا إلى الخليج العربى.

ويعتبر حامورابى من أعظم ملوك بلاد ما بين النهرين، وكان يجمع بين صفات المهارة العسكرية، والحنكة السياسية، والعدالة والحزم فى الحكم، ويعتبر عهده العصر الذهبى للعراق القديم.

ويعد قانون حامورابى أهم إصلاحاته، وهو أشهر القوانين التى صدرت فى بلاد الرافدين، ويعتبر أهم وثيقة اجتماعية واقتصادية وتاريخية من عصر الدولة البابلية الأولى.

ومنذ الألف الثالث قبل الميلاد ظهر الأشوريون فى شمال شرق بلاد النهرين فى مدينة آشور، وهم من الساميين.

وبعد أن حصلت دولة آشور على استقلالها فى حوالى الألف الثانى قبل الميلاد، استطاعت هذه الدولة أن تبلغ مركز الصدارة، وأن تقوم بدور خطير فى منطقة الشرق الأدنى القديم.

ويشمل عصر الامبراطورية الفترة من عام ٩١١ إلى ٦١٢ ق. م.

ومن أعظم ملوك الأشوريين «آشور – ناصر بال الثانى» (٨٨٣ – ٨٥٩ ق.م)، وقد عرف بقسوته مع الأعداء، وشرع فى تكوين الامبراطورية، ووصلت فتوحاته إلى الجبال الشرقية والشمالية.

ومنهم «تجلات – بلا سر الثالث» (٧٤٥ – ٧٢٧ ق. م)، الذى سعى لدرء الأخطار المحدقة بالدولة، واتسعت الامبراطورية الأشورية فى عهده.

وقد قضى «سرجون الثانى» (٧٢١ – ٧٠٥ ق. م) على الاضطرابات الداخلية التى اندلعت فى بداية عهده، ثم أصبحت آشور أقوى مما كانت عليه سابقا.

ويعتبر «نبوخذ – نصر» أشهر ملوك الدولة الكلدانية، وتمثل العهد البابلى الأخير، وكان يتميز بكفاءته العسكرية والإدارية، وفى عهده اتسعت حدود الدولة، وامتدت من الخليج العربى إلى الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط، وصار لها إمبراطورية واسعة ضمت سوريا وفلسطين.

أما حضارات العصور التاريخية فى بلاد الشام، فتشكل مزيجا من العناصر الحضارية للشعوب السامية وغير السامية التى توافدت عليها على شكل هجرات وغزوات متتالية فى فترات مختلفة.

والأموريون هم أول شعب سامى عاش فى إقليم سورية، وقد قدموا من شبه الجزيرة العربية فى هجرة واحدة مع الكنعانيين فى حوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.

ومن أهم الوحدات السياسية التى أسسها الأموريون، «مملكة مارى» التى تأسست فى حوالى عام ١٨٢٠ ق. م، فى منطقة الفرات الأوسط.

وفى عهد «زيمرى – ليم» أصبحت مملكة مارى من القوى الكبرى فى منطقة الشرق الأدنى القديم، وفى عهده اتسعت مملكة مارى، بعد أن تمكن من ضم معظم أملاك «شمشى – ارر الأشورى» فى جهة الغرب. وكان سقوط مملكة مارى على أيدى «حامورابى» فى حوالى عام ١٦٨٤ ق. م.

والكنعانيون هم الجماعة السامية الثانية التى قامت بدور هام فى تاريخ وحضارة الإقليم السورى.

ومن أهم الوحدات السياسية التى أسسها الكنعانيون مملكة «أوجاريت»، وفى عهد الملك «نقعاد الثانى» (١٣٦٠ – ١٣٣٠ ق.م)، كانت مملكة أوجاريت تمتد من جبل الأقرع شمالاً إلى سهل جبلة الحالى جنوبا، وكان ميناؤها مركزاً هاماً للتبادل التجارى.

والفينيقيون فريق من الكنعانيين الساميين، نزلوا على ساحل البحر المتوسط فى موقع لبنان حاليا، وانحصروا فى شريط ضيق من الأرض، تحده من جهة الشرق جبال لبنان، التى تشكل حواجز طبيعية تفصل بين أقسامه المختلفة.

وتبعا لذلك، لم يستطع الفينيقيون تكوين دولة قوية موحدة، وإنما قامت دويلات مدن صغيرة، التى كانت تتنازع كثيراً فيما بينها.

ومن أهم المدن الفينيقية جبيل وصيدا وصور وأرواد.

ونتيجة للظروف الطبيعية الصعبة التى عاش فيها الفينيقيون، فقد اتجهوا للبحر للبحث عن وسائل أخرى للمعيشة، لسد حاجات السكان الذين يتزايدون باستمرار.

وكان الفينيقيون يتبادلون التجارة مع البلدان التى ترسو سفنهم على سواحلها. ثم أخذ الفينيقيون يستقرون ويستوطنون فى الأماكن التى ينزلون بها للتجارة على سواحل البحر المتوسط.

وتعتبر «قرطاج» أشهر وأعظم المستعمرات الفينيقية، وتقع قرب مدينة تونس الحالية، ويرجع تأسيسها إلى عام ٨١٤ ق. م.

وقد بلغت قرطاج الذروة فى السيادة التجارية والسياسية، عندما أنشأت إمبراطورية واسعة امتدت من الساحل الغربى لليبيا إلى مضيق جبل طارق وأسبانيا، وأقامت مستعمرات جديدة فى هذه المواقع. وبسبب التنازع على السيادة على البحر المتوسط وتجارته، دخلت قرطاج فى حروب مع اليونانيين والرومان، وانتهت الحرب البونية الثالثة مع روما فى عام ١٤٦ ق. م، بتدمير وحرق قرطاج، التى تحولت بعد ذلك إلى ولاية رومانية.

ويمثل الآراميون الموجة الثالثة من الهجرات السامية التى انطلقت من شبه الجزيرة العربية، فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد، واتجهوا نحو بلاد الشام، حيث توغلوا فى شمال ووسط سوريا، ثم استقروا فى المناطق الخصبة، خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد.

وخلال القرنين الحادى عشر والعاشر قبل الميلاد، استطاع الآراميون تأسيس عدد من المدن والدويلات فى بلاد الرافدين، وبالأقاليم السورية، وذلك على أثر ضعف الإمبراطورية الآشورية بصفة خاصة.

ومن أهم الدويلات التى تأسست فى وسط وجنوب سورية، دويلة دمشق التى

تأسست فى أواخر القرن الحادى عشر، أو القرن العاشر قبل الميلاد. وسرعان ما تطورت دويلة دمشق، وأصبحت مملكة كبرى، تمتد من الفرات شرقا إلى نهر اليرموك غربا.

وفى عهد الملك الأشورى «تيجلات - بلاسر الثالث»، اجتاح الأشوريون معظم المدن السورية، وحاصروا دمشق التى سقطت فى أيديهم، وقتل ملكها «أرصين»، وذلك فى عام ٧٣٢ ق. م.

أما العبرانيون فهم مثل الآراميين والكنعانيين والفينيقيين، ينتمون إلى الجنس السامى، وهاجروا من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام على ثلاث مراحل خلال الفترات من القرن الثامن عشر إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

وينتمى اليهود إلى العبرانيين، وهم ينتسبون الى النبى يعقوب، الذى رحل مع أولاده إلى مصر فى حوالى عام ١٦٥٦ ق. م، عندما بلغ إبنه يوسف مكاناً مرموقاً فيها، وكان قد انتقل إليها وهو غلام صغير من قبل.

وخلال عصر الدولة الحديثة فى مصر، ظهر موسى من بين بنى إسرائيل، وفى ذلك الوقت كان اليهود يتعرضون للاضطهاد والإذلال.

وفى حوالى عام ١٢٣٠ ق. م، هاجر موسى وأتباعه من مصر عبر سيناء، باتجاه أرض كنعان فى فلسطين.

وبعد وفاة موسى، تولى «يوشع بن نون» زعامة اليهود، وعبر مع أتباعه نهر الأردن إلى فلسطين، واستولوا على مدينة أريحا الكنعانية، وأمعنوا فى قتل سكانها وتخريبها، وفعلوا ذلك أيضا فى المدن السورية التى استولوا عليها.

وبعد انتصار اليهود على الكنعانيين فى فلسطين، بدأ عصر القضاة الذى امتد إلى قيام الملكية العبرانية، وفى هذا العصر بدأوا يتحللون من بداوتهم، ويأخذون بقسط من الحضارة والمدنية.

وفى عام ١٠٥٠ ق. م نشأت المملكة العبرانية، ،عندما شعر اليهود بضرورة

التكتل أمام منافسيهم الأقوياء وخاصة الفلسطينيين الذين كانوا يسيطرون على المناطق الساحلية.

وكان «شاؤول» أول ملوك اليهود، وبعد مقتله خلفه الملك داود (١٠٠٤ - ٩٦٠ ق. م)، الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة العبرانية. وبعد وفاة داود تولى العرش إبنه الملك سليمان (٩٦٠ - ٩٣٥ ق. م)، وفى عهده ساد الرخاء، وأصبحت فلسطين تخضع لحاكم واحد، وصارت أورشليم عاصمة هذه الدولة، وامتدت سلطته من دان أسفل جبل عرمون إلى بئر السبع على مشارف صحراء النقب.

وعقب وفاة الملك سليمان، بدأ انقسام المملكة العبرانية واضمحلالها، فانقسمت إلى شطرين: مملكة إسرائيل فى الشمال وعاصمتها السامرة، ومملكة يهوذا فى الجنوب وعاصمتها أورشليم، وثار التنافس بين المملكتين، واستحكم العداء بينهما.

وفى عام ٧٢٠ ق. م، استولى «سرجون الثانى» على السامرة عاصمة مملكة اسرائيل، وساق شبابها فى الأغلال كأسرى إلى نينوى، وقضى بذلك على مملكة اسرائيل.

أما مملكة يهوذا، فقد عمرت مدة أطول من المدة التى عاشتها مملكة اسرائيل، بأكثر من قرن من الزمان.

وقد خضعت مملكة يهوذا لسيطرة الملك البابلى «نبوخذ - نصر»، وعين «صدقيا» ملكا عليها، ولما حاول الاستقلال والتخلص من سيطرة بابل، أرسل إليه «نبوخذ - نصر» جيشا دخل أورشليم وخربها ، وأمر بحرقها، وهدم هيكل سليمان، وسبى نحو خمسين ألفاً من سكان أورشليم والمدن الأخرى، وسيقوا إلى بابل.

وكانت شبه الجزيرة العربية تشمل قديماً، اليمن أو بلاد عرب الجنوب، وبلاد الحجاز.

وفى اليمن قامت أربع دول؛ هى الدولة المعينية، والدولة القتبانية، والدولة السبئية، والدولة الحميرية.

والدولة المعينية (١٣٠٠ - ٦٥٠ ق. م)، هى أقدم الدول العربية التى قامت فى اليمن، وكانت تقوم فى منطقة الجوف بين نجران وحضرموت.

وكان المعينيون يشتغلون بالتجارة، وسيطروا على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب، ونافسوا فى ذلك السبئيين، الذين يشتركون معهم فى أصل واحد.

وفى فترة ازدهار الدولة المعينية، كانت تخضع لسيطرتها المنطقة الممتدة من الحجاز إلى فلسطين.

وأهم المدن المعينية «قرناو» أو «معين»، وهى العاصمة، وتقع فى منطقة الجوف، ومن أهم آثارها معبد رصاف.

والدولة القتبانية (١١٠٠ - ٢٥ ق. م)، كانت تقوم فى الطرف الجنوبى من بلاد اليمن إلى جنوب سبأ، وعلى تخوم حضرموت، وعاصمتها مدينة «تمنع»، وتقع فى موضع «كحلان» حالياً.

وقد شهدت الدولة القتبانية سقوط الدولة المعينية، وعاصرت دولة سبأ والدولة الحميرية، ثم اندمجت فيما بعد بالدولة الحميرية.

وكان القتبانيون يشتغلون بالتجارة، وخاصة فى الطيب والبخور، وكانت بلادهم تنتج أجود أنواعها.

أما دولة سبأ (٨٠٠ - ١١٥ ق. م)، فقد مرت بمرحلتين، مرحلة المكارب، وتمتد من ٨٠٠ إلى ٦٥٠ ق. م، وأول حكامها «سمه على»، وهو مؤسس دولة سبأ.

وكانت «صرواح» أول عاصمة لمكارب سبأ، ثم نقلوا عاصمتهم إلى «مأرب». وفى حوالى عام ٦٠٠ ق. م، أقام «سمه على بنف» سداً فى وادى «زنة» بمأرب.

ثم أقام إبنه وخليفته «يثعمر أمربين»، سدا آخر أكبر يعرف بإسم «سد حبابض»، وتحت وطأة سيل العرم، أنهار سد مأرب فيما بعد.

وتمتد مرحلة ملوك سبأ من ٦٥٠ إلى ١١٥ ق. م، وفى الفترة الأولى من العصر الملكى اعتلى العرش أسرات قوية كان لها دور خطير فى سياسة بلاد العرب الجنوبية.

وفى ذلك الوقت أصبح لسبأ أسطول تجارى كبير، كان ينقل تجارة الشرق من الهند واليمن إلى مصر وغيرها من البلاد المجاورة.

وفى الفترة الأخيرة من العصر الملكى نشب نزاع خطير حول العرش فى سبأ، أصاب البلاد بالخراب والدمار، مما عجل بسقوط الدولة السبئية.

وكان قيام الدولة الحميرية (١١٥ ق. م) – ٥٢٥م) على أثر النزاع حول العرش فى سبأ، فتمكنوا من انتزاع هذا العرش، وأسسوا فى عام ١١٥ ق. م أسرة حاكمة جديدة، اتخذ ملوكها لقب ملوك سبأ وذى ريدان» . وكانت مدينة «ريدان» عاصمة الدولة الحميرية.

وينقسم عصر الدولة الحميرية إلى فترتين: الدولة الحميرية الأولى، وتمتد من ١١٥ ق. م إلى ٣٠٠ م، والدولة الحميرية الثانية، وتمتد من ٣٠٠ إلى ٥٢٥ م.

وفى عهد الدولة الحميرية الأولى، وفى عام ٢٤ ق. م، سيرّ الرومان حملة إلى اليمن بقيادة «اليوس جالوس» حاكم مصر الرومانية، انتهت بالفشل، وهلك معظم رجالها، بسبب وعورة الطرق الجبلية، والمقاومة العنيفة التى واجهتها، مع تعرضها للأمراض والأوبئة والمجاعة.

وآخر ملوك هذه الدولة من «التبابعة»، هو «ياسر ينعم»، وينسب إليه الإخباريون فتوحات عظيمة تتضمن روايات خرافية.

وفى عهد الدولة الحميرية تعرض اليمن للغزو الحبشى على مرتين؛ فى عام ٣٤٠ م، وفى عام ٥٢٥ م.

ولم يدم الاحتلال الحبشي الأول لليمن طويلا؛ بسبب انشغال ملك «اكسوم» في إخماد الثورات التي اندلعت في بعض مناطق مملكته.

وكان الغزو الحبشي الثاني في عهد «ذونواس» آخر ملوك دولة حمير، وكان قد اعتنق اليهودية، واعتزم تحويل نصارى نجران بالقوة عن دينهم إلى اليهودية، وأمر بحرقهم في أخدود عميق في الأرض أشعل فيه النيران.

وعلى أثر ذلك عهد الإمبراطور البيزنطي «جستنيان» إلى نجاشي الحبشة بالانتقام من ملك حمير «ذي نواس»، لاضطهاده المسيحيين في اليمن، فأرسل إليه جيشا من نحو ٧٠ ألف جندي بقيادة «أرياط» في عام ٥٢٥ م، فألحق الهزيمة بجيش دولة حمير، وانتحر «ذو نواس» غرقاً.

وبعد ذلك حدث انقسام في معسكر الأحباش في اليمن، وتولى «أبرهة» الحكم في اليمن، وكان مساعداً «لأرياط» في قيادة حملة الغزو الحبشي.

وفي عام ٥٧٠م، قام «أبرهة» بحملة فاشلة على مكة المكرمة، بقصد توجيه العرب ليحجوا إلى كنيسة «القليس» التي بناها في صنعاء، بدلاً من الحج إلى الكعبة المشرفة، فهلكها الله بطير الأبابيل، كما جاء في سورة الفيل.

ولم يلبث «أبرهة» أن قضى نحبه، وخلفه إبنه «يكسوم».

وأخيراً تمكن «سيف بن ذي يزن» من إخراج الأحباش من اليمن، وذلك بمساعدة كسرى الفرس «أنوشيروان»، وعقب ذلك دخل اليمن تحت حكم الفرس.

وتعتبر بلاد الحجاز من المناطق الهامة في الجزيرة العربية، وتتميز بأهميتها الاقتصادية والدينية.

وأهم عواصم الحجاز مكة المكرمة والطائف ويثرب.

وتقع مكة في وادي يعرف ببطن مكة، وتشرف عليها الجبال من جميع الجهات. وقبل الإسلام كانت مكة مركزاً للطريق التجاري بين اليمن وبلاد الشام، كما كان لها علاقات وثيقة ببلاد الحبشة.

وكان أهل مكة يعتمدون على التجارة، والضرائب التى تجبى من التجار الأجانب والقوافل التجارية، بالإضافة إلى ما ينفقه الحجاج فى موسم الحج.

وبفضل جهودها شم بن عبد المناف زعيم قريش، فقد سيطرت مكة على تجارة الهند والحبشة واليمن، وهو أول من سن رحلتى قريش فى الشتاء والصيف.

أما مدينة الطائف ؛ فتقع بالقرب من مكة على سطح جبل غزوان، ويحيط بها مساحات واسعة من المزارع والبساتين.

ومناخ الطائف معتدل؛ وتعتبر مصيفا لأهل مكة، حيث يقبلون عليها فى الصيف عندما تشتد الحرارة فى مكة.

وتعتمد الحياة الاقتصادية فى الطائف على الزراعة، ومن أهم المحاصيل الحنطة والحبوب والفواكه، وأهمها التمر والعنب.

كما يشتغل أهل الطائف بالصيد فى الغابات المجاورة، ويعملون بتربية النحل واستخراج العسل كذلك اشتغل أهل الطائف بالتجارة، وخاصة فى الزبيب والحنطة والعسل والأديم. وكانت الطائف تمثل المركز الدينى الثانى فى بلاد العرب بعد مكة، إذ كانت موضع تقديس المعبودة «اللات»، التى كانت تعظمها قريش وجميع العرب.

ويثرب مدينة قديمة، تقع على بعد نحو ٥٠٠ كم إلى الشمال من مكة، فى حرة كثيرة المياه والأشجار والدوحات، وإلى الشمال منها يقع جبل أحد، وفى الجنوب الغربى منها يقع جبل عيز

ويعتبر مناخ يثرب معتدلاً بوجه عام، ويشتغل أهلها بالزراعة، ومن أهم المحاصيل التمر والشعير والقمح والعنب والرمان والفواكه الأخرى، والخضروات المختلفة كما يشتغلون بالتجارة فى الأسواق الداخلية، وبالتجارة الخارجية مع الشام واليمن. وفى يثرب قامت بعض الصناعات، مثل صناعة التحف المعدنية والأسلحة والدروع، وصناعة المكاتل والقفف من سعف النخيل، والأدوات الخشبية .

وكانت يثرب تضم كتلتين رئيسيتين من السكان هما: العرب واليهود.

والعماليق هم أول من سكن يثرب من العرب، ثم جاءت هجرة الأوس والخزرج اليمنيين إلى يثرب بعد انهيار سد مأرب، وأقاموا إلى جانب اليهود الذين سبقوهم واستقروا فيها من قبل.

وبعد مضى زمن طويل على التحالف بين اليهود والعرب، أخذت العلاقات تتدهور بين العرب واليهود في يثرب، بسبب تخوف بني قريظة والنضير أن يغلبهم الأوس والخزرج على دورهم وأموالهم، بعد أن تكاثرت أموالهم وأعدادهم.

وبعد أن تغلب الأوس والخزرج على اليهود فى يثرب، لم تلبث أن ساءت العلاقات بين هاتين القبيلتين، وانتهى الأمر بنشوب حروب كثيرة بينهما امتدت إلى قبيل الهجرة النبوية.

أما مناطق بادية الشام وجنوب العراق، فقد شهدت منذ القرن الخامس قبل الميلاد، هجرات متتابعة من جانب القبائل العربية التى نزحت من جنوب العربية ووسطها إلى أطرافها الشمالية، ومنها الأنباط والغساسنة والمناذرة.

وكانت هجرة الأنباط إلى موضع شرق الأردن حاليا فى القرن الخامس قبل الميلاد. وجاءت هجرة الغساسنة إلى جنوب الشام، والمناذرة إلى منطقة الحيرة فى غرب العراق، فى أواخر القرن الثالث الميلادى.

وفى أوج اتساعها، امتدت دولة الأنباط إلى منطقة دمشق، وسهل البقاع، وضمت الأجزاء الجنوبية والشرقية من فلسطين، وأجزاء من ساحل البحر الأحمر. ومن أهم مدن الأنباط «البتراء»، وهى العاصمة، وكانت تقع على طريق القوافل التجارية القادمة من الجزيرة العربية وغيرها، وسط بقعة تتوفر فيها المياه العذبة.

وأشهر ملوك الأنباط «الحارث الثالث» (٨٧ – ٦٢ ق. م)، ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الحقيقى لدولة الأنباط.

وفى عهده اتسعت رقعة مملكة الأنباط، على حساب السلوقيين ومملكة

اليهود. وآخر ملوك الأنباط «مالك الثالث» (١٠١ - ١٠٦ م)، وفي نهاية عهده سيرّ الإمبراطور الروماني (تراجان) حملة كبيرة على «البتراء» بقيادة نائبه في دمشق (كورنليوس بالما)، فتمكن من الاستيلاء عليها، وضمها إلى المقاطعة العربية التي أقامها الرومان تحت سيطرة حاكم سوريا الروماني.

وتقع مدينة تدمر وسط واحة في طرف بادية الشام، إلى الشرق من مدينة حمص، وإلى الشمال الشرقي من مدينة دمشق.

وكانت محطة تجارية هامة، وعقدة للمواصلات على طرق القوافل بين العراق وبلاد الشام، وترد إليها القوافل القادمة من آسيا الصغرى ،والجزيرة العربية ومصر.

وقد دخلت تدمر تحت سيطرة الرومان، الذين كانوا يسعون لفرض هيمنتهم على الطرق التجارية في المنطقة.

وكانت لأسرة «أذينة» الحاكمة في تدمر الحظوة لدى الرومان، وخاصة في عهد «سبتيموس سفيروس»، بسبب الخدمات التي قدمتها لهم في صراعهم ضد دولة الفرس.

وكان «أذينة بن خيران» زعيم هذه الأسرة، يخطط للاستقلال بتدمر، وإقامة مملكة لشخصه ولأسرته من بعده.

ولم يلبث أن قتل بإيعاز من الرومان، بعد أن لمسوا طموحه للاستقلال التام. وكان «أذينة الثاني» يتصف بالشجاعة والجرأة والفروسية، وقد ارتفع شأن تدمر على يديه، وجعل لها مقاماً سامياً لدى الرومان والفرس على السواء.

ومكافأة لإخلاصه وولائه للإمبراطور الروماني، منح «أذينة الثاني» لقبا رفيعًا هو «امبراطور عموم الشرق»، كما منح لقب «أغسطس» الذى كان يلقب به أباطرة الرومان، ووضعت صورته مع صورة امبراطور الرومان.

وبعد مقتل «أذينة الثاني» في عام ٢٦٦م، انتقل الملك إلى إبنه

«وهب اللات» ، وأمه «زنوبيا» ، وكان «وهب اللات» صغير السن قاصراً، فتولت أمه الوصاية عليها، وحكمت الدولة بإسمه.

وقد أظهرت «زنوبيا» مقدرة فائقة فى إدارة شئون الدولة، وسعت لتوسيع حدودها، وبسط نفوذها على مناطق واسعة لم تخضع من قبل لتدمر، مما أدى إلى حدوث صدام بينها وبين الرومان، الذين حاولوا القضاء عليها قبل استفحال أمرها، وجرت عدة محاولات فاشلة لاغتيالها.

وكانت «زنوبيا» تتحين الفرصة للتدخل فى مصر، وفى عام ٢٧٠ م أرسلت جيشاً إلى مصر قوامه ٧٠ ألف رجل على رأسه قائدها «زبدا» ، فانتصر على الجيش الرومانى الذى كان يبلغ ٥٠ ألف رجل.

وفى ذلك الوقت شعرت «زينوبيا» بأنها قد أصبحت على درجة من القوة تسمح لها بأن تعلن استقلالها التام عن الرومان، وأن تتحرر من سيادة روما الإسمية عليها.

وبدأت «زينوبيا» بإضفاء لقب «ملك الملوك» ، ولقب «أغسطس» المخصص للإمبراطور الرومانى، على إبنها «وهبلات» ، وأمرت بوضع صورته وحده مع لقب الإمبراطور الرومانى على النقود.

كما أضفت على نفسها لقب «ملكة» ، وأمرت بنقش إسمها وإسم إبنها «وهبلات» بهذه الألقاب على المنشآت الضخمة التى شرعت فى تشييدها. وبعد أن استقرت أوضاع الإمبراطورية الرومانية فى أوروبا، سار الإمبراطور «أورليانوس» على رأس جيش كبير إلى الشرق، وتمكنت قواته من انتزاع مصر وأجزاء من آسيا الصغرى وسوريا من نفوذ التدمريين، وذلك فى عام ٢٧٢ م.

ثم زحف الرومان على العاصمة تدمر، وألقوا الحصار عليها، ورفضت «الزباء» فى كبرياء دعوة الإمبراطور إليها للتسليم والخضوع للرومان.

ومع تقاعس الفرس والقبائل العربية والأرمن عن مساعدتها، اضطرت «الزباء»

إلى التخلى عن العاصمة مؤقتاً، وحاولت الهرب منها ليلا، ولكن الفرسان الرومان تعقبوها وألقوا القبض عليها، وعادوا بها إلى تدمر، حيث مثلت أمام الإمبراطور، فأعجب من صراحتها وأعطاها الأمان.

وفى عام ٢٧٣ م سقطت تدمر، وخضعت للحكم الرومانى المباشر. وبعد قليل إندلعت الثورة على الرومان فى تدمر، وأعدموا «سنداريون» الذى عينه الامبراطور حاكما عليها، فأسرع الإمبراطور «أورليانوس» بالعودة إلى المدينة التى أذعنت له من جديد.

أما «الزباء»، فقد انتقلت لتعيش فى بيت خصص لها هى وأولادها فى مدينة «تيبور» بإيطاليا.

أما دولة المناذرة أو مملكة الحيرة، فكانت تقع فى منطقة الحيرة والأنبار فى جنوبى نهر الفرات، حيث نزحت إليها قبائل المناذرة أو اللخميون، بعد أن هاجروا من اليمن على أثر تصدع سد مأرب، ونزلوا فى أول الأمر فى منطقة البحرين.

ويعتبر مالك بن فهيم أول من حكم الحيرة من بنى تنوخ، وكانت مدة حكمه عشرين عاماً.

وأشهر ملوك الحيرة من بنى لخم، النعمان بن امرئ القيس، وكان حكمه غالباً خلال الفترة بين ٣٩٠ - ٤١٨ م.

ومن صفاته أنه كان حازماً وقوياً ومحارباً شديد البأس مع الأعداء. وقد غزا عرب الشام عدة مرات، فسبى وغنم الكثير منهم.

ومن أهم آثاره المعمارية «قصر الخورنق»، الذى استغرق بناؤه عشرين عاماً، وكان بنيانه عجيباً لم ير العرب مثله، وقام ببنائه بنّاء رومى يدعى «سنمار»، وارتبط بهذا القصر وبانيه قصص شائعة.

ومن أشهر ملوك الحيرة اللخميين المنذر بن امرئ القيس (ابن ماء السماء) الذى ارتبطت بسيرته بعض القصص الأسطورية.

وكان يوصف بالشجاعة والبسالة فى الحروب، وكان له دور هام فى الحروب التى نشبت بين الفرس والروم.

وكان المنذر يقف فى الحرب إلى جانب الفرس، بينما شارك الحارث بن جبلة الغسانى إلى جانب الروم، ولم يلبث أن وقع الصدام بين الإمارتين العربيتين.

وفى «يوم حليمة» عام ٥٥٤م ،قتل المنذر الثالث ابن ماء السماء، وكانت إبنته حليمة حاضرة فى هذه المعركة، وتحرض فرسان أبيها على القتال، حتى نسبت إليها هذه المعركة.

وفى بادية الشام قامت دولة الغساسنة، وكانت مدة حكمهم تتراوح بين أربعمائة وستمائة عام، وهم فى الأصل من قبائل الأزد، ونزحوا من جنوب الجزيرة العربية على أثر حادثة سيل العرم.

وكان الغساسنة حلفاء للدولة البيزنطية، وشاركوا فى حروب البيزنطيين ضد الفرس.

وكانت مملكة الغساسنة تمتد من بادية الشام إلى دمشق، فيما بين الجولان واليرموك، ومن أهم مدنهم «الجابية» التى كانت مركز الدولة.

وأول أمراء الغساسنة العظام الحارث بن جبلة (٥٢٩ - ٥٦٩ م)، وقد منح الحارث بن جبلة لقب «ملك»، لجهوده فى ضبط الأمور ورعاية مصالح الروم فى الشام، ولمحاربته أعداء الروم من الفرس وأتباعهم من عرب الحيرة بالعراق.

وآخر أمراء الغساسنة جبلة بن الأيهم، الذى اشترك مع الروم فى قتال العرب المسلمين بقيادة خالد بن الوليد، أثناء فتح الشام.

وقد أسلم جبلة بن الأيهم، على أثر انتصار العرب فى معركة اليرموك، وبعد قليل تنصر وخرج إلى بلاد الروم فى عدد كبير من أتباعه، وذلك فى عهد عمر بن الخطاب.

وكانت بلاد كندة فى البداية تقع فى شرقى بلاد اليمن، ثم نزح الكنديون إلى أرض معد بنجد واستقروا بها، وأصبح لهم الملك على بادية الشام.

وأول ملوك كندة كان مرتع بن معاوية بن ثور، الذى استمر حكمه عشرين عامًا. وأشهر ملوك كندة بعد انتقالهم إلى نجد، هو حجر آكل المرار بن عمرو (٤٦٠ - ٤٨٠ تقريبًا).

ولم يكن للكنديين حضارة تماثل حضارة الغساسنة أو المناذرة، ولم تكن لهم حواضر ثابتة، وقبيل ظهور الإسلام صار لهم مراكز عمرانية، مثل دومة الجندل.

وقد ظهر بين الكنديين شعراء عظام أمثال امرئ القيس بن حجر، ومعد يكرب بن الحارث. وكان ملوك الكنديين وثنيين يعبدون الأصنام، ومن أهمها «ذو الخلصة».

وكانت اليهود منتشرة بين الكنديين، بسبب اتصالهم بالتبابعة الذين كانوا يدينون باليهودية وكانت المسيحية أكثر انتشارًا من اليهودية فى نجد، ويبدو أن معد يكرب كان أول من اعتنق المسيحية من ملوك كندة، كما اعتنقها ولداه الأسود وقيس.

وبعد، فقد استعرضنا فى إيجاز أهم موضوعات كتاب «الشرق العربى القديم وحضاراته»، وتنقسم إلى أربعة أقسام رئيسية كالتالى:

أولاً: بلاد ما بين النهرين القديمة وحضارتها؛ وتشمل الفصول التالية:

١ - **الفصل الأول**؛ بعنوان «السومريون والأكاديون ودويلات المدن المجاورة».

٢ - **الفصل الثانى**؛ وعنوانه «البابليون».

٣ - **الفصل الثالث**؛ وعنوانه «الأشوريون والكلدانيون».

٤ - **الفصل الرابع**؛ بعنوان «مظاهر الحضارة فى بلاد ما بين النهرين».

ثانيًا: بلاد الشام القديمة وحضاراتها؛ وتشمل الفصول التالية:

١- **الفصل الأول**؛ وعنوانه «الأموريون والكنعانيون».

٢- **الفصل الثانى**؛ وعنوانه «الفينيقيون».

٣- **الفصل الثالث**؛ وعنوانه «الآراميون».

٤- **الفصل الرابع**؛ وعنوانه «العبرانيون».

ثالثًا: شبه الجزيرة العربية القديمة وحضاراتها؛ وتشمل الفصلين التاليين:

١- **الفصل الأول**؛ وعنوانه «اليمن وعرب الجنوب».

٢- **الفصل الثانى**؛ وعنوانه «بلاد الحجاز».

رابعًا: الدويلات العربية التى قامت ببادية الشام والعراق والجزيرة العربية قبل الإسلام؛ وتشمل الفصول التالية:

١- **الفصل الأول**؛ وعنوانه «دولة الأنباط».

٢- **الفصل الثانى**؛ وعنوانه «دولة تدمر».

٣- **الفصل الثالث**؛ وعنوانه «دولة المناذرة أو مملكة الحيرة».

٤- **الفصل الرابع**؛ وعنوانه «دولة الغساسنة».

٥- **الفصل الخامس**؛ وعنوانة «دولة كندة».

ومن أهم المراجع التى اعتمدت عليها فى إعداد هذا الكتاب ما يلى:

١- ابن الأثير: كتاب الكامل في التاريخ - الجزء الأول.

٢- ابن الكلبى (أبو المنذر هشام بن محمد): كتاب الأصنام.

٣- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر - الجزء الثانى.

٤- أبو حنيفة الدينورى: الأخبار الطوال.

٥- د. أحمد أمين سليم: دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم (سوريا وبلاد العرب).

٦- البلاذرى: كتاب فتوح البلدان - الجزء الأول.

٧- د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب فى عصر الجاهلية.

٨- الشريف (أحمد إبراهيم): مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول.

٩- المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر - الجزء الثانى.

١٠- المقدس (شمس الدين أبو عبد الله محمد): أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، الجزء الثانى.

١١- ليواوينهايم وترجمة حسين علوان حسين: العراق القديم.

١٢- اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب): تاريخ اليعقوبى - الجزء الأول.

١٣- ألويس موسل، وترجمة د. عبد المحسن الحسينى: شمال الحجاز.

١٤- د. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسيا القديمة.

١٥- د. جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام - الأجزاء ٢، ٣، ٤.

١٦- چورج رو، وترجمة حسين علوان حسين: العراق القديم.

١٧- چورچى زيدان: العرب قبل الإسلام.

١٨- د. صالح أحمد العلى: محاضرات فى تاريخ العرب - الجزء الأول.

١٩- فيليب حتى: تاريخ العرب - الجزء الأول.

٢٠- د. محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم.

٢١- مورتجات، وتعريب سليمان وأبو عساف: تاريخ الشرق الأدنى القديم.

٢٢- د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول.

٢٣- وهب بن منبه: كتاب التيجان فى ملوك حمير، حيدر آباد الدكن.

٢٤- ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله) : معجم البلدان - المجـلدان ، ٤، ٥.

وقد تحريت الدقة العلمية والأسلوب السهل فى تقديم مادة هذا الكتاب، لكى يستفيد منه طلاب الجامعات والمهتمين بدراسة تاريخ العرب القديم، وخاصة المشرق العربى.

هذا، وقد أتيح لى تدريس موضوعات هذه المادة فى الجامعات الليبية. وأرجو أن أكون قد وفقت فى إعداد هذا الكتاب وإبراز الحقائق، بما يتناسب مع أهمية تلك الحقبة التاريخية.

وما توفيقى إلا بالله ،،

الإسكندرية فى ١٤/ ٤/ ١٩٩٦م

د./ حلمى محروس اسماعيل

الشرق العربى القديم وحضاراته

- الهلال الخصيب فى عصور ما قبل التاريخ.

أولاً: بلاد ما ين النهرين القديمة وحضاراتها.

- المخلفات الحضارية من عصور ما قبل التاريخ فى العراق.
- حضارات العصور التاريخية فى بلاد ما بين النهرين.

الفصل الأول

السومريون والأكاديون ودويلات المدن المجاورة

- الحضارة السومرية.
- المدن السومرية المستقلة والصراع فيما بينها خلال عصرها الأول.
- الدولة الأكادية وعلاقتها بالسومريين وحروب سرجون التوسعية.
- خلفاء سرجون.
- انهيار الامبراطورية الأكادية.
- عودة نفوذ السومريين (عصر النهضة السومرية).
- التنافس بين العموريين والعيلاميين والسلالات الحاكمة فى مدينتى أيسين ولارسا.
- مملكة آشنونا والتطورات التى تعرضت لها.

الفصل الثانى

البابليون

- الدولة البابلية الأولى.
- حامورابى وحروبه التوسعية – قانون حامورابى.
- مملكة بلاد البحر أو مملكة بابل الثانية.

- الدولة الكاشية أو مملكة بابل الثالثة .

الفصل الثالث

الآشوريون والكلدانيون

- أقسام تاريخ الآشوريين.

- العهد الأشورى القديم - العهد الأشورى الوسيط.

- العهد الأشورى الحديث وعصر الإمبراطورية.

- آشور ناصر بال الثانى وتوسعاته.

- تجلات بلاسر الثالث والتنظيمات الإدارية والعسكرية التى أدخلها وحروبه التوسعية .

- سرجون الثانى وخلفاؤه.

- سقوط الدولة الآشورية.

- الكلدانيون والعهد البابلى الأخير.

- نبوخذ نصر.

- انهيار الدولة الكلدانية

الفصل الرابع

مظاهر الحضارة فى بلاد ما بين النهرين

- نظام الحكم فى المدن المستقلة - الجيش وأسلحته - القوانين.

- الحياة الاقتصادية

- الزراعة - الصناعة - النشاط التجارى

- الحياة الاجتماعية.

- الحياة الدينية.

- الكتابة والآداب والعلوم

- الكتابة المسمارية والألواح الطينية أو الفخارية.

- الأدب - ملحمة كلكاميش.

- الرياضيات - الفلك والتنجيم - الطب.

الشرق العربي القديم وحضاراته

شهدت مناطق الشرق العربى القديم قيام حضارات عريقة فى بلاد ما بين النهرين (العراق)، والشام، وفى شبه الجزيرة العربية وخاصة بلاد اليمن، وعلى تخوم بادية الشام والحجاز قبل ظهور الإسلام.

وتوجد سمات مشتركة تميزت بها الحضارات فى المشرق العربى، باعتبارها تكون وحدة جغرافية متكاملة، وينتمى سكانها غالبًا إلى أصل واحد، وتجمع بينهم روابط الدم.

ومعظم حضارات الشرق العربى كانت حضارات زراعية كما هو الحال فى مصر والعراق واليمن، بسبب خصوبة الأرض ووفرة المياه. كما تميزت بعض حضارات المنطقة بالإهتمام بالتجارة البرية والبحرية، لموقعها الجغرافى الهام، وتحكمها فى طرق التجارة، مثل فينيقيا وجنوب الجزيرة العربية.

وتشابهت الإتجاهات الفنية والمنتجات إلى حد كبير فى كثير من أجزاء المشرق العربى.

كذلك تشابهت العقائد الدينية والنواحى الفكرية من الأساطير والقصص وغيرها، مما يدل على وجود علاقات فكرية منذ أقدم العصور، ربطت بين أجزاء المشرق العربى، وبين الوطن العربى بأكمله.

الهلال الخصيب فى عصور ما قبل التاريخ:

الهلال الخصيب هو نطاق من الأراضى الخصبة على شكل هلال، يمتد من خليج العقبة غربًا إلى جنوب جبال طوروس شمالا، ويشمل فلسطين وسوريا، ثم ينحرف نحو الجنوب الشرقى بمحاذاة جبال زاجوراس حتى الخليج العربى، ويضم سهول دجلة والفرات، وبين طرفى الهلال تقع صحراء شمال الجزيرة العربية.

المناطق الحضارية فى الهلال الخصيب:

ويتكون الهلال الخصيب من منطقتين متميزتين؛ تقع إحداهما على جانبه

الغربى، وتشمل حاليا سوريا ولبنان وفلسطين، وتشمل وحدة حضارية ذات طابع خاص.

والمنطقة الثانية تقع على الجانب الشرقى، وتشمل العراق، ويجرى فيها نهراً دجلة والفرات الكبيران، وتسمى هذه المنطقة أرض أو بلاد النهرين، وتتميز حضارتها بطابع خاص يختلف عن حضارة النطاق الغربى للهلال.

وكانت حضارة الجانب الغربى تعتمد على الأمطار التى تكفى لنمو أعشاب الرعى وزراعة الأرض بعدة محاصيل مثل الحبوب وأشجار الفاكهة، ولكن المساحات المنزرعة لم تكن متصلة ومتجاورة، بل مبعثرة وتفصل بينها مساحات من الصحارى والجبال.

وكل منطقة زراعية كانت تشكل وحدة اقتصادية صغيرة، وتكونت لها وحدة سياسية مستقلة.

أما الجانب الشرقى، حيث توجد دجلة والفرات وروافدهما، فكان يضم كثيراً من المساحات المتصلة الزراعية، بالإضافة إلى مساحات واسعة من أراضى المراعى، وقد ساعد ذلك على قيام المدن المتجاورة المتنافسة.

وبحكم موقعه الجغرافى، كان الهلال الخصيب يمثل منفذ الأقاليم الواقعة فى شرقيه وشماليه إلى البحر الأبيض المتوسط.

كما وفد على جهات الهلال الخصيب جماعات من سكان شبه الجزيرة العربية، بعد أن أخذت الأمطار التى تسقط عليها تتناقص، وبدأ عصر الجفاف، فى نهاية عصر البليستوسين، خلال العصر الحجرى القديم، حيث تتوفر المياه من الأنهار التى تجرى فيها مثل نهرى دجلة والفرات والأنهار الصغيرة الأخرى.

وكانت جبال زاجروس وجبال كردستان فى شمال العراق وشماله الشرقى، وجبال طوروس فى شمال بلاد الشام، تشكل حاجزاً حتى الألف الثانى قبل الميلاد، حال دون اتصال شعوب مناطق إيران وأرمينيا وآسيا الصغرى، بسكان

مناطق الهلال الخصيب، وترتب على ذلك إختلاف كثير من جوانب حضارات القسمين، في حين تشابهت حضارات شعوب الهلال الخصيب.

أولاً: بلاد ما بين النهرين القديمة وحضاراتها

المخلفات الحضارية من عصور ما قبل التاريخ فى العراق:

لم يكشف عن مخلفات حضارة ما قبل التاريخ فى أرض بلاد ما بين النهرين إلا فى أوائل القرن العشرين.

ولم يعثر على شئ يذكر من مخلفات العصر الحجرى القديم فى بلاد ما بين النهرين (العراق)، وينتهى ذلك العصر فى حوالى ٢٠٠٠٠ عام قبل الميلاد، وإن كان من الصعب تحديد بدايته. .

كذلك لاتوجد مخلفات حضارية من العصر الحجرى الوسيط، الذى يبدأ فى حوالى ٢٠٠٠٠ ق. م، وينتهى فى حوالى عام ٩٠٠٠ ق. م.

أما العصر الحجرى الحديث الذى يبدأ فى حوالى عام ٩٠٠٠ ق. م، وينتهى فى حوالى عام ٣٠٠٠ ق. م، فقد كثرت مخلفاته فى أنحاء العراق.

مخلفات حسونة:

وهى من مخلفات العصر الحجرى الحديث، وتقع قرية حسونة إلى الجنوب قليلا من مدينة الموصل.

وترجع مخلفات حسونة إلى حوالى نهاية الألف السابع وبداية الألف السادس قبل الميلاد.

وتدل مخلفات حسونة على أن أصحابها كانوا يعرفون الزراعة، وأنهم عاشوا فى استقرار، وقطعوا شوطاً كبيراً فى مجال التقدم الحضارى، فاستعملوا آلات مصنوعة من الأحجار والعظام، كما صنعوا أوان فخارية بسيطة، وأوان فخارية مزينة بالرسوم، وعثر على مناجل ذات سنان مصنوعة من الظران.

كذلك عثر المنقبون على بعض المساكن البدائية مشيدة بالطين المجفف فى الشمس.

مخلفات تل حلف:

تقع قرية تل حلف بالقرب من منبع الخابور، وهو أحد روافد نهر الفرات. وتدل مخلفات تل حلف على حضارة أكثر تقدما ورقيا، فكانت الأوانى الفخارية التى عثر عليها، متقنة الصنع، ذات ألوان متعددة لامعة. كما عثر على بعض الأدوات النحاسية، وعلى تماثيل صغيرة من الطين المحروق.

مخلفات جنوب العراق:

وفى جنوب العراق حيث تكثر المستنقعات عثر على أوان فخارية يميل لونها إلى الإخضرار، ومزينة برسوم هندسية ملونة باللون الأسود.

كما عثر فى هذه المنطقة على مساكن مشيدة من البوص الذى ينبت فى هذه المستنقعات، وسكان هذه المنطقة قد جاءوا من بلاد فارس؛ لتشابه الخزف الذى صنعوه مع الخزف المستعمل فى بلاد فارس؛ ولكنهم استخدموا فى صناعة خزفهم زخرفة بسيطة أطلق عليها "نموذج العبيد"، واشتغلوا بالزراعة البسيطة وبنوا المعابد.

مخلفات أوروك (الوركاء):

وفى أوروك كشف عن أبنية مشيدة بالطوب المجفف فى الشمس، ومزينة بالفسيفساء، كما عثر على بقايا معبد يرجح أنه يرجع إلى نهاية هذه الفترة الحضارية.

مخلفات جمدة نصر:

تقع قرية جمدة نصر بالقرب من مدينة كيش، وفيها عثر على مجموعة من الأوانى الكبيرة المصنوعة من الألبستر، ومزينة برسوم فى أربعة صفوف متتالية، يمثل أحدها تقديم القرابين للآلهة من الكباش، وسعف النخيل، وسنابل القمح. وتعتبر هذه المخلفات آخر مراحل حضارة العصر الحجرى الحديث.

خريطة تبين المواقع الاثرية واهم المدن فى

بلاد ما بين النهرين القديمة
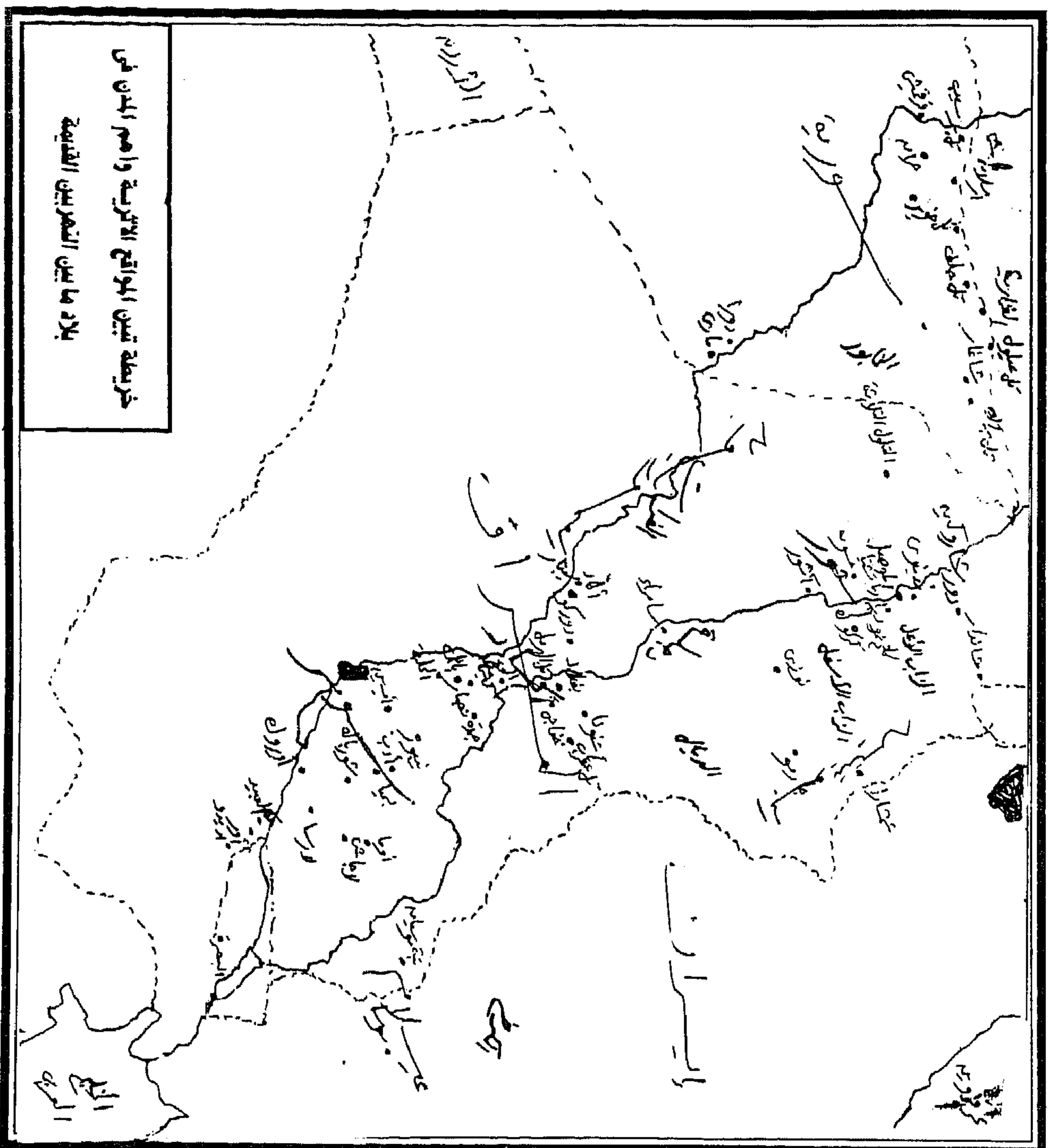
حضارات العصور التاريخية فى بلاد ما بين النهرين

شهدت بلاد ما بين النهرين فى العصور التاريخية القديمة عدة حضارات عظيمة، أهمها الحضارات السومرية والبابلية والآشورية، وكانت الحضارة الأولى غير سامية، بينما كانت الحضارتان الثانية والثالثة من الحضارات السامية.

الفصل الأول

السومريون والأكاديون ودويلات المدن المجاورة

الحضارة السومرية

السومريون من أوائل الشعوب التى سكنت فى بلاد ما بين النهرين، ويرجع بدء ظهورهم إلى حوالى عام ٤٠٠٠ ق. م، وأطلق عليهم هذا الإسم نسبة إلى منطقة «سومر» التى استقروا فيها، وتقع فى جنوب العراق، وتشمل الأراضى الفاصلة بين نهرى دجلة والفرات، وتمتد لمسافة نحو ٣٥٠ كم ما بين موقع مدينة بغداد وموقع مدينتى «أور» و «أريدو» بالقرب من شط العرب.

وقد بدأ الكشف عن حضارة السومريين سنة ١٨٥٤م، بالتعرف على مواقع ثلاث مدن سومرية هى أور، وأريدو، وأوروك؛ وشارك فى عمليات التنقيب علماء آثار إنجليز وفرنسيين وأمريكيين.

وبالإضافة إلى عمليات التنقيب الأثرية، فهناك مصدر آخر يعتمد عليه فى دراسة تاريخ السومريين. وهو النصوص البابلية التى ترجع إلى عام ٢٠٠٠ ق. م، وإن كانت مخلوطة بشدة بالأساطير وبها مبالغات كبيرة وتشمل مرحلة فجر التاريخ السومرى، عصر أوروك، وعصر جمدة نصر، وعصر ميزيليم ملك مدينة كيش، وذلك من مطلع الألف الثالث قبل الميلاد إلى الفترة ما بين ٢٦٠٠ و ٢٥٥٠ ق. م.

أصل السومريين وموطنهم الأصلى:

لاتوجد دلائل ثابتة حتى الآن، عن الوطن الأصلى للسومريين، أو الطريق

الذى سلكوه حتى نزلوا فى هذه المنطقة من الحوض الأدنى لنهرى دجلة والفرات، وقد اختلفت الآراء فى ذلك، ومنها أن السومريين وفدوا إلى جنوب بلاد ما بين النهرين من إيران، أو من الغرب فى شمال إفريقيا عبر فلسطين وسورية، أو من مناطق القوقاز وأرمينيا فى الشمال، مخترقين أرض الجزيرة، التى يحيط بها النهران، وبعض الباحثين يقول أنهم قدموا من موطنهم الأصلى فى جنوب الهند.

ويتجه الرأى إلى الربط بين السومريين وبين العيلاميين الذين استقروا فى شرقى الحوض الأدنى لنهر دجلة، لأن الأوانى الفخارية التى عثر عليها من مخلفات الشعبين كانت متشابهة إلى حد كبير، كما تقاربت الكتابة عندهما.

ويعتقد أنهم ليسوا من الجنس السامى الذى عمر بقية أراضى ما بين النهرين، بعد أن درس عدد من علماء الأجناس بعض الهياكل العظمية من قبور السومريين، ووجدوا فروقا واضحة بين جماجمهم وجماجم الساميين. ويشكك بعض الباحثين فى هذا الرأى، ويعتبرونه من قبيل الظن والتخمين، بحجة صعوبة الفصل بين عناصر الأجناس المختلفة نتيجة للإندماج بينها.

المدن السومرية المستقلة والصراع فيما بينها خلال عصرها الأول (٢٦٠٠ - ٢٣٥٠ ق. م):

فى بلاد ما بين النهرين تبلور أقدم مجتمع متحضر فى خلايا منفصلة فى عدد من المدن المتمايزة التى كانت تتمتع باستقلال ذاتى، وتشكل وحدات سياسية مستقلة، وحول كل مدينة مساحة من الأرض تؤمن احتياجاتها، ومعظم هذه المدن كانت تقع على ضفتى نهر الفرات وروافده. خلال النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، وأقدم المدن المستقلة فى بلاد ما بين النهرين أريدوا فى الجنوب، ومن المدن السومرية الهامة الأخرى كيش، وأوروك، وأور، ولاجاش، وأومّا، وأيسين، ونيبور، وشوروبّاك، وأرب، وبسمّيا.

وقد نشب صراع مرير بين المدن المتجاورة، حول الأراضى الزراعية القريبة

منها، ولرغبة كل مدينة فى توسيع رقعتها على حساب المدن المتجاورة. ومن جهة أخرى تعرضت الأراضى السومرية لهجمات الشعوب والقبائل القادمة من الشرق من بلاد إيران، وبذل ملوك وأمراء المدن السومرية جهودهم لحماية بلادهم من هذه الغارات.

النزاع بين مدينتى كيش وأومّا:

وفى البداية تولت مدينة كيش التى تقع فى الطرف الشمالى من أرض سومر، مركز القيادة بين المدن السومرية، وخاصة فى عهد ملكها «ميزيليم»، وهو أقدم ملك سومرى عرفت بعض آثاره المادية.

وقد خاض ميزيليم حرباً ضد مدينة أومّا التى ازدهرت فى هذه الفترة، وذلك بسبب التنازع على الأراضى الزراعية الخصبة القريبة من البلدين، وفى نهاية هذه الحرب، رسم ميزيليم الحدود بين البلدين، واعترفت بها أومّا.

دولة لاجاش وحروبها التوسعية:

وفى حوالى عام ٢٥٠٠ ق. م، انتقلت الزعامه على المدن السومرية إلى مدينة لاجاش، فى عهد ملكها «أريشكيجال»، أقدم ملوكها، بعد أن قاد حركة استقلالها عن كيش.

وفى عهد «أورنانشى»، الذى تولى الملك فى حوالى عام ٢٤٨٠ ق. م، إنتعشت دولة مدينة لاجاش، فى المجالين الاقتصادى والعمرانى، فشق قنوات جديدة للرى، وبنى عدداً من المعابد للآلهة، وقدم لها الأضحيات والهبات، وكان يساهم بنفسه فى تشييد المعابد تكريما للآلهة، ومن مخلفاته المادية لوحة من الحجر نقش عليها رسمه مع جميع أفراد أسرته ووزيره وخدمه يتقدمهم بنفسه حاملا على رأسه سلة لنقل التراب، وذلك كرمز لمساهمته فى تشييد أحد المعابد تكريما للآلهة[1].

وكان «آى – أنّا توم» (٢٤٤٩ – ٢٤٣٠) ق. م حفيد الملك «أورنانشى»

---

(١) د. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسيا القديمة. (ص ١٠٢).

أشهر ملوك الأسرة الحاكمة فى لاجاش فى المجال العسكرى، كما لمع نجمه على الصعيد السياسى، ونتيجة لانتصاراته العسكرية، أصبحت مدينة لاجاش قبلة الدول السومرية المتنازعة فيما بينها.

وتدل الكتابات التى خلفها أى - أناتوم على أنه قد صد هجومًا شنه العيلاميون من جهة الشرق، فى أول صدام سومرى - عيلامى ترد أخباره وبعد ذلك شن أى - أناتوم الحرب ضد باتيزى (الخادم أو الأمير) مدينة أومًا، لإقدامه على تعديل الحدود التى رسمها الملك ميزيليم وقبلتها مدينة أومًا قبل أكثر من قرن ونصف من الزمن، بالإضافة إلى منع قسم من الأراضى المخصصة للإله «نينتجيرسو» الإله الحامى لمدينة لاجاش.

وعلى أثر ذلك قاد باتيزى أومًا حلفا ضد لاجاش، شاركت فيه مدينة أوروك فى الجنوب، ومدينة كيش أو بيس فى الشمال، وتصدى أى - أناتوم لهذا الحلف، وألحق الهزيمة بقواته فى معركة فاصلة قتل فيها باتيزى أو بيسى، وملكاً كيش وأور، وعقب ذلك خضعت لسلطانه جميع المدن السومرية فى جنوب ووسط بلاد ما بين النهرين.

وقد صور الملك أى - أناتوم إنتصاراته فى مشاهد حية على نصب من الحجر الكلسى، يعتبر من أهم المخلفات المادية الفنية والتاريخية السومرية، كما يعتبر وثيقة تاريخية تجسد صورة حية من العلاقات الدولية التى كانت قائمة فى ذلك العصر.

وفى كتاباته فى النصب التذكارى، أطلق أى - أناتوم على نفسه لقب «ناصر نينجيرسو» الذى «يحطم رأس البلدان» بإسم الربة السومرية «أنّين» ونطق بإسمه الإله «إنليل»[٢].

وبعد وفاة أى - أناتوم، عاد باتيزى أومًا إلى تحرشاته بتحطيم الحدود مع لاجاش، فنشبت الحرب من جديد بين المدينتين، طوال عهد أخيه «أى ناناتوم الأول» (٢٤٣٠ - ٢٤١٥ ق. م)، وفى عهد إبنه «أن تيمينا» (٢٤١٥ - ٢٤٠٠ ق. م)، وفى إحدى المعارك الأخيرة لقى باتيزى أومًا مصرعه، وانتهت

(٢) د. توفيق سليمان: المرجع السابق، ص ١٠٦ (لوحة رقم ٢).

الحرب بانتصار لاجاش، ونصب ملكها أحد الكهنة ويدعى «إيلى» باتيزا على أومّا، كما أضفى الملك أن – تيمينا على نفسه لقب «كبير الكهنة».

زوال سلطة لاجاش وتفوق دولة أومّا:

وفى عهد «أى – ناناتوم الثانى» (٢٤٠٠ – ٢٣٨٠ ق. م)، إنهارت سلطة أسرة «أورنانش»، ونزلت مرتبة لاجاش من درجة الملكية إلى مستوى الباتيزية، ولم ينجح باتيزى «أوروكاجينا» (٢٣٦٥ – ٢٣٥٧ ق. م) فى تنفيذ إصلاحاته الاجتماعية، وثارت ضده معارضة داخلية قوية.

وفى هذه الفترة نهضت مدينة أومّا لتثأر لنفسها، واستطاع قادتها أن يدخلوا مدينة لاجاش، وحطموها تمامًا وأمعنوا فى تعذيب أهلها، وبعد ذلك نقل ملكها «لوجال – زاجيزى» (٢٣٥٧ – ٢٣٥٠ ق. م) مقر ملكه إلى مدينة أوروك.

وبعد ذلك تمكن لوجال – زاجيزى» من مد سلطانه على بلاد سومر كلها، وبدأ بالهجوم على مدينة كيش، وأطلق على نفسه «ملك أوروك وملك البلاد، وكاهن الإله أنو ورسول الربة نيسابا وباتيزى الّيل الكبرى»، ثم مد فتوحاته شمالا حتى وصل إلى الأراضى السورية [٣].

الدولة الأكدية وعلاقتها بالسومريين (٢٣٥٠ – ٢١٥٠ ق م)

ظهور الساميين فى وسط العراق وعلاقتهم بالسومريين:

كانت تعيش فى المناطق المجاورة لبلاد السومريين جماعات بشرية متفرقة، شكلت بؤر توتر واضطرابات، زعزعت إستقرار إمبراطورية لوجال – زاجيزى السومرية.

وفى مقدمة هذه الجماعات البشرية «الأكاديون»، الذى استقروا فى مدينة أكاد، وتقع على ضفة نهر الفرات، وعلى بعد مائتى ميل إلى الشمال الغربى من المدن السومرية، وهؤلاء كانوا يتهيأون لتسلم السلطة فى بلاد ما بين النهرين.

---

(٣) د. توفيق سليمان: نفس المرجع، ص ١١٥.

وينسب الأكاديون في أصولهم إلى الجماعات السامية التي نزحت من الجزيرة العربية إلى الشام في حوالي عام ٣٠٠٠ ق. م.

ومن الجماعات البشرية الأخرى، الجويتيون الذين قدموا من المناطق الجبلية الشمالية، والشمالية الشرقية، واستقروا في أراضي الديالي، أحد روافد نهر دجلة، وهؤلاء قد تمكنوا في عام ٢١٥٠ ق. م، من تحطيم الدولة الأكّادية.

وكان الأكّاديون قد اضطروا للخضوع لحكم السومريين في الجنوب، لمدة طويلة، وذلك على أثر الحملات العسكرية العديدة التي جردها الملوك السومريون ضد مدينة كيش ومنطقتها، لإخضاعها ولإخماد أية حركة مناوئة يقوم بها الأكاديون ضدهم.

وكان الأكّاديون يتطلعون لتخليص أنفسهم من نير الحكم السومري، ولم تجد نفعا الحملات العسكرية السومرية، مع مرور الزمن، بسبب الإمدادات البشرية المستمرة التي كانت تتدفق على الأكّاديين في أواسط ما بين النهرين، وترتبط معهم بصلات حضارية وأواصر قبلية في بلاد الشام.

وأخيراً تمكنت جماعات الأكّادين من تحقيق أهدافها، وانتزعت زمام القيادة من أيدي السومريين، بزعامة «سرجون»، ذي الشخصية الفذة، الذي حيكت حوله الأساطير البطولية .

نشأة سرجون ثم استلامه السلطة في مدينة كيش وتأسيس الدولة الأكّادية (٢٣٥٠ - ٢٢٩٤ ق. م):

لم يكن «سرجون» من سلالة بيت ملكي، وكانت ولادته ونشأته واستلامه السلطة في مدينة كيش، موضوع أساطير مشهورة، مفادها أنه إبن غير شرعي لإمرأة فقيرة كانت تهب نفسها لخدمة المعابد وكهنتها، وغير معروف أبوه، ووضعته أمه سراً في مدينة أزوبيرانو على نهر الفرات، ولكي تتخلص من العار وضعته في ،صندوق من قصب الغاب وأغلقته بإحكام، ثم رمت به في نهر الفرات، فحمله التيار باتجاه الجنوب حتى التقطه بستاني يدعى «اكّي»، وقع نظره

بطريق الصدفة على هذا الصندوق، فانتشله من الماء.

وتروى هذه الأسطورة أن البستانى اكّى حمله إلى بيته واعتنى بتربية الطفل الذى وجده حيا، حتى أصبح شابا وعلمه مهنة البستنة مثله. وعن طريق هذا البستانى التحق بقصر ملك كيش كخادم، وأخذ يترقى حتى صار ساقيا للملك أور - زابابا آخر ملوك كيش، وما لبث ببراعته وقوة شخصيته أن أصبح سيد القصر كله.

وبعد قليل تمكن سرجون من التخلص من هذا الملك الضعيف، وتسلم منه مقاليد الأمور، وجلس على عرش مدينة كيش، وأصبح الملك وصاحب السلطان الكبير.

وتضفى الأسطورة مسحة دينية على توليه السلطة فى مدينة كيش، فتجعله حبيبًا للإلهة «عشتار» (ويقابلها انين السومرية)، التى سلمته مقاليد الحكم على الأكاديين والجماعات الأخرى المتحالفة ضد السومريين، الذين كان يطلق عليهم «ذوى الرؤوس السود»، وكانت تربط بينها أواصر القربى والجوار.

وقد تناقلت الأجيال اللاحقة هذه الأسطورة، ونسجت شعوب كثيرة بعد هذا العصر خيوط أساطير مماثلة حول ولادة ونشأة شخصيات مشهورة فى تاريخها، مثل «موسى» عند الإسرائيليين، و «بيزويس» عند الإغريق، و «كيروش» عند الفرس.

حروب سرجون التوسعية وزحفه على البقاع الشمالية والمدن السومرية الجنوبية، وتأسيس الدولة الأكّادية الموحدة:

بعد تأسيس الدولة الأكّادية، إندفع سرجون فى طموحه إلى التوسع لضم المزيد من الأراضى والمدن إلى دولته، ولكنه وجه إهتمامه أولا ناحية الشمال حيث يقيم الجويتيون، الذين سكنوا فى مناطق المرتفعات الشمالية بجبال زاجروس، وقد عرفوا بشدتهم فى القتال، وكانوا على الدوام مصدر خطر جسيم على سكان الأقاليم المجاورة بوجه خاص.

وفي طريقه اكتسح سرجون كل البقاع الواقعة شمالي أكّاد، فاستولى على مدينة آشور، وضم السهل الشمالي كله، ووصل إلى الجوتيين وهزمهم في موطنهم الأصلي.

فلما استقرت الأمور من جهة الشمال، إتجه سرجون نحو الجنوب، بعد أن تزايدت حدة التناقضات بينه وبين الملك السومرى لوجال - زاجيزى، وتوترت العلاقات فيما بينها.

وحتى ذلك الوقت، لم ينسي الأكّاديون تدمير الحكام السومريين لمعابدهم في كيش وسيّبار، والاستيلاء على كنوزها، وتقديمها هدية لآلهتهم السومرية وخاصة في مدينتي نيبور وأوروك.

وكان الملك لوجال - زاجّيزى يتوقع الصدام مع سرجون في أقرب وقت. وقد إتخذ سرجون من المعاملة السيئة التى قوبل بها مبعوثوه إلى بلاد الملك السومرى، ذريعة لإعلان الحرب على لوجال - زاجيزّى.

ولم يلبث أن تشكل حلف ضد الملك الأكّادى الطموح، بقيادة لوجال - زاجيزى، ضم ٥٠ من الأمراء السومريين، كما تذكر بعض الروايات.

وقد أسفرت المعارك الحربية بنى الجانبين عن هزيمة قوات الحلف السومرى، ووقع قائده أسيراً في يد سرجون، الذى إقتاده في «قفص كالحيوان ... وعرضه أمام الإله الّيل ليهزأ به الشعب ويحتقره»(٤).

وبعد ذلك تابع سرجون زحفه على المدن السومرية مثل أوروك وأور وأومّا ولاجاش، وأسرعت المدن الأخرى التى أفزعها إنتصاراته، إلى إعلان الطاعة والولاء له، واستمر سرجون في زحفه حتى وصل إلى «ساحل البحر الأسفل ... وغسل سيفه الملطخ بدماء الأعداء في مياه البحر ...».

وبذلك فقد خضعت لسرجون كافة المدن السومرية والمناطق الشمالية، وأصبح

---

(٤) د. توفيق سليمان: نفس المرجع، ص ١٢١.

السيد المطلق فى البلاد بلا منازع، ونجح فى إنشاء دولة موحدة ضمت جميع المدن المستقلة وأطلق على نفسه لقب «ملك أنحاء العالم الأربعة»، واستمرت هذه الدولة بضعة أجيال بعد وفاة مؤسسها.

وهكذا تمكنت العناصر الشمالية الأكّادية التى يمثلها سرجون، من فرض سيطرتها للمرة الأولى على بلاد ما بين النهرين، ولايعنى ذلك وقوع فتح أجنبى، بعد أن استقرت هذه العناصر وانتشرت لغتها منذ قرون فى جهات الفرات الأوسط والمناطق المجاورة. وقد بدأت النقوش الملكية والوثائق التجارية، تكتب باللغة الأكّادية السامية.

ومما ساعد على استمرار الدولة الأكادية لفترة طويلة، السياسة التى اتبعها سرجون لاكتساب ولاء أتباعه وعامة الشعب.

ويروى أن سرجون «أسكن أهل قصره على ثلاثة وثلاثين ميلا وحكم شعوب جميع البلاد»[٥].

ويستفاد من القسم الأول من هذه العبارة أن سرجون كان يوزع قطعًا من الأراضى المخصصة للمعابد على أتباعه، بدون مرعاة للأساس المحلى القديم المتعلق بحقوق ملكية الأرض.

ويبدو أن سرجون قد أنشأ حاشية خاصة له، مستغلا روابط وصلات العصبية القبلية، ولم يكن ليعتمد على إخلاص وولاء سكان المدن التى استولى عليها كعادة الفاتحين الآخرين.

كما أن سرجون قد حاول إكتساب ولاء عامة الشعب، ويبدو ذلك من تعديل نص القسم أو اليمين الذى يحلفه طرفان عند عقد أى إتفاق بينهما، إذا أضيف إسم الملك إلى جانب إسم الآلهة فى هذا القسم، ويعنى ذلك التزام الملك بتأييد حق الطرف المتضرر، إذا جرى خرق الإتفاق، وحنث الطرف الآخر باليمين.

---

(5) L. W. King: Chronicles Concerning Early Babylonian Kings. Tom. 2. p. 5.

وفى السابق لم يكن للقاضى أية سلطة لتنفيذ قراراته؛ وإنما كان واجبه أن يوفق بين الطرفين المتنازعين، أو يرضيهما.

ومن الخطوات التى اتخذها سرجون لتوحيد البلاد، إدخال تقويم موحد فى البلاد، وقبل ذلك كان لكل مدينة تقويم خاص بها، يتضمن أسماء الشهور والأعياد الخاصة.

ومنذ عهد سرجون حرص الملك الأكّاديون على الاحتفاظ بدولة موحدة ومركزية، وكان يستدعى ذلك إحكام السيطرة على الحدود لمجابهة أى عدوان هناك،ومع ذلك فإن ظاهرة فردية المدن لم تمح على الإطلاق، وفى بعض الفترات كانت الإعتبارات المحلية تسيطر على الاعتبارات القومية، وكان يحدث عند تولى كل ملك فى الدولة الأكادية، أن تقوم الثورة فى أنحاء البلاد، بقصد العودة إلى الاستقلال الذاتى المحلى الذى كان سائداً من قبل.

ولكن أنصار الإتحاد كانوا يؤيدون النظام الجديد الذى فرضه الملوك الأكّاديون، ويجمع بينهم الشعور بالانسجام القومى، وكانت عبارة «الشعب ذو الرأس الأسود»، التى أطلقها عليهم السومريون، تدل على أنهم يشكلون وحدة جنسية.

كما أن الإلهين انليل وانوا بصفة خاصة، كانا يعبدان فى جميع أنحاء البلاد. غير أن هذا الشعور القومى لم يكن له تأثير فى حالة إندلاع الثورات، أو أثناء الهجمات أو الغزوات الخارجية التى تعرضت لها الدولة الأكادية فيما بعد.

تأسيس عاصمة جديدة (أكّاد) للدولة الأكّادية واستقلالها الروحى عن السومريين:

مع أن مدينة كيش كانت تشكل مركزاً هامًا لتجمع الجماعات الأكّادية والعناصر المتحالفة معها، فقد هجرها سرجون بعد قليل، وبنى عاصمة جديدة لمملكته، بالقرب من مدينة سيبّار، وذلك فى حوالى عام ٢٣٤٠ ق. م، وأطلق عليها إسم أكّاد، نسبة إلى الدولة الأكّادية.

وكان سرجون يرى أن العاصمة الجديدة بحاجة إلى قوى روحية تنبع من إتجاهات الجماعات البشرية الجديدة المتحالفة، وتتمشى مع أفكار الدولة الجديدة وقيادتها، وتكون مختلفة عن القوى التي يقدسها السومريين، أعداؤه التقليديون.

وقد وجد سرجون في عبادة آلهة جماعاته الأكاديين وحلفائهم، ما يمهد للاستقلال الفكرى عن السومريين.

ولذلك جعل عاصمته الجديدة مقراً للإلهة الأكّادية عشتار، ومدينة سيبّار مركزاً لعبادة الإله شمش، وهو الإله القومى للجماعات المتحالفة مع الأكاديين.

حروب سرجون الخارجية وتأسيس الإمبراطورية الأكّادية:

بعد أن استقرت الأوضاع الداخلية في بلاد «سومر وأكاد»، بدأ سرجون تنفيذ المرحلة الثانية من مخططه التوسعي.

وقد اتجه سرجون في البداية نحو الشرق، فجرد حملة عسكرية ضد عيلام التي كانت مصدر خطر دائم يهدد الأراضي السومرية، فهاجمها بطريق البر والبحر، وقهر أمراءها، ثم عاد إلى عاصمته أكّاد بغنائم وفيرة، وعلى أثر ذلك أصبحت هذه البلاد خاضعة لدولة ما بين النهرين القوية، لعدة قرون لاحقة.

وبعد ذلك شن سرجون حربا تأديبية ضد الجماعات الجبلية التي كانت تسكن في المناطق الشمالية الشرقية من أراضي أكّاد، وألحق بها الهزيمة، وأمن بذلك حدوده الشمالية لفترة طويلة.

ثم انتقل سرجون إلى تنفيذ المرحلة الثالثة من بناء إمبراطوريته الفتية. فبدأ بمهاجمة جماعات العموريين، الذين كانوا يقطنون إلى الغرب والشمال الغربي من دولته، فأخضع دويلاتهم لسلطانه، بالرغم من أن بعضها كان متحالفا معه أثناء صراعه ضد السومريين.

وبعد ذلك تابع سرجون زحفه نحو الغرب حتى وصل إلى أواسط سورية. ومنها وصل إلى شواطئ البحر المتوسط، التي سميت في الكتابات الملكية «بلاد مغرب الشمس حتى نهايتها ...».

وتذكر بعض الروايات أن «سرجون ركب البحر، وكان ثلاث مرات فى الغرب، وغزا البلاد ووحدها، وأقام تماثيل فى الغرب، وجلب إلى البلاد أسرى على البحر وفى البر ...»(٦).

وفى ذلك إشارة إلى أن سرجون خاض مع جيشه البحر المتوسط (بحر مغرب الشمس)، ونزل على سواحل إحدى الجزر الهامة الآهلة بالسكان وربما كانت هذه الجزيرة قبرص، أو جزيرة أرواد، وغير معروف ذلك، وجه التحديد.

وبذلك تمكن سرجون من ضم القسم الأكبر من سوريا الحالية إلى دولته، والتى تعتبر إمتداداً طبيعياً لها من جهة الغرب.

وبعد أن عاد سرجون إلى عاصمته أكّاد، إستعد للقيام بعمل بطولى، لم يقدم على تنفيذه أى ملك سابق، فقد اجتاز جبال طوروس وسفوح الأناضول الجنوبية، ووصل إلى أواسط وشرق آسيا الصغرى. وفى طريقه استولى على بلاد مارى وبارموتى والبلاد الأخرى حتى جبال طوروس.

وفى هذا الصدد يقول سرجون «إن الإله انليل أعطانى البلاد العليا مائر (مارى) وبارموتى والبلاد حتى جبال الأرز والفضة (جبال طوروس)»(٧).

وجاء فى الكتابات الملكية، عن الأسباب المباشرة التى دفعت الملك الأكّادى سرجون إلى إجتياز جبال طوروس، وتحمله مع جيشه المشاق والمخاطر أثناء عبور الوديان السحيقة فى هذه الجبال، أن وفدا من سكان المستوطنات التجارية التى تنتمى للأشوريين، وهم من الجماعات الأصلية فى بلاد ما بين النهرين، وأقاموا هذه المستوطنات فى منطقة كبادوكيا (قيصرية) بأواسط آسيا الصغرى، قد قدموا إلى سرجون فى عاصمته أكّاد، واستنجدوا به ضد أعدائهم فى مدينة بورشخندا، وعلى أثر ذلك توجه سرجون بجيشه إلى الأناضول لنصرة هذه الجماعة، واستغرقت حملته هذه ثلاثة أعوام متواصلة، وأمر بنقش رسمه على نصب

(٦) د. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسيا القديمة، ص ١٢٣.

(٧) د. توفيق سليمان: المرجع السابق، ص ١٢٤.

تذكارى فى نهاية الحدود التى أخضعها فى هذه المنطقة، وذلك تخليداً لانتصاراته، وتمجيدا لأعماله البطولية.

وأثناء غيابه عن عاصمته، إندلعت ثورات ضده فى شمال منطقة بابل، وفى بلاد سوبارتو، ولكنه تمكن من إخمادها بمنتهى العنف والقسوة، ودمر المدن وأحرق الحقول والمزارع، لدرجة أنه «لم يعد بإمكان الطيور أن تجد لها مأوى فيها»، على حد قوله فى بعض كتاباته.

أهم المخلفات الفنية والإنجازات الداخلية لسرجون:

عثرت بعثة فرنسية فى مطلع القرن الحالى، فى مدينة «سوسا» العيلامية، على بعض مخلفات سرجون المادية، ومن أهمها نصب تذكارى من حجر الديوريت، يبلغ ارتفاعه حوالى ٥٠ سم، ومحفوظ حاليا فى متحف اللوفر بباريس

وهذا النصب التذكارى كان ضمن غنائم الحرب التى حصل عليها الملك العيلامى «شو نروك - ناخونتى»، فى حربه ضد بابل فى عام ١١٩٠ ق م ويشتمل هذا النصب التذكارى على مشاهد منقوشة تصور الملك فى الجزء الأسفل الملك سرجون وهو يتقدم مجموعة من الجنود ويرافقه خادم يحمل مظلة فى يده، ونقش إلى جانبه لقبه «شارّوكين»، وفى الجزء الأعلى نقشت صور مجموعة من الأسرى عراة ومكبلين بالأغلال، كما يتضمن هذا النصب مشهد لكلب وصقر يلتهمان جثث القتلى من الأعداء

ويوجد نصب تذكارى آخر نقشت عليه صورة الملك سرجون وبيده صولجان وشبكة مليئة بالأسرى والقتلى فى إحدى معاركه.

أما منجزات سرجون الداخلية، فكانت تهدف لتوفير المواد التموينية فى البلاد فى أوقات السلم، ولسد احتياجات جيشه النظامى اليومية ، ولدعم بنيان الدولة.

ومن أهم هذه المنجزات شق قنوات جديدة للرى، وإصلاح القنوات القديمة.

كما أدخل سرجون طريقة جديدة للموازين والمقاييس لاستخدامها فى الأغراض المختلفة.

خلفاء سرجون

ونذكر أهمهم فيما يلي:

ريموش (٢٢٩٤ - ٢٢٨٧ ق.م):

عقب وفاة سرجون، بعد أن قضى فى الحكم ٥٦ عاما، خلفه على العرش ،إبنه «ريموش»، ولم يستمر فى الحكم سوى سبع سنين.

وكانت الثورات المتلاحقة التى اندلعت فى أنحاء الامبراطورية الأكّادية، منذ أواخر عهد سرجون، قد زعزعت استقرارها، فكانت الامبراطورية تضم شعوبا متناقضة فى العادات والتقاليد والأديان، وفى اللغات وفى بعض أجزائها وسعت هذه الشعوب للانفصال عن الامبراطورية.

ويصف ريموش الوضع فى أقاليم الامبراطورية عند اعتلائه العرش قائلاً «نهضت جميع البلدان التى خلفها لى والدى، ولم يبق أحد مخلص لى»(٨).

وكان الجيش النظامى المدرب الذى شكله سرجون، هو المؤسسة الوحيدة التى بقيت على ولائها للعرش، ووقف إلى جانب ريموش فى محنته العصيبة، فاستخدمه كأداة طيعة فى إخضاع شعوب المناطق الثائرة فى الامبراطورية، ابتداء من عيلام.

وفى بداية حكم ريموش أعلن العصيان ملك عيلام أبال - جاماش، وتمكن ريموش من سحق حركة التمرد، وألقى القبض على الملك العيلامى واقتاده أسيراً «أمام سيده إله الشمس»، فى مدينة سيبّار، وقام ريموش بإذلال مدن عيلام وخرب أسوارها، «وأخضع عيلام للإله انليل».

وبعد ذلك اتجه ريموش للقضاء على المتمردين فى المدن السومرية، وتذكر إحدى الكتابات أن «ريموش ملك كيش، خاض المعركة ضد أور أومّا، وصرع ٨٠٤٠ رجلا واقعتاد بيده ٥٤٦٠ أسيراً، وأسر كاكوج ملك أور، واقتاد ٥٧٠٠٠

---

(٨) د. سليمان توفيق، نفس المرجع، ص ١٢٧.

من سكان مدن سومر وخرب مدنهم ودمر أسوارها، ودمر مدينة كاسالو عندما نهضت ضده خلال عودته، وصرع خلال هذه المعركة ضد كاسالو ١٢٦٥٠ رجلا وأسر ٥٨٦٤ واستولى على جميع مدن عيلام ودمر أسوارها»[٩].

ويبدو أن ريموش خاض حربا أخرى ضد عيلام التى انتفضت من جديد، أثناء إخضاعه للمدن السومرية المتمردة.

سياسة ريموش الداخلية:

حاول ريموش التقرب إلى الشعب السومرى، برغم استخدامه العنف فى قمع حركات التمرد التى ظهرت بينهم، فاستخدم اللغة والكتابة السومريتين، إلى جانب اللغة والكتابة الأكاديين، فى تصريف شئون الدولة.

ويعود ذلك غالبًا، إلى حاجته إلى مهارة السومريين التجارية، وبراعتهم فى تصريف الشئون الاقتصادية.

ومراعاة لشعور الشعب السومرى، أمر ريموش بنقش كتابة تعبر عن مشاعره الودية ، على تمثال من الرصاص، قدمه كهدية للإله انليل.

اغتيال ريموش عام ٢٢٨٧ ق.م وتولى ما نيشتوسو العرش:

غير معروف على وجه التحديد دوافع اغتيال ريموش عام ٢٢٨٧ ق. م، فى مؤامرة دبرت ضده فى بلاطه الملكى.

وتشير دلائل الأحداث بعد استلام أخيه مانيشتوسو الحكم إلى وجود سببين رئيسيين لاغتياله؛ أولهما، تفاقم الخلافات الشخصية حول السلطة فى داخل البلاط الملكى، وثانيهما، اختلاف الرأى بين أفراد حاشية ريموش حول السياسة الداخلية، ومواقفه المتشددة من المدن السومرية، وتخريبه المدن التى قامت بحركة العصيان، وتخريب معابدها.

---

(٩) د. سليمان توفيق، نفس المرجع، ص ١٢٨.

مانيشتوسو وسياسته الداخلية وحروبه الخارجية (٢٢٨٧ - ٢٢٧٢ ق. م):

إتبع مانيشتوسو سياسة مخالفة لسياسة أخيه ريموش وأبيه سرجون، مما يؤكد وجود جناح قوى فى البلاد الملكى الأكادى، مؤيد للسومريين. فمنذ تولى مانيشتوسو العرش أخذ يتقرب إلى السومريين وإلى العيلاميين أيضا وأغدق المنح والهدايا على معابدهم، كما أعفى أوقاف ودخل بعضها من الضرائب.

وعلى أثر ذلك تميز عهده بالسلام بوجه عام، ولم تنشب ثورات ضده فى الأراضى السومرية والأكادية والعيلامية.

ولكن مانيشتوسو اضطر إلى خوض بعض الحروب الخارجية، وتشير إلى ذلك الكتابات التى أمر بنقشها على بعض مخلفاته المادية، وعثر عليها فى مدينتى سوسا وسيبّار، وجاء فى إحداها أن «٣٢ ملكاً من مدن ما وراء البحر تحالفوا ضده». وهذه المدن تقع خارج بلاد ما بين النهرين وعيلام، فركب مانيشتوسو البحر، وأعاد إخضاعها لسيطرة الدولة الأكادية، ولكن توجد مبالغة فى عدد هؤلاء الملوك.

النشاط الاقتصادية لمانيشتوسو ومخلفاته المادية والفنية:

ساد النظام الاقطاعى فى عهد مانيشتوسو، وساهم هو فيه شخصياً، فقد جاء فى الكتابة التى أمر بتدوينها على مسلة من حجر الديوريت، ونصبت فى مدينة سيبّار، أن الملك اشترى عقارات وأراضى زراعية واسعة فى أربع مدن منها كيش وأوما.

وكان مانيشتوسو يعتمد فى عقد هذه الصفقات التجارية، على إبن أخيه، وحكام وأمراء عدد من المدن السومرية.

وفى عهد مانيشتوسو أيضًا ازدهر فن النحت وتطور، ويوجد من عهده ثلاثة تماثيل لشخصه، عثر على إثنين منهما فى مدينة سوسا العيلامية، أحدهما من حجر الديوريت، والآخر من الحجر الكلسى الأبيض، وهما محفوظان حاليا فى

متحف اللوفر بباريس، والتمثال الثالث نحت من حجر الديوريت، وعثر عليه فى مدينة أشور، وهو ضمن مقتنيات متاحف الدولة فى برلين الشرقية حاليا.

وهذه التماثيل تؤكد استقلال الفن الأكّادى عن الفن السومرى.

نارام - سن (٢٢٧٢ - ٢٢٣٥ ق. م):

بعد وفاة مانيشتوسو عام ٢٢٧٢ ق.م، تولى العرش إبنه نارام - سن، وهو أشهر الملوك الأكّاديين بعد جده سرجون مؤسس الإمبراطورية الأكّادية، وأصبح مثله بطلا أسطوريا.

وقد عرفت أخباره من مجموعة النصوص التى عثر عليها فى مدينة لاجاش، وضمن محتويات مكتبة الملك الأشورى أشور - بانيبال وتشير بعض هذه الكتابات إلى الظروف الصعبة التى تولى فيها نارام - سن العرش، فقد اندلعت الثورات ضده فى جميع أنحاء الامبراطورية، والتى سبق أسلافه أن غزوها أو أعادوا إخضاعها لسلطانهم.

حروب نارام - سن لقمع الثورات فى أنحاء الامبراطورية الأكّادية:

وكادت هذه الثورات أن تقوض أركان الإمبراطورية الأكادية، لولا تصدى نارام - سن لقمعهات بمنتهى القسوة والعنف، سواء فى المناطق الجبلية الشمالية، أو العيلامية الشرقية، أو فى البقاع الشمالية الشرقية، أو الشمالية الغربية، أو فى جزيرة «تلمون».

وقد أمر نارام - سن بإقامة نصب تذكارى فى مدينة سيبّار، تخليداً لذكرى إنتصاراته على القبائل الجبلية التى كانت تسكن فى المقاطعات المجاورة للحدرد الشرقية والشمالية الشرقية من حدود ودولته، وتتحفز للإغارة عليها. وكان هذا النصب التذكارى ضمن المخلفات التى عثرت عليها البعثة الفرنسية فى سوسا العيلامية، ومحفوظ حاليا فى متحف اللوفر.

وقد نحت هذا النصب التذكارى من الحجر الرملى، بارتفاع حوالى مترين،

وعرض حوالى متر، وتتحدث الكتابة الباقية عليه عن الحملة التى قادها نارام – سن لتأديب هذه القبائل الجبلية، ونقشت إلى جانبها مشاهد تصور وتعبر عن انتصاراته على هذه حالقبائل الش رسة ومطاردته فلولها فى أعالى الجبال الوعرة المسالك، وفى مضايق سحيقة.

وفى هذا النصب التذكارى صور الملك بجسم ضخم، وبقرنين مثبتين فى خوذته، ويمثلان شعار الألوهية فى ذلك العصر، وفى الصورة يظهر نارام – سن وهو يدوس بقدمه اليسارى على جثتين من أعدائه القتلى، وأصاب بسهمه عدوا آخر، بينما يقف أمامه أحد جنود الأعداء يلتمس العفو منه.

كما تصور اللوحة جانبا من المعركة التى نشبت بين العناصر الجبلية والجنود الأكاديين، ويزين المشهد العام بقرصين للشمس رمزاً للإله القومى شمش.

وبالقرب من ديار بكر فى شمال سورية، أقام نارام – سن تمثالا لشخصه، تخليدا لانتصاره على سكان المناطق الشمالية الغربية من دولته كما شيد حصنا فى تلك براك لحماية هذه المناطق.

ضم نارام – سن لأراضى ماجان والملوحة لامبراطوريته:

وأكبر إنجاز حققه نارام – سن، ووسع به الإمبرطورية الأكادية، هو غزوة أراضى «ماجان» وبلاد «الملوحة»، وغير معروف على وجه التحديد، موقعا هاتين المنطقتين.

ويرى بعض الباحثين أن ماجان قد تكون فى الجزء الشرقى من شبه الجزيرة العربية، الذى يعتبر مصدراً هامًا لحجر الديوريت، الذى تحتاج إليه بلاد ما بين النهرين.

وفى كتابات الأشوريين فيما بعد، ذكرت ماجان على أنها أرض مصر. وتذكر كتابات من عهد نارام – سن وخلفه شاركًا ليشارى، أن الأكاديين كانوا يستوردون من الملوحة حجر الفيروز وتراب الذهب.

وفى التسمية البابلية أن ملوحة تعنى أرض كوش أى (النوبة).

وربما يقصد من التعبيرين الأشورى والبابلى، عن موقعى ماجان وملوحة، أن مصر وبلاد النوبة كانتا ضمن سيطرة الامبراطورية الأكادية فى عهد نارام - سن، وقد يكون عهده معاصرا لفترة الفوضى والإضمحلال التى سادت مصر قبل تأسيس الدولة الوسطى المصرية.

وبوجه عام، فإن حدود الامبراطورية الأكادية كانت قد امتدت إلى شواطئ البحر الأحمر الآسيوية، فى عهد نارام - سن، وصارت أكبر امبراطورية عرفها العالم القديم حتى ذلك الوقت.

إنهيار الامبراطورية الأكادية

بعد وفاة نارام - سن عام ٢٢٣٥ ق. م، خلفه فى الحكم ولده شاركا شرى، وكان ضعيفًا إلى حد ما فى مواجهة ثورات الشعوب التى اندلعت فى أنحاء الامبراطورية، تبغى الاستقلال عنها.

ومع أن شاركا لشرى نجح فى إخضاع مدينة أوروك والمدن السومرية الثائرة الأخرى، كما أخضع القبائل العمورية فى غرب الفرات، إلا أنه فقد السيطرة على أواسط وجنوب بلاد الشام.

وقد ركز شاركا لشرى إهتمامه بحماية حدود الامبراطورية الشرقية والشمالية الشرقية من غارات قبائل الجويتيين الجبلية، التى زادت من ضغطها على حدود البلاد أكثر من أى وقت مضى.

وبعد وفاة شاركا لشرى فى عام ٢٢١٠ ق. م، تعاقب على عرش الإمبراطورية الأكادية ستة ملوك استمر حكمهم مدة ستين عاماً.

وهؤلاء الملوك قد انشغلوا بالصراع فى داخل البلاط من أجل الاستئثار بالسلطة، وانصرفوا عن محاربة أعداء الإمبراطورية المتربصين بها على حدودها وضمن مناطقها.

غارات الجويتيين وانهيار الامبراطورية الأكادية:

إستغلت قبائل الجويتيين القاطنين فى المناطق الجبلية فى شمال شرق البلاد، ضعف الامبراطورية، وانقضت على السهول الخصبة فى وسط وجنوب بلاد ما بين النهرين، فى طريقها إلى العاصمة أكاد، فى أسوأ هجوم عرفته البلاد خلال تاريخها الطويل، وقضى بذلك على حكم الامبراطورية الأكّادية.

وقد وصف أحد الكتاب القدامى فظائع الجويتيين التى علقت فى أذهان الناس لعدة أجيال متتالية، بقوله:

«إنهم وحوش الجبال الذين فتكوا بالناس وسلبوا النساء من أزواجهن والأطفال من أمهاتهم، والذين اغتصبوا الحكم وقضوا على سومر بعد أن حملوا كنوزها معهم إلى الجبال»(١٠)

ولقد نهب الجويتيون الشرسون المعابد وقصور الملوك ومنازل السكان، ودمروا العاصمة أكّاد وأضرموا فيها النار، وأسروا كثيراً من الناس وقتلوا من حاول مقاومتهم.

كما خربوا الحقول وأتلفوا المحاصيل الزراعية، وجفت بسببهم قنوات الرى

وجاء فى إبتهال من أحد السومريين إلى الإله بينورتا، من اضطهاد وهمجية هؤلاء المتوحشين، أن «البلاد فى أيدى إعداء قساة، سيقت الآلهة إلى الأسر، وأثقل كاهل السكان بالضرائب، وجفت الأقنية وشبكات الرى، وأصبح نهر دجلة غير صالح لعبور السفن، ولم يعد بالإمكان رى الحقول، ولم تعط الحقول محاصيلها»(١١).

وتذكر بعض الكتابات من عصر الكلدانيين، أن الجويتيين قد خربوا معبد الربة انونيت فى مدينة سيبّار، ونقلوا تمثالها إلى أرّابشا فى مناطق أعالى نهر الزاب الجبلية.

---

(١٠) د. محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ٣٥٨.

(١١) مورتجات، وتعريب سليمان وأبو عساف: تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ١٠٣.

ويتحدث نص ديني يعود إلى زمن متأخر، وهو عصر السلوقيين، عن الآلام التى قاستها مدينتا أوروك وأكّاد ومستوطنات عديدة أخرى فى البلاد أثناء هجمات الجويتيين.

حكم الجويتيين وحضارتهم:

بعد أن استقرت الأمور للغزاة الجويتيين، عادوا إلى وطنهم بالشمال الشرقى إكتفوا بغرض الجزية على سكان المدن السومرية.

وقد أبقوا على أساليب الحكم التى استعملها الأكاديون، ولم يغيروا شيئاً من النظم الحضارية، فاستعملوا اللغة السومرية فى رسائلهم ومكاتباتهم، وتلقبوا بلقب «ملوك الجوتى وأركان العالم الأربعة».

كما عبدوا أشهر الآلهة الأكادية مثل عشتار وسن.

وقد استمر سيطرة الجويتيين على البلاد قرابة قرن من الزمن، وفى قائمة الملوك السومرية، ذكر أسماء ٢١ ملكاً من الجويتيين، منهم خمسة فقط تركوا بعض النقوش، مثل لازيراب،سمو وباسيوم.

ونتيجة لبعدهم فى الشمال، وتركهم تصريف الأمور لأبناء البلاد الأصليين، فقد شجع ذلك بعض المدن السومرية، مثل أوروك وأور وغيرهما، على النهوض من جديد، لإعادة مجد الحضارة السومرية.

عودة نفوذ السومريين (عصر النهضة السومرية)

أوروك تشن الحرب على الجويتيين وتطردهم من البلاد فى عام ٢٠٥٠ ق.م:

تزعمت مدينة أوروك حركة مقاومة الجويتيين، وانطلقت منها شرارة لانتفاضة ضدهم فى عام ٢٠٥٠ ق. م، بقيادة أميرها أوتوشيجال، مؤسس أسرة لوركاء الخامسة، ومن أشهر حكام المدن السومرية الأقوياء.

وعندما بدأ أوتوحيجال كفاحه ضد الجويتيين، سارع عدد من أمراء المدن لسومرية الجنوبية، إلى الانضمام إليه، وشنوا حربا خاطفة على الجويتيين،

وانتصروا عليهم، وحاول ملكهم تيرقان الهرب، ولكن قبض عليه وتسلمه قائد السومريين.

ويصف أوتوشيجال حالة ملك الجويتيين المهزوم، قائلا

«... ولم يستفد شيئًا من ابتهاله للآلهة لتكون عونا له، وبقى نداؤه دون جدوى .. فأسره الأمير السومرى مع زوجته وطفله، وداس على رقبته ...»[1].

وعلى أثر هذا الإنتصار الحاسم، أمكن طرد الغزاة الجويتيين من البلاد. وعقب ذلك أضفى أوتوشيجال على نفسه لقب «البطل القوى، ملك أوروك ملك جهات العالم الأربع الذى ليس لكلمته ضد».

وبهذا العمل البطولى، ظهر الملك السومرى أوتوشيجال وكأنه يحاول إحياء مجد السومريين من جديد، وتولت مدينته أوروك الزعامة على المدن السومرية كلها، ولكن ذلك لم يستمر طويلا، فقد سارت الأحداث فى إتجاه معاكس.

مدينة أور تنتزع القيادة من أوروك فى عهد ملكها أورنامو (٢٠٥٩ – ٢٠٤١ ق. م):

وفى ذلك الوقت تأسست فى مدينة أور الأسرة الحاكمة الثالثة، وذلك بزعامة أورنامو التى تمثل العصر الذهبى فى أور، وكان أحد قادة أوتوحيجال فى بادئ الأمر، ثم نهض ضده واستقل عنه، ونشبت الحرب بينهما، انتهت بمقتل أوتوحيجال وحمل نهر الفرات جثته. ولم يستمر فى الحكم سوى سبع سنين بعد طرد الجويتيين.

وبعد ذلك قام أورنامو بإخضاع باقى المدن السومرية، والأكّادية، وتولى قيادة البلاد بلا منازع، وأضفى على نفس لقب «البطل القوى ملك سومر وأكّاد».

وعقب ذلك أصبحت أور عاصمة البلاد.

---

(١) د. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسيا القديمة، ص ١٤٣.

الإصلاحات التى قام بها أورنامو وخلفه شولجى:

قام أورنامو بنشاط معمارى واسع وإصلاحات هامة فى عاصمته أور، والمدن الأخرى مثل لاجاش ولارسا ونيبور وأوروك.

ومن إصلاحاته «تطهير الأرض من الصوص وقطاع الطرق والمتمردين». وأصدر أورنامو أقدم مجموعة من القوانين فى العالم، بقصد استتباب النظام والأمن فى البلاد، وهذه القوانين تسبق قانون حامورابى بنحو ثلاثة قرون، وتختلف عنه فى العقوبات الجنائية فى بعض الجرائم، إذ كان الجانى يرغم على دفع تعويض نقدى بالفضة بكمية تتناسب مع درجة خطورة كل جريمة.

كما اهتم أورنامو بأعمال الزراعة، وشق قنوات جديدة للرى، وأصلح الطرق لتنشيط التجارة، وأقام التحصينات للمدن لحمايتها، وجدد أسوارها.

ومن أهم أعماله العمرانية معبد أور المدرج المعروف بإسم «زاقورة أور»، التى أمر بتشييدها فى العاصمة أور، لإله القمر نانّا، وتعتبر أفضل من الزاقورات أو الأبراج المدرجة، التى شيدها أورنامو فى أوروك وأريدو ونفر وغيرها.

وكانت الزاقورات تبنى بالطوب اللبن على شكل درجات يعلو بعضها البعض. وقد عثر على عدد من النصب التذكارية من عهده، نقش فى أحدها مشاهد مثل أورنا ودوره فى تشييد المعابد، ودعم السلام، وشق قنوات الرى فى البلاد، ويبلغ ارتفاع هذا النصب بعد ترميمه حوالى ٣ أمتار، وهو محفوظ حاليا بمتحف جامعة فيلاديلفيا.

أما شولجى (٢٠٤١ - ١٩٩١ ق. م)، الذى خلف أباه أورنامو على العرش، واستمر حكمه لمدة خمسين عامًا؛ فقد شيد أو رم الكثير من المعابد للآلهة فى أوروك وأريدو ولارسا ولاجاش وغيرها، وربما كان يسعى لكسب تأييد كهنة الآلهة السومرية والأكّارية، وخاصة فى الفترة الأولى من حكمه.

تفكك الدولة فى عهد خلفاء شولجى ونهاية حكم سلالة أور الثالثة:

بعد وفاة شولجى توالى على العرش ثلاثة ملوك، خلال الفترة من عام

١٩٩١ إلى ١٩٥٠ ق. م، وهم امار – سن، وشو – سن، وأبى – سن، وكانوا يلقبون أيضاً بلقب «البطل القوى، ملك أور، ملك جهات العالم الأربع».

وفى إحدى كتابات امار – سن، حاول التقرب من الإله القومى للسومريين انليل، ويقول أن «الإله انليل قد نطق بإسمه»، كما يتكلم عن نفسه بأنه «الإبن المحبوب للإله سن ولإله الشمس».

وقد قام هؤلاء الملوك وخاصة امار – سن، بنشاط معمارى ضخم، فشيدوا عددا من المعابد للآلهة فى مدن أور وأريدو ونيبور السومرية وسوسا العيلامية، ومنذ العام الحادى عشر من حكم الملك أبى – سن، الذى دام خمسة وعشرين عامًا، أخذت المدن التى كانت تحكمها أور، تخرج عن سلطانها.

كما اشتد خطر جماعات الأموريين فى منطقة مارى بحوض الفرات الأوسط، وبنى أبى – سن حصنا لصد هجومهم من هذه الناحية.

وفى نفس الوقت وفى عام ١٩٥٠ ق. م هاجم العيلاميون العراق، ووصلوا إلى العاصمة أور، واقتحموها ثم أحرقوها، وانسحبوا منها بعد أن تركوا حامية صغيرة فيها، وأخذوا أبى – سن أسيراً معهم إلى عيلام، حيث توفى هناك بعد قليل.

وكان ذلك نهاية حكم سلالة أور الثالثة التى استمرت نحو مائة عام. وكان السومريون يعتبرون تدمير أور على أيدى العيلاميين، كارثة وطنية، ومما قيل فى رثائها؛ «إيه أبانا (نانا)، أن المدينة قد حولت إلى رميم ... وتصدعت جدرانها والناس يئنون ... فى أبوابها العالية، رميت جثث الموتى، وفى شوارعها المشجرة استلقوا متناثرين ... أور التى أكل الجوع أقوياءها وضعفاءها، وكوت النيران الآباء والأمهات الذين لم يبرحوا منازلهم، والأطفال المضطجعون فى أحضان أمهاتهم، كالأسماك حملتهم المياه بعيداً..

وفى المدينة، هجرت الزوجة وهجر الإبن، وانثرت الممتلكات فى كل جانب .. أواه يا (نانا) لقد دمرت أور وشرد أهلها»[٢].

(٢) چورج رو وترجمة حسين علوان حسين: العراق القديم، ص ص ٢٤١ و ٢٤٢.

ويعتبر سقوط حكم أور في هذه الفترة نقطة تحول كبيرة في تاريخ العراق القديم، إذ يؤشر إلى النهاية السياسية للسومريين كشعب حاكم في التاريخ.

التنافس بين العموريين والعيلاميين

بعد زوال عهد أسرة أور الثالثة، اندمج السومريون بالعناصر السامية من العموريين والأكاديين، ونشب بين هؤلاء وبين جماعات العيلاميين صراع طويل، من أجل السيطرة على أرجاء بلاد ما بين النهرين وفي هذه الفترة تأسست مملكتان مستقلتان في الجنوب في مدينتي أيسين ولارسا، وتنازعتا فيما بينهما على حكم بلاد سومر وأكاد، وتأسست سلالة حاكمة من العموريين في مدينة بابل، وأخذت تتوسع باتجاه الجنوب. كما تأسست مملكتان مستقلتان في الشمال في مدينتي أشور وأشنونا، وتنازعتا حول السيطرة على الطرق التجارية الكبيرة التي كانت تمتد في الجزء الأعلى من وادي الرافدين.

السلالات الحاكمة التي قامت في مدينتي أيسين ولارسا والنزاع فيما بينها:

في أيسين:

استغل حاكم مدينة ماري ويدعى اشبي - إيرّا تدهور الأحوال الداخلية في دولة أور، فأسس أسرة حاكمة في مدينة أيسين التي كانت تتبع أور من قبل، بعد أن قام بالدفاع عنها وحمايتها من هجمات العموريين، عندما تخلى أبي - سن عن حمايتها، وقت أن استنجد به اشبي - إيّرا للدفاع عنها ضد الأموريين الآخرين.

وينتمي اشبي - إيّرا إلى العموريين (١٩٥٩ - ١٩٢٧ ق. م)، وبدأ تأسيس سلالة حاكمة خاصة به في أينسين في السنة السادسة عشرة من حكم أبي - سن، ثم خلفه في الحكم أربعة ملوك من أشهرهم لبيت - عشتار (١٨٧٥ - ١٨٦٥ ق. م) الذي وضع تشريعا يعد من أفضل التشريعات في العالم القديم.

وبعد ذلك تأسس أسرة حاكمة أخرى في أيسين، كان من أشهر ملوكها

انليل – باني (١٨٠٣ – ١٧٨٠ ق. م) وفي بادئ الأمر كانت أيسين تضم نفر وأوروك وأريدو، ثم ضمت أور وسيبّار.

وكان ملوك أيسين يتخذون ألقاب (ملوك أور، ملوك سومر وأكاد)، واستخدموا اللغة السومرية في السجلات الرسمية.

وقد توالى على الحكم في مدينة ايسين من الأسرتين ١٥ ملكاً استمر حكمهم قرابة ٢٢٥ عاما، وهم من العموريين.

في لارسا:

وفي نفس الوقت تأسست سلالة حاكمة أخرى في مدينة لارسا بزعامة نابلانوم (١٩٦٠ – ١٩٤٠ق. م)، وتوالى على حكم لارسا ١٤ ملكا، لمدة نحو ٢٦٠ عاما، وهم من العموريين البابليين، وكانوا يخضعون لنفوذ العيلاميين.

وقد وقع نزاع بين ملك لارسا كوبكنوم (١٨٦٧ – ١٨٤١ ق. م)، وملك أيسين لبيت – عشتار،و عندما استولى كونكنوم على أور، ونصب نفسه حاكما على بلاد سومر وأكاد، وبعد بضع سنين ضم كوتكنوم لاجاش وربما أوروك، وأصبحت مملكته تضم نصف جنوب من بلاد ما بين النهرين، وتطل على الخليج، بينما اقتصرت حدود مملكة أيسين على مدينة أيسين والمناطق المجاورة.

وبعد وفاة الملك سن – اديّنام (١٧٨٤ – ١٧٧٩ ق. م) بتسع سنوات، وكان من أهم ملوكها، نصب الملك العيلامي كودور – ما بوك إبنه واراد – سن (١٧٧٠ – ١٧٥٩ ق. م) حاكما على لارسا.

وقد أطلق واراد – سن على نفسه لقب «ملك لارسا وملك سومر وأكاد»، وشيد عدداً من المعابد منها معبد في مدينة لاجاش، وأصلح المتداعي منها، وذلك تخليد الذكرى والده، وتكريما للآلهة.

وفي إحدى الكتابات يقول واراد – سن أن «الإله انليل قد نطق بإسمه في نيبّور».

كما شيد سورا حصينا حول مدينة أور تكريما للإله سن.

وبعد وفاة واراد – سن خلفه فى حكم لارسا أخوه ريم – سن (١٧٥٨ – ١٦٩٨ ق. م) وكان صغير السن، ويحمل هو وأخوه واراد – سن، إسما عموريا وليس عيلاميا، وشيد معبدا فى أوروك. وقد عمل ريم – سن على توسيع نفوذه فى هذه المنطقة، وخاض حربا ضد مدينة أور، وأخضعها لسيطرتهم.

سقوط أيسين:

وقد تمادى ريم – سن فى طموحه، باحتلال مدينة أيسين فى حوالى عام ١٧٣٥ ق. م، فى عهد آخر ملوكها داميق – إيليشو (١٧٥٧ – ١٧٣٥ ق. م). وكان ذلك نهاية حكم سلالة أيسين، الذى استمر حوالى ٢٢٥ عاماً.

مملكـــة أشنونـــا

تقع أشنونا (تل أسمر حاليا) بين نهر دجلة وجبال زاجروس شرقى ديالى رافد نهر دجلة، بحوالى عشرة أميال.

وكانت أشنونا تشكل حلقة اتصال على الطريق الممتد بين القسم الشمالى من وادى الرافدين وبلاد عيلام، ولذلك فقد تعرضت للتأثير الحضارى من جانب هاتين المنطقتين، فإلهها الرئيسى تشباك يتشابه مع الإله الحورى تشب الذى كانت تنتشر عبادته فى البلدان الشمالية، كما كانت لها صلات اقتصادية وحضارية متينة مع بلاد عيلام.

وكانت أشنونا من دويلات المدن التى قامت بدور هام فى تاريخ العراق القديم منذ عصر فجر الأسرات حتى قضى على استقلالها سرجون الأكّادى، ثم خضعت لحكم أسرة أور الثالثة، وكانت أول مدينة تنفصل عنها فى بداية حكم أبى – سن، فى عام ١٩٢٣ ق. م.

التطورات التى تعرضت لها مملكة أشنونا المستقلة:

توالى على حكم أشنونا حوالى عشرة ملوك طوال نحو ٢٢٥ عاما.

ومنذ البداية حرص ملوك أشنونا على التخلص من الطابع السومرى، فأطلقوا على أنفسهم لقب (خادم الإله تشباك) بدلا من (خادم ملك أور) واستبدلوا أسماء الشهور والسنين السومرية بأسماء محلية، كما استبدلوا اللغة السومرية باللغة الأكادية فى السجلات الرسمية.

وقد أخذ ملوك أشنونا الأوائل يوسعون رقعة دولتهم، فاستولوا على كل وادى ديالى الأسفل، بما فيه مدينة توتوب (خفاجى حالى)، وربما امتدت سلطتهم شمالا حتى منطقة كركوك.

وينسب إلى الملك بلالاما، أنه أعد قانونا كتب باللغة الأكادية، ويسبق شريعة حامورابى بنحو قرنين ويتشابه معها فى عدة نقاط، وعثر على نسخة من تشريع أشنونا فى بلدة شادويوم (تل حرمل فى أطراف بغداد حاليا)، كما يسبق تشريع لبيت عشتار بنحو نصف قرن.

وبعد انقضاء عهد بلالاما دخلت أشنونا فى فترة من النكسات، حيث اجتاحها ملك دير، وتقع فى موضع بلدة بدرة الحالية، وتبعد عن تل أسمر بحوالى خمسة وستين ميلا.

كما تعرضت أشنونا للهزيمة أمام ملك كيش، الذى اقتطع كثيراً من ممتلكاتها وضمها إلى دولته.

ولكن أشنونا نهضت من جديد وعادت إلى التوسع فى عهد الملك أبيق - أدد الثانى، الذى أطلق على نفسه لقب «موسع أشنونا»، فأعاد مجد المملكة.

وفى حوالى عام ١٨٥٠ ق. م، شرع أبيق - أدد الثانى فى التوسع فى حوض نهر دجلة وأرض الجزيرة العليا حتى سفوح جبال كردستان، فاستولى على رابيقوم على نهر الفرات قرب الرمادى حاليا، واشناكوّم على الخابور رافد الفرات، وشيد جسرا على نهر الفرات، وكان يستهدف التحكم فى طرق التجارة الكبيرة التى تصل بين الغرب والشمال وتمتد إلى الشرق حتى سوسا فى عيلام.

ولكن السيطرة على هذه المناطق لم تستمر طويلا، وفشل حكام أشنونا المتأخرون فى إعادة السيطرة عليها.

وكانت الممالك القوية التي ظهرت فى ذلك الوقت، فى بابل ولارسا فى الجنوب، وأشور فى الشمال، ومارى فى الغرب، قد أقامت سدا منيعا أمام أطماع ملوك أشنونا.

وقد تمكن الأشوريون فى عهد شمش - أدد الأول، من التوغل فى أراضى أشنونا إلى مسافة بعيدة.

ولكن ملك أشنونا، ويرجح أنه دادوشا، وبالتعاون مع مملكة توروكو فى كردستان، ظل يثير المتاعب والمؤامرات ضد مملكة آشور ومملكة مارى أيضًا، وتقدمت قواته على طول نهر الفرات، مما أثار مخاوف مملكة مارى، فاستنجد حاكمها الأشورى يسمخ - أدد بأخيه اشمس - داجان الأول ملك أشور، الذى أوقف تقدم قوات أشنونا.

سقوط مملكة أشنونا:

وفى العام الثانى والثلاثين من حكم حامورابى ملك بابل، زحف بقواته على أشنونا، وقضى على مملكتها وضمها إلى امبراطوريته، وكان ذلك فى حوالى عام ١٦٩٦ ق . م.

كما استولى حامورابى على مملكة مارى وضمها إلى امبراطوريته.

الفصل الثاني
البابليون
الدولة البابلية الأولي

نشأة مملكة بابل:

أسس هذه الدولة سومو أبوم (١٨٣٠ – ١٨١٧ ق. م) الذى كان يحكم منطقة صغيرة فى جنوب العراق، ثم أخذ يوسع رقعة دولته بالتغلب على أمراء المدن الجنوبية، وأعلن نفسه ملكا على بابل، واستمر فى الحكم ثلاثة عشر عاما، واهتم خلفاؤه بالمحافظة على حدود الدولة وتوطيد نفوذها . واستمر حكم الأسرة البابلية الأولى حوالى ثلاثمائة عام، توالى على الحكم خلال إحدى عشر ملكاً.

وعندما استولى ريم – سن العيلامى على مدينة أيسين، وقضى على السلالة الحاكمة فيها، شعر ملوك بابل بالخطر الذى بات يهدد كيانهم، نتيجة لسرعة انتشار نفوذ العيلاميين فى هذه المنطقة.

ومنذ عهد زابوم (١٧٨٠ – ١٧٦٧ ق. م) – ثالث ملوك الأسرة البابلية، أخذ النزاع يشتد بين البابليين والعيلاميين.

حامورابى (١٧٢٨ – ١٦٨٦ ق. م):

بعد وفاة الملك البابلى سن – موبليط (١٧٤٨ – ١٧٢٩ ق. م)، تولى إبنه حامورابى الحكم، وكان شابا صغيراً، ودام حكمه ٤٢ عاماً.

وكان حامورابى وخلفاؤه يتخذون أسماء عمورية، بينما كان سن – موبليط آخر ملوك تلك السلالة الذين اتخذوا أسماء أكّادية.

ويعتبر حامورابى من أعظم ملوك بلاد ما بين النهرين، وكان يجمع بين صفات القائد العسكر الماهر، والسياسى المحنك، والملك العادل، والمشرّع المصلح والحازم، ويعتبر عهده العصر الذهبى للعراق القديم، لما كان ينعم به سكانه من الرخاء والرفاهية أثناء حكمه.

وعندما اعتلى حامورابى العرش كانت مملكة بابل صغيرة نسبيا، لايتجاوز طولها ثمانين ميلا وعرضها عشرين ميلا، وتمتد من سيبار إلى ما راد (أى من الفلوجة إلى الديوانية حاليا)، وكان يحيط بها من كل الجهات أربع دول كبيرة يحكمها ملوك أقوياء، فى عيلام، ولارسا، وآشور، ومارى.

ويعتبر أعظم إنجازات حامورابى، إنتصاره على هؤلاء الملوك الأقوياء، وتوحيد وادى الرافدين، ومد حدود دولته جنوبا إلى الخليج العربى.

ولم يحاول حامورابى الإنشغال بالحرب فى السنوات الأولى من حكمه، بل قضاها فى الإصلاحات الداخلية، وفى تقوية وسائل الدفاع حول المدن الهامة فى دولته، استعدادا للمرحلة المرتقبة من الكفاح.

حروب حامورابى وتوسعاته:

تريث حامورابى لمدة خمس سنين قبل أن يقوم بجولته الأولى، بعد أن أمّن عرضه فى بابل، وبعد ذلك شرع فى مهاجمة منافسيه فى ثلاثة محاور؛ ضد الأشوريين والعيلاميين، ومملكة مارى.

وكان حامورابى يدرك مدى قوة منافسيه، فاستخدم الأساليب الديبلوماسية البارعة، وعقد المحالفات مع بعض الممالك المجاورة، وذلك إلى جانب استخدامه للسلاح فى المعارك.

وفى السنة الخامسة من حكمه، بدأ حامورابى بالاستيلاء على أيسين، وتقدم على طول نهر الفرات حتى بلغ أوروك واستولى عليها، فى السنة السادسة من حكمه.

صراع حامورابى ضد الأشوريين:

وكان حامورابى يدرك الخطر الذى يهدد مملكته من جانب الأشوريين الذين تعاظمت قوتهم، وأصبحوا يشكلون خطراً لايقل عن خطر العيلاميين على مملكته.

وخلال السنوات من السابعة إلى التاسعة من حكمه، تصدى حامورابى لمجابهة الملك الأشورى شمش - حدد الأول (١٧٤٩ - ١٧١٧ ق. م)، لعرقلة تطلعاته التوسعية، وبدأ حامورابى بالتحالف مع ملك مارى زيمريليم عدو الملك الأشورى، منذ أن تمكن من استعادة عرش سلالته بالقوة وطرد الحاكم الأشورى من مارى.

وبعد ذلك اصطدم حامورابى بالملك الأشورى عسكريا، وتغلب عليه، وأثناء ذلك واستولى على إيموبتال (وتقع بين وادى نهر دجلة وجبال زاجروس)، وتمكن من بسط نفوذه على مقاطعة مالكوم.

وفى العام الحادى عشر من حكم حامورابى، توفى شمش - حدد الأول، وخلفه على العرش إبنه إشمس - داكان.

صراع حامورابى ضد ريم - سن العيلامى:

بعد حسم الموقف مع الأشوريين، أخذ حامورابى يستعد ويجهز جيشه للاصطدام العسكرى المحتم مع عدوه العيلامى ريم - سن، الذى كانت قواته ترابط على حدود مملكة بابل.

وقبل ذلك تمكن حامورابى منذ السنة الخامسة من حكمه، من كسر الطوق الذى فرضه ريم - سن حول مملكة بابل، عندما استولى على ايسين وأوروك ورابيكو، واقتصر نفوذ ريم - سن على لارسا واريدو ولاجاش.

وقد أراد حامورابى أن يقطع طريق اتصال ريم - سن بموطنه الأصلى عيلام الذى كان يزوده بالإمدادات البشرية والمادية، مما يدعم مركزه العسكرية، فقام بحركة التفاف عسكرية كبيرة حوله، لحصره فى المنطقة الصغيرة التى بقيت تحت نفوذه فى جنوب بلاد ما بين النهرين.

وفى العام التاسع والعشرين من حكمه، حانت الفرصة لتصفية الحساب مع ريم - سن، عندما تشكل تحالف ضد حامورابى بقيادة ريم - سن، ضم عيلام، كوتا، أشور وأشنونا، وتقدمت قواتهم لمهاجمة بابل، ولكن حامورابى جمع جنده

وتصدى لمقاتلتهم وانتصر عليهم، ويتحدث حامورابى عن ذلك فى بعض كتاباته بقوله «قام القائد الأثير عند مردوخ، بعد أن دحر الجيش الكثيف الذى أعده العيلاميون، السوبارتو (الأشوريون)، الكويتون وأشنونا وملكيئوم، بإرادة الآلهة العظيمة بتوثيق أسس سومر وأكد»[1].

ثم قام حامورابى بغزو مدينتى أور ولارسا ونقل كنوزهما إلى مدينة بابل، فهبت عيلام لنجدة ريم – سن، ولكن حامورابى تصدى لها، «وبمساعدة الربين آنو وانليل أذل بلاد ياموت – بال والملك ريم – سن ...»، كما جاء فى بعض كتابات حامورابى.

وقد انتهى هذا الصراع بالإطاحة بريم – سن وأسره، بعد أن حكم لارسا لمدة ٦٠ سنة، كانت أطول فترة حكم لأى ملك فى تاريخ بلاد ما بين النهرين.

وكان حامورابى يسمى ريم – سن،محتقرا إياه «ملك إيموبتال»، وإيموبتال كانت الموطن الأصلى لعائلة ريم – سن.

وكان انتصار حامورابى يسمى ريم – سن حدثا هاما فى تاريخ العراق، أرخ به المؤرخون، وبسببه تغنى شعراء بابل بعظمة حامورابى، ورتلوا الأناشيد فى المعابد من أجله.

وعلى أثر ذلك أصبحت جميع بلاد ما بين النهرين من الجنوب إلى الشمال، بالإضافة إلى أراضى عيلام، خاضعة لنفوذ الملك البابلى حامورابى. وعقب ذلك أطلق حامورابى على نفسه لقب «حاكم سومر وأكّاد وجهات العالم الأربع التى أهداها له الربان آنو وانليل ...».

غزو حامورابى لمملكة أشنونا:

وفى العام الحادى والثلاثين من حكمه شكل الأعداء السابقون حلفا جديداً ضد حامورابى الذى تصدى لهم وهزمهم.

---

(١) چورچ رو وترجمة حسين علوان حسين، العراق القديم، ص ٢٧١.

وبعد ذلك، وفى العام التالى، تقدم حامورابى «على طول ضفة نهر دجلة»، حتى حدود مملكة أشنونا، واستولى عليها وضمها إلى امبراطورية.

وأثناء ذلك كتب حامورابى إلى زيمريليم ملك مارى، يستشيره بشأن مملكة أشنونا، فأجابه قائلاً «... إذا اعترف بك أميراً على أشنونا، فتكون أنت إذن الحاكم الشرعى، وإذا لم يعترف بك، فنصب من هو لديك كى يحكمها»(٢).

حرب حامورابى ضد ملك مارى زيميريليم وحروبه فى أواخر عهده:

فى البداية كانت علاقات ودية بين حامورابى وزيمريليم ملك مارى، وقد تحالف الإثنان ضد ملك أشور شمش – حدد، عدوهما المشترك.

ولكن الموقف قد تطور بعد ذلك أثناء صراع حامورابى ضد الملك العيلامى ريم – سن، فقد خشى زيمريليم من توالى انتصارات وتوسعات حامورابى، فانضم إلى الحلف المعادى لحامورابى، إلى جانب عيلام، وأشور وأشنونا.

وبعد التغلب على ريم – سن وملك أشنونا، وفى العام الخامس والثلاثين من حكمه، اتجه حامورابى لتصفية الحساب مع صديق الأمس زيمريليم ملك مارى، وبعد معركة قاسية هزم جيش ملك مارى، وسقطت عاصمته فى أيدى قوات حامورابى.

ويتحدث عن ذلك حامورابى فى بعض كتاباته، قائلا:

« .. أسقط مارى وملكيئوم حربا، وجعل مارى ... وكذلك عدة مدن أخرى تابعة لسوبارتو بموجب إتفاقيات ودية تستمع إلى أوامره»(٣).

ويرجح أن زيمر يليم لم يفقد عرشه، وإنما أصبح حاكماً تابعا لحامورابى وبعد ذلك بسنتين، توجهت القوات البابلية إلى مارى، لإخماد حركة عصيان فيها ضد الحكم البابلى، وفى هذه المرة قام الجيش البابلى بهدم أسوار مدينة

---

(٢) د. توفيق سليمان : دراسات فى حضارات غرب آسيا القديمة، ص ١٧٠.

(٣) جورج رو وترجمة حسين علوان حسين: العراق القديم، ص ٢٧٢.

ماری، ولقی زیمریلیم مصرعه فی داخل قصره الفخم، الذی أشعلت فیه النیران، بعد نهب محتویاته النفیسة.

ويعتبر قصر زيمريليم فى مدينة مارى، أجمل قصور غرب آسيا القديمة المعروفة حتى الآن، ويعتبره علماء الآثار «جوهرة الفن المعمارى الشرقى».

ومن بين الرسائل التى عثر عليها فى هذا القصر، من فترة سابقة، رسالة من حامورابى إلى زيمريليم، بشأة رغبة ابن ملك أوغاريت (على ساحل سوريا) فى مشاهدة قصر زيمريليم، ليشيد قصراً مثله، وقام أحد ولاة حامورابى بتسليمها إلى زيمريليم، وجاء فيها؛ «قل لزيمريليم، هكذا يقول حمورابى أخوك: كتب إلىّ أمير أوغاريت للحال ما يلى: أريد مشاهدة مقر زيمريليم، أبعث إليك الآن إبنه مع هذا الرسول»(٤).

وهذه كانت آخر حروب حامورابى التوسعية، التى ترتب عليها اختفاء جميع ممالك وادى الرافدين التى كانت قائمة وقتذاك، وتم توحيد أجزاء العراق تحت سيطرة مملكة بابل، وخضعت لها أيضاً الأراضى العيلامية، وعقب ذلك رفع حامورابى مقام إله بابل مردوخ، من إله من الدرجة الثالثة إلى مرتبة رئيس مجمع الآلهة، وزعم أن الإلهين آنو وانليل قد وهبا السيادة الإلهية لمردوخ.

وكانت الحروب التى خاضها حامورابى فى أواخر عهده، حروبا دفاعية، ففى العام السادس والثلاثين من حكمه «دحر جيش سوبارتو (أشور) وهزم كافة أعدائه حتى بلد سوبارتو».

وفى العام الثامن والثلاثين انتصر على أشنونا، وأخضعها من جديد لسيطرته.

إصلاحات حامورابى الداخلية . قانون حامورابى:

إهتم حامورابى بالمشاريع الاقتصادية، ومنها تطهير قنوات الرى اللازمة للزراعة، التى جفت أو ردمت بتأثير الحروب المدمرة التى شهدتها البلاد.

---

(٤) د. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسيا القديمة. ص ١٧٠.

كما شق عدداً من القنوات، من أهمها القناة المعروفة بإسم «نوفوش - نيشي» شرقي نهر دجلة في منطقة ياموت - بال، التي كانت ضمن نفوذ الملك ريم - سن، وبعد ذلك أعاد حامورابي توطين السكان في هذه المنطقة، للعمل والإنتاج.

قانون حامورابي:

ويعتبر أهم وثيقة اجتماعية واقتصادية وتاريخية من عصر المملكة البابلية الأولى، ومن أكثر الوثائق أهمية من فترة الألف الثاني قبل الميلادي.

ويعد قانون حامورابي أهم الإصلاحات التي قام بها.

وتوجد شرائع سابقة ترجع إلى عهد أورنامو ملك أور، ومن عهد لبيت - عشتار ملك أيسين، وعهد بلالاما ملك أشنونا، ولكنها لم تكن شاملة ولامتكاملة مثل شريعة حامورابي.

ولم يصدر حامورابي قانونه المشهور خلال الفترة الأولى من حكمه، ولكن بعد مضي أكثر من ثلاثين عاما على توليه السلطة في بابل، واستفاد في ذلك من التجارب القاسية التي عاشها، وقبل ذلك كان يطبق قوانين من سبقوه في معالجة القضايا المختلفة.

وبوجه عام يتضمن قانون حامورابي تنظيما موحداً لكافة العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في بلاد ما بين النهرين، مع الأخذ في الاعتبار التغيرات الاجتماعية والاقتصادية العديدة التي طرأت خلال عهده المديد.

ومن جملة القرارات والأحكام القضائية التي أصدرها حامورابي في المسائل والقضايا المختلفة، تكونت «شريعة حامورابي»، التي جمعت ودونت مؤخراً، لاستخدامها من قبل القضاة في المستقبل.

وقد أمر حامورابي بتدوين قراراته وأحكامه الملكية، في أواخر عهده، على مسلات وضعت في المعابد، لتكون شاهداً على أنه «قد أرسى دعائم العدل في البلاد»، وقام بوظيفته «كملك عادل» خير قيام.

ومن بين النصب التذكارية أو المسلات التى نقشت عليها نصوص قانون حامورابى، مسلة وجدت فى حالة ممتازة، كانت مقامة فى معبد الإله شمش فى سيبار، ثم نقلها العيلاميون إلى عاصمتهم سوسا، كغنيمة حرب خلال القرن الثانى عشر قبل الميلاد، واكتشفتها البعثة الفرنسية فى عام ١٩٠١م، ثم نقلتها إلى متحف اللوفر بباريس.

ويبلغ طول هذه المسلة ثمانية أقدام، وهى مصنوعة من حجر البازلت، وشكلها شبه مخروطى، وفى قسمها العلوى نقشت صورة الملك حامورابى واقفا أمام الإله شمش الذى كان يجلس على عرشه، ويقوم الإله بتسليم الملك ملف العدالة الذى كان يمسكه بيده اليمنى.

وقد كتبت وثيقة القانون بلغة بابلية خالصة، وتتكون من ثلاثة أجزاء: المقدمة، المتن أو صلب القانون، والخاتمة.

المقدمة:

وتخص المقدمة الأعمال الدينية التى قام بها حامورابى، وجاء فيها:

«... أنا حامورابى الأمير التقى، خادم الآلهة، لأظهر الحق فى البلاد، ولأقضى على السوء والشر، ولأقف دون طغيان القوى على الضعيف .. أنا المسمى من انليل، يكدس الخيرات والأرزاق ... الملك النشيط الذى أعاد بناء أريدو ... حامى البلاد .... راعى الناس ....»(٥).

المتن أو صلب القانون:

ويتكون صلب القانون من ٢٨٢ فقرة، مسحت منها الفقرات من ٦٥ - ١٠٠، واستطاع علماء اللغات التعرف على معظم الفقرات الممسوحة، من النقوش التى عثر عليها فى مكتبة الملك أشور - بانيبال.

وتتناول هذه النصوص معالجة مختلف الجرائم والقضايا المتعلقة بالتجارة

(٥) د. توفيق سليمان: المرجع السابق، ص ص ١٨٩ - ١٩٣.

والأعمال الأخرى، والزواج، والعائلة، والملكية، وايجار المساكن والأراضى، وأجور وواجبات الحرفيين، كما تعالج المسائل المتعلقة بالزراعة وأجور العمال، ومعدلات بيع وشراء العبيد، وتعرض أيضاً لمشاكل الوراثة والتبنى وغير ذلك.

ويلاحظ أن القانون كان قاسيا فى توقيع العقوبات على كل من يخرج على العرف، أو يقترف مايتنافى مع مبادىء الأخلاق، ومعظم الأحكام كانت تأخذ بمبدأ العين بالعين والسن بالسن»، أو «المعاملة بالمثل»، وكان ذلك شائعا بين الشعوب السامية.

وتقول الفقرة (١٩٥) «إذا صفع ولد أباه، فتبتر يده».

وجاء فى الفقرة (١٩٦) «إذا فقأ رجل عين ابن رجل آخر، فتفقأ عينه».

وفى الفقرة (١٩٧) «إذا كسر عظم رجل آخر، فيكسر عظمه».

وفى الفقرة (٢٠٠) «إذا أسقط رجل سن رجل يساويه منزلة فعقوبته إسقاط سنه».

وكان الموت عقوبة جرائم القتل، والسرقة، والسحر، وخيانة الأمانة، وفى حالة الزنا، وفى حالة عجز المدعى فى جريمة عن تقديم الأدلة الكافية، وفى حالات أخرى.

ولكن تلك العقوبات القاسية، كان يمكن تخفيفها بتقديم التماسات العفو، وفى حالات الظروف المخففة، مثل حالة زنا الزوجة، وعقوبتها أن تكبل الأغلال هى وعشيقها ويقذف بهما فى النهر، وإذا صفح الزوج عن زوجته، تعفى هى وعشيقها من عقوبة الموت (الفقرة ١٢٩).

وجاء فى الفقرة (١٣١) «إذا اتهمت إمرأة من قبل زوجها ولكنها لم تضبط مع رجل آخر، فعليها أن تؤدى اليمين أمام الإله وعندها تعود إلى بيتها».

وفى الفقرة (١٣٤) «إذا أسر رجل ولم يكن فى بيته وسيلة عيش، فتستطيع زوجته أن تذهب إلى بيت رجل آخر، دون أن تتحمل هذه المرأة أية مسئولية».

ولكن العقوبات والأجور كانت تتفاوت تبعا للمركز الاجتماعى للأفراد، فكان المجتمع البابلى ينقسم إلى ثلاث طبقات؛ طبقة الأحرار (أو يلو)، وطبقة (المشكينوم)، وطبقة العبيد (واردو). ويبدو أن المقصود بالمشكينوم العاملون فى القصر الملكى والجهاز الحكومى، ولهم امتيازات خاصة مقابل التزاماتهم وواجباتهم.

أما العبيد، فكانوا يؤخذون من بين أسرى الحروب، ومن أولادهم، وأيضاً من الأحرار الذين باعوا أنفسهم أو أطفالهم لدائنيهم، بعد أن أفلسوا وعجزوا عن سداد ديونهم.

وكانت تحلق رؤوس هؤلاء العبيد، ويميزون بإشارات خاصة، ويعتبرون ملكاً لأسيادهم، ويعاقب بشدة كل من يساعد أو يعين العبيد على الهرب.

وفى بعض الحالات كان يجب إطلاق سراح الأشخاص الذين أخذوا كعبيد للخدمة فى بيت صاحب الدين، بعد ثلاث سنوات، وتقول الفقرة (١١٧) فى ذلك «إذا كان رجل مدينا، سلمّ إمرأته أو إبنه أو إبنته مقابل الدين من الفضة، فعليها الحدمة طوال ثلاث سنوات فى بيت الشارى أو الكفيل، وعليه أن يطلق سراحها حرة فى السنة الرابعة»

ولكن لايُسترد العبد أو الأمة مقابل دين، كما جاء فى الفقرة (١١٨)، وتقول «إذا أعطى عبدا أو أمة مقابل دين، فيستطيع التاجر أن يتصرف به مقابل الفضة، ولم يعد بالمستطاع استرجاعه بطرق قضائية».

وفى بعض الحالات كان العبد يستطيع أن يتزوج إبنة رجل حر،ويمكنهما بعد الاستقرار أن يقتنيا بيتا أو أملاكًا أخرى، وتشير إلى ذلك الفقرتان (١٧٥ و ١٧٦).

وبالنسبة للعقوبات وتفاوتها حسب طبقات المجتمع، تكون المعاملة بالمثل فى حالة الأحرار، إذا فقئ عين أحدهم، أو كسر عظمه، ولكن الأمر يختلف إذا كان المجنى عليه من المشكينوم، أو من العبيد، فيكفى دفع كمية من الفضة مقابل ذلك، ويدفع للعبد نصف ما يدفع للمشكينوم».

وتقول فى ذلك الفقرة (١٩٨) «إذا فقأ رجل عين موشكينوم، أو كسر عظم موشكينوم، فعليه أن يزن مقابل ذلك مينة واحدة من الفضة.

وفى الفقرة (١٩٩) «إذا فقأ رجل عين عبد، أو كسر عظم عبد، فعليه أن يدفع نصف منية من الفضة».

وجاء فى الفقرة (٢٠٠) «إذا أسقط رجل سن رجل يساويه منزلة فعقوبته إسقاط سنه».

وفى الفقرة (٢٠١) «إذا أسقط سن موشكينوم فعليه أن يزن ١/٣ مينة من الفضة».

وتقول الفقرة (٢٠٩) «إذا ضرب رجل إبنة رجل (من الأحرار) وفقدت خصوبتها، فعليه أن يزن ١٠ شيكل من الفضة»، «وإذا ماتت هذه المرأة، فتقتل إبنته» (الفقرة ٢١٠).

وفى الفقرة (٢١١) «إذا فقدت إبه موشكينوم خصوبتها بسبب الضرب، فعليه أن يزن ٥ شيكل من الفضة»، وإذا ماتت هذه المرأة فعليه أن يزن ١/٢ مينة من الفضة» (الفقرة ٢١٢).

وفى الفقرة (٢١٣) «إذا ضرب رجل أمة وفقدت خصوبتها، فعليه أن يزن ٢ شيكل من الفضة»، «وإذا ماتت هذه الأمة، فعليه أن يزن ١/٣ مينة من الفضة».

وتشدد العقوبة على الطبيب إذا تسبب بإهمال فى وفاة رجل من الأحرار فتبتر يده، كما جاء فى الفقرة (٢١٨)، وتقول «إذا أجرى طبيب عملية جراحية بسكين من البرونز لرجل، وسبب ذلك موت الرجل، أو فتح خراجًا بسكين برونزية لرجل وخرب عينه، فعقوبته بتر يده» وتختلف العقوبة فى حالة العبيد .

وتقول الفقرة (٢١٩) «إذا أجرى طبيب عملية جراحية بسكين برونزية لعبد رجل وسبب موته، فعليه أن يعوض عنه عبداً بعبد».

وفى الفقرة (٢٢٠) «إذا فتح له (للعبد) خراجًا بسكين برونزية وخرب له عينه، فعليه أن يزن نصف منية فضية».

ويعاقب بالموت المعمارى إذا أهمل فى عملة وانهار البناء بعد قليل وتسبب فى قتل صاحبه أو قتل إبنه، وتقول فى ذلك الفقرة (٢٢٩) «إذا شيد بنّاء لرجل بيتا ولم يتقن عمله وانهار البيت الذى بناه وسبب موت صاحب البيت، فيجب أن يقتل هذا البناء»، «وإذا سبّب موت إبن صاحب البيت، فيجب أن يقتل إبن البناء» (الفقرة ٢٣٠). ويكتفى بالتعويض عن العبد، إذا مات بسبب انهيار البيت، كما جاء فى الفقرة (٢٣١)، وتقول «إذا سبب موت عبد صاحب البيت، فعليه أن يعطى صاحب البيت عبداً عوضاً عن عبده».

وتتضمن الفقرات المتعلقة بشئون العائلة رعاية فائقة، لحماية النساء والأطفال من قسوة المعاملة والبؤس والإهمال الجسيم. وتقول الفقرة (١٣٨) «إذا أراد رجل أن يطلق إمرأته الأول التى لم تنجب منه أطفالا، فعليه أن يعطميها فضة تعادل مهرها وأن يسمح لها أيضًا بالحصول على كل ما أتت به من بيت والدها، وعندها يستطيع أن يتركها». وفى الفقرة (١٤٨) «إذا أخذ رجل امرأة وحل بها مرض، وصمم أن يأخذ امرأة أخرى، فإنه يستطيع أن يأخذها، ولكن لايحق له أن يطلق المرأة المريضة، إنها تستطيع أن تسكن فى البيت الذى يبنيه لها، وعليه وأن يقدم لها تموينها طالما هى على قيد الحياة»، و «إذا لم تقبل هذه المرأة بذلك، أى بالعيش فى بيت زوجها، فعليه أن يعيد إليها ما أتت به من بيت والدها، ويمكنها عندئذ الانصراف» (الفقرة ١٤٩)

وتقول الفقرة (١٥٠) «إذا أهدى رجل امرأته حقلا أو حديقة أو بيتا، أو أملاكاً منقولة، ووضع وثيقة بذلك، فلا يستطيع أبناؤها بعد موت زوجها أن يطالبوها قضائياً بذلك، فالوالدة تستطيع أن تعطى الإرث لمن تحب من بين أبنائها، وليست مجبرة أن تعطى الآخرين».

وفى الفقرة (١٦٢) «إذا أخذ رجل امرأة وأنجبت منه أطفالا، ثم ماتت هذه المرأة، فلا يحق لوالدها أن يدعى الحصول على جهازها، فجهازها من حق أطفالها».

وتقول الفقرة (١٦٨) «إذا صمم رجل أن يطرد إبنه وقال للقضاة: «سأطرد إبنى» ، فعلى القضاة أن يدرسوا مشكلته، وإذا لم يقترف الإبن خطأ جسيما عقوبته حرمان الإبن من حق الإرث، فلا يسمح للأب أن يحرم إبنه من الإرث» ، «أما إذا اقترف الإبن بحق والده خطأ جسيمًا عقوبته الحرمان من الإرث، فعلى المرء أن يصفح عنه للمرة الأولى، أما إذا اقترف للمرة الثانية خطأ جسيماً فيستطيع الأب أن يحرم إبنه من حقه بالإرث» (الفقرة ١٦٩).

وجاء في الفقرة (١٧٠) «إذا أنجبت المرأة الأولى لرجلها أطفالها وأنجبت أيضًا أمته منه أطفالا، واعتبرهم (أطفال الأمة) من بين أطفال المرأة الأولى، فعلى أطفال المرأة الأولى وأطفال الأمة فى حالة وفاة والدهم، أن يقتسموا تركة الوالد فيما بينهم، ويختار الإبن الوريث (الإبن البكر) من المرأة الأولى حصته أولاً».

وفى الفقرة (١٧١) «وإذا لم يقل الأب فى حياته إلى الأطفال الذين أنجبتهم له الأمة (أطفالى)، فلا يجوز أن يقتسم أطفال الأمة، فى حالة وفاة أبيهم، أملاك بيت الأب، ولكن تعتبر الأمة والأطفال أحرار، ولايحق لأطفال المرأة الأولى أن يستعبدوا أطفال الأمة، وتحصل المرأة الأولى على جهازها والمنحة الزوجية التى أعطاها لها رجلها، وسجلها على لوحة (وثيقة)، وتبقى تسكن فى بيت رجلها، ولها حق الانتفاع مادامت على قيد الحياة، ولكن لايحق لها أن تتصرف به مقابل فضة، فتتركها من حق أطفالنا».

الخاتمة:

وينتهى قانون حامورابى بخاتمة طويلة، يبتهل فيها إلى الآلهة بانزال غضبها الشديد على كل من يشوه أو يحرف القوانين العادلة التى وضعها. كما يدعو الملك الذى سوف يخلفه، أن يحفظ كلمات العدالة التى سجلها، وأن يعمل بكلماته إذا رغب فى حكم بلاده بالعدل، ويصب عليه غضب ولعنات الآلهة إذا خالف ذلك. ومما جاء فى أقواله بهذه الخاتمة.

«إنها قوانين العدالة التى وضعها حامورابى، الملك النشيط، وأقام بواسطتها للبلاد قيادة رشيدة، وحكومة عادلة ....

نادتني الآلهة الكبيرة ... هكذا فأنا الراعي، راعي الخير، وصولجانه عادل .. يخيم ظلي الخيّر على مدينتي، وضممت إلى صدري سكان بلاد «سومر وأكّاد» .. أهتم بهم بسلام، وأحميهم بأعمال معرفتي، لم أترك القوى يسلب الصغير حقه، ولكن أثبت حق الأرملة واليتيم ... لذلك كله دونت ألفاظي العذبة على لوحتي التذكارية، وأقمتها أمام تمثالي كملك العدالة .... أنا الملك البارز بين الملوك، كلماتي مختارة وليس لقدرتي نظيرها. وبأمر «شمش» قاضي السماء والأرض الكبير، تسود عدالتي الأرض، وبناء على كلمة سيدي مردوك، لن ينال محتقر من رسومي، وفي ايساجيلا الذي أحبه، سيلفظ إسمي بالإحترام إلى الأبد ... سيمثل الرجل المظلوم، الذي انزلق في نزاع قضائي، أمام صورتي، كملك للعدالة، ويقرأ عليها كتابتي ، ويسمع ألفاظي العذبة، ويوضح له نصبي التذكاري مشكلته القضائية، فليجد هنا محكمة عادلة، وليتنفس الصعداء....

فليحفظ الملك الذي سيكون في هذه البلاد، كلمات العدالة، التي كتبتها على مسلتي، قانون البلاد الذي أصدرته، قرارات البلاد التي اتخذتها، عليه ألا يهملها، وعلى ألا يحتقر رسومي . إذا كان هذا الرجل بيها ورغب في حكم بلاده بالعدل، فعليه أن يعمل بكلماتي التي كتبتها، على مسلتي ، وترشده هذه المسلة إلى التفسير وفي الطريق، وإلى القانون الذي أصدرته، وقرارات البلاد التي اتخذتها فليقد أتباعه ذوي الرؤوس السود بالعدل، فليعتمد قانونها وليتخذ قراراتها، وليقضي في بلاده على المسيئين والأشرار، وليجلب الخير لأتباعه ....

إذا لم يحترم هذا الرجل كلماتي التي كتبتها على مسلتي، ويحتقر لعناتي ولعنات الآلهة ولم يخفها، وإنما يمسح القانون الذي أصدرته، ويحوّر كلماتي، ويهمل نقوش، ويمسح إسمي، ويكتب إسمه بدلا منه، وبسبب هذه اللعنات يكتبها باسم آخر ....»[٦].

«علّ آنو الكبير، أب الآلهة، المعرّف بسلطاني، أن يأخذ شهرة ملكه ويكسر صولجان حكمه، ويلعن مصيره ..

علّ انليل السيد، محدد الأقدار، الذي لايهمل الدعاء، الرافع لسلطاني، يثير

(٦) د. توفيق سليمان: نفس المرجع، ص ص ٢٢٦ - ٢٣٦.

الشعب وينشر اليأس فى بيته، الذى يقود إلى زواله، وليكن نصيبه عصر حكم المشقة وأيام الفاقة، وسنوات الجوع والظلام الدامس، وزوال نور العين.

علّه يبشر باندثار مدينته وتبعثر شعبه، وأبعاد ملكيته، وعدم دوام اسمه وذكره في بلاده ...

علّ شمش، قاضى السماء والأرض الأعظم، منظم قانون المخلوقات الحية، السيد، أن يدمر ملكيته، ويذل قانونه، ويربك طريقه، ويزلزل أرض ومقر أفراد جيشه، ويحدد له عند تقديمه القرابين مستقبلا مشئومًا باقتلاع جذور ملكيته، ودمار بلاده ...

علّ سن سيد السماء، الإله خالقي الذى يظهر منجله واضحًا بين الآلهة، ينتزع منه طيارته (تاجه) وعرش ملكه، ويصيبه بقصاصه القاس وعقابه الأكبر، الذى لايفارق جسده، وينهى أيام وأقمار (شهور) وسنوات حكمه بالمشقة والويلات، ويجعل أعداء الملكية ينظرون إليه، ويجعل نصيببه الحياة التى تصارع الموت.

علّ حدد سيد الخصب، ساقى السماء والأرض، يقطع عنه غزارة مطر السماء، وتدفق الينابيع، ويدمر بلاده بالجوع والعطش، ويرسل صرخة مزلزلة حاقدة فوق بلاده، ويحول بلاده إلى مجمع للفيضان.

علّ عشتار سيدة القتال والمعركة، التى تلوح بسلاحى، ربتى الشفيعة الرحيمة، التى تحب سلطانى، تلعن بقلبها الحاقد، وغيظها الكبير ملكيته. علّها تجعل خيره شرًا، وتحطم سلاحه فى ساحة القتال والمعركة، وتدبر له العصيان والارتباك، وتهزم جنوده، وتسقى الأرض بدمائهم، وتقيم له تلا على أرض المعركة من جثثهم، وألا تشفق على أفراد جيشه، وتملئ به يد عدوه، وتقوده أسيرًا إلى بلاد العدو ..

علّ آلهة السماء والأرض الكبيرة تلعنه وذريته، وأرضه وأتباعه، وشعبه وجنده، لعنة لاتغتفر.

علّ انليل الثابت ينطق، لعنات حاقدة، علّها تبلغه بسرعة».

خلفاء حامورابى وبدء انهيار الدولة البابلية الأولى:

سمسو - إيلونا (١٦٨٥ - ١٦٤٨ ق.م):

خلف سمسو - إيلونا أباه حامورابى على العرش فى بابل، وشارك فى أعباء الحكم فى السنة الأخيرة من حكم والده بسبب مرضه، وتشير إلى ذلك رسالة وجهها سمسو - إيلونا إلى أحد كبار المسئولين فى الدولة، بشأن الظروف التى رافقت توليه العرش، ويقول فيها «أن الملك أبى مريض لذلك نصبت نفسى على العرش لكى أحمى البلاد»(٧).

وخلال الفترة الأولى القصيرة من حكمه ساد هدوء نسبى، قام أثناءها بتنفيذ عدد من المشروعات الاقتصادية والعمرانية، مثل شق قنوات الرى، وبناء المعابد تكريما للآلهة، ولم يرد ذكر أية حرب أو غزوة شنها ضد الأعداء فى هذه الفترة.

الثورات التى واجهت الدولة البابلية الأولى:

ولم تلبث أن تعرضت الدولة البابلية لضغوط خارجية من عدة جهات، ففى الأجزاء المتاخمة لعيلام، اندلعت الثورة التى قادها أحد الثوار فى جهة الشمال، ويدعى ريم - سن، وربما كان أحد أقارب ريم - سن العيلامى العدو الأكبر لحامورابى.

وقد استطاع ريم - سن الجديد أن يتوغل فى أراضى سومر الجنوبية، وحرض سكانها على الثورة ضد الملك البابلى، وأعلن نفسه ملكا على البلاد، ولكن ذلك لم يستمر سوى عامين، وأشار إلى ذلك فى إحدى كتاباته، أنه «لم يستطع صد الأعداء ودحرهم إلى بلدانهم». فقد تمكن سمسو - إيلونا من إخماد ثورة الجنوب، وسقط ريم - سن صريعاً وسط النيران التى التهمت قصره.

وبعد ذلك تابع سمسو - إيلونا زحفه على المدن الثائرة الأخرى مثل أوروك وأور ودمر أسوارها، وأثناء ذلك حاول سمسو - إيلونا كسب تأييد الشعب، بأن أصدر قانونا بتخفيض الضرائب على المواطنين.

---

(٧) ليوا وبنهايم وترجمة سعدى فيضى عبد الرزاق: بلاد ما بين النهرين، ص ١٩٥.

مملكة بلاد البحر:

وبالرغم من فشل هذه المحاولة، فقد تشجع بعض أمراء المدن السومرية للثورة ضد الملك البابلى، وكان فى مقدمتهم إيلو مو - إيلو، ويحتمل أن يكون من سلالة داميق - إيلوشو، آخر ملوك أيسين، وأعلن استقلاله عن الدولة البابلية، وحقق بعض النجاح فى مخططه الانفصالى، وأصبح سيداً على المنطقة الواقعة فى جنوب ينبور، وأسس مملكة جديدة فيها بإسم «مملكة بلاد البحر»، وتعرف أيضًا بإسم «مملكة بابل الثانية».

وقد أخذت مملكة بلاد البحر تناوئ الدولة البابلية الأولى لفترة طويلة، وامتد نفوذها شمالاً حتى شمل أيسين.

وبعد سمسو - إيلونا، خاض الملك أبىّ - إيشوح، حرباً ضد مملكة بلاد البحر، ولكنه عجز عن إخضاع ملكها إيلوما - إيلو مثل سلفه.

كما سمح للكاشيين بالاستيطان في بابل للزراعة، ولكنه لم يستطيع أن يمنع زعيم الكاشين كاشتيلياش الأول من الاستقلال بإقليمه الذى يقع على الفرات على بعد مائتى ميل من بابل، وفى أواخر عهد الملك أمى - ديانا، شن حربا ضد أيسين ودمر أسوارها، دون أن يتمكن من إخضاعها.

ثم توغل الملك أمّى - سدوكا بجيشه فى أراضى الجنوب، وأقام سدا منيعًا على نهر الفرات، فى أطراف حدود مملكة البحر، وحال بذلك دون تغلغل قواتها فى الأراضى البابلية.

سمسو - ديتانا وسقوط الدولة البابلية الأولى على أيدى الحيثيين:

وفى عهد الملك سمسو - ديتانا (١٥٦١ - ١٥٣٠ ق. م)، أصبحت أوضاع الدولة البابلية الأولى الداخلية مضطربة وقلقة، وأخذت أكثر المدن تنفصل من جديد عن العاصمة بابل.

وكانت المملكة البابلية الأولى قد تقلصت حدودها إلى ما كانت عليه سابقا، أى حدود إقليم أكاد، بعد أن انفصلت عنها مقاطعاتها الشمالية والجنوبية، وذلك منذ نهاية عهد سمسو - إيلونا.

وفى ذلك الوقت شرعت مملكة الحيثيين التى تأسست فى الأناضول، فى التوسع جنوبا حيث الأراضى الخصبة، والبلاد ذات الحضارة الجيدة والثروة العظيمة. وقد قاد ملك الحيثيين جاتوسيلس عدة حملات باتجاه الجنوب، وتمكن من احتلال مدينة أورشو التى تقع على نهر الفرات شمال كركميش، وحاصر مدينة حلبا (حلب) التى كانت عاصمة لمملكة آمورية قوية، ولكنها لم تستسلم للملك جاتوسيلس الذى قتل أثناء الحرب ضدها.

ولكن إبنه وخليفته على العرش مورسيلس الأول أو مورشيلى الأول، قد نجح فى تحقيق ما عجز عنه والده، وتذكر إحدى النصوص والحيثية أنه قد «دمر مدينة حلبا وحمل إلى حاتوشاش (العاصمة) أسرا ها وكنوزها»(٨).

وتم ذلك فى عام ١٥٣٠ ق. م. وبعد ذلك استسلمت له مدينة كركميش، ومنها سار جيش الحيثيين جنوبا بمحاذاة نهر الفرات حتى وصل إلى مدينة بابل، «وحمل رجال حيثى ضد شمشو - ديتانا وضد بلاد أكاد ...»، كما جاء فى مرثية متأخرة عن كارثة بابل.

وتفصل إحدى النصوص الحيثية هذه الأحداث قائلة «بعد ذلك، قصد مورسيلس بابل فاحتلها وهاجم الحوريين أيضًا وأخذ الأسرى والأسلوب من بابل إلى حاتوشاش»(٩).

ومن بين الغنائم التى أخذتها الحيثيون من مدينة بابل، تماثيل الإله مردوخ وزوجته الإلهة سربانيتم.

وبذلك سقطت الدولة البابلية الأولى التى استمر حكمها ثلاثة قرون، وخسر شمشو - ديتانا عرشه، وربما فقد حياته أيضًا بأيدى الحيثين.

ولم تكن الحملة الحيثية على مدينة بابل سوى غارة عنيفة عليها انتهت بتدميرها ونهب كنوزها ثم نقلها إلى العاصمة الحيثية، وبعد ذلك عاد الملك

---

(٨) چورج ليو، وترجمة حسين علوان حسين : العراق القديم، ص ٣٣١.

(٩) چورج ليو، وترجمة حسين علوان حسين: المرجع السابق، ص ٣٣١.

مورسيلس إلى عاصمته حاتوشاش، على أثر المؤامرات الخطرة التى تحركت فى البلاط ضد مورسيلس، وراح ضحيتها، على يد صهره (زوج أخته) حانتبليس، الذى خلفه على العرش.

وكانت هذه المؤامرات قد بدأت منذ عهد الملك حاتوسيليس، عندما ثار عليه أفراد البيت بزعامة ولى عهده، ولكنه انتصر عليهم وخلع ولى عهده ونفاه، وعين مكانه مورسيليس الذى كان أصغر منه سنا.

الدولة الكاشية

أصل الكاشيين وموطنهم الأصلى:

غير معروف على وجه التحديد أصل الكاشيين، وهم من الجماعات الجبلية الذين سكنوا فى غرب إيران منذ زمن بعيد، واستوطنوا أولا فى الجزء الأوسط من جبال زاجروس فى جنوب همدان، ويسمى الآن لورستان. وعلى العكس من جيرانهم الشماليين مثل الكوتيين، لم ينهض الكوشيون بأى دور فى التاريخ السياسى للشرق الأدنى خلال الألف الثانى قبل الميلاد.

وكان بدء تحركاتهم خلال القرن الثامن عشر قبل الميلاد، قبل عهد الملك البابلى سمسو - إيلونا، وظهرت طلائعهم الأولى فى أراضى سومر وأكّاد.

وللكاشيين صلة بعناصر المحاربين الهندو - أوروبيين، الذين قدموا من الشرق، وتأثر الكاشيون بهم، وأخذ كثير منهم عنهم أسماءهم، وعبدوا آلهتهم إلى جانب الآلهة السومرية والأكادية والكاشية.

قيام الدولة الكاشية أو مملكة بابل الثالثة:

وعلى أثر انسحاب الحيثيين من مدينة بابل، ومقتل آخر ملوك هاشمشو - ديتانا، فقد حانت الفرصة لكى يتسلم الكاشيون السلطة فى بابل، وقام الملك الكاشى جنداش بتدمير معبد الإله إنليل، أثناء غزو مدينة بابل، وأطلق على نفسه لقب «ملك جهات العالم الأربع».

وعلى أثر ذلك أقام الكاشيون مملكة قوية، عرفت باسم الدولة الكاشية، أو مملكة بابل الثالثة ».

وقد استمر حكم الدولة الكاشية من عام ١٥٩٥ - ١١٦٢ ق. م، أى ٤٣٣ عاما، وهو أطول فترة حكم لدولة فى العصور القديمة، وتوالى على حكم الدولة الكاشية عدد كبير من الملوك الكاشيين، ولكن المعلومات قليلة عن كثير من هؤلاء الملوك.

ويتميز عصر الدولة الكاشية بحدوث الكثير من الغزوات والاضطرابات فى منطقة الشرق الأدنى القديم، وتنازعت السلطات الحاكمة على السيادة فى هذه المنطقة، وساهمت فى ذلك بعض القوى الجديدة التى ظهرت فى هذه الفترة.

صراع الكاشيين ضد مملكة بلاد البحر:

وكانت مملكة بلاد البحر فى أقصى الجنوب، قد اغتنمت فرصة انهيار الأسرة الحاكمة فى بابل، لتوسع مناطق نفوذها باتجاه الشمال، ولكن الملك الكاشى جنداش Gendach جمع شتات القبائل الكاشية فى أنحاء البلاد، وتمكن من احباط محاولات مملكة بلاد البحر.

وبعد زوال عهد جنداش، وفى عام ١٤٥٠ ق. م، سقط صريعًا أيا - كاميل آخر ملوك دولة بلاد البحر، أثناء معركة خاضها ضد عيلام التى استعادت استقلالها بعد انهيار الدولة البابلية الأولى.

وقد استغل الكاشيون هذه الفرصة، وقام ملكهم بولام - بورياش بغزو أراضى مملكة بلاد البحر، وأصبح سيد البلاد، وأخضع بلاد سومر بأكملها من جديد لسيطرة مملكة بابل الثالثة.

مظاهر حكم الكاشيين وأثره على أوضاع بلاد بابل:

عندما تسلم الكاشيون السلطة فى بابل، لم يكن لهم حضارة متطورة فاقتبسوا عن العموريين الكثير من مظاهر حضارتهم، مثل طقوس عبادة الآلهة المحلية، وعبدوا الإله مردوك، وأعفوا أملاك معبده فى بابل من جميع الضرائب.

ومع مرور الزمن استخدم الملوك الكاشيون معظم الألقاب الملكية البابلية، مثل «الملك الجبار، ملك سومر، ملك أكّاد، ملك الكاشّو وجاء ذلك في بعض كتاباتهم.

وقد اعتبروا أنفسهم الورثة الشرعيين لسلالة ملوك بابل التي زالت، ولملوك الدولة الأكّادية، السابقة أيضاً.

كما استخدموا في تأريخ الأحداث الملكية، أسلوب الملوك البابليين، والسنة البابلية التي تبدأ بشهر نيسان (ابريل).

وكانت تربية الخيول واستخدامها في جر العربات، وفي ساحات المعارك، الظاهرة الحضارية الجديدة التي أدخلها الكاشيون إلى بلاد ما بين النهرين. إذ كانت لهم دراية جيدة بتربية الخيول واستخدامها في الأغراض المختلفة.

وقد حافظ الملوك الكاشيون على التقاليد المحلية، وحاولوا كسب قلوب الرعايا وكهنة الآلهة، ومن ذلك قيام الملك آكوم كاكرايم باستعادة تماثيل الإله مردوخ والإلهة سربانتيم، وإعادة تثبيتها في معابدها، وذلك في أول عمل قام به بعد توليه العرش في بابل. كما شيد الملوك الكاشيون عدداً من المعابد وأعادوا بناء المعابد المشهورة وزينوها كما حدث في أوروك وأور ولارسا.

وفي عهد الملك كوريجا لزو، في حوالي عام ١٣٨٠ ق. م، تأسست مدينة جديدة بإسم دور - كوريجالزو، وهي عكركوف في الوقت الحاضر، وأصبحت عاصمة جديدة للكاشيين، وشيد فيها مقر خاص للملك، وأقيم بها عدد من المعابد.

وكان الملوك الكاشيون يعتمدون على الجنود الكاشيين في الحفاظ على سيطرتهم وتدعيم مُلكهم، وأقطعوا قادة الجيش مساحات واسعة من الأراضي الخصبة لضمان ولائهم كما اغتصبوا مساحات واسعة من الأراضي الزراعية وجعلوها ملكاً خاصا لهم، واستخدموا عامة الشعب في خدمتها.

ويعتبر احتلال الكاشيين لبلاد بابل نوعًا من الاستعمار الاستيطانى، ترتب عليه انهيار اقتصادها، وتقييد حرية الشعب البابلى السياسية.

وقد ظن عامة الشعب أن الكوارث التى حلت بهم تحت حكم الكاشيين، إنما ذلك لتقصيرهم فى حق الآلهة، ولكى يتخلصوا من ويلاتها، لجأوا إلى أساليب السحر والشعوذة، التى حرّمها قانون حامورابى من قبل، وآمنوا بقوى الجن الخفية التى تأتى لهم بالمحن والكوارث واستعانوا بالعرّافين لطردها.

وذلك إلى جانب الابتهال إلى الإله مردوخ، ويرون أنه الإله الوحيد المنقذ والغفور الرحيم.

وقد نشأ عن معاناة الشعب البابلى نوع من أدب الحكمة، شمل جميع المفاهيم الخلقية والدينية، ويختلف عن فلسفة الكهنة المعقدة فى فهم طبيعة الحياة.

وفى هذه الفترة انتشرت الشعوذة فى بلاد بابل بشكل لم يعرف فى أية حقبة أخرى من عصور التاريخ.

علاقات الدولة الكاشية بالدول المعاصرة لها:

خلال ثلاثة قرون من حكم الدولة الكاشية، شهدت منطقة الشرق الأدنى صراعات حادة بين أممها الكبيرة، وذلك على أثر ضم سوريا لمصر، ومطالبة الحيثيين بها، وتأسيس مملكة حورية - متيانية امتد نفوذها من سواحل البحر المتوسط إلى جبال زاجروس، حيث وقفت أمام توسعات المصريين والحيثيين، وأمام الآشوريين بعد ذلك.

وكانت المناطق المتنازع عليها فى سوريا وإقليم الجزيرة، لا تبعد كثيراً عن بابل، ولكن الملوك الكاشيين لم يحاولوا التورط فى معمعة ذلك الصراع، إلا فى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد، تحت ضغط الآشوريين.

وأثناء هذه الفترة الطويلة تراوحت العلاقات بين الملوك الكاشيين وملوك هذه المنطقة، بين صلات المودة والفتور.

العلاقات مع مصر:

كشفت أعمال التنقيب فى «تل العمارنة» بمصر عن مجموعة كبيرة من الرسائل الديبلوماسية بلغ عددها حوالى ثلاثمائة رسالة، ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وهذه الرسائل كانت متبادلة بين ملوك مصر وملوك وأمراء دول غرب آسيا، ومن بينها رسائل خاصة تبادلها بعض الملوك الكاشيين مع ملوك مصر أمينوفيس الثالث (أمنحوتب الثالث)، وأمينوفيس الرابع (أمنحوتب الرابع) أو إخناتون، وتتعلق بالمصاهرة بين البيتين المالكيين، وتبادل الهدايا بين الجانبين، وإرسال كميات من الذهب من مصر إلى بعض الملوك الكاشيين.

وهذه نماذج من الرسائل التى تبين طبيعة العلاقات بين البيتين المالكين، ومن بينها رسالة موجهة من الملك الكاشى كاداشمان - خاربى الأول أو كاداشمان - انليل الأول (١٤١٠ - ١٣٨٦ ق. م)، إلى الملك المصرى أمينوفيس الثالث (١٤٠٥ - ١٣٧٠ ق. م)، بشأن إلحاق إبنه كاداشمان - خاربى الأول إلى حريم امينوفيس الثالث، مقابل شحنات كبيرة من الذهب وصلته من مصر.

وجاء فى هذه الرسالة ما يلى:

«... إنك لم توافق على زواج إبنتك من أخى، وكتبت (فى هذا الخصوص) (منذ القدم لم تزوج قط إبنة ملك مصرى لإنسان). لماذا تقول ذلك أنت الملك وتستطيع أن تتصرف كما يحلو لك، فمن هو الذى سيعارضك ،إذا أعطيتها .. عندما بلغ ذلك مسمعى كتبت إلى أخى ما يلى: عندك بنات بالغات ونساء جميلات، أرسل امرأة جميلة تختارها، من الذى سيقول: أن هذه ليست إبنة ملك؟، ولكنك لم ترسل، لأنك قررت ذلك، ألم تبحث عن الأخوة والصداقة المتينة، لكى نزداد اقترابا من بعضنا، وكتبت إليك سبب الزواج ... حقا إنك لم ترسل لى إمرأة، هل عليّ أن أتخذ منك نفس الموقف ولا أرسل لك امرأة؟، كلّا ستكون بناتى لديك، لن أبخل عليك بهن ..

وأما فيما يخص الذهب الذى كتبت إليك بشأنه، أرسل لى ذهبا كثيراً وبكميات كبيرة قبل أن يأتى رسولك إلى أرسل بسرعة خلال هذا الصيف، وليكن فى شهر تموز، وليكن فى شهر آب، كى أستطيع إنجاز المشروع، الذى صممت على تنفيذه.

وإذا أرسلت الذهب، خلال هذا الصيف، فى تموز أو آب، الذى كتبت بشأنه، عندها سأعطيك إبنتى ...

وإذا لم ترسل الذهب فى شهر تموز أو آب، ولم ينجز المشروع الذى بدأت بتنفيذه، فلماذا ترسل شيئًا بعد ذلك؟ لأنى أكون قد انتهيت من انجاز المشروع الذى بدأت بتنفيذه، ولو أرسلت بعد ٣٠٠٠ وزنة من الذهب سأرفض استلامها وأعيدها إليك، ولن أعطيك إبنتى زوجة لك»(١).

وفى رسالة أخرى بعثها الملك الكاشى كاداشمان - خاربى إلى الملك المصرى أمينوفيس الثالث، يتهمه فيها بمعاملة رسله فى البلاط المصرى معاملة سيئة، وأن أخته ربما لم تكن على قيد الحياة بين حريم فرعون مصر. وقد أجاب ملك مصر برسالة فند فيها هذه المزاعم، جاء فيها:

«إلى كاداشمان - خارجى ملك كارادونياش (بابل فى اللغة المصرية القديمة) أخى: هكذا يقول أخوك (ينبو - آريا (أمينو فيس الثالث قبل توليه العرش) الملك الكبير، ملك مصر، كل شئ عندى بخير، وعسى أن يكون كل شئ عندك بخير ..».

«عسى أن يكون بيتك ونساؤك وأطفالك وشيوخك وأحصنتك وعرباتك وبلدانك بخير، إن حالتى جيدة وبيتى ونسائى وأطفالى وشيوخى وأحصنتى وعرباتى وجنودى بخير وكذلك بلدانى بخير ..».

انظر! لقد بلغنى الأمر الذى كتبت حوله، قولك «تريد الزواج من ابنتى

---

(١) د. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسيا القديمة، ص ص ٢٥٣ و ٢٥٤.

ولكن أختى التى أعطاكها والدى، هى عندك ولم يرها إنسان بعد ذلك، هل هى على قيد الحياة أم ماتت؟».

ولكن متى أرسلت كاميرو (لقب أحد الموظفين الكبار فى البلاط الكاشى)، كى يتعرف على أختك ويستطيع التحدث إليها ويجدد التعرف بها، كى ندعه يتحدث معها، أما هؤلاء الناس الذين أرسلتهم، فأحدهما سائق حمير، ولم يكن بينهما أحد يمت بصلة قربى لوالدك ...

وكتبت أيضًا: «إلا أن رسلى لم يتعرفوا عليها»، وقلت أيضًا: «من يستطيع التعرف عليها؟» ... هذه هى كلماتك، فلو أن أختك ماتت فمن يطمس معالم ذلك؟ فهل نضع واحدة أخرى مكانها، فالإله عمون يرافق أختك، إنها أخت الزوجة الرئيسة (أى أن منزلتها تساوى منزلة الزوجة الأولى)(٢).

وبعث الملك الكاشى بورنا - بورياش الثانى (١٣٦٧ - ١٣٤٦ ق. م) رسالة إلى الملك المصرى امينوفيس الرابع (إخناتون) (١٣٧٠ - ١٣٥٢ ق. م)، يطلب فيها إرسال كميات كبيرة من الذهب لاستخدامها فى بناء المعبد الذى بدأ تشييده كما يدعوه إلى عدم تلبية مطالب الوفد الآشورى لأنه اعتبر ذلك عملا غير ودى، وجاء فى هذه الرسالة ما يلى:

«إلى نيخور - أوريا (إسم ملك مصر قبل توليه العرش) ملك مصر، هكذا يتكلم أخوك بورنا - بورياش ملك كاردونياش (ملك بابل) إنى بخير، عساك وبيتك ونساؤك وأطفالك وبلادك وشيوخك وأحصنتك وعرباتك فى أحسن حال: عندما كان والدى ووالدك فى علاقة صداقة جيدة بينهما. تبادلا إرسال الهدايا والأشياء الجميلة، التى تمناها كل منهما، ولم يمنع أحدهما شيئاً عن الآخر ... ولما كان الذهب متوفراً عندك بكميات كبيرة، ارسل كما كان يرسل والدك. لما ترسل سوى ٢ مينة من الذهب؟».

---

(٢) د. توفيق سليمان: المرجع السابق، ص ص ٢٥٥ و ٢٥٦.

«إنى مصمم على القيام بأعمال كثيرة متنوعة فى المعبد، وبدأت فى تنفيذها ابعث لى ذهبا كثيراً، واكتب لى ما تحتاجه من بلادى ليرسل إليك.

وفى عهد أبى كوريجا لزو كتب إليه جميع الكنعانيين قائلين: «سنستوطن كل حدود البلاد ... وسننهض، نود التحالف معك»، أما والدى فقد كتب إليهم «ابتعدوا عن فكرة التحالف معى، فإذا نهضتم ضد ملك مصر، أخى، واتصلتم بآخر فلن أوافقكم، بل إنى سأدمركم لأنه (ملك مصر) متحالف معى ....».

والآن لم أرسل إليك أتباعى الآشوريين كما ادعوا، ولماذا قدموا إلى بلادك؟ فإذا كنت تحترمنى وتحبنى، لاتعقد معهم أية إتفاقية، لكى يعود الرسل بدون نتيجة، أرسلهم صفر اليدين، وها أنا أرسل إليك ٣ منية هدية من حجر اللازورد وخمسة أزواج من الأحصنة لخمس عربات[٣].

وفى بعض الأحيان كانت شحنة الذهب التى وصلت فعلا، أقل من الكمية المعلنة رسميا، فاشتكى ملك بابل الكاشى من ذلك قائلاً:

«إن شحنة الذهب الأخيرة التى بعثها أخى - لأن أخى لم يولها عنايته الشخصية، بل كلّف بذلك أحد ضباطه الذى ختمها وأرسلها - الأربعون ميناً من الذهب التى جلبوها، عندما وضعتها فى الفرن لم تعط زنتها كاملة»[٤]

ولكن استياء الملك الكاشى سرعان ما تبدد، واستمر تبادل الرسل والمكاتبات بين البلدين، بالرغم من المسافة الشاسعة التى تفصل بينهما، وظروف الطقس، وقلة المياه بالمنطقة، وتعرضهم لغارات القبائل الكنعانية أو البدوية.

ويذكر أن الملك المصرى أمينوفيس الرابع (إخناتون) قد تزوج إحدى بنات الملك الكاشى بورنا - بورياشى، وأرسل بهذه المناسبة عدداً كبيراً من الهدايا إلى مدينة بابل، شملت أصنافها قائمة طويلة.

وبالرغم من أسلوب المجاملة من جانب الملك المصرى فى هذه الرسائل،

(٣) د. توفيق سليمان: نفس المرجع، ص ص ٢٥٧ و ٢٥٨.

(٤) جورج رو، وترجمة حسين علوان حسين: العراق القديم، ص ٣٤٨.

فيمكن أن يفهم منها تعالى البيت المالك المصرى على البيت المالك الكاشى، ورفض الملك المصرى أن يزوج إبنته من أخ الملك الكاشى، واعتبر هذا الطلب غريبا منه، وتحت إلحاحه أرسل إليه إحدى نساء بلاطه، وربما لم تكن من بين أفراد الأسرة المالكة، وكتب الملك الكاشى إلى ملك مصر أمينوفيس الثالث قائلاً «وهذه الفتاة التى أرسلتها هى غير جميلة».

ومع ذلك فكان الملوك الكاشيون يسارعون بارسال بناتهم وأخواتهم لضمهم إلى حريم الملوك المصريين، مقابل الحصول على كميات من الذهب، ويفتخرون أمام شعوبهم بمصاهرتهم للبيت المالك المصرى ذى الحضارة العريقة.

العلاقات مع الحيثيين:

على أثر مقتل مورشيلى الأول فى المؤامرة التى دبرها ضده صهره خانتيلى الأول، وخلفه على العرش فى العاصمة الحيثية حاتوشاش، اضطربت السلطة الحيثية على الصعيدين الداخلى والخارجى، وفقدت سيطرتها على المناطق التى كانت تابعة لها فى شمال سوريا.

وفى هذه الحالة شعر الكاشيون فى بابل بالارتياح.

ويبدو أن الكاشيين قد اصطدموا بالحيثيين فى عهد الملك الكاشى أجوم الأول، الذى تمكن من استعادة تماثيل الآلهة التى أخذوها من قبل عند غزو بابل.

وبعد أن تسلم أورش - تيشوب السلطة فى جاتوشاش، بعد وفاة والده مورواتالىّ، وكانت العلاقات متوترة بين الدولتين الحيثية والمصرية، حاول أورش - تيشوب أن يبعد عمه خاتّوشيلى الثالث عن منصبه كحاكم لإحدى المقاطعات الحيثية فى آسيا الصغرى، فاضطر عمه للثورة ضد ابن أخيه، وتمكن من إزاحته عن العرش الحيثى، بعد مضى سبع سنوات من الصراع ضده، وتربع حاتّوشيلى على العرش، واضطر أورش - تيشوب إلى الهرب إلى الملك الكاشى كاداشمان تورجو (١٢٩٤ - ١٢٧٨ ق. م).

وعقب ذلك أخذ الملك الحيثى يتدخل فى الشئون الداخلية للدولة الكاشية، ودعم جناحاً فى القصر الملك الكاشى يعارض الملك.

كما حاول الملك الحيثى بجدية إقناع الكاشيين بعدم التعاون مع الآشوريين، ولكنه لم يتوصل إلى نتيجة مرضية.

وقد أدى هذا الموقف إلى استياء الملك الحيثى خاتوشيلى، وتوترت العلاقات بينه وبين الملك الكاشى كاداشمان - تورجو، وأخذ الملك الحيثى يخاطب الكاشيين فى رسائله إليهم بلغة القوة والتعاطى، ولم يتورع عن توجيه الإهانات البالغة إليه.

ويذكر أن شخصية كبيرة فى البلاط الملكى الكاشى، قد اضطر فى إجابته على إحدى رسائل الملك الحيثى، قائلا «إنك لاتكتب إلينا كأخ، وتخاطبنا فى رسائلك وكأننا عبيدك»(٥).

العلاقات مع الآشوريين وبدء انهيار الدولة الكاشية:

كانت العلاقات متوترة باستمرار بين الملوك الكاشيين والأشوريين، وعجزوا عن إخضاع الشعب الآشورى، الذى كان يأبى الاعتراف بالسلطة الكاشية.

ويتضح من رسالة الملك الكاشى بورنا - بورياشى الثانى إلى الملك المصرى أمينوفيس الرابع، أن وفدا من الآشوريين توجه إلى القصر الملكى المصرى، يطلب معاونته، وخشى الملك الكاشى من ذلك، ودعا الملك المصرى إلى عدم الاستجابة لمطالب الوفد الآشورى، ويبدو أن الملك المصرى لم يهتم بطلب الملك الكاشى فى هذا الشأن، ولم يعلق على ذلك فى رسالته إلى الملك الكاشى بعد ذلك.

وعلى أثر زوال سيطرة المملكة الحورية - المتيانية، نتيجة للصراع الذى نشب بينها وبين الدولة الحيثية، استعاذت آشور قوتها، وأصبحت دولة قوية فى عهد ملكها آشور - أو بليط (١٣٦٣ - ١٣٢٨ ق. م)، الذى سعى للتحالف مع الملك

---

(٥) د. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسيا القديمة، ص ٢٩٢.

المصرى أمينوفيس الرابع، وعقد معه اتفاقية عسكرية للوقوف ضد أى اعتداء على أى منهما، من جانب أية دولة أجنبية، وكان الآشوريون يقصدون بذلك المملكتين الحيثية والكاشية.

وهذا التحالف قد أغضب الكاشيين، ولم يفلح الملك بورنا - بورياشى الثانى فى صرف الملك المصرى امينوفيس الرابع عن ذلك.

وبعد ذلك كان الملوك الآشوريون لايكفون عن التداخل فى الشئون الداخلية للمملكة الكاشية، واستغلوا فرصة نشوب النزاع فى داخل البلاط الكاشى، وتمكنوا من تنصيب كوريجا لزو الثانى (١٣٤٣ - ١٣٢١ ق. م) على عرش المملكة الكاشية، وضمنوا بذلك وقوف الكاشيين إلى جانبهم ضد المملكة الحيثية.

وقد هاجم الملك الآشورى حدد نيرارى الأول (١٣٠٥ - ١٢٧٤ ق. م) المملكة الكاشية، وضمن ولاءها من جديد للآشوريين.

وبعد ذلك ألحق الملك الآشورى زالما - نصار (١٢٧٣ - ١٢٤٤ ق.م) هزيمة منكرة بالجيش الكاشى، عندما انقلب الكاشيون ضد الآشوريين.

وأخيراً توجه الملك الآشورى توكولتى - نينورتا الأول (١٢٤٣ - ١٢٠٧ ق. م)، نحو الجنوب، أثناء زحفه التوسعى، وهاجم المملكة الكاشية، واقتحم أسوار مدينة بابل، ونهب معابدها ودمرها، وفى مقدمتها معبد الإله مردوخ، ونقلوا تمثاله إلى العاصمة آشور، وبدأت عقب ذلك حلقة جديدة من العداء بين بابل وآشور، الذى تمثل فى الصراع بين عقيدتى الإلهين مردوك وآشور.

وكان ذلك بدء نهاية الدولة الكاشية فى بابل.

أما سقوط الدولة الكاشية فكان فى عام ١١٦٢ ق. م، على يد الملك العيلامى شيلاك - انشوشناك الذى هاجم بابل وأطاح بآخر ملوكها انليل - نادين - اده، وانقضى بذلك حكم أطول سلالة فى تاريخ بابل.

الفصل الثالث

الآشوريون والكلدانيون

أصل الآشوريون وموطنهم الأصلى:

الأشوريون من الساميين الذين استوطنوا فى شمال شرق بلاد النهرين، فى حوض نهر دجلة منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وينسبون إلى مدينة آشور التى تقع فى بقعة استراتيجية هامة، كانت تتحكم فى الطرق التجارية الممتدة بين بلاد سومر وأكاد من جهة كردستان وشمال أرض الجزيرة من جهة أخرى، ولذلك كانت آشور دائمًا محل أطماع الملوك الأقوياء الذين ظهروا فى الجنوب، أمثال سرجون، ونارام – سن، وملوك سلالة أور.

ولم يتمكن الآشوريون من تأسيس دولة لهم إلا فى عصر متأخر نسبيًا، ولم تستطع هذه الدولة الحصول على استقلالها قبل الألف الثانى قبل الميلاد ثم قدّر لهذه الدولة بعد ذلك، أن تبلغ مركز الصدارة، وأن تقوم بدور خطير فى منطقة الشرق الأدنى القديم.

أقسام تاريخ الآشوريين:

يمكن تقسيم تاريخ الأشوريين إلى ثلاث مراحل هى:

(١) **مرحلة التكوين، أو «العهد الأشورى القديم»**، وتبدأ من حوالى عام ٢١٠٠ إلى ١٥٣٠ ق. م، منذ بدء نهوضهم سياسيا، وتعرضهم لتقلبات عديدة، حتى نهاية حكم الدولة البابلية الأولى.

(٢) **عصر الدولة الأشورية، أو «العهد الأشورى الوسيط»**؛ ويبدأ من عام ١٥٣٠ ق. م عند تخلصهم من حكم الدولة البابلية الأولى إلى عام٩٠٠ ق.م

(٣) **عصر الإمبراطورية، أو «العهد الأشورى الحديث»**؛ وينقسم بدوره إلى قسمين:

(أ) الإمبراطورية الأشورية الأولى، وتشمل الفترة من عام ٩١١ إلى ٧٤٥ ق.م تقريبا.

(ب) الإمبراطورية الأشورية الثانية، وتمتد من عام ٧٤٥ إلى ٦١٢ ق.م تقريبا.

العهد الأشورى القديم:

عثر على قائمة تضم أسماء ١٧ ملكًا من العهد القديم لأشور، ولاتدل أسماؤهم على أصل سامى أو سومرى، بل هى أسماء هندو - أوروبية، أو أسماء حورية أو سوبارية.

وقد خضع الأشوريون لحكم ملوك أسرة أور الثالثة، ،ثم حصلت مدينة آشور على استقلالها، مثل كثير من المدن الأخرى، بعد سقوط الإمبراطورية السومرية.

وفى حوالى عام ٢٠٠٠ ق. م، أسس بوزور - آشور الأول أسرة حاكمة فى مدينة ،آشور، وكان ملوكها يحملون أسماء أكادية بحتة، ومن بينهم إيلو - شوما، وإيرو - شوم الأول، ومن أعمالها بناء عدد من المعابد للآلهة آشور وحدد وعشتار فى مدينة آشور.

وقام إيلوشوما بتوسيع مملكته، فتوغل فى الجنوب باتجاه المدن السومرية، فخاض حربا ضد سومو - أبوم مؤسس المملكة البابلية الأولى، وانتصر عليه، كما توسع فى الشمال حتى نينوى وتقع على بعد ٦٠ ميلا شمال آشور.

وتمكن شمش - حدد الأول من مد نفوذه باتجاه الجنوب الغربى، حيث ضم مدينة مارى لفترة قصيرة وبعد ذلك خضعت آشور لسيطرة حامورابى، الذى وضع حداً لطموحات شمش - حدد الأول التوسعية.

العهد الأشورى الوسيط:

وبعد وفاة حامورابى شعرت آشور بالارتياح، وخاصة على أثر سقوط الدولة البابلية الأولى على أيدى الحيثيين فى عام ١٥٣٠ ق. م.

وقد واجه حكام آشور جملة من الصعوبات فى مواجهة القوى المجاورة لها، لفترة طويلة، من جانب الحوريين الميتانيين، والحيثيين والكاشيين. وبنمو قوة المملكة الحورية – الميتانية، دخلت آشور تحت سيطرة الميتانيين، عندما خاض الملك الحورى – الميتانى شاوشاتار حربا ضد مملكة آشور، ودخل عاصمتها آشور ونهب معابدها.

وعلى أثر الصراع العسكرى الذى نشب بين المملكة الحورية – الميتانية، والمملكة الحيثية، أخذت قوة آشور تنمو، وعمل الملك الأشورى ايريبا – حدد الأول (١٣٩٠ – ١٣٦٤ ق. م)، على تحرير بلاده من هيمنة الدولة الحورية – الميتانية، ولكن حلمه لم يتحقق بالكامل فى عهده.

وقد استغل خلفه وإبنه أشور – أو بليط (١٣٦٣ – ١٣٢٨ ق. م)، الأنقسام الذى حدث فى داخل البيت المالك الميتانى، وقتل الملك توشرانا نتيجة الدسائس والمؤامرات التى ظهرت بين الفريقين المتنازعين، فتمكن من تخليص بلاده من سيطرة الميتانيين، بل وساعد فى القضاء على دولتهم، فى عام ١٣٣٠ ق. م.

وقد اتبع أشور أو بليط سياسة حكيمة ومعتدلة مع الدول المجاورة، فقام بمصاهرة ملك الكاشيين وتزوج بابنته.

كما سعى لإقامة حلف مع ملك مصر أمينوفيس الرابع (إخناتون)، لمواجهة أى عدوان من جانب القوى الأجنبية.

خلفاء آشور – أو بليط ودخول الدولة الأشورية فى صراع على جبهات ثلاث:

وبعد أن تحررت دولة آشور من الهيمنة الميتانية، لم تلبث أن دخلت فى صراع عنيف، على جبهات ثلاث، من أجل التوسع والسيادة، ومن أجل ضمان حرية الأشوريين وبلادهم.

وكان لخلفاء أشور – أو بليط دور بارز فى ذلك الصراع، فدخلوا فى حروب خارجية، تارة من أجل الدفاع، وتارة أخرى من أجل التوسع.

حدد – نيرارى الأول (١٣٠٥ – ١٢٧٤ ق. م):

وقد بدأ بشن حرب ضد المملكة الكاشية، وضمن ولاءها من جديد للدولة الأشورية، كما أرغم الكاشيين على التوقيع على إتفاقية جديدة للحدود.

ثم اتجه حدد – نيرارى الأول بقواته عبر إقليم الجزيرة، غربا وغزا المنطقة الممتدة من حران إلى كركميش التى تقع على ضفة نهر الفرات، وسيطر بذلك على الطريق التجارية التى كانت تربط بلاد ما بين النهرين بالأجزاء الغربية من آسيا الصغرى، كما أصبح الأشوريون على أبواب سوريا.

زالما – نصار (شلمنصر الأول) (١٢٧٣ – ١٢٤٤ ق. م):

وهو رابع خلفاء آشور – أو بليط، ومن أعظم ملوك الأسرة الحاكمة فى آشور.

وقد تمكن زالما – نصار من إخضاع منطقة أورارتو الجبلية فى إقليم أرمينيا، كما أخضع بلاد الجوتيين «المتضلعين بالمغازى»، ثم هاجم شاتوارا وهزم ملك «هانى جلبات» وقواته من الحيثيين وغيرهم من الجنود المرتزقة.

ويتحدث زالما – نصار عن المعركة التى خاضها ضد ملك «هانى جلبات»، وهو من الحوريين، ويقول:

«خضت غمار المعركة وأنزلت الهزيمة بهم فقتلت أعداداً لاتحصى من جنوده المندحرين المتناثرين .... استوليت على تسعة من حصونه والمنيعة مع عاصمته، وأحلت مائة وثمانين من مدنه إلى خرائب وتلال ... أخضعت بلدهم لسلطتى وأحرقت بقية مدنهم بالنيران»(١).

وقد ترتب على هذه المعركة خسارة الحوريين لآخر معاقلهم.

كما خاض زالما – نصار حربا ضد المملكة الكاشية، وألحق بجيشها هزيمة نكراء، عندما انقلب الكاشيون ضد الأشوريين، ولم يتحرك الحيثيون لنجدتهم، بسبب رفضهم الوقوف إلى جانبهم ضد الأشوريين من قبل.

(١) چورج رو وترجمة حسين علوان حسين: العراق القديم، ص ٣٥٢.

توكلتي – ننورتا الأول (١٢٤٣ – ١٢٠٧ ق. م):

وفي عهده بلغت الدولة الأشورية قمة مجدها العسكرى، فقد زحف توكلتي – ننورتا الأول صوب بابل، وألحق الهزيمة بالملك الكاشي كاشتلياش وكان العيلاميون، في عهد السلالة الحاكمة الجديدة في العاصمة سوسه، قد تطلعوا للسيطرة على بابل، والحقوا الهزيمة بالملك الكاشي كاشيلياش، بعد عام ١٢٥٠ ق. م بوقت قصير، ولكن حكم العيلاميين في بابل لم يستمر طويلا، واضطروا للانسحاب مكنها بعد أن انهكت قواهم بسبب فتح مساحات واسعة من إيران الغربية، مع توالى هجمات الميديين ،والفرس

وبعد ذلك تمكن الملك الآشورى توكلتي – ننورتا الأول من دخول بابل ونهب معابدها وخربها، وشعر الأشوريون بالفخر لهذا الإنجاز الذى صار موضوع ملحمة أشورية شعرية أطلق عليها «ملحمة توكلتي – ننورتا»، التي تلقى اللوم كله فيما حدث لبابل على الملك كاشتلياش، بحجة حنثه بوعده، وتآمره ضد آشور، فاستحق لذلك «تخلى الآلهة عن بلده واندحاره».

وفي إحدى المخطوطات في آشور، يتحدث توكلتي – ننورتا عن المعارك التى خاضها ضد بابل وبلاد أخرى في سومر وأكاد، ويقول:

«أجبرت كاشتلياش ملك كاردونياش على دخول المعركة فحققت هزيمة جيوشه ودحر محاربيه، وفي غمار تلك المعركة أطبقت بيدى على كاشتلياش الملك الكاشي فوطأت على عنقه الملكية مثل الكرسي وجلبته وهو مكبل وعار أمام الإله آشور.

وأخضعت بلاد سور وأكاد حتى أبعد حدودها لسلطتي فامتدت حدود أرضى إلى البحر الأسفل ذى الشمس المشرقة»(٢).

كما حاول توكلتي – ننورتا الأول التوسع في شمال سوريا، ولكنه واجه مقاومة عنيفة من جانب الحلف الذى ضم الإمارات السورية – الحيثية، ولكن

---

(٢) چورج رو وترجمة حسين علوان حسين: المرجع السابق، ص ٣٥٥.

الملك الأشورى تصدى لهذا الحلف وهزم قواته، وذكر فى إحدى كتاباته أنه قد أسر ٢٨٨٠٠٠ من قوات هذا الحلف.

ثم واجه حلفًا آخر فى الجهة الشمالية من أراضى أشور، ضم ٢٣ أميرًا، وألحق الهزيمة بقواته.

وبعد ذلك بقليل وقعت فتنة فى العاصمة أشور، مات فيها توكلتى – ننورتا ميتة شنيعة، وتوضح إحدى النصوص ذلك بالقول «أما توكلتى – ننورتا الذى جلب السوء لبابل فقد ثار عليه أشور – نادين – إيلى والنبلاء الأشوريون وخلعوه عن العرش.

وفى كار – توكلتى – ننورتا حاصروه فى قصره وذبحوه بسيفه»(٣).

وعقب مقبل توكلتى – ننورتا الأول، خلفه على العرش الأشورى أشور – نادين – إيلى.

تعرض دولة أشور للأزمات والمتاعب ومحاولة تجلات بلاسر الأول إحياء مجدها:

وقد تعرضت دولة أشور لسلسلة من الأزمات، بسبب التنازع على العرش، ولضياع بعض ممتلكاتها الشرقية، وتجمعت حولها المتاعب من جميع الاتجاهات، وكادت تقضى عليها، لولا نشاط وكفاءة بعض الملوك من خلفاء آشور – دان الأول (١١٧٩– ١١٣٤ ق.م).

تجلات – بلاسر الأول (١١١٥ – ١٠٧٧ ق. م):

وبعد أن اعتلى العرش تجلات – بلاسر الأول قام بعدة غزوات ناجحة فى الشمال والشمال الشرقى من البلاد، ووصل إلى البحر الأسود، ثم اتجه غربا نحو سواحل آسيا الصغرى وفينيقيا، وبعد ذلك أخضع بابل لسيطرته، وشمل نفوذه معظم مناطق الشرق الأدنى من الخليج إلى البحر الأسود، وسواحل البحر المتوسط.

---

(٣) چورچ رو وترجمة حسين علوان حسين: نفس المرجع، ص ٣٥٥.

وبعد وفاته توالى على العرش ملوك ضعاف ،، تدهورت أحوال الدولة فى أيامهم، وتعرضت حدودها فى الغرب لتهديدات الآراميين.

العهد الأشورى الحديث وعصر الامبراطورية:

وبعد ذلك قدّر لدولة أشور أن تنهض من جديد، وأطلق على هذه المرحلة «العهد الأشورى الحديث» ، وينقسم هذا العهد إلى دورين نهضت فيها الدولة الأشورية، وتخللتهما فترة من الضعف.

وهذان الدوران هما:

(أ) الإمبراطورية الأشورية الأولى (٩١١ - ٧٤٥ ق. م):

ومن أهم ملوكها:

أدد - نيرارى الثانى (٩١١ - ٨٩١ ق. م):

وكان نهوض دولة أشور على يديه، عندما اعتلى العرش، فعمل على تقوية الجيش ونظم شئون الدولة ولكنه لم يبلغ شأن الملوك العظام أمثال سرجون وآشور ناصر بال.

وقد عمل أدد - نيرارى الثانى على فك الحصار الذى فرضه الأعداء على مملكته، وخاض جزء تحرير شعبية مصيرية ، وبدأ فى إخضاع بعض الأقاليم المجاورة، وتمكن من إبعاد الآراميين عن وادى دجلة، واستعاد عدة مدن فى إقليم الجزيرة. كما شن حملات أخرى على كردستان، وطارد القبائل الجبلية بعيداً نحو قمم الجبال.

وهاجم مملكة بابل فى عهد ملكها شمش - مداميق، واقتطع من أراضى دولته مساحة كبيرة إلى الشمال من وادى ديالى رافد نهر دجلة.

توكلتى - ننورتا الثانى (٨٩٠ - ٨٨٤ ق. م):

وقد خلف أباه أدد - نيرارى الثانى على عرش آشور، بعد وفاته وكان متحمسا كأبيه لتوسيع نطاق دولته، ولكنه لم يعمر طويلا بما يكفى لبلوغ أهدافه.

وقاد توكلتى – ننورتا الثانى حملة ضد المقاطعات الجنوبية الغربية التى سبق أن احتلها أدد – نيرارى الثانى، وألزم الأراميين باحترام حدود الدولة الأشورية.

وعند وفاته كانت حدود الدولة الأشورية تمتد من جبال زاجروس إلى الخابور رافد الفرات فى الشمال، ومن نصيبين غربا إلى تكريت أو سامراء فى وادى دجلة.

ومن أعماله الأخرى إعادة بناء سور مدينة آشور، وتأمين طرق مواصلاته التجارية والعسكرية إلى أطراف الدولة، وتشييد بعض القلاع والحصون لحمايتها.

آشور – ناصر بال الثانى (٨٨٣ – ٨٥٩ ق. م):

وخلف توكلتى – ننورتا الثانى بعد وفاته على العرش أشور – ناصر بال الثانى، وهو من أعظم ملوك الأشوريين، رغم ما عرف عنه من القسوة مع أعدائه، وجمع كل مميزات ومساوئ الملوك العظام الذين سبقوه وقد بدأ أولى الخطوات فى تكوين الإمبراطورية، ووصلت فتوحاته إلى الجبال الشرقية والشمالية، وحصل على غنائم كثيرة، وفرض الجزية على حكامها المحليين.

وهذه قائمة بالغنائم التى حصل عليها آشور – ناصر بال الثانى أثناء حملته على مقاطعة صغيرة فى المنطقة الشمالية الجبلية:

٢٠٠٠ رأس من البقر[٤].
٥٠٠٠ رأس من الغنم
٤٠ عربة محملة بالحلى وبأسرجة الجياد
٤٦٠ جوادا مدربا
٢ تالنت من الفضة
٢ تالنت من الذهب
١٠٠ تالنت من الرصاص

(٤) چورج رو وترجمة حسين علوان حسين: نفس المرجع، ص ص ٣٨٥ و ٣٨٦.

١٠٠ تالنت من النحاس
٣٠٠ تالنت من الحديد
٣٠٠٠ من الأوانى النحاسية المتنوعة
١٠٠٠ بدلة من الكتان والصوف بألوان زاهية

عدد كبير من الموائد الخشبية، وأرائك مصنوعة من العاج المحلى بالذهب، أخذت من قصر حاكم هذه المنطقة.

وفى هذه الحملة قتل حاكم المنطقة، وفرضت الجزية على خليفته وقوامها:

١٠٠٠ رأس من الغنم
٢٠٠٠ كور من الحبوب
٢ مائتين من الذهب
١٣ مينة من الفضة

كما قاد حملة لتأديب المتمردين الذين أعلنوا العصيان فى مدينة آرامية فى وادى الخابور الأسفل، أثناء حملته ضد المناطق الجبلية الشمالية.

ووجه آشور - ناصر بال الثانى حملات تأديبية أخرى ضد المتمردين فى جبال الكاشيارى (بالمنطقة المحيطة بالسليمانية حالياً)، وفى منطقة الفرات الأوسط، وذلك خلال بعض فترات حكمه.

وبعد أن استتب الأمن فى تلك المناطق، شرع آشور - ناصر بال الثانى فى فتح سوريا وبلغ ساحل البحر المتوسط، وهو الهدف الذى كان يراود شمش - حدد الأول من قبل، وفى طريقه اجتاح مملكة بيت - أدينى الآرامية التى كانت تقع فى هذه المنطقة، وأرغم حاكمها على دفع الجزية وتقديم الرهائن للآشوريين.

وبذلك انفتح الطريق أمام الجيش الأشورى فى سنة ٨٧٧ ق. م، بقيادة أشور - ناصر بال الثانى وسار من كركميش إلى ساحل أنطاكية مروراً بجبال الأورتنس

وجبال لبنان إلى أرض آمورو، وحصل على الجزية من أهالى ساحل البحر وبعض الجزر القريبة، «واستلمتها منهم بعد ما عانقوا قدمى»، كما جاء فى كتابته عن هذه الحملة.

وبعد ذلك عاد الأشوريون إلى موطنهم عن طريق جبال الأمانوس، حيث قطعوا منها الأشجار وأرسلت إلى مدينة أشور، ونصبت مسلة ملكية فى هذا المكان.

وقد اتبع أشور - ناصر بال الثانى سياسة الإرهاب بأكثر من غيره من الملوك الأشوريين، لإخضاع شعوب هذه المناطق، ومن ذلك قتل الحكام والعصاة، وسلخ جلودهم ونشرها على أسوار المدن، وتعذيب المسجونين الأسرى، والمدنيين الأبرياء، من الرجال والنساء والأطفال، وقال فى ذلك:

«أقمت عموداً على بوابة مدينته وسلخت جلود كل الرؤساء المتمردين وكسوت العمود بها، وبنيت بعضهم داخل العمود، وخوزقت عليه آخرين، وأوثقت بعضهم حول العمود ... وبترت أوصال الضباط ... الضباط الملكيين الذين أعلنوا العصيان، وحرقت العديد من أسراهم بالنار واتخذت الكثير منهم عبيدا، وجدعت أنوف بعضهم، وقطعت آذانهم وأصابعهم، وقلعت عيون آخرين، وصنعت عموداً من الأحياء وآخر من الرؤوس، كما علقت جماجمهم على جذوع الأشجار حول المدينة، ثم أحرقت شبابهم وشاباتهم بالنار .. أمسكت بعشرين رجلا ودفنتهم أحياء فى جدران قصره .. أما بقية جنوده فقد أهلكتهم عطشا فى صحراء الفرات ....»(٥).

إصلاحات آشور - ناصر بال الثانى الداخلية:

أدخل أشور - ناصر بال الثانى إصلاحات كثيرة فى الجيش وفى النظام الإدارى، فاستخدم الخيالة على نطاق واسع فى الجيش. كما قسم البلاد إلى عدة ولايات، وعين لحكم كل منها أحد الولاة.

---

(٥) چورج رو وترجمة حسين علوان حسين: نفس المرجع، ص ص ٣٩١ و ٣٩٢.

ومن أعماله الإنشائية والعمرانية، ترميم معابد مدينتى أشور ونينوى، وجدد بناء مدينة كالح (غرود حاليا)، التى أسسها شلمنصر الأول فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وتقع على بعد ٢٢ ميلا جنوب الموصل، وتتميز بموقع استراتيجى ممتاز، حيث يحميها نهر دجلة من الغرب، والزاب الأعلى من الجنوب.

واستخدم أشور - ناصر بال الثانى آلاف العمال فى تجديد بناء مدينة كالح، وبنى حولها حائطا متينا يبلغ طول محيطه نحو خمسة أميال، ودعمه بمجموعة من الأبراج، وبنى فيها عدداً من المعابد.

وجرى شق قناة من الزاب الأعلى لرى السهل المحيط بها، وأسكن بها مجموعات من الأسرى جئ بهم من المناطق التى أخضعها. وقد قرر أشور - ناصر بال الثانى جعل هذه المدينة بعد تجديدها، عاصمة له التى أصبحت تحت حماية الإله ننورتا، وهو إله الحرب.

وفى العاصمة الجديدة بنى قصرا ملكياً فخماً، تحدث عنه أشور - ناصر بال الثانى فى إحدى كتاباته، قائلاً:

«قصر مشيد من خشب السرو والأرز والعرعر والبقس والتوت والفستق والطرفاء، بنيته منزلا ملكياً لمتعتى الجليلة لكل العصور، وصورت وحوش الجبال والبحار على حجر الكلسى ووضعتها فى أبوابه .. وعلقت عليها أغصان أشجار الأرز والسرو والتوت والعرعر، ونقلت إليه الذهب والفضة والرصاص والنحاس والحديد، وهى الغنائم التى استحوذت عليها بنفس وبكميات كبيرة من البلدان التى أخضعتها»(٦).

وهذا القصر كان ينقسم إلى ثلاثة أقسام، هى الأجنحة الإدارية، وجناح الاحتفالات والمراسيم وغرفة العرش، فالجناح العائلى، ويضم شققا ملكية وغرفاً للحريم، ومخازن ودورات للمياه.

وكانت جدران القصر مزينة بألواح كبيرة من الرخام، نقشت عليها مناظر

---

(٦) جورج رو وترجمة حسين علوان حسين: نفس المرجع، ص ٣٩٣.

تمثله فى حروبه وفى رحلات الصيد، كما تمثل صور الأمراء الذين قدموا إليه، يعلنون الخضوع له، وحملوا معهم الهدايا والجزية.

وفى أروقة القصر، وأمام بواباته الرئيسية، نصبت تماثيل ضخمة، منها ثور مجنح كبير، وأسود وحيوانات ضخمة أخرى خرافية، وهذه التماثيل وتحف أخرى التى تم اكتشافها، فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، تم نقلها إلى انجلترا، وأودعت بالمتحف البريطانى حاليا.

وبداخل القصر نصبت مسلة ضخمة نقشت عليها صورة الملك، ودونت ،عليها نقوش تبين أعماله خلال السنوات الخمس الأولى من حكمه، كما صورت عليها الاحتفالات الفخمة التى أقيمت بمناسبة افتتاح المدينة رسميًا فى عام ٨٧٩ ق. م.

وبهذه المناسبة أعد أشور - ناصر بال الثانى وليمة فخمة حضرها جميع سكان المدينة والسفراء الأجانب، ويذكر أن عدد الذين حضروا هذه المآدب التى استمرت طوال عشرة أيام، ٦٩٥٧٤، شخص وتحدث عنها أشور - ناصر بال الثانى فى إحدى كتاباته، قائلا:

«أولمت للشعب السعيد من كل البلاد مع شعب كالحو لعشرة أيام وقدمت لهم الشراب وحممتهم وعطرتهم وشرفتهم، ثم أعدتهم إلى بلادهم بسلام وحبور»[(٧)].

شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق. م):

خلف شلمنصر الثالث والده أشور - ناصر بال الثانى على العرش بعد وفاته، ودام حكمه ٣٥ عامًا. ويتفوق شلمنصر الثالث على والده فى كثرة حملاته الحربية وفى سعة مداها، فقد قضى واحدًا وثلاثين عامًا من مدة حكمه فى شن الحروب، ووصلت جيوشه إلى أماكن نائية لم تبلغها من قبل، فى أرمينيا وكليكيا وفلسطين، وفى وسط جبال طوروس وزاجروس، وعلى سواحل الخليج العربى،

(٧) چورچ رو وترجمة حسين علوان حسين: نفس المرجع، ص ٣٩٥.

واستولت على أراضى جديدة، وحاصرت مدنا جديدة، ووصلت إلى منابع دجلة والفرات.

ولكن جيوش شلمنصر الثالث تعرضت لعدة إخفاقات فى مواجهة الأعداء الأقوياء الجدد فى عدة مواقع، مما أضعف من قيمة انتصاراتها. ومع توغل جيوش شلمنصر الثالث فى أراضى مملكة أورارتو فى وسط جبال أرمينيا، فلم تستطع تحقيق نصر كامل، وتمكن ملكها ويدعى آرامى، من الفرار.

كما أخفقت المحاولات المتكررة التى قام بها شلمنصر الثالث لغزو سوريا، بعد أن تمكن الحيثيون الجدد والأمراء الآراميون من تقوية أنفسهم، وتوحدت جهودهم لصد الخطر الجديد من جانب الأشوريين.

وقد تطلب الأمر توجيه ثلاث حملات متتالية من أجل القضاء على مملكة بيت – أدينى، وتم الاستيلاء على عاصمتها تلبارست (تل أحمر حاليا)، فى عام ٨٥٦ ق. م، واستوطنها الأشوريون، وأطلقوا عليها اسم «كار – شلمان – شارد» أى (رصيف شلمنصر)، وعلى قمة التل المطل على نهر الفرات شيد قصر استخدم كقاعدة انطلاق للعمليات العسكرية ضد الجبهة الغربية.

وعندما توغل شلمنصر الثالث فى سهل سوريا الأوسط فى عام ٨٥٣ ق. م، واجه مقاومة عنيفة من جانب أمير حماه ارحو – لينى، وأمير دمشق أور – إدرى، وشاركت فى هذه المواجهة جيوش اثنى عشر ملكا من ملوك ساحل البحر، بلغ عددها ٦٢,٩٠٠ مقاتل من المشاة و ١٩٠٠ من الفرسان، و ٣٩٠٠ عربة قتال و ١٠٠٠ جمل أرسلها «جنديبو فى شبه الجزيرة العربية»، واشتبك الجيشان فى قرقرة على نهر العاصى، ولاتبعد كثيراً عن حماه. ويصف شلمنصر الثالث هذه المعركة فى كتاباته قائلاً:

«ذبحت ١٤,٠٠٠ من محاربيهم بالسيف، وأمطرتهم، مثل أدد، بالهلاك .. كان السهل أضيق من أن يسمح لأجسادهم بالسقوط، كما ضاق الريف الفسيح بدفنهم، وذرعت نهر العاصى بجثثهم مثل الجسر»[8].

(٨) چورج رو وترجمة حسين علوان حسين: نفس المرجع، ص ٣٩٨.

ولكن شلمنصر الثالث عجز عن احتلال حماه ودمشق، وبعد ذلك بمدة أربعة إلى ثمانية أعوام، أرسل حملات أخرى ضد حماه، لم تنجح فى دخول المدن الرئيسية.

وفى عام ٨٤١ ق. م هاجمت قوات شلمنصر الثالث دمشق، على أثر اغتيال ملكها أدد - إدرى، واستبداله بالملك هزايل، الذى هزم فى موقعة جبل سانر (حرمون)، ولكنه التجأ إلى عاصمته واعتصم بها.

وفى هذه الحالة اقتصر عمل شلمنصر الثالث على تخريب الحدائق والبساتين المحيطة بدمشق، ونهب سهل حوران.

وبعد ذلك سار بجيشه صوب ساحل البحر نحو جبل الكرمل، واستلم الجزية من ثيرا (صور)، وسيدون (صيدا)، ومن ملك إسرائيل أياوامار حمرى وقد اضطر الأشوريون إلى التخلى عن سوريا بعد أن فشلوا فى غزوها.

أما فى بابل، فكان شلمنصر الثالث أو فرحظا، ولكنه لم يستثمر نجاحه، وضيع فرصة مواتية لمملكته، ذلك أنه فى عام ٨٥١ ق. م، نشب نزاع بين ملك بابل مردوخ - زاكر - شومى وشقيقه الذى كان يساعده الآراميون، فطلب ملك بابل العون من الآشوريين، فقام شلمنصر الثالث بدحر المتمردين، ودخل مدينة بابل، وقدم الضحايا فى معبد الإله مردوخ، ومعابد أخرى، وعامل سكان تلك البلاد بكرم ورعاية، وقال فى ذلك:

«أعدت لشعب بابل وبارسيبا المحمى، أحرار الآلهة العظيمة، وليمة فخمة، فقدمت لهم الطعام والشراب، وكسوتهم بالحلل الزاهية وقدمت لهم الهدايا»(٩).

وبعد ذلك توغلت قوات شلمنصر الثالث فى داخل بلاد سومر، وهزم أعداء بابل ولاحق فلولهم حتى ساحل الخليج العربى.

وعلى أثر هذه الحملة التأديبية، أقسم مردوخ - زاكر - شومى يمين الولاء لحاميه ملك آشور، وهو يلهج بالشكر له والعرفان بجميله، وبقى محتفظاً بعرشه.

(٩) جورج رو وترجمة حسين علوان حسين: نفس المرجع، ص ٣٩٩.

وفى ذلك الوقت كان من الممكن، وبسهولة، تحقيق وحدة وادى الرافدين، شماله وجنوبه، فى ظل السيادة الأشورية، ولكن شلمنصر الثالث، ولسبب مجهول - اكتفى بسيادة إسمية من بابل، وكل ما غنمه الآشوريون من تلك الحملة مدينتان، وبضع مقاطعات تقع على الحدود بين المملكتين. وبذلك أصبحت الدولة الأشورية يحدها من الجنوب ديالى رافد نهر دجلة، ومن الغرب نهر الفرات، ومن الشرق سلاسل جبال زاجروس، ومن الشمال جبال طوروس.

الاضطرابات الداخلية فى الدولة الأشورية فى أواخر عهد شلمنصر الثالث:

وفى أواخر عهد شلمنصر الثالث وقعت إضطرابات داخلية خطيرة فى داخل الدولة الأشورية، أدت إلى زعزعة هيبة الدولة فى الداخل والخارج. ذلك أن أحد أبنائه المدعو وأشور - دانين - أبلو، قد ثار عليه، سنة ٨٢٧ ق. م بمساندة سبع وعشرين مدينة من بينها آشور ونينوى واربيل وعرفه (كركوك حاليا)، فعهد الملك المسن إلى إبنه الثانى شمش - أدد بمهمة إخماد حركة العصيان التى قادها أخوه أشور - دانين - أبلو.

وقد انتشرت الحرب الأهلية فى أنحاء الدولة، واستمرت طوال أربعة أعوام كاملة، وأثناء ذلك توفى شلمنصر الثالث فى سنة ٨٢٤ ق. م، وخلفه على العرش إبنه شمش - أدد الخامس.

وهذه الثورة كانت موجهة ضد الحكام المحليين وكبار موظفى البلاط الذين تجاوزوا حدود سلطاتهم.

وفى آخر الأمر تغلب شمش - أدد الخامس على أخيه الثائر، وتمكن من قمع هذا التمرد، ولكن تلك الاضطرابات أدت إلى فقدان دولة أشور لبعض مقاطعاتها البعيدة، التى أعلنت إلغاء «الحماية الأشورية»، وإيقاف دفع الجزية.

وفى تلك الأثناء ظلت بابل على ولائها، لأشور وتعززت العلاقات بين البلدين بزواج شمش - أدد الخامس من أميرة بابلية تدعى سامورامات، التى حظيت بشهرة كبيرة، وأطلق هيرودوت عليها فيما بعد إسم «سميراميس»، ونسج حولها أسطورة، صورت فيها على أنها «أجمل وأقسى وأقوى وأكثر ملكات الشرق

عشقا»، وتسب إليها تحقيق إنجازات هائلة وانتصارات، هى فى الأصل من أعمال الملوك الأشوريين السابقين واللاحقين.

ركود الدولة الأشورية:

بعد أن تولى شمش – أدد الخامس الحكم (٨٢٤ –٨١١ ق. م)، بدأت فترة من الركود السياسى للدولة الأشورية استمرت حوالى قرن من الزمان.

وكان شمش – أدد الخامس قد قضى معظم فترة حكمه فى تأكيد سلطته على حكام المقاطعات الجبلية فى الشمال والشرق الذين استغلوا فرصة انشغال الأشوريين فى الحرب الأهلية، وحاولوا الخروج على الحماية الأشورية، وأوقفوا دفع الجزية لهم.

وأخيراً أمكن إعادة السلام والنظام للدولة، دون أن يطرأ تغيير كبير على الإدارات المحلية، ولا على الحكومة المركزية، وترتب على غياب الاستقرار الاجتماعى إثارة أعمال الشغب والعصيان من حين لآخر.

وكان أدد – نيرارى الثالث (٨١٠ – ٧٨٣ ق. م) غلاماً صغيراً عندما آل إليه العرش بعد وفاة أبيه شمش – حدد الخامس، وصارت أمه سامورامات وصية عليه، وطوال خمس سنوات تسلمت مقاليد الحكم.

ولما بلغ أدد – نيرارى الثالث السن التى تؤهله للقيام بواجباته الملكية، بادر بالهجوم على سوريا، ودخل دمشق، واستلم الجزية من ملكها بن حداد الثالث. كما فرض الجزية على الحيثيين الجدد، والفينيقيين، واليهود، والميديين والفرس. ولم تكن هذه الحملات سوى هجمات تأديبية، ولم تترتب عليها فتوحات مستديمة.

وكانت وفاة أدد – نيرارى الثالث المبكرة، بداية لفترة طويلة من التدهور للدولة الأشورية.

وقد توالى على عرش أشور بعد وفاة أدد – نيرارى الثالث أربعة من أولاده، هم شلمنصر الرابع (٧٨٢ – ٧٧٢ ق. م)، الذى كانت سلطته محدودة إلى حد

كبير. والإبن الثانى آشور – دان الثالث (٧٧١ – ٧٥٤ ق. م)، **قام بحملات** غير موفقة على سوريا، وتفشى وباء الطاعون فى عهده، واندلاع الاضطرابات فى مدينة أشور وعرفة وكوزانا (تل – حلف حاليا).

والإبن الثالث أشور – نرارى الخامس (٧٥٣ – ٧٤٦ ق. م)، كان يلازم قصره فى معظم الأوقات، وأغلب الظن أنه لاقى حتفه فى الثورة التى نشبت فى العاصمة كالحو، فنصب مكانه أخوه الأصغر تجلات – بلاسر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧ ق. م)، فأعاد للدولة الأشورية مجدها.

ولفترة خمسة وثلاثين عاما قبل تولى تجلات – بلاسر الثالث الحكم (٧٨١ – ٧٤٥ ق. م)، كانت قوة الدولة الأشورية مشلولة من الناحية العملية، وخلال تلك الفترة حصلت تغييرات هامة فى أوضاع منطقة الشرق الأدنى، شملت بابل، وسوريا، وإيران.

ولكن أهم تلك التطورات جرت فى أرمينيا، حيث تحولت أورارتو من إقليم صغير إلى مملكة قوية، ولم تلبث أن اتسعت حدودها، واعترفت بسيادتها الدويلات المجاورة، وأخذت تدفع لها الجزية.

وكان لبزوغ هذه الدولة القوية تأثير حاد على حالة الركود التى أصابت الدولة الأشورية، بسبب الدور البارز الذى كانت تمارسه مملكة أورارتو فى سياسة واقتصاد منطقة الشرق الأدنى، مما كان يعتبر مصدر قلق دائم للأشوريين، بل وتحديا لهم.

(ب) الإمبراطورية الأشورية الثانية (٧٤٥ – ٦١٢ ق. م)

ومن أهم ملوكها:

تجلات – بلاسر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧ ق. م):

وقد وجدت فيه الدولة الأشورية المنقذ الذى جاء ليخلصها من حالة الركود التى أصابتها، بما عرف عنه من الشجاعة والحذق، وبعد النظر. وكان تجلات – بلاسر الثالث يعرف جيداً مواطن الضعف فى الدولة، وعمل بجدية لعلاجها، ثم سعى لدرء الأخطار المحدقة بالدولة، ولإعادة مجد الدولة الأشورية.

التنظيمات الإدارية والعسكرية التى أدخلها تجلات - بلاسر الثالث:

وقد أعاد تنظيم الجيش لزيادة مقدرته القتالية، وأجرى إصلاحا إداريا لضمان سلامة الدولة داخليا.

وكان برنامج الإصلاح الإدارى الذى بدأ تطبيقه تدريجيا بعد عام ٧٣٨ ق.م، يستهدف تقوية السلطة الملكية، والحد من النفوذ المتعاظم للأمراء الكبار، وتمثل ذلك فى مضاعفة عدد المقاطعات فى الدولة، وتصغير حجم رقعتها.

أما البلدان الواقعة خارج حدود الدولة، والتى أخضعها تجلات - بلاسر الثالث فى حملاته العديدة، فقد عين لها ولاة أشوريون، بدلا من حكامها المحليين، وجرى إلحاقها بقدر الإمكان، بولايات الدولة الأشورية، وعوملت على أساس أنها أشورية تماماً، ومنح حاكمها لقب «سيد مقاطعة»، وأصبح مسئولا عن تصرفاته أمام الملك مباشرة.

أما البلدان والشعوب التى تعذر دمجها فى رقعة الدولة، فقد استبقيت فيها حكوماتها المحلية، مع وضعها تحت رقابة مشرف من طرف الدولة.

كما تم إنشاء نظام محكم للاتصالات بين القصر الملكى والمقاطعات التابعة للدولة، فكانت تقارير ورسائل الحكام ورؤساء المقاطعات أو نوابهم، تنقل باستمرار عن طريق الرسل العاديين، إلى الملك وكبار رجال البلاط، ثم يعودون حاملين أوامر الملك إليهم.

وفى بعض الأحيان، كان الملك يبعث بممثله الشخصى إلى هؤلاء الحكام، فى المسائل السرية والقضايا المهمة، وله حق التصرف بحرية لمعالجة هذه الأمور.

وكان لرؤساء المقاطعات وحكامها سلطات عسكرية وقضائية وإدارية ومالية كبيرة، وذلك فى نطاق منطقتهم الصغيرة، بينما احتفظت السلطة المركزية لنفسها بحق التدخل فى أى وقت، وفى جميع المسائل تقريبا.

وكانت المهمة الأساسية لرؤساء وحكام المقاطعات، تأمين تسليم دفعات دائمة من الجزية والضرائب، بالإضافة إلى الواجبات الأخرى التى كان يلتزم بها الآشوريون والأجانب على حد سواء.

كما كانوا مسئولين عن ضمان سيادة القانون والنظام، وتنفيذ أعمال الخدمات للمواطنين، وتجنيد العساكر فى مقاطعاتهم، وكان لهذا الأمر الأخير أهمية بالغة للدولة.

وكان الجيش الأشورى يتألف أساسًا من المزارعين والعبيد، الذين يستغنى عنهم ملاك الأراضى الأشوريون، ويلحقون بخدمة الملك أثناء الحملات السنوية.

وفى عهد تجلات - بلاسر الثالث، أُستبدل جيش السخرة هذا بجيش دائم، وأصبح يتكون أساساً من فرق عديدة، تمثل كل فرقة منها إحدى مقاطعات الدولة، وترتب على ذلك مضاعفة قوات الدولة الأشورية.

ولكن هذا الجيش الضخم كان يفتقر إلى التنظيم والانضباط، ذلك أن العناصر الأجنبية التى كان يضمها، لم يكن يعتمد عليها، وأصبح هذا الجيش فى المدى البعيد، صعب الانقياد، وانخفض مستوى بأسه وقوته عن ذى قبل.

سياسة الترحيل الجماعى للأجانب غير المرغوب فيهم:

ولكى يمنع حالات التمرد والعصيان، أدخل تجلات - بلاسر الثالث، ولأول مرة سياسة الترحيل الجماعى للأجانب غير المرغوب فيهم، بالقوة إلى مناطق بعيدة عن مواطنهم الأصلية، وإستبدالهم بجماعات أخرى جلبت بالإكراه من مواطن أخرى، وكان الهدف من ذلك تجريدهم من الشعور الوطنى، والتخلى عن الآلهة والتقاليد المحلية، بحيث يمكن مزج سكان الامبراطورية بعضهم ببعض.

وبهذه الطريقة جرى تفريغ مدن ومقاطعات كاملة من سكانها، ونقلوا قسراً إلى جهات نائية، وحل مكانهم جماعات أخرى من جهات غيرها.

وخلال عامى ٧٤٢ و ٧٤١ ق. م، جرى نقل ٢٠ ألف سورى من منطقة حماه إلى جبال زاجروس، كما تم تهجير ١٨ ألف آرامى من الضفة اليسرى لنهر دجلة إلى منطقة شمال سوريا.

وفى عام ٧٤٤ ق. م، تم ترجيل ٦٥ ألف شخص فى إيران، فى حملة

واحدة وفى عام آخر تم تهجير ١٥٤ ألف شخص على الأقل، فى القسم الجنوبى من وادى الرافدين.

وتصور لوحات أشورية منحوتة على حجر البازلت، مشاهد مؤلمة لهؤلاء المهجرين البائسين، وهم يحملون على أكتافهم حقائب صغيرة، ويمسكون أطفالهم بأيدهم، ويسيرون فى طابور طويل يحيط به العسكر، وتتبعهم زوجاتهم محمولات على عربات، وقد مات كثير منهم بسبب المعاناة الشديدة أثناء قطع المسافات الطويلة تحت وهج الشمس الحارقة وقد اتبع خلفاء تجلات - بلاسر الثالث هذه السياسة القاسية، ولكنها فى النهاية لم تمنع اندلاع حركات العصيان والتمرد وتفاقمها، وإلى جانب الحروب المدمرة، أدت إلى تزايد النقمة على الأشوريين، من قبل شعوب الشرق الأدنى القديم.

حروب تجلات - بلاسر الثالث واتساع الإمبراطورية الأشورية فى عهده:

يعتبر تجلات - بلاسر الثالث المؤسس الحقيقى للإمبراطورية الأشورية، فقد قضى معظم أيامه فى الحروب، وتمكن من تحطيم الحلفاء السوريين لأورارتو والميديين، وضم مناطق جديدة إلى الممتلكات الأشورية، وترك إمبراطورية واسعة عند مماته.

وكانت أولى حملاته موجهة نحو جنوب العراق، وأزاح عن بابل ضغط الآراميين، وأخضع مدن سومر وأكّاد لسيطرته، من سيّار إلى أوروك.

ثم اتجه تجلات - بلاسر الثالث نحو سوريا، وهاجم حلف الحيثيين الجدد مع الآراميين بقيادة متيع - إيلو حاكم أرفاد الذى كان يتبع ملك أورارتو القوى سردور الثالث، فخف لمساعدة حليفه حاكم أرفاد، ولكنه منى بهزيمة منكرة قرب سمسات على ضفة نهر الفرات، وهرب سردور الثالث على ظهر فرسه «ليلا ولم يعد يرى»، وفرض تجلات - بلاسر الثالث حصارا على أرفاد، واستمرت هذه المدينة تقاوم لمدة ثلاثة أعوام مسواصلة، قبل أن تستسلم فى عام ٧٤١ ق.م، وأصبحت عاصمة لمقاطعة أشورية جديدة

وفى عام ٧٤٢ ق. م أمكن ضم الأجزاء الغربية من سوريا، وربما فينيقيا أيضاً، إلى الإمبراطورية الأشورية، بعد هزيمة أزرياو ملك يعديه (سمعال حاليا) وحلفائه على الساحل السورى.

وهذه الهزيمة قد أصابت الكثير من الأمراء المحليين المجاورين بالرعب، فسارعوا إلى تقديم الهدايا والإتاوات إلى تجلات - بلاسر الثالث، ومنهم راسونا ملك دمشق، ومناحيم ملك إسرائيل.

وبعد أن تغلب على الحلفاء السوريين لمملكة أورارتو، وجه تجلات - بلاسر الثالث حملاته شرقا، وذلك خلال أعوام ٧٤٤ و ٧٣٩ و٧٣٧ ق. م، وتمكنت من ضم معظم مناطق جبال زاجروس الوسطى إلى الامبراطورية الأشورية، ووصلت إحدى الحملات عبر الهضبة الإيرانية إلى قلب المنطقة التى كان يستعطنها «الميديون الأقوياء»، وذلك لأول مرة يوجه فيها الجيش الأشورى إلى مثل هذا المسار البعيد

وقد عثر على بقايا قصر لتجلات - بلاسر الثالث، قرب نهاوند، يدل على اهتمامه الكبير بالمقاطعات الإيرانية

وفى حوالى عام ٧٣٥ ق م ، شن تجلات - بلاسر الثالث هجوما على مملكة أورارتو، وحاصر عاصمتها تشبا (قرب وان حاليا)، دون أن يظفر بها.

وفى عام ٧٣٤ ق. م، توجه تجلات - بلاسر الثالث مرة أخرى إلى ساحل البحر المتوسط، عندما اضطربت الأوضاع هناك، على أثر قيام تحالف معاد للآشوريين، ضم ملوك وأمراء هذه المنطقة، فى صور وصيدا وعسقلون وغزة، وتمكن تجلات - بلاسر الثالث من دحر المتمردين، وفى المعركة قتل أمير عسقلون، وهرب أمير غزة إلى مصر، وقام أمراء إيدوم ومؤاب ويهوذا وغيرها بدفع الجزية إلى الملك الأشورى.

وفى عام ٧٣٢ ق. م طلب ملك يهوذا ويدعى آهاز، النجدة من الآشورين ضد أعدائه فى دمشق ومملكة إسرائيل، وتمكن تجلات - بلاسر الثالث من

احتلال دمشق، وضم نصف مملكة إسرائيل إلى الإمبراطورية الأشورية، ونصّب هوشيا ملكًا على سماريا (السامرة حاليًا).

ضم بابل لأشور وتولى تجلات - بلاسر الثالث الحكم منها:

وفى غضون ذلك وقعت اضطرابات فى جنوب العراق، بعد وفاة الملك البابلى نبوخذ - نصر فى عام ٧٣٤ ق. م، فادعى أوكين - زير، وهو زعيم آرامى، أحقيته فى عرش بابل، وفشل الأشوريون فى زحزحته بالوسائل السلمية، عن عرش بابل.

وعلى أثر ذلك قاد تجلات - بلاسر الثالث حملة ضد هذا الزعيم الآرامى وألحق به الهزيمة، وخرب منطقة قبيلته، ثم عزم على أن يحكم بابل بنفسه.

وفى بداية عام ٧٢٩ ق. م، نصّب تجلات - بلاسر الثالث ملكًا على بابل، بعد أن «أخذ يد مردوخ».

وبعد عامين من هذا الحدث، توفى تجلات - بلاسر الثالث، «وذهب إلى مصيره»، على حد تعبير البابليين.

سرجون الثانى (٧٢١ - ٧٠٥ ق. م)

يكتنف الغموض الظروف التى جاءت بسرجون الثانى إلى عرش الدولة الأشورية، بعد وفاة شلمنصر الخامس (٧٢٦ - ٧٢٢ ق. م) الذى خلف أباه تجلات - بلاسر الثالث بعد وفاته، ولم يحدث فى عهده سوى عصيان المملكة الإسرائيلية، فقام بمحاصرة مدينة السامرة لمدة ثلاث سنوات، وسقطت فى الغالب فى يد خلفه سرجون الثانى. وكان شلمنصر الخامس قد اضطر إلى العودة إلى آشور، على أثر الاضطرابات التى وقعت فيها، وأدت إلى مقتله.

غير معروف أصل خليفة شلمنصر الخامس، وهل كان مغتصباً للعرش، أم أنه كان أحد أبناء تجلات - بلاسر الثالث. وهذا الملك الجديد اتخذ لنفسه اسم سرجون (شارو - كين) تشبها بإسم سرجون الأكّادى.

وفى بداية عهده قامت الثورات فى أنحاء كثيرة من الإمبراطورية الأشورية، بمساندة الحكام العيلاميين والمصريين، الذين تحالفوا مع حكام أورارتو ضد الدولة الآشورية.

وكانت عيلام قد قطع عنها طرق التجارة الوحيدة الباقية لها، على أثر توغل تجلات - بلاسر الثالث بداخل الهضبة الإيرانية، بينما حرمت مصر من فينيقيا التى فتحها تجلات - بلايسر الثالث.

وبعد أن قضى سرجون الثانى على الاضطرابات الداخلية، فى العام الأول من حكمه، وأعفى المواطنين الآشوريين من «الاستدعاء لحمل السلاح، ومن طلبات جابى الضرائب».

وفى العام التالى قاد سرجون الثانى حملة ضد أعدائه، واشتبك معهم فى دير (بدره) بين نهر دجلة، وجبال زاجروس، وتذكر مدوناته أنه قد أحرز نصراً ساحقاً على العيلاميين، بينما تؤكد وثيقة بابلية أن الآشوريين قد خسروا هذه المعركة مع العيلاميين.

وقد تمكن سرجون الثانى من إخضاع عدة مدن ومقاطعات فى كرمنشاة وهمدان، وفرض الجزية على الميديين، وذلك فى عام ٧١٣ ق. م.

وكانت مملكة أورارتو فى الشمال مستمرة فى القيام بدور المنافس الرئيس للآشوريين، وتتربص بهم الدوائر، ولاتكف عن بث الاضطرابات فى المناطق الجبلية الوعرة، ونجح حكامها فى استبدال الحكام الموالين للآشوريين بحكام آخرين متحالفين معهم، وذلك خلال الفترة بين عامى (٧١٩ - ٧١٥ ق. م).

وإزاء ذلك أرسل سرجون الثانى حملة كبيرة ضد مملكة أورارتو وحلفائها بالمنطقة فى عام ٧١٤ ق. م، وكان تنقل الجيش الأشورى فى أعالى جبال كردستان، عملية شاقة محفوفة بالمخاطر، بسبب وعورتها، وتربص الأعداء فيها للأشوريين.

ويتحدث سرجون الثانى عن هذا الموقف الصعب فى إحدى نصوصه، قائلاً:

«تتطاول القمة العظيمة لجبل سيمريا، موطن بلت - إيلانى الشامخة كسنان الرمح فوق غيرها من الجبال، فيرتفع ذراها فى أعالى السماء، ويغوص جذرها إلى مركز العالم الأسفل ...

وبفضل العلم والعزم الشديد الذى حبانى بهما الإلهان أيا وبلت إيلانى - اللذين أطلقا ساقى كى أطيح بالأعداء، زودت روادى بمعاول من البرونز فتطايرت جرف الجبال العالية كالشظايا، وجرى توسيع الممر، عند ذاك تسنمت قيادة جيش، وجعلت العربات والفرسان والمقاتلين على جوانبى يحلقون فوق الجبل كالنسور الباسلة»(١٠).

وقد عبر سرجون الثانى بجنوده الأنهار والجبال، وخاض معارك حامية، وتمكن من إلحاق الهزيمة بمملكة أورارتو، واستولى على مدينة مصاصير جنوب بحيرة وان، وهى من أقدس مدن أورارتو، وأخذ معه تمثال إلهها الوطنى هالديا. وعقب ذلك انتحر ملكها أورسا «وبخنجره طعن نفسه فى القلب كالخنزير وأنهى حياته»

ولكن الأورارتيون استطاعوا بث روح العداء ضد الآشوريين فى مواطن أخرى، كما حدث فى كركميش بعد ذلك.

أما فى المقاطعات السورية، التى أعلنت العصيان بقيادة ملك حماة، وملك غزة، بمساعدة جيش مصرى، فقد تمكن سرجون الثانى سنة ٧٢٠ ق.م من دحرها بعد هزيمة ملك حماة، والقبض على ملك غزة «وسلخ جلده بينما هرب القائد المصرى» وحيداً واختفى مثل راع سرق قطيعه».

وبعد ذلك بثمانى سنوات، وقع عصيان آخر فى فلسطين، بمساعدة الملك المصرى، وبقيادة ملك أشدود، وكان النصر حليف سرجون الثانى فى هذه المرة أيضاً، وهرب أيامانى ملك اشدود إلى مصر، ولكن قبض عليه هناك، وسلمّه الملك

(١٠) جورج رو وترجمة حسين علوان حسين: نفس المرجع، ص ص ٤١٨ و ٤١٩.

النوبى مغنجى الذى أصبح سيداً على وادى النيل، «فجلب إلى آشور مكبلا بالأصفاد».

وبحلول عام ٧١٠ ق. م، كان سرجون الثانى قد سيطر على كل الجهات، وأصبحت كل أقاليم سوريا وفلسطين، ماعدا مملكة يهوذا وجميع مناطق جبال زاجروس؛ في قبضة الآشوريين.

وقد ظلت بابل وحدها تقاوم نفوذ الأشوريين تحت حكم ملكها مردوخ - أبال - أدنيا، لمدة عامين، وبمساعدة قبائل بلاد سومر.

وأخيراً تمكن الجيش الآشورى من محاصرة ملك بابل فى دور - أياكين (تل لحم)، وجرح في يده، و «نفذ من باب مدينته كما تنفذ الفئران من الجحور»، والتجأ إلى أرض عيلام، وعقب ذلك دخل سرجون الثانى بابل، «وأخذ يد بعل»، كما فعل تجلات - بلاسر الثالث من قبل.

وكان لهذا الانتصار وقع بليغ فى كل الممالك المجاورة، التى أسرع ملوكها فى إرسال الهدايا إلى آشور، وطلبوا صداقة ملكها سرجون الثانى، ومنهم ملك البحرين وملك القبرص.

وبذلك فشلت كل المحاولات المتكررة لتقويض الدولة الأشورية وفى نهاية عهد سرجون الثانى، أصبحت آشور أقوى مما كانت عليه فى أى وقت مضى.

ومن الأعمال العمرانية التى قام بها سرجون الثانى، تشييد قصر خاص به فى عام ٧١٧ ق. م، فى مدينته الخاصة، التى أطلق عليها إسم «دور - شاروكين» أى «حصن سرجون»، وتبعد خمسة عشر ميلا إلى الشمال الشرقى من مدينة نينوى.

ويتكون قصره من مائتى غرفة وثلاثين صالة، وبداخل المدينة والعاصمة الجديدة شيدت ستة معابد للآلهة، وبنيت بيوت فخمة لكبار الموظفين، وكانت التماثيل الضخمة للثيران المجنحة تحرس أبواب القصر الملكى وأبواب المدينة، وتزين جدران القصر الملكى منحوتات بارزة من الجص.

وقد تم إنجاز مدينة دور - شاروكين فى خلال عشر سنوات ولكن لم تكد تمضى سنة على افتتاحها رسميا، حتى «سار سرجون لحرب تابال فقتل هناك».

وآثر خلفاء سرجون الثانى؛ اتخاذ نينوى عاصمة لهم بدلها، ولم تلبث أن صارت خرابا وهجرها سكانها.

خلفاء سرجون الثانى

سنحاريب

بعد وفاة سرجون الثانى خلفه على العرش ولده سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق. م)، الذى واجه فى بداية عهده خطرين، من جانب بابل التى كانت تحاول الاستقلال مرة ثانية، ومن جهة ولايات ،سوريا وفلسطين.

وقد تمكن سنحاريب من قمع حركات التمرد، ثم تجددت الانتفاضات فى بابل بمساعدة العيلاميين، وفى سوريا وفلسطين بمساعدة، مصر، فى أواخر عهده.

وكان النصر حليف سنحاريب فى هذه المرة أيضًا، وقام بتدمير بابل سنة ٦٨٩ ق. م، وهى المدينة المقدسة، والعاصمة الثانية للإمبراطورية.

وفى عام ٦٨١ ق. م، قاد سنحاريب جيشًا كبيراً باتجاه فلسطين، حيث غزا المدن الساحلية، ،ثم حاصر بين المقدس، ولكن وباءا خطيراً تفشى بين قواته، ووصلت أبناء بوقوع اضطرابات فى عاصمة بلاده، فاضطر إلى العودة إليها مع ما تبقى من جيشه، وهناك لقى حتفه على يد أحد أبنائه الذى كان يطمع فى تولى العرش.

أسرحدون:

وبعد مقتل سنحاريب تنافس أبناؤه على العرش، ولم تدم هذه الأزمة طويلا، ف قد فاز به بالقوة أصغر أولاده أسرحدون (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م) واستطاع أن يقضى على هذه الفتنة سريعا، بعد أن هرب إخوته إلى بلد مجهول، وقام بأعدام

الزعماء الذين آزروهم مع أولادهم، وكان أول عمل قام به اسرحدون الأمر بإعادة بناء مدينة بابل، مما اكسبه ود كثير من البابليين.

وبعد ذلك اعتزم اسر حدون الانتقام من مصر بسبب تدخلها فى شئون ولايات سوريا وفلسطين، وزحف بجيش كبير نحو مصر فى سنة ٦٧١ ق. م، ووصل إلى شرق الدلتا، ثم دخل العاصمة ممفيس، بعد أن خاض معارك عنيفة ضد قوات طهرقة ملك مصر والسودان، الذى هرب إلى الجنوب.

وبعد ذلك عاد اسرحدون إلى بلاده محملا بالغنائم الكبيرة وأخذ معه الملكة ونساء القصر وأبناء الملك، وجياده ومواشيه، ووضع حكاما وإداريين محليين جدد فى كل المواقع، وفرض الضرائب والجزية على الأهالى.

ولم يستمر الحال على ذلك طويلا، فبعد سنتين من تلك الحملة، عاد طهرقا من الجنوب واستعاد ممفيس، وأعلن العصيان على الأشوريين فى أقاليم الدلتا.

وعلى أثر ذلك قرر اسرحدون العودة إلى مصر لتأديب العصاة، ولكنه أصيب بمرض فى الطريق عندما وصل إلى حران، وتوفى بها، وذلك فى سنة ٦٦٩ ق.م.

أشور – بانيبال:

وكان أسرحدون قبل وفاته بثلاث سنوات، وبحضور قادة الجند ونبلاء آشور، وسفراء وممثلى الدول الأخرى، قد أمكن اختيار إبنه أشور – بانيبال ورثيا شرعيا للعرش، وعين إبنه الآخر شمش – شم – أوكن نائبا للملك فى بابل، وأمّن بذلك عدم نشوب نزاعات عائلية على العرش بعد وفاته.

ولما توفى أسرحدون جرى تحول السلطة بسهولة – بين أشور بانيبال وأخيه، ولكن لم تقتسم أجزاء الإمبراطورية بينهما.

وقد بدأ أشور – بانيبال عهده (٦٦٨ – ٦٢٧ ق. م)، باخماد حركة التمرد فى مصر التى بدأت فى عهد أبيه.

ولهذا الغرض جهز أشور - بانيبال جيوشا ضخمة جمعها «إثنان وعشرون ملكا من ساحل البحر ومن وسط البحر ومن الأرض الرئيسية »، وزحفت هذه الجيوش باتجاه مصر، وسحقت جيشا أعده طهراقا لصدها، وأخذت تطارد طهراقا الذى هرب إلى طيبة فى الجنوب، ووصلت إلى طيبة وخربتها، فعاد طهراقا إلى عاصمة مملكته نباتا فى النوبة العليا.

ثم عاد الأشوريون إلى بلادهم، بعد وضع حاميات أشورية فى المناطق المختلفة، وفرضوا قدراً أكبر من الجزية على الأهالى.

وفى حوالى عام ٦٥٥ ق. م، أعلن بسماتيك الأول الاستقلال فى دلتا النيل، وطرد الحاميات الأشورية من مصر، وتعقب فلولها حتى أشدود فى فلسطين.

وفى هذه الأثناء كان الجيش الأشورى منهمكاً فى الحرب ضد العيلاميين مما جعل أشور - بانيبال يتخلى عن مصر لانقاذ بلاده.

وبعد انتهاء الحرب مع العيلاميين، أعلنت بابل العصيان، عندما انقلب حاكمها شمش - شم - أوكن على أخيه سنة ٦٥١ ق. م، معتقداً أن بابل تستحق أن تهيمن على العالم مثل نينوى عاصمة الأشوريين، وتحالف مع الفينيقيين والفلسطينيين ومملكة يهوذا والكلدانيين وغيرهم ضد أخيه أشور - بانيبال.

وعلى أثر ذلك زحف أشور - بانيبال ضد أخيه فى بابل، واستمر الحرب بينهما لمدة ثلاث سنوات، وانتهت بهرب شمش - شم - أوكن بعد أن أحرق قصره.

وبعد ذلك تقدم الأشوريون جنوباً لتأديب العرب الذين وقفوا إلى جانب أخيه، ثم دخلوا فى حرب ضد العيلاميين لمساعدتهم فى تمرد بابل، وانتصر الأشوريون فى معركة حاسمة على العيلاميين فى سنة ٦٣٩ ق. م، وحصلوا على مغانم كبيرة.

وبالرغم من هذه الانتصارات التى حققها أشور - بانيبال، فإن الإمبراطورية الأشورية، وبعد إرهاق واستنزاف جيوشها، باتت فى حالة من الضعف لم تحدث لها من قبل.

سقوط الدولة الأشورية:

لم يستطع الأشوريون أن يسيطروا طويلا على إمبراطوريتهم الواسعة، بسبب سخط شعوبها عليهم، وكثرة الثورات التى اندلعت ضدهم، نتيجة لسياسة العنف والتدمير التى ابتعوها بالإضافة إلى ضعف الروح العسكرية بين القوات الأشورية، على أثر ارهاقها فى إخماد هذه الثورات.

وبعد وفاة آشور - بانيبال حدثت منازعات حول العرش، وانتهى الأمر بتولى إبنه آشور - إتل - إيلانى، وكان ضعيفا، فانفصلت عن الدولة أجزاء كثيرة من ممتلكاتها، منها مصر، وكثير من المدن الساحلية فى فلسطين وسوريا، ومدن أرمينية كما شن أحد ملوك الميديين هجومًا على آشور، ولكن الجيش الأشورى تصدى لجيشه وهزمه وقتل الملك الميدى فى هذه المعركة.

وفى بابل تكونت أسرة جديدة حاكمة، وانفصلت عن الدولة الأشورية، تحت إسم «المملكة الكلدانية».

وأثناء إقامة الملك آشور - إتل - إيلانى فى نمرود ، أعلن القائد الأشورى تمرده عليه فى نينوى وعزله، ولكن أخا الملك قام بمحاربة هذا القائد وقضى عليه، ثم استأثر بالسلطة فى أشور.

وقد أثرت هذه النزاعات الداخلية على سمعة مملكة آشور وهيبتها، مما أدى إلى انفصال أجزاء أخرى عنها.

وبعد أن استولى «كى اخسار» Cyaxares ملك الميديين على شمال إيران وشمال بلاد النهرين، توغل فى سهول آشور، واشتبك مع الجيش الآشورى فى حروب طاحنة.

وأخيراً اتفق الملك الميدى مع ملك بابل على مهاجمة العاصمة الآشورية نينوى، حتى سقطت سنة ٦١٢ ق. م، بعد حصار دام طويلا.

وبعد ذلك اقتسم الميديون والبابليون أملاك الدولة الآشورية، فاستولى الميديون على أجزائها الشمالية الشرقية، واستولى البابليون على أجزائها الجنوبية.

الكلدانيون (الدولة البابلية الرابعة)

ينتسب الكلدانيون إلى قبلية «كلدى» الآرامية التى خرجت من شبه الجزيرة العربية حوالى عام ١٥٠٠ ق. م، واستقروا فى سوريا. وفى حوالى عام ٧٠٠ ق. م نزحوا إلى جنوب العراق، ثم اتجهوا شمالا ونزلوا بالقرب من مدينة بابل التى كانت تخضع فى ذلك الوقت للأشوريين.

قيام الدولة البابلية الرابعة (العهد البابلى الأخير) (٦٢٥ - ٥٣٩ ق. م):

وقد استغل الكلدانيون القلاقل الخطيرة التى اندلعت فى الجنوب مع تدهور الدولة الآشورية، وبدأوا كفاحهم من أجل الحصول على استقلالهم، وقام بالثورة الحاكم البابلى الذى عينه آشور - بانيبال خلفا لأخيه شمش - شم - أوكن، بعد أن انتصر عليه.

وبعد وفاة ذلك الحاكم البابلى، تولى زعامة الثورة بنو بولصر حاكم بلاد البحر، وعجزت القوات الأشورية المرابطة فى نيبور بالجنوب عن هزيمته، ولم يلبث أن أعلن نفسه ملكاً على بابل، وأسس الأسرة الحادية عشرة البابلية، التى تعرف بإسم «العهد البابلى الأخير»، أو «المملكة الكلدانية».

الحروب بين بابل وآشور بالتعاون مع الميديين:

وقد استمرت الحروب بين بابل وآشور نحو ١١ عاماً، تمكن بعدها نبو بولصر من الاستيلاء على نيبور، وحرر كل بلاد سومر وأكاد، ثم واصل فتوحاته شمالا على طول نهر الفرات حتى وصل إلى منطقة حران، ومنها تقدم على طول نهر دجلة إلى كركوك وآشور.

وفى تلك الأثناء طلب الأشوريون المعونة من مصر، التى كانت خاضعة لهم من قبل، بينما التقى كى أخسار ملك الميديين مع نبو بولصر ملك بابل، وتعاهدا على الصداقة والسلام، والعمل معا ضد الأشوريين وأكدا ذلك الرباط فيما بعد بزواج نبوخذ نصر بن نبولصر، من أميتس إبنة كى أخسار، وقد استمر الإثنان فى محاربة آشور حتى تم إسقاط العاصمة نينوى سنة ٦١٢ ق. م.

وبعد ذلك أرسل ملك بابل ولده نبوخذ نصر لتتبع فلول الجيش الأشورى، والتقى بهم فى منطقة حران، حيث قضى على فلولهم بالتعاون مع الميديين، واستولى على حران، ثم واصل نبوخذ نصر زحفه غرباً واستولى على المقاطعات التى كانت تخضع للأشوريين من قبل.

وكان الملك المصرى نخاو قد تقدم بجيشه نحو سوريا، فى محاولة لمساعدة حلفائه الأشوريين، فالتقى به نبوخذ نصر فى معركة حاسمة قرب قرقميش، انتهت بانتصار البابليين، وانسحب الجيش المصرى إلى بلاده.

وعقب ذلك استولى البابليون على سوريا وفلسطين، وكان يحرصون على أن يبقى طريقهم إلى البحر المتوسط مفتوحاً.

وفوق ذلك تقدم نبوخذ نصر نحو مصر، ولكن موت والدة نبوبولصر أثناء ذلك، جعله يسرع بالعودة إلى بابل.

نبوخذ نصر (بختنصر الثانى):

تولى نبوخذ نصر العرش بعد وفاة والده، ويعتبر أشهر ملوك الدولة الكلدانية، وكان يتميز بكفاءته العسكرية والإدارية، وفى عهده اتسعت حدود الدولة، وامتدت من الخليج العربى إلى الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط، وصار لها امبراطورية واسعة ضمت سوريا وفلسطين.

وقد أرسل جيشا لتأديب مملكة يهودا واحتل بيت المقدس سنة ٥٩٥ ق. م، ولكن اليهود ثاروا ضده بعد مضى عشر سنوات، فسار إليهم على رأس جيش ودخل بيت المقدس وخربها وفتك بأهلها حتى سماه اليهود «الرجل الوغد»، كما دمر هيكل سليمان فى القدس، ونقل كثيراً من الأسرى اليهود إلى بابل العاصمة.

ومع استقرار أحوال البلاد، وجه نبوخذ - نصر جهوده نحو العمران، فشيد الكثير من العمائر ورمم المعابد، وأنشأ الحدائق المعلقة لتزيين بابل، وتعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع.

وقد استمر حكمه نحو ٤٣ سنة، وكانت أيامه آخر ما شهدته بابل من العز والمجد.

إنهيار الدولة الكلدانية:

وبعد وفاة نبوخذ نصر، تولى العرش فى بابل ملوك ضعاف، لم يهتموا بشئون الإمبراطورية.

وكان الكهنة قد ثاروا على ولد نبوخذ نصر بعد مضى عامين من حكمه، وذلك لسماحه لليهود بممارسة طقوسهم الدينية فى حرية وعلى نطاق واسع، وأقدموا على قتله، ونصبوا مكانه أحد قواد والده، وهو صهره فى الوقت نفسه.

وقد حكم هذا القائد لمدة ٤ سنوات لم يفعل فيها شيئاً يستحق الذكر، وبعد وفاته خلفه ابنه الصغير، وبعد أسابيع قليلة تدخل الكهنة مرة أخرى وأبعدوه عن العرش، ونصبوا مكانه أحد أبناء طائفتهم ويدعى نبونهيد، الذى لم يستطع النهوض بأعباء الحكم، ولم يقم سوى ببعض النشاط العمرانى.

وقد تحالف نبونهيد مع الملك الفارسى كورش ضد الميديين، وغزاهم، كما غزا شمال بلاد العرب

وبعد وفاته، وفى عهد خلفه ثار حاكم سوسه وانضم إلى الفرس، وبعد ذل ك قام ملك الفرس كورش بمهاجمة بابل العاصمة واستولى عليها فى سنة ٥٣٩ ق. م، وأخذ ملكها نبو نهيد أسيراً، وقضى بذلك على الدولة الكلدانية أو العهد البابلى الأخير.

وقد استمرت هذه البلاد فى حوزة الفرس، الذين أجروا بعض المحاولات لإحياء مجد بابل، ومن بعدهم حاول الاسكندر أن يجعلها مركزاً لامبراطوريته، وبعد وفاته أهملت وتحولت إلى أطلال.

الفصل الرابع

مظاهر الحضارة في بلاد ما بين النهرين (بلاد الرافدين)

الحياة السياسية

نظام الحكم:

المدن المستقلة:

فى البداية تأسست فى بلاد ما بين النهرين المدن المستقلة بعضها عن بعض، وأحيطت بها الأسوار، وأقيمت حولها الخنادق لحمايتها، وكانت تشبه فى ذلك المدن الحرة عند الإغريق.

وكان فى كل مدينة سومرية أسرة حاكمة، على رأسها ملك، ولها جيش وقانون خاص، ويحيط بها مساحة من الأراضى المزروعة.

وفى وسط المدينة معبد لإلهها الخاص، وهذا المعبد كان محور النشاط لسكان المدينة.

وقد عاشت المدن السومرية فى نضال مرير، بسبب تطلع كل مدينة لتوسيع رقعتها على حساب المدن المجاورة، ومع ذلك فقد نشطت التجارة بين تلك المدن.

ضم المدن لعاصمة الإمبراطورية:

وبعد غزو سرجون الأكادى للمدن السومرية وأنشأ امبراطورية واسعة، أصبحت هذه المدن تابعة مباشرة لعاصمة الإمبراطورية، وجمعت بينها وحدة سياسية واقتصادية.

ومع ذلك فلم تختف تمامًا النزعة الإنفصالية، وأخذت المدن القوية تتحين الفرص للإنفصال والاستقلال عن عاصمة الإمبراطورية.

الملك وسلطاته ومعاونوه:

وكان الملك فى عصر فجر السلالات يعتبر شخصية أسطورية محضة، مثل كلكاميش ملك أوروك، وبطل الملحمة المشهورة بإسمه.

وكان نظام الحكم ملكيا وراثياً، وكان الملك يستمد سلطانه الواسع من إله المدينة الذى يعتبر الحاكم الأصلى، ويعتبر الملك نائباً عنه، وكان يسمى «إيشاكو» أى وكيل الإله، وفى نفس الوقت كان الملك يعتبر كبير الكهنة الإله الذى ينوب عنه فى حكم المدينة، وكان يرأس الاحتفالات الدينية.

وكان من أكثر واجبات الملك قدسية بناء المعابد وترميها. كما كان الملك يتولى أعمال القيادة العسكرية، وفى حالة الحرب يخرج إلى القتال على رأس جيشه.

وبالإضافة إلى ذلك كان الملك يتولى رئاسة القضاء، ويشرف على إنشاء المخازن وحفر القنوات، ويهتم بوسائل المواصلات.

وكانت مشكلة وراثة العرش أو الخلافة مهمة فى العصرين البابلى والأشورى، وفى بعض الأحيان كان تسليم الحكم يتم على أثر اندلاع الثورة وقيام حركة العصيان من جانب كبار الموظفين والأمراء.

وكان لزوجة الملك (الملكة) وأمه تأثير هام من الناحية السياسية، مثل الملكة سميراميس وزوجة شمش - أدد الخامس، وخاصة أثناء وصاية إحداهما على إبنهما القاصر الذى آل إليه العرش.

وكان يساعد الملك فى إدارة شئون البلاد مجلس للشيوخ وحكام الأقاليم والقضاة والموظفون.

كما اتخذ الملوك البابليون والأشوريون وزراء كان يطلق عليهم"رؤساء مستشارين"وقد وردت أسماؤهم فى قوائم الملوك.

الجيش وأسلحته:

كان الجيش السومرى يشمل فرقتين رئيسيتين، المشاة والراكبين وكان المشاة يلبسون خوذات من المعدن على رؤوسهم، وإزارا يغطى النصف الأسفل من الجسم، ويرتدون فوقه رداء يشبه المعطف يغطى الجسم كله، ويصنع غالباً من

جلد الحيوان. أما الراكبون فكانوا يستخدمون عجلات حربية، ظهرت صورها على الآثار السومرية، ،وخاصة في مقابر ملوك أور.

وكانت العربة في بادئ الأمر تجرى على أربع عجلات اسطوانية، ويجرها جوادان، ثم أصبحت تجرى على عجلتين فقط، ويركبها جنديان، أحدهما يقودها والثاني يشترك في القتال.

وقد عرف السومريون العجلات الحربية قبل أن يعرفها المصريون، ولم تدخل العربة الحربية مصر إلا مع الهكسوس عند غزوهم للبلاد.

وفي القتال كان الجنود يستخدمون الحراب والرماح الطويلة والقسى.

كما استخدموا آلات الحصار الحديدية لتدمير الحصون. وفي كثير من الأحيان كانوا يشعلون النيران في المدن التي يستولون عليها، ويعمدون استخدام القسوة والعنف مع أعدائهم، ويذبح الأسرى في ميدان القتال، أو يباعون كالعبيد في الأسواق، وأحياناً يقدم بعضهم قربانا للآلهة في المعابد، وفي حالات كثيرة كان الأسرى يساقون إلى العاصمة، كما كان يفعل الأشوريون على أعدائهم.

القوانين:

تميزت بلاد الرافدين بكثرة قوانينها التي كانت تنقش على الحجارة أو على ألواح الطين.

وكانت لدى كل مدينة مجموعة قوانينها الخاصة، ومنها مجموعة قوانين مدينة أور ومدينة أشنونا.

وهذه القوانين السومرية كانت تنظم العلاقات التجارية، ومعاملات القروض والعقود والبيع والشراء، وتتناول الأحوال الشخصية، والتبني والوصية.

وكانت تجرى عادة فض أى نزاع أولا بالتراضي بين الطرفين، فإذا تعذر ذلك عرض النزاع على المحكمة.

وكانت المحكمة تعقد جلساتها غالبا في المعابد، ومعظم قضاتها من رجال الدين.

وكانت فى مدينة بابل محكمة للاستئناف، وبعد صدور أحكامها يستطيع بالمتقاضون الالتجاء إلى الملك شخصياً للفصل فى دعاويهم.

قوانين حامورابى:

وتعتبر أشهر القوانين التى صدرت فى بلاد الرافدين، إذ كانت أكثر كمالا من الشرائع السابقة، وقد ظلت نافذة من حيث جوهرها طوال نحو خمسة عشر قرناً من الزمان.

وكل ما طرأ عليها من تطوير بعد ذلك، استهدف إحلال العقوبات الدنيوية محل العقوبات الدينية، ةوادخال الرحمة بدلا من القسوة، واستبدال الغرامات المالية بالعقوبات البدنية.

وفى مقدمة شريعة حامورابى ذكر أن الغرض من سن هذه القوانين «كى يعم العدل أرجاء البلد، ولازهاق الأشرار والأردياء، ولكى لايستطيع الأقوياء ظلم المستضعفين».

وقد اشتملت شريعة حامورابى التى كانت تتكون من ٢٨٢ مادة، على الأحكام والتنظيمات التالية:

(١) حددت العقوبات على الجرائم المختلفة، ونصت على مبدأ المعاملة بالمثل فى القصاص (العين بالعين والسن بالسن).

(٢) نظمت الحياة الاقتصادية والمعاملات بين الناس.

(٣) قسمت المجتمع إلى ثلاث طبقات؛ طبقة الأحرار، والطبقة الوسطى، وطبقة العبيد، وتفاوتت العقوبات والأجور تبعاً للمركز الاجتماعى للأفراد.

الحياة الاقتصادية

الزراعة:

اعتمدت الحياة الاقتصادية فى بلاد الرافدين على الزراعة بالدرجة الأولى، وقد نشأت حضارة السومريين فى بيئة زراعية تفيض عليها المياه الغزيرة من نهرى

دجلة والفرات كل عام، ولذلك فقد كانت الحضارة السومرية حضارة زراعية نهرية.

ومن أجل ذلك اهتم الملوك والحكومات بشق القنوات فى أنحاء البلاد، لتحمل مياه النهرين لرى الحقول والمزروعات المختلفة.

وقد فرضت قوانين حامورابى العقوبات على من يهمل وسائل الرى، أو يلحق الأضرار بمزارع جيرانه.

وقد أقام البابليون جسوراً من التراب حول مزارعهم لحمايتها من مياه الفيضان، وكان يخزنون المياه الزائدة عن حاجة الحقول فى خزانات لها عيون تنساب منها عند الحاجة.

وفى عهد بختنصر شيد خزان كبير بلغ محيطة ١٤٠ ميلا، تمتد منه عدة قنوات لرى مساحات واسعة من الأراضى.

أهم المحاصيل والعمليات الزراعية:

ومن أهمها الحبوب كالذرة والقمح والشعير، والتمور والفواكه المختلفة والخضروات والسمسم والزيتون.

وكانت الحبوب تزرع على أراضى واسعة تابعة للمعبد أو القصر الملكى، وتتولى إدارتها والإشراف عليها جميعات زراعية.

كما زرعت الحبوب ومحاصيل مختلفة فى مساحات صغيرة حول المدن، أجرها ملاك الأراضى الإقطاعيون الذين يعيشون فى المدن لمزارعين فقراء نزلوا فى تلك الجهات.

وفى بادئ الأمر استخدم السومريون فئوسا من الحجر لحرث الأرض، مثل الفئوس التى استخدمت فى العصر الحجرى الحديث، وبعد مدة ظهر المحراث الخشبى. وكان المحراث الذى تجره الحيوانات قد ظهر لأول مرة فى بابل فى حوالى عام ١٤٠٠ ق. م، ومثل المحراث السومرى كانت مثبتة فى نهايتها أمبوبة تتصل بوعاء توضع فيه البذور، فتتم عملية الحرث والبذر فى وقت واحد.

اما عملية الدراس فكانت تستخدم فيها عربات كبيرة ثبتت فى عجلاتها أسنان من الظران تفتت القش وتفصله عن الحبوب.

الرعي:

كانت تربى الأغنام والماعز والأبقار والخنازير فى المراعى فى السهول وعلى سفوح الجبال.

الصناعة:

ومن أهمها صناعة المنسوجات والمفروشات، وصناعة الأدوات والأوانى الفخارية والخزفية، وصناعة الطوب لبناء المساكن وأسوار المدن. وكان البرونز (مزيج النحاس بالقصدير) يستخدم فى صناعة الأسلحة. كما صنعت الحلى وأدوات الزينة من الذهب والفضة.

ويبدو أن الملوك السومريين قد احتكروا صناعة النسيج التى كانت واسعة الانتشار عند السومريين، وكان يشرف على هذه الصناعة بدقة مراقبون حكوميون.

وفى العصر البابلى كانت الآلات تصنع من الحديد والبرونز، كما نشطت صناعة نسج القطن والصوف، وصباغة الأقمشة وتطريزها وعرفت صناعة طوب الآجر بعد حرق طوب اللبن، مما يكسبه صلابة.

وبعد تكاثر الحرف وعدد الصناع أسسوا لهم نقابات تسهر على مصالحهم.

النشاط التجارى:

كان للتجارة دور هام فى مدن بلاد ما بين النهرين، وقد ساهمت التجارة بشكل مباشر أو غير مباشر فى رفع مستوى معيشة السكان، وانتشار حضارة هذه البلاد.

وكان للتجارة نشاط واسع فى العصر البابلى، حيث أصبحت بابل مركز تجارة الشرق الأدنى القديم كله، وحققت من ذلك بابل ثروة عظيمة.

التجارة الخارجية:

كانت القوافل التجارية تتجه إلى المناطق الواقعة حول الخليج العربى وآسيا الصغرى، وإلى بلاد الشام.

كما يستدل من أطلال المدن السومرية على قيام صلات تجارية بينها وبين مصر والهند.

وكان التجار فى العصر الأشورى الهم حرية التنقل والاتصال، وقد استوطن كثير منهم فى مدينة كانيش بالأناضول، واتخذوا مستوطنات فى أماكن أخرى بتلك المنطقة، وكانوا يصدرون الأنسجة المصنوعة فى مدينة آشور، ويقومون بدور الوسطاء فى تجارة النحاس والحديد من مراكز التعدين فى آسيا الصغرى، وكانت تعقد المعاهدات لحماية التجار فى الخارج وتحديد مهامهم. وبوجه عام كانت تصدر منتجات زراعية وصناعية مختلفة، وتستورد المعادن والأخشاب والتوابل والعطور والأحجار الكريمة.

وفى بادئ الأمر كانت السلع تنقل بالطريق النهرى، ثم صارت تنقل بالطريق البرى، باستخدام عربات تجرى على عجلات وتجرها الخيول، وكان ذلك أقدم وسيلة للنقل من هذا النوع عرفها العالم. وفى عهد بختنصر أصلحت الطرق الرئيسية التى تستخدمها القوافل التجارية التى كانت تحمل إلى بابل منتجات الهند ومصر والشام وآسيا الصغرى.

التجارة الداخلية:

كانت التجارة الداخلية نشطة بين المدن، وفى البداية قامت عمليات التبادل التجارى على المقايضة، ثم استخدمت سبائك الفضة فى العمليات التجارية.

وكثيراً ما كانت تدون عقود البيع والشراء والمعاملات التجارية المختلفة. وفى العصر البابلى كان رئيس التجار موظفًا كبيراً فى البلاط الملكى، وقد سمح لموظفى الديوان الملكى بالاشتغال فى التجارة لزيادة ثرواتهم.

الحياة الاجتماعية

كانت الأسرة هى وحدة المجتمع السومرى، وكان الزواج يخضع لكثير من الشرائع الوضعية المعقدة، وبعد الزواج تحتفظ الفتاة لنفسها «بالبائنة» التى يقدمها لها والدها.

والرجل هو رب البيت وله السيطرة على جميع أفراد الأسرة، وكان من حقه أن يبيع زوجته لسداد ما عليه من ديون، ويستطيع أن يطلقها إذا كانت عاقراً، وتعدم إذا ثبتت عليهاجريمة الزنا، كما تقتل غرقا إذا كانت أمّا وامتنعت عن مباشرة واجبات الأمومة.

وكانت الزوجة تشارك فى الحياة العامة، فإلى جانب أعمال البيت كانت تشارك زوجها فى أعمال الحقل، وقد تنوب عنه فى القيام بهذه الأعمال كلها، إذا تغيب زوجها لمدة طويلة، ولم يكن لها ولد كبير.

كما كانت الزوجة تستطيع الاشتغال بالتجارة مستقلة عن زوجها، وتستخدم عدداً من العبيد الخصوصيين، ومن حقها أن تحتفظ بهم أو تطلق سراحهم متى تشاء.

وكانت الطبقات العليا فى المجتمع تنعم بعيشة مترفة، والنساء فيها يستعملن الأصباغ والأدهان للتجميل، ويستخدمن أدوات الزينة من الحلى المتنوعة، ومنها القلائد والأقراط والخواتم ودبابيس الشعر.

وكان الأغنياء يشيدون القصور فوق أراض مرتفعة تعلو نحو أربعين قدمًا فى بعض الأحيان، وهذه القصور كان يتعذر الوصول إليها إلا عن طريق واحد، وكأنها حصون منيعة.

ونظراً لندرة الأحجار فى بلاد سومر، فقد شيدت أغلب هذه القصور من الطوب الآجر، وزينت جدرانها بأشكال هندسية وزخرفية من قوالب الآجر ذاتها، كما كانت تطلى الجدران بالجص، وينقش فوقه بعض الزخارف البسيطة.

وكانت حجرات البيت تطل على فناء داخلى واسع، والأثاث بسيط فى أغلب الأحيان، وإن كان بعض الأغنياء يتمتعون بأثاث ورياش فاخرة.

أما منازل العامة فكانت تبنى من الغاب أو من الطوب اللبن، ولكل منزل فناء خاص له باب فى نهايته يؤدى إلى حجرة كبيرة تتفرع منها بقية الحجرات.

وكان فى كل منزل بئر يزود أصحابه بماء الشرب. ويلحق بالمنزل حظيرة للحيوانات التى يستخدمها صاحبها فى أعمال الزراعة.

وكانت المنازل تتجمع خارج أسوار المعبد، ويحيط بها جميعًا سور ضخم تتخلله بوابات كبيرة تؤدى إلى المزارع والمراعى الواسعة التى تربى فيها الأغنام وقطعان الماشية.

وفى كثير من المنازل عثر على لوحات طينية عليها كتابات مسمارية تضمنت معلومات غزيرة عن جوانب النشاط الفردى، كما تضمن بعضها بيانا بمحتويات المنزل، والمحاصيل والأدوات المختلفة التى فى مخزنه.

وقد عثر على لوحات أخرى تضمنت رسائل شخصية، ووصفات طبية، وبعض النصوص الدينية.

الحياة الدينية

تعدد الآلهة:

كانت الحياة الدينية فى بلاد الرافدين تقوم على تعدد الآلهة، وكان يقدر عددها بالآلاف، وفى العصر البابلى بلغ عددها خمسة وستون إلها.

وكان لكل مدينة سومرية إله تخضع لحمايته، كما كانت لأنواع النشاط البشرى آلهة توحى للناس ما يجب أن يفعلوه، وتدبر لهم مختلف شئونه، وتقوم بحمايتهم.

كما كان لكل ظاهرة طبيعية إله خاص مثل الإله «أنو» (إله السماء) والإله «انليل» (إله الهواء)، والإله سن «(إله القمر)، والإله «أدد» (إله العواصف)،

والإله «أيا» وهو الإله المحلى لمدينة أريدو فى أقصى الجنوب، وكان يقتسم مع آنو وانليل حكم العالم، ويسيطر على المياه المحيطة بالعالم، والمياه فى أسفل هذا العالم، كما كان المسئول عن طرد الأرواح الشريرة.

وكان الإله «مردوخ» أشهر الآلهة عند البابليين، ويصنف ضمن الآلهة القديمة، وفى عصر سيادة مدينة بابل ارتفعت مرتبته إلى إله رفيع المستوى، ونسب إليه خلق البشر وتنظيم الكون. أما الإله «آشور» الذى سميت على إسمه مدينة آشور عاصمة الآشوريين، وفى عصر الإمبراطورية الآشورية، أضيفيت على الإله آشور أعظم النعوت، منها «سيد العالم، والخالق ومنظم الكون، وولى الآلهة»ر.

ومن الآلهة الأقل شأنا «نركال» و «تموز»، وكان «نركال» إله مدينة كوشة التى كانت تقع فى وسط بلاد بابل، وكان حاكم مملكة الأموات ومصدر الوباء، هو وزوجته «ايريش –كيطال» سيدة العالم السفلى. أما الإله «تموز»، فكان يمثل شخصية كهنوتية، وعلى أثر موته واختفائه عم الحداد والمناحات الحزينة بين طبقات معينة من السكان الأوائل فى بلاد ما بين النهرين.

وكان السومريون يصورون آلهتهم على شكل حيوانات، فإله مدينة «لكش» مثلا كان يصور على شكل نسر كبير له رأس أسد، بينما كان إله مدينة «أور» يصور على شكل ثور ضخم.

وهناك «الإله الأفعى» الذى أخذ شكل أفعى. ومنذ الألف الثانى قبل الميلاد ظهرت تماثيل لآلهة ذات أشكال بشرية، وكانت مساوية لأحجام البشر، وذات نسب دقيقة.

ومعظم التماثيل كانت مصنوعة من الخشب الثمين، ومرصعة بالذهب والأحجار الكريمة.

بناء المعابد وتقديم القرابين للآلهة ودور الكهنة:

كانت المعابد تقام فى وسط المدن، ونشيد حولها المساكن.

وكانت المعابد ذات شكل وحجم مختلفين، فبعضها كان مجرد مصليات صغيرة، تتكون من صف من الدور، وتشتمل على فناء مكشوف يضم محرابا وقاعدة للتمثال المقدس. وكان هناك معابد أخرى تضم عدة أقبية وغرف ثم أقيمت المعابد لضخمة ذات التركيبات المعقدة، وتخص الآلهة الأعظم، وكانت تضم غرفاً لإيواء الكهنة والعاملين في المعبد.

وكافة المعابد الرئيسية كانت تشترك في خصائص معينة، حيث اشتمل كل منها على فناء كبير تحيط به غرف صغيرة، تستخدم للإقامة أو كمكتبات، ومدارس للكهنة، وورش ومخازن، واصطبلات.

وفي الأعياد الكبيرة، كانت تجمع نصب الآلهة التي تجلب من المعابد الأخرى في الفناء الواسع، الذى يبقى مفتوحاً للجميع في الأيام الاعتيادية، وكان يعج بالحركة والضوضاء مثل السوق، ويزدحم بالناس من التجار الذين يتعاملون مع المعبد، ومن الرجال والنساء الذين يقدمون له النذور، ويطلبون المساعدة منه المساعدة والنصح.

والمركز الرئيسي للمعبد مخصص للكهنة ولايدخله غيرهم. وكان القسم الرئيس من المعبد يشتمل على ثلاث غرف متوالية هي: الدهليز، وما قبل المقدس، ثم المقدس أو قدس الأقداس، وتحتوى غرفة المقدس على تمثال الإله أو الآلهة المكرس لها المعبد.

وفي غرفة ما قبل المقدس كانت توضع نصب الآلهة والمعبودات الأخرى، بالإضافة إلى المسلات التذكارية للملوك.

وكانت تستخدم مواد نادرة وغالية الثمن في بناء هذا القسم من المعبد، فترفع السقوف على أعمدة من خشب الأرز، وتصنع الأبواب من الخشب الثمين المطعم بشرائط من النحاس أو البرونز ولحماية المعبد كانت تنصب فوقها تماثيل لأسود أو ثيران أو لكائنات خرافية مصنوعة من الحجر أو الفخار أو الخشب.

وكانت الطقوس والصلوات والاحتفالات الدينية تقام كل يوم في المعبد،

كما تكرس عدة أيام شهرياً وفى عيد رأس السنة، لإقامة احتفالات مقدسة خاصة بهذه المناسبات. وكان الاعتقاد السائد وقتذاك أن الآلهة تعيش حياة مادية خالصة؛ فهى بحاجة إلى أن تنظف وتغسل وتزكى بالعطور والطيب وتلبس وتطعم يومياً.

وكانت ترسل إلى المعبد أجود منتجات الحقول الزراعية والبساتين وقطعان الماشية والأغنام والماعز، حيث كان يقدم جزء منها كطعام لتمثال الإله، ويشمل الخبز والزبد والعسل والفواكه واللحم والخمر.

وذكر فى نص تفصيلى من العهد السلوقى، أنه كانت تقدمك لتماثيل الآلهة وجبتان من الطعام يومياً فى معبد أوروك، الوجبة الأولى تقدم فى الصباح عند فتح المعبد، والوجبة الثانية كانت تقدم قبل غلق أبواب المعبد مباشرة.

وبعد تقديم وجبة الطعام إلى تمثال الإلهة ترسل الأوانى إلى الملك لكى يأكل منها وخاصة فى بعض المناسبات، وكان الطعام المقدم إلى الإله يعتبر مباركاً، وتنتقل البركة إلى الملك الذى يأكل منه. وعند الإنتهاء من وجبة الطعام الرئيسية للإله كان يقدم الماء فى إناء لتنظيف أصابع تمثال الإله، وهذا الماء كان يعتبر أيضاً مباركاً.

وفى تطور طقوس لعملية تقديم الطعام لتمثال الإله، كانت المائدة التى يوضع عليها الطعام تحاط بستائر من الكتان، وكذلك تمثال الإله، فى الوقت الذى يفترض فيه أن الإله يتناول فيه الطعام، وكذلك عندما يغسل الإله أصابعه بعد الفراغ من تناول الطعام، وبعد ذلك ترفع هذه الستائر، وذلك لإخفاء هذه الممارسات عن عيون البشر.

وكانت تخصص كميات كبيرة من الطعام من الخبز والفاكهة واللحوم والخمر، لتوزيعها على العاملين فى المعبد، وعلى بعض الإداريين وأصحاب الحرف.

وكان الكهنة يحظون بمكانة سامية لدى الجماهير، إذ كانوا يعتبرون وسطاء بين الناس والآلهة العظيمة، وهم يتلون الصلوات والأدعية ويرتلون الأناشيد، بقصد التخفيف عن المرضى والحزانى والمذنبين التائبين.

وفى العصر البابلى كان الملك لايكتسب صفته الشعبية، إلا إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكية فى حفل عام يجوب فيه الملك شوارع المدينة وهو ممسك بصورة الإله «مردوخ» ، وعقب ذلك يصبح سيداً مطاعا .

وكان الكهنة يتظاهرون بمقدرتهم على قراءة المستقبل المجهول، ولذلك كان يقصدهم عامة الناس وحتى الملوك، لطلب النصح، أو للاستشارة، أو تقديم فتوى معينة.

وقد استغل كثير من الكهنة مكانتهم بين الناس أسوأ استغلال، فابتزوا الأموال مقابل الطقوس التى يقومون بها، ومن المتقاضيين فى القضايا التى كانت تعرض عليهم، بالإضافة إلى استثمار ثروة المعابد من الهبات والضرائب المتنوعة. كما كانوا يروجون الأساطير الدينية وسيطروا بذلك على عقول الناس.

وكانت المعابد الكبيرة تضم عدداً كبيراً من الكهنة، وعلى رأسهم الكاهن الأعلى، وكان بينهم عدد من الإناث ومن بين الكهنة المتخصصين من يقرأ التعازيم ، والذى يطيب الآلهة بالزيت، ومنشد المراثى، وطارد الأرواح الشريرة، ومفسر الأحلام وقارئ الطالع

وبعض الكاهنات كان باستطاعتهن الزواج، ولكن ليس من حقهن الإنجاب مادمن فى خدمة المعبد

ومن الفئات الأخرى من النساء اللائى كرس أنفسهن لخدمة المعبد، من احترفن مهنة «البغاء المقدس» ، وهذه المهنة لم تكن مهنة غير مخجلة فى ذلك الوقت، وكانت تمثل أحد أشكال الاتصال بين الإنسان والآلهة.

الجزاءات التى تقدمها الآلهة لمن يفعلون الخير ولذوى الأخلاق الطيبة:

كان الناس فى بلاد ما بين النهرين يعتقدون أن من يفعلون الخير، ويتمسكون بالأخلاق الطيبة، تكافئهم الآلهة بالسعادة وطول العمر والثروة وكثرة الأولاد، وتحميهم من الأخطار المختلفة.

ومن الأساطير التى كانت واسعة الإنتشار فى بلاد سومر، وسيطرت على نفوس وعقول الناس، الأسطورة التى تقول أن الآلهة خلقت الإنسان منعما وسعيداً، ولكنه ارتكب الخطايا وضل عن سواء السبيل، مما أسخط الآلهة.

وقد صبت الآلهة نقمتها على البشر المذنبين، بأن أرسلت عليهم طوفانا مروعا أهلك الحرث والنسل.

ولم تكن النذور والقرابين والالتزام بالأصول الدينية هو كل ما تطلبه الآلهة من المؤمنين بها، ولم يكن ذلك كافيا بحد ذاته، وإنما ينزل عطف وبركات الآلهة على أولئك الذين يحيون «حياة طيبة»، وهم الآباء الصالحون، والأبناء البررة، والجيران الطيبون، والمواطنون الصالحون الذين يلتزمون بالمعروف ويأتون الأعمال الصالحة.

وكانت الآلهة تدعو إلى اتباع العطف والرحمة والإخلاص والعدل واحترام القوانين والنواميس الاجتماعية.

وتوصى إحدى «نصائح الحكمة» البابلية بالقول:

«اعبد كل يوم آلهتك.

وإظهر العطف للضعفاء.

لاتهن المساكين.

قم بالأعمال الصالحة، وقدم العون فى كل أيامك. ،لاتشهر بالآخرين وحدث بالحسنات، لاتقل أشياء خبيثة، وقل فى الناس قولا جميلا»(١١).

وكانت الآلهة تقدم للإنسان الملتزم بالإيمان الصادق والسلوك القديم، المساعدة والحماية والسعادة والثروة والأبناء الكثيرين والعمر الطويل. وبذلك كان الدين حافزاً للإنسان على التمسك بأهداب الفضيلة وفعل الخير، والخضوع للآلهة.

---

(١١) جورج رو وترجمة حسين علوان حسين: العراق القديم، ص ١٤٤.

الإعتقاد فى الحياة بعد الموت:

كان الاعتقاد السائد بين سكان بلاد الرافدين أن الآلهة وحدها هى الخالدة، وأن موت الإنسان أمر لا مفر منه.

وفى ذلك تقول ملحمة «كلكاميش»:

«وحدها الآلهة تعيش أبداً تحت الشمس،

أما البشر فأيامهم معدودات،

وكل ما يجزونه لايعدو ريحاذا هبة»(١٢).

وبعد الموت، ومن خلال القبور العديدة بأدواتها وتجهيزاتها الجنائزية، يثبت الاعتقاد السائد عند سكان وادى الرافدين بوجود الحياة الأخرى، ومن أجل ذلك كان الناس يجهزون المتوفى أحسن تجهيز ويلبسون أفخر الثياب، ويدفنون مع موتاهم أحسن أنواع الأوانى والأدوات، وأجود أنواع الطعام ولاشراب، والاحتياجات الشخصية الأخرى.

وقد كشف التنقيب عن مقابر ملوك «أور»، أن عدداً من أفراد حاشية الملك المتوفى كانوا يقتلون ويدفنون مع سيدهم فى نفس اليوم، لخدمته فى الحياة الآخرة.

ويتجلى ذلك من الكشف على مقبرة الملك «مسن – دك» ومقبرة زوجته «شوب – آد»، حيث تكدستا بأفخر الحلى والأدوات المصنوعة من الذهب، كما امتلأتا بجثث التابعين من أفراد الحاشية، وكانت موضوعة بالقرب أو البعد من جثة الملك أو الملكة، حسب أهمية وظيفة كل منهم فى حياته.

ولكن هذه العادة لم تستمر طويلا، فلم يعثر فى مقابر الملوك بعد ذلك بفترة، على جثث لأفراد الحاشية مدفونة مع جثة الملك، ووجدت المقبرة الملكية خالية من أية جثة سوى جثة الملك، ولاتتسع لغيرها.

---

(١٢) جورج رو وترجمة حسين علوان حسين: المرجع السابق، ص ١٤٥.

وكان البابليون يعتقدون أن المتوفى سواء كان صالحاً أم شريراً، سيذهب إلى مكان مظلم فى جوف الأرض يسمونه «أرالو»، وفى هذا المكان تقيد أيدى الموتى وأرجلهم أبد الدهر، ومن كان منهم كثير الذنوب، لقى فى أرالو أشد العذاب وسلطت عليه أفتك الأمراض.

الكتابة والآداب والعلوم

لاشك أن الكتابة هى أروع وأعظم ما أنتجه العقل السومرى.

الكتابة المسمارية والألواح الطينية أو الفخارية:

وهى أهم أنماط الكتابة التى ظهرت فى بلاد ما بين النهرين، وقد سميت بالكتابة المسمارية، أو الخط المسمارى، نسبة إلى القلم الذى يشبه المسمار، وهو مصنوع من المعدن ومدبب، وله شكل مثلث منشورى، والذى كان يستخدم فى الكتابة.

وكان الكاتب يمسك بهذا القلم مائلا ويضغط به ضغطا خفيفا على لوح من الطين، مسجلا المعلومات المختلفة، ثم يعرض هذا اللوح للنار أو لحرارة الشمس حتى يجف، ويشبه الفخار.

وترجع أقدم هذه الألواح الطينية أو الفخارية إلى حوالى عام ٣٢٠٠ ق. م، وكانت الكتابة تقرأ عليها من اليمين إلى اليسار.

وفى أول الأمر كانت الكتابة عبارة عن صور تعبر كل منها عن رمز معين، وبعد ذلك تطورت هذه الصور، فصغر حجمها وبسط شكلها، بحيث أصبح تدوينها بسرعة وسهولة، ثم تحولت إلى علامات صوتية تعبر عن الأصوات التى ينطق بها لا عن الصورة نفسها.

ولم تكن الكتابة السومرية واحدة فى كل المدن السومرية، وإنما كانت تختلف من مدينة إلى أخرى، مع بقاء طابع أصلى واحد فى كل أنماط هذه الكتابة.

وكانت الكتابة المسمارية على الألواح الطينية أو الفخارية . تستخدم . فى تسجيل المعاملات التجارية من عقود وصكوك، وتسجيل الوثائق الرسمية، وللأحكام القضائية، والقوانين، والأساطير الدينية، والوصفات الطبية، والخطابات الشخصية.

وفى حوالى عام ٢٧٠٠ ق.م، أنشئت دور للكتب فى المدن السومرية حفظت بها الألواح المسمارية.

وقد عثر على إحدى دور الكتب فى مدينة «تلو» السومرية، كانت تضم مجموعة من الألواح عددها ثلاثون لوحاً، ومنظمة بشكل دقيق، وكانت تشتمل على نماذج من الأدب السومرى وفى حوالى عام ٢٠٠٠ ق. م، أخذ بعض الكتاب السومريين يدونون على الألواح تاريخ بلادهم القديم، ويسجلون أيامهم التى يعيشونها.

كما عثر على ألواح تضم ابتهالات دينية ومرثيات وأشعار جميلة.

وفى بعض المعابد السومرية عثر على بعض الألواح المدرسية عليها جداول حسابية وتمارين هندسية وغيرها، وكانت تلحق بالمعابد مدارس لتعليم النشء الكتابة والقراءة والعلوم المختلفة. وفى العاصمة الآشورية «نينوى» عثر فى مكتبتها على ٢٥ ألف من الألواح الفخارية، اشتلمت على وثائق رسمية ورسائل وعقود تجارية، ونصوص دينية وعلمية وتاريخية.

الآداب والعلوم

فى الأدب:

كانت نماذج الأدب السومرى تتميز بغزارة مادتها، وإن كانت أساليبها أقل جودة، بينما ارتقى إنتاج الأدب البابلى إلى مستوى فائق.

ويمكن تمييز نموذجين أساسين من الإنتاج الأدبى، الأول شعرى، والنوع الثانى مدون بعبارات نثرية.

وفى النموذج الشعرى، يتكون كل بيت من شطر أو مقطع واحد. ويوجد اختلاف فى الشكل والمضمون الشعرى بين الشعر السومرى والشعر الأكادى، ومع الخلفية السامية.

وكانت موضوعات الشعر تشمل مواقف معينة تتعلق بحقائق الحياة، أو بخلفية أحداث هامة لها تأثيرها على البشر، ومن ذلك ملحمة «كلكاميش» أما النموذج النثرى، فكان يشمل النصوص الملكية التى ترجع إلى بلاد بابل وآشور، وتتناول وصف الانجازات البطولية لبعض الملوك، ومنها أخبار «سنحاريب» ودوه فى معركة «هالولة»، وحملة «سرجون» التى توغل فيها عبر جبال وغابات أرمينيا، وتناولت وصف طبيعة هذه المناطق.

كما تناول النثر النزاع الأسطورى بين «مردوخ» و «تياما»، ضمن قصة بدء الخليقة.

ملحمة كلكاميش:

وهى أولى ملاحم بلاد ما بين النهرين التى دونت باللغة الأكادية، وترجع إلى الألف الثانى قبل الميلاد، وهى عبارة عن قصيدة طويلة تتكون من أكثر من ٣٠٠٠ سطر، ومدونة على اثنى عشر لوحا، وقد عثر على ترجمتها فى مكتبة قصر «أشور – بانيبال» «فى نينوى، وهى مودعة الآن فى المتحف البريطانى، وهى قطعة فنية١ رائعة من الأدب الآشورى – البابلى، وإحدى أجمل ملاحم العالم القديم.

وقد مزجت مادة هذه الملحمة الغزيرة بجانب كبير من القصص السومرية القديمة، مع موضوعات جديدة من العهدين البابلى والآشورى.

ويمكن اعتبار هذه الملحمة بالنسبة لمادتها «ملحمة قومية»، ويبدو أنها من إنتاج البلاط الملكى، مثل كثير من الملاحم السومرية الأخرى.

وقد دونت حياة «كلكاميش» ومغامراته وانجازاته على إحدى عشر لوحا من مجموع الأثنى عشر لوحا التى تتكون منها هذه الملحمة «وكلكاميش» هو خامس

ملوك سلالة أوروك الأولى، وابن الآلهة ننسون» وزوجها الكاهن الأعلى لإحدى مقاطعات أوروك، فهو بذلك يتكون من ثلثين إلهى وثلث بشرى.

وتصف الملحمة «كلكاميش» بأنه كان شديد البأس، شجاعا ووسيما، وأنه كان حكيما وكثير الأسفار، ولكنه كان فاسقا ويتعرض فى نزواته لبنات وزوجات المحاربين والشرفاء.

وتسجل الملحمة اهتمام «كلكاميش» بمدينته أوروك، وأنه قد شيد حولها سوراً ميتناً كان محل إعجاب البابليين.

ولكن غطرسة «كلكاميش» وقسوته ونزواته قد أثارت ضده غضب أهالى أوروك، فشكوه إلى الإله الأعظم «آنو» الذى عمل على خلق ثوروحشى ضخم، هو البطل «أنكيدو» يقاوم«كلكاميش»، وكان يعيش فى السهول بين الحيوانات المتوحشة.

وقد علم «كلكاميش» بوجود «أنكيدو»، وأراد إغواءه وتحويله إلى شخص متحضر، ومن جهة أخرى سارع «أنكيدو» بالتصدى ببسالة «لكلكاميش» لصرفه عن الخطيئة الكبرى التى كان يزمع اقترافها فى ذلك اليوم، ودار عراك مروع بين البطلين، انتهى بتبادل كلمات الإعجاب والصلح بينهما، وأخذ «يقبل البطلان بعضهما الآخر ويصبحان صديقين»

وبذلك فقد عثر «كلكاميش» على رفيق له من منزلته، وبعد ذلك استطاع «كلكاميش» أن يقنع «أنكيدو» بمرافقته إلى «غابة الأرز» الواسعة حيث يسكن العملاق المخيف «حواوا» أو «خمبابا»، وكان «كلكاميش» الطموح يقصد من ذلك نيل الشهرة العريضة.

وبعد أن أعد «كلكاميش» و «أنكيدو» أسلحتهما وابتهلا للآلهة، .غادرا أوروك فى طريقهما إلى «غابة الأرز»، ووصلا إليها بعد ثلاثة أيام، بعد أن قطعا مسافة طويلة تحتاج إلى ستة أسابيع فى الأحوال العادية.

وبعد أن دخلا الغابة، قام «كلكاميش» بقطع الأشجار واحدة بعد أخرى، فخرج «حواوا» غاضباً وكاد أن يفتك بهما، لولا نجدة الإله «شمش»، الذى سلط الرياح الثمانية على «حواوا» فسببت له الشلل التام، وعقب ذلك استسلم للبطلين والتمس «حواوا» منهما متضرعا الابقاء على حياته، ولكنهما لم يصغيا لتوسلاته، وقطعا رأسه وعادا إلى أوروك ظافرين.

وعقب هذا الانتصار الكبير، وقعت «عشتار» فى حب «كلكاميش» وعرضت عليه الزواج منها، ولكنه رفض هذا العرض وذكرها بجحودها لعشاقها السابقين، ورماها بأقذع النعوت.

وبسبب هذه الإهانة المرة، طلبت «عشتار» من زعيم الآلهة «آنو» إرسال «ثور السماء» لمعاقبة أوروك، فأمسك «انكيدو» بقرونه، وطعنه «كلكاميش» بالسيف فى رقبته، ثم قطع «كلكاميش» فخذ الثور الأيمن وقذفه فى وجه «عشتار» التى كانت تصب لعناتها على حاكم أوروك.

وقد أثارت هذه الوقاحة الكبيرة الآلهة، ولم تدعها تمر دون عقاب، فقررت ضرورة القضاء على أحد البطلين، ووقع الاختيار على «انكيدو» الذى أصيب بمرض عضال. فسرى فى جسده لمدة طويلة حتى قضى نحبه، فحزن عليه «كلكاميش» لمدة سبعة أيام بلياليها «حتى نزلت دودة من أنفه».

وكان الموت «أنكيدو» أثره فى نفسية «كلكاميش»، الذى أدرك لأول مرة الرعب من الموت، وهو الشجاع الطموح، فانصرف عن طلب الشهرة، وسعى إلى طلب حياة أزلية، وخاف أن يلقى مصير صديقه المخلص «أنكيدو»، ويصف حاله قائلاً:

«خائفا من الموت أجوب السهوب،

وقد أقضت مصيبة أخى مضجعى،

كيف أستطيع السكوت وكيف أبقى ساكنا؟

صديقى الذى أحب عاد إلى الطين،

هل يتوجب على أنا أيضاً أن أرقد مثله،

كى لا أستيقظ أبد الآبدين»[١٣].

وبعد ذلك أخذ «كلكاميش» يجوب الأرض والبحار، بحثا عن علاج سحرى ضد الموت، وبعد جهد شاق، واجتياز مخاطر عديدة، ظفر بمقابلة «أوت — نابشتم»، ذلك الرجل الوحيد الذى بقى حيا بعد الطوفان، ليحصل منه على سر الخلود، وكان يقيم على الجانب الآخر من بحر كبير خطير، فعبره بمساعدة النوتى «أورشناب»، وأمكنه مقابلة «أوت — نابشتم»، الذى روى له قصة الطوفان.
وقد دل «أوت — نابشتم» «كلكاميش» على نوع من النبات الشوكى ينمو فى أعماق المحيط، يدعى «نبات الحياة»، يضمن له الخلود فقام «كلكاميش» بالغوص فى أعماقه، وأمكنه التقاط النبات المطلوب

ولسوء الحظ، وبينما كان «كلكاميش» عائداً إلى مملكته، أخذته سنة من النوم قرب ينبوع ماء، خرجت منه أفعى سرقت منه النبات الثمين. فخسر بذلك خلود الحياة، رغم ما تجشمه من الصعاب والأهوال

وتنتهى القصة بخاتمة متشائمة، تشبه الحديث المتشائم الذى دار بين «أوت — نابشتم» و «كلكاميش» ويقول

«هل سنبقى أبداً نشيد المنازل؟

وهل سيبدأ النهر إلى الأبد بالارتفاع جالباً الفيضان؟

وتستمر اليعسوب فى ترك صدفتها،

كى يختلس وجهها النظر إلى طلعة الشمس

فمنذ الأيام الخوالى ما كان هناك أى دوام،

وكم يتشابه النائمون مع الموتى!»[١٤].

---

(١٣) جورج رو وترجمة حسين علوان حسين: نفس المرجع، ص ١٧١.

(١٤) جورج رو وترجمة حسين علوان حسين: نفس المرجع، ص ١٧٢

ذلك ملخص «ملحمة كلكاميش»، التي كانت أكثر ملاحم الشرق الأدنى شهرة، والتي ظهرت منها عدة طبعات آشورية - بابلية، وترجمت منذ القدم، إلى اللغات الحيثية والحورية.

وفي هذه الملحمة كانت شخصية «كلكاميش - البطل»، مجرد أسطورة خيالية محضة، ونسبت «لكلكاميش» ملك أوروك، التي تزامن عصره مع الفترة المبكرة من العصور التاريخية لبلاد الرافدين.

في العلوم

الرياضيات:

تستنبط أهم المعلومات عن علم الرياضيات في بلاد ما بين النهرين، من نوعين من النصوص الرياضية المسمارية: النوع الأول في الجداول الرياضية، والنوع الثاني في نصوص قضايا علمية، وتم إثبات النوعين منذ العهد البابلي القديم.

وقد رتبت الجداول الرياضية لعمليتي الضرب والقسمة، وشملت أيضًا المربعات والمكعبات والجذور الأساسية، وقوائم الأعداد.

كما وردت تمارين مسائل رياضية أعدت للطلاب المتقدمين في هذه المادة، تتعلق بمسائل معمارية أو مساحية أو غيرهما، وتدل على مدى الإنجاز الذهني لدى رياضيتي هذه البلاد في العصور القديمة.

والنوع الثاني في نصوص القضايا العلمية، وكانت تشمل المعادلات الجبرية التربيعية وعمليات أخرى تمت صياغتها بتعابير هندسية.

وقد استخدم الرياضيون البابليون الجذور التكعيبية بمهارة، كما كانوا ملمين بالجذور التربيعية.

وكانت الحسابات في الرياضيات تعتمد على نظام عدستيني، وعلى نظام قيمة مرتبي (مكاني)، كما استخدم النظام العشري في داخل النظام الستيني.

ولكن الرقم (صفر) لم يكن معروفا حتى العصر السلوقى. كذلك كان الرياضيون البابليون ملمين ببعض الخواص الأساسية للمثلث والمستطيل والدائرة، ولكنهم لم يهتموا بخواص السطوح والخطوط والحجوم، ولذلك كانت الهندسة أقل تطوراً من الجبر عندهم.

الفلك:

ظهر علم الفلك فى بلاد ما بين النهرين بعد علم الرياضيات بأكثر من ألف سنة، وبعد منتصف الألف الأول قبل الميلاد، حيث بدأ اهتمام المختصين فى جنوبى البلاد بالظواهر التى تلاحظ فى السماء، وخاصة حركات الكواكب والقمر، والتبدلات فى طول النهار والليل.

وقد تمييز البابليون على سائر الأمم القديمة بعلم الفلك الذى نشأ عن اهتمامهم بدراسة حركات النجوم، بقصد ارشاد السفن والقوافل فى سفرها، وللتنبؤ بالمستقبل والمصير للملوك وبلادهم.

وكان لتقدم علم الرياضيات أثره فى دفع علم الفلك خطوة حاسمة للأمام، وقد وجدت الرياضيات فى الفلك ميداناً رحباً للتطبيق.

وكان سكان وادى الرافدين يعتمدون على دورة القمر منذ أقدم العصور، كوسيلة ملائمة لقياس الزمن، وتبدأ السنة الجديدة وفق هذا التقويم مع ظهور أول قمر جديد عقب الاعتدال الربيعى، وتقسم إلى اثنتى عشر شهراً، ويتكون كل شهر من تسعة وعشرين أو ثلاثين يوما، ويقسم اليوم إلى اثنتى عشرة ساعة مزدوجة. ولم يكن من السهل دائماً رؤية الهلال الجديد، بسبب ظهور الغيوم والغبار والعواصف الرملية من وقت لآخر فى سماء هذه البلاد. كذلك استخدم الفلكيون الرياضيات لتقرير وقت ابتداء الشهر الجديد.

ولما كانت السنة القمرية أقصر من السنة الشمسية بأحد عشر يوما تقريبا، فقد كان التفاوت يبلغ فترة فصل كامل بمرور كل تسع سنين.

وبعد مضى عدة قرون جرى حل مشكلة التفاوت بين السنة الشمسية والسنة القمرية، بشكل تحكمى، حيث قرر الملك كبس أو إضافة شهر أو شهرين إلى السنة، وفى عام ٧٤٧ ق. م أمر الملك نبوناصر بكبس سبعة أشهر فى تسع عشرة سنة قمرية.

وفى عهد بختنصر الفلكيون مسارات الشمس والقمر، ولاحظوا ظاهرتى الكسوف والخسوف، وحددوا وقت الإنقلابين الشتائى والصيفى، والإعتدالين الربيعى والريفى. والبابليون هم أول من ميز بين النجوم الثابتة والكواكب السيارة تمييزا دقيقا، وقاموا برصد حركات الكواكب السيارة وتجوالها.

وإلى جوار معابدهم أقام البابليون أبراجًا عالية، يتكون كل منها من طبقات مكعبة الشكل يعلو بعضها بعضا، ويتناقص حجم المكعب كلما ازداد ارتفاعا، ويحيط بالبرج سلم خارجى.

وهذه الأبراج كانت مراصد فلكية، يستخدمها الكهنة فى رصد حركة الكواكب، التى يعتقدون أنها تكشف عن كل شئ فى حياة الناس، ومن هذه الكواكب الزهرة، وجوبيتر، وفينوس، وميركيرى، ومارس، وساتورن

التنجيم أو الفاءل:

وطبقا الفلسفة بلاد الرافدين القديمة، ومفادها انعكاس أحداث السماء على الأرض، فكان يعتقد أنه إذا ما تم التعرف عن كتب على أحوال الآلهة والملوك والبلدان فى أصولها السماوية، وصلاتها بالكواكب ومجموعات النجوم، فإنه يصبح ممكنا التنبؤ بالمستقبل المتعلق بالأرض، وتلطيف نوائبه إلى حد ما.

وذلك هو التنجيم الذى ارتبط بعلم الفلك، وقد أصبح علم التنجيم من العلوم المهمة فى البلاط الآشورى، ويتضح ذلك من الرسائل الملكية والنصوص الأخرى المتعلقة به.

وقد عثر على عدد من الألواح فى مكتبة أشور - بانيبال، تضم مجموعة من

الفئول النجمية، وتشير إلى حركة الكواكب وإلى ظاهرة الكسوف، وزمن القمر الجديد، ومنها تستخلص تنبؤات تتعلق بالملك وبلاده.

وكان لكل من علم التنجيم وعلم الفلك أثره فى أوساط اجتماعية وعقلية مختلفة، كما كان لهما تأثيرهما فى مصر وبلاد الغرب فى العصر الهيلينستى، حيث استفاد علماء الفلك فى ذلك العصر من منجزات علم الفلك فى بلاد ما بين النهرين.

أشهر علماء الفلك فى بلاد الرافدين:

(١) نبو - ريمانى:

وهو أشهر علماء الفلك فى بلاد الرافدين، وكلدانى الأصل، وقد جاءت جداول الأهلة والأقمار وخسوفاتها التى رسمها صحيحة للغاية، وترجع إلى بداية القرن الرابع قبل الميلاد.

(٢) كدينو:

وهو أعظم الفلكيين البابليين على الإطلاق، وقد بدأ فى مزاولة نشاطه فى حوالى عام ٣٧٥ ق. م، وأعطى الأمد المضبوط للسنة الشمسية، بفارق لايزيد على أربع دقائق و ٣٢ ثانية.

الطب:

تستخلص المعرفة عن طبيعة ومدى علم الطب فى بلاد ما بين النهرين، من النصوص الطبية التى عثر عليها، وتظهر حكمة الطبيب، وهى تتألف من كتيبات مختصرة ومجموعات من الوصفات الطبية، ألحقت برسائل وإشارات جاء ذكرها فى شرائع قانونية، مع أفكار وردت فى نصوص أدبية، تصور علاقة الطبيب بالمريض، ومكانة الطبيب الاجتماعية.

وقد امتزج الطب عند البابليين بالدين والسحر معا، إذ كان يعتقد أن المرض هو بمثابة عقوبة تسلطها الآلهة على البشر بسبب الآثام التى يقترفونها.

ويمكن أن تطلق الآلهة أيدى الشياطين على الشخص المصاب، أو كتجعله يخر صريعا لنوبة يسلطها أحد السحرة.

ولذلك كان علاج المرضى فى أول الأمر من اختصاص الكهنة، وذا طابع سحر – دينى، إذ يعمد الكاهن أو العراف إلى اكتشاف الذنب أو العيب الخفى المسئول عن إثارة حنق الآلهة، كما يقوم الكاهن بطرد الشياطين، باستخدام الطقوس والتعازيم السحرية، وبعد ذلك تجرى محاولة استرضاء الآلهة، بإقامة الصلوات وتقديم القرابين، وإلى جانب الطب الكهنوتى السحر – دينى (اشيبوتو)، كان يوجد طب آخر ذو طابع عقلانى مفيد (اسوتو).

ومنذ عهد حامورابى أصبح الطب مهنة مستقلة، على أثر التنظيمات التى أدخلها على هذه المهنة، ويقوم بها أطباء يتناولون أجورهم من المرضى الذين يعالجونهم، وتحدد سعر إجراء عمليات معينة وتوقع عليهم عقوبات خاصة، إذا أخطأوا فى العلاج وتسببوا فى وفاة بعض المرضى، أو عطلوا شفاءهم، وتقضى هذه العقوبات ببتر يد الطبيب، وبعقوبة الموت إذا وقع فى أخطاء وظيفية جسيمة.

ولم يكن الطبيب (آسو) كاهنا أو ساحراً، بل كان شخصا معتبرا ينتمى إلى الطبقة الوسطى فى المجتمع البابلى – الآشورى.

وكان الطبيب يمضى أعواماً عديدة فى المدارس، حيث يتعلم العلوم الأساسية المعروفة فى عصره، ثم يقوم بالتدريب لعدة سنوات أخرى مع زميل أقدم منه، يتعرف خلالها على أسرار مهنته.

وقد حظى الأطباء فى كل العصور باحترام وتقدير عاليين، وكان الحرص شديداً على طلب مشورتهم، وكان الملوك يتبادلون الأطباء مع بعضهم البعض فى كثير من الحالات.

تشخيص الأمراض والوصفات الطبية:

وبدراسة النصوص الطيبة اتضح وجود أطباء ماهرين فى بلاد وادى الرافدين، استطاعوا ادراك وتمييز مسببات الأمراض الطبيعية مثل الأتربة والقاذورات ورداءة

الطعام والشراب، والعدوى فى بعض الأمراض.

وتوجد قوائم عديدة دونها الأطباء فى أعراض الأمراض، والوصفات الطبية اللازمة.

وفى الرسالة التى رممها البروفسور «لايات» عن الطب التشخيصى والتكهنى، ورد وصف مختلف الأعراض المرضية، التى تصيب أعضاء الجسم المختلفة، والأعراض المتزامنة والأمراض، ومن بينها الأمراض النسائية وأمراض الأطفال. وجمعت حسب ترتيب ظهورها، ولكن العلاجات الضرورية لم تذكر إلا قليلا فى هذه الرسالة. وفى نصوص طبية أخرى ذكر علاج لأمراض تصيب أعضاء معينة من الجسم.

وفى نصوص أخرى تركز الاهتمام على فن التطبيب بشكل خاص. وفيمايلى نماذج لتشخيص بعض الأمراض حسب ما جاء فى بعض النصوص الطبية:

الصرع:

«إذا كان عنق المريض ملتويا على الدوام نحو اليسار، وإذا كانت أطرافه العليا والسفلى ممتدة، وإذا كانت عيونه شاخصة نحو السماء وواسعة الا نفتاح، وإذا سال اللعاب من فمه، وإذا كان يشخر، وإذا فقد وعيه، وإذا فى النهاية .. فهى نوبة «مرض شديد»، يد «الإثم»(١٥).

حصاة المثانة:

«إذا ... لثلاثة أيام كانت عنده حصاة فى المثانة، فعلى هذا الشخص أن يشرب البيرة، وهكذا فإن الحصاة ستتفتت، وإذا قام هذا الشخص، بدلا من أن يشرب البيرة، يتناول كمية من المياه، فسوف يذهب إلى مصيره (أى يموت)»(١٦).

(15) Labat: Traite Akkadien de Diagnosties et Pronosties medicaux, 1951, p. 81.
(16) Labat: Op. Cit., p. 173.

اليرقان الشديد:

«إذا كان جسد المريض أصفراً، ووجهه أصفر - مسودا وسطح لسانه أسود، فإنه .... ولمثل هذا المرض لاينبغي للطبيب عمل أى شئ لأن هذا الشخص سيموت لا محال، فمن غير الممكن شفاؤه»(١٧).

وكان «الطبيب العراف» (أشيبو) يفحص جسم المريض، ويهتم بالأعراض المرضية، باعتبارها «علامات» تساعد على معرفة المرض فى بعض الأحيان، فيستخدم أساليب سحرية وبعض الشعوذات، مثل «سبع قطرات من سائل معين»، وبعض الأفعال الرمزية مثل «ربط العقدات»، ولكن نتائج هذه المعالجات تكون فاشلة غالباً.

ومن هذه العلامات كان الطبيب العراف يحاول معرفة إذا كان المريض سيعيش أو يموت، وكم من الوقت سيستغرق المرض، وإذا كان المرض شديداً أو خفيفاً أو عابراً.

أما الطبيب الذى ينتمي إلى المدرسة العلمية (أسو)، فكان يفحص جسم المريض بدقة تامة، ويلاحظ حرارة الجسم فى أجزاء متعددة منه، كما يلاحظ الأوعية الدموية، من حيث لونها وحركة الدم، ثم يحس النبض، وذلك لكي يتمكن من تشخيص المرض بمساعدة قوائم الأعراض المرضية، ثم يحدد العلاج المطلوب.

العمليات الجراحية:

وكانت الجراحة تجرى كوسيلة وطيدة فى الحالات الميؤس منها، والإشارات الأساسية عنها قليلة.

وقد أجريت عمليات جراحية فى حالات الكسور فى أمراض العيون وآلام الرأس وفى حالات أخرى.

---

(17) Kucher: Beitrage zur kentniss der Assyrisch - Babylonichen medizin, Lepsig, 1904, p. 60.

ومن العمليات الخطرة إجراء تشريكات بقصد تقديم مسكن واسعاف لآلام حدقة العين.

وكانت تستخدم فى إجراء هذه العمليات آلات وأدوات بسيطة مصنوعة من البرونز، ومنها شفرات وأنابيب معدنية، والمبضع وكان يسمى «سكين الحلاق».

الأدوية والعقاقير:

قدم مجموعة من الأدوية المعروفة وردت فى وصفات طبية، يعود تاريخها إلى سلالة أور الثالثة، وفى هذه الوصفات بيان بطرق تحضير دهونات وغسول وأخلاط - من مواد معدنية ونباتية، وهذه التركيبات ظلت تستخدم على مر العصور وحتى مائتى أو ثلاثمائة عام قبل العصر الحالى.

وتتكون المادة الطبية بشكل رئيسى من أعشاب متعددة الأنواع ومن منتجات حيوانية مثل السمن والدم والحليب والعظام، من قليل من المواد المعدنية.

وكانت الأعشاب تتعمل بشكل جاف أو طرية أو مسحوقة أو منقوعة ومغلية؛ وتمزج بمواد أخرى مثل الخل والعسل والشحم، وكانت تؤخذ بعضها عن طريق الفم، أو بإدخال البعض الآخر إلى جسم المريض بواسطة الزرق والحقن، وفى حالات أخرى توضع على جسم المريض مباشرة كالكمادات، أو على شكل غسول أو مراهم.

وبعض هذه الأعشاب كان يستخدم كملينات ومدررات للبول، وكعلاج للسعال، ولإذابة حصى المثانة، ولوقف نزيف الدم.

وفى قائمة طويلة للأدوية تدعى «ماشتاكال» Mastakal جاء ذكر مئات الأعشاب وأجزاء جسم الحيوان وأمور أخرى، ومن النبات الأوراق وجذور الأشجار، والبذور، ومن المعادن الأملاح والشب.

وفى وصفة طبية لمعالجة احتباس البول، كان يستخدم الأفيون مع بعض المهدئات كالتالى:

«إطحن بذور الخشخاش بالبيرة واجعل المريض يشربها؛ ثم اطحن بعض المر وامزجه بالزيت ثم انفخه في احليله بأنبوبة من البرونز، ،واعطه شقارا مطحونا مع البيرة»[(١٨)].

وفي وصفة أخرى استخدمت في حالة «تضييق الرئتين»، أجزاء كمن كلوة خروف، وكمية من التمر، ومن زيت شجر التنوب وشجر الصنوبر، والقار والخردل، وصنف من الحشرات، وتسحق هذه المواد في هاون وتخلط مع الدهن والتمر، ويسكب الخليط على جلد غزال، ثم توضع على الجزء المؤلم لمدة ثلاثة أيام، وخلالها ويشرب المريض البيرة ويتناول الطعام الساخن، ويمكث في مكان دافيء.

---

(18) Thompson: Assyrian prescriptions for diseasesof the urine Babyloniaca, XIV (1934), p. 124.

ثانياً: بلاد الشام القديمة وحضاراتها

- الموقع الجغرافى
- العوامل التى أثرت فى تاريخ وحضارات بلاد الشام.
- حضارات عصور ما قبل التاريخ فى بلاد الشام.
- الشعوب السامية التى توافدت على بلاد الشام فى العصور القديمة.

الفصل الأول

الأموريون والكنعانيون

الأموريون

- أصل الأموريين والمنطقة التى نزلوا بها فى بلاد الشام.
- مملكة مارى.
- الآموريون بين نفوذ المصريين والحيثيين واستغلال بعض الزعماء الأموريين الموقف لحسابهم الخاص.
- **مظاهرة حضارة الأموريين:**
- انتقال الأموريين من حياة الرعى إلى حياة الاستقرار.
- اللغة الأمورية.
- العبادات والفكر الدينى عند الأموريين.
- فن العمارة عند الأموريين.

الكنعانيون:

- أصل الكنعانيين وموطنهم الأصلى والمتطقة التى نزلوا بها فى بلاد الشام.
- المدن الكنعانية.
- مملكة أوجاريت.

الفصل الثانى

الفينيقيون

- الموقع الجغرافى للفينيقين.
- دويلات المدن الفينيقية ونظام الحكم فيها.

أهم المدن الفينيقية:

- جبيل - صور - أرواد
- توسيع الفينيقين فى حوض البحر المتوسط:
- الفينيقيون ودورهم فى التجارة البحرية.
- المستعمرات الفينيقية على سواحل البحر المتوسط - قرطاج.

الفصل الثالث

الآراميون

- الموطن الأصلى للآراميين.
- **دويلات المدن الآرامية:**
- فى شمال العراق.
- فى شمال سورية.
- فى وسط وجنوب سورية - دويلة أرام دمشق.
- **الحضارة الآرامية:**
- اللغة الآرامية.
- التجارة عند الآراميين.
- الفن عند الآراميين.
- ديانة الآراميين.

الفصل الرابع
العبرانيون

- أصل العبرانيين وموطنهم الأصلى.
- ظهور موسى وترعمه لليهود.
- هجرة موسى وأتباعه اليهود من مصر فى حوالى عام ١٢٣٠ ق. م.
- يوشع بن نون يتولى زعامة اليهود بعد وفاة موسى ويعبر نهر الأردن بأتباعه إلى فلسطين.
- عصر القضاة.
- نشأة المملكة العبرانية - الملك داود - الملك سليمان.
- انقسام المملكة العبرانية واضمحلالها - مملكة إسرائيل - مملكة يهودا.
- مظاهر الحضارة العبرانية - نظام الحكم فى العصر الملكى - الجيش - القضاء الدين.

خريطة تبين أهم المدن
في بلاد الشام القديمة
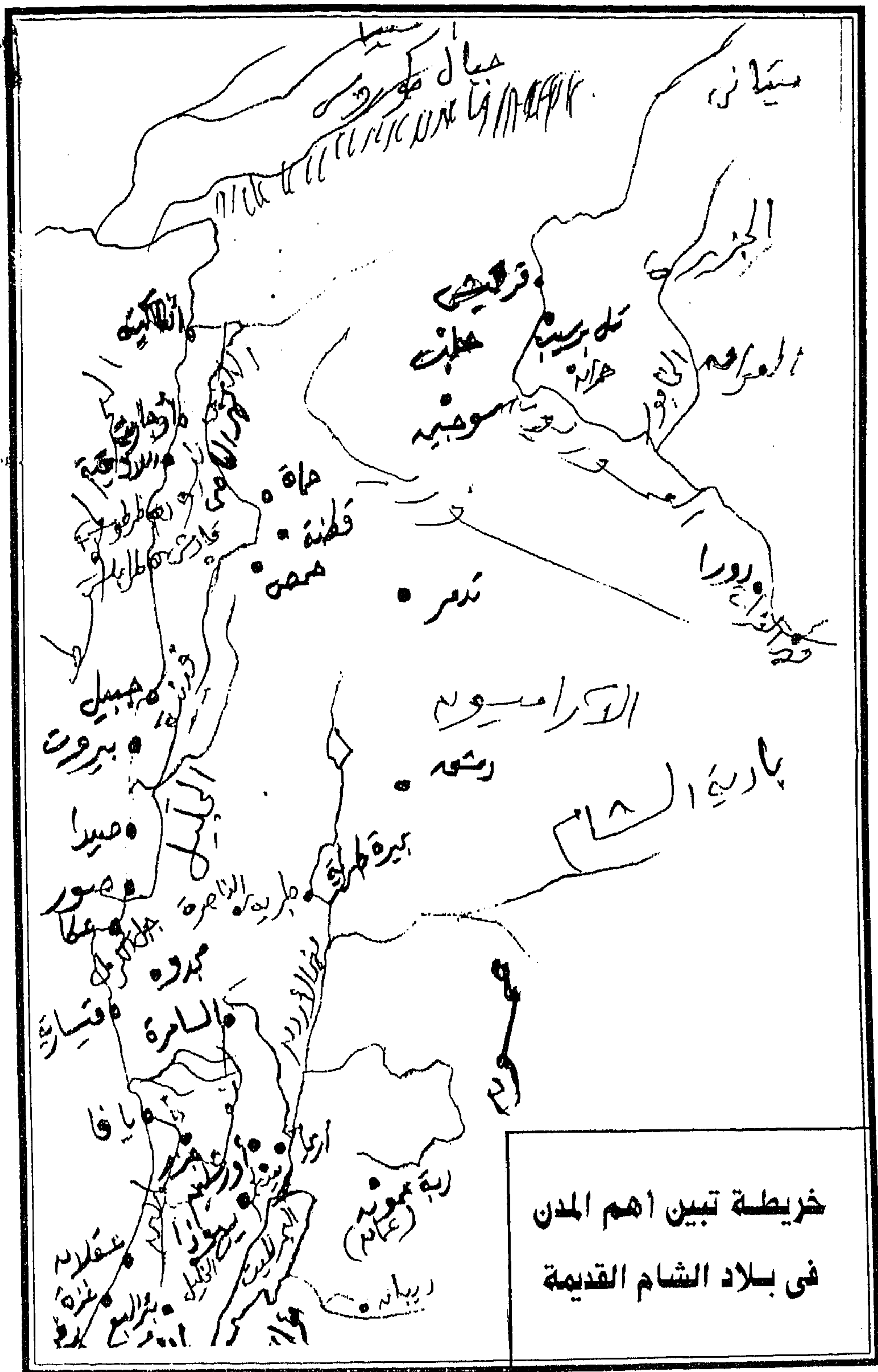
ثانياً: بلاد الشام القديمة وحضاراتها

- الموقع الجغرافى:

تقع بلاد الشام بين خطى عرض ٣٦,٣٠ْ شمالا، وخطى طول ٤٠,٢٢ْ شرقاً، فى غرب قارة آسيا، وتمتد بين جبال طوروس شمالا، وسيناء جنوبا، والبحر المتوسط غربا، وبادية الشام وبلاد ما بين النهرين شرقاً.

وهذه المنطقة تضم حاليا دول سوريا ولبنان وفلسطين والأردن.

وكانت بلاد الشام تعرف عند سكان وادى الرافدين القدامى «أمورو»، وفى العهد اليونانى أطلق عليها إسم «سورية».

وكان يُعنى ببلاد الشام أو الشأم، اليسار أو الشمال، ويقابلها اليمن فى جنوب الجزيرة العربية، ويعنى به اليمن أو الجنوب.

العوامل التى أثرت فى تاريخ وحضارات بلاد الشام:

وتتلخص فيما يلى:

١) الموقع الجغرافى الاستراتيجى:

تقع بلاد الشام بين قارات العالم القديم الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا، ويعتبر حلقة اتصال فيما بينها.

وقد أتاح لها هذا الموقع أن تقوم بدورها فى التبادل التجارى، وفى انتشار كثير من المظاهر الحضارية بين أقطار الشرق الأدنى، ولكنها من جهة أخرى، كانت عرضة للهجرات والغزوات العديدة.

وكانت بلاد الشام دائما محل أطماع الممالك القوية التى قامت فى هذه المنطقة التى كانت تسعى لبسط نفوذها عليها لتستغل ثرواتها الطبيعية من معادن وأخشاب ومحاصيل زراعية وماشية وغيرها.

وقد استفادت بلاد الشام من مجاورتها لأعرق حضارات العالم القديم فى العراق ومصر وآسيا الصغرى.

٢) التضاريس:

تتكون تضاريس بلاد الشام من أقسام طبيعية طولية، تتناوب فيها بوجه عام الأراضى المنخفضة والمرتفعات، حيث تلى السهل الساحلى سلسلة الجبال الغربية، ويليها سهل البقاع، ثم سلسلة من المرتفعات التى تنتهى إلى بادية الشام، وهذه الأقسام الطبيعية تختلف فى اتساعها من منطقة إلى أخرى.

وقد أدى توزيع التضاريس على هذا النحو مع خلوها من مجارى مائية رئيسية، إلى قيام وحدات سياسية منفصلة فى بلاد الشام، ومنع ذلك ممالكها ودويلاتها من أن تجمع كلمتها، وتندمج فى كيان سياسى موحد، كما حدث فى أراضى سومر وأكاد، وفى مصر وآسيا الصغرى.

ولم تتمكن إحدى هذه الوحدات، لعدم اتساعها من أن تصبح دولة قوية تستطيع أن توحد سوريا بأكملها تحت سيطرتها.

٣) المناطق الصحراوية وأطماع البدو:

وتقع المناطق الصحراوية فى شرق وجنوب سوريا، وكانت تسكنها جماعات البدو.

وكثيرا ما كانت هذه المناطق مسرحا للنزاع المتواصل، بسبب أطماع البدو، وغاراتهم على السهول المجاورة، واشتباكهم فى صراع مع سكانها.

وهذه العوامل مرتبطة بعضها ببعض، كان لها أثرها الحضارى والتاريخى على الإقليم السورى، واستمر ذلك فى معظم الأدوار التاريخية.

حضارات عصور ما قبل التاريخ فى بلاد الشام

عثر فى بلاد الشام على كثير من المواقع الأثرية التى تنتمى إلى عصور ما قبل التاريخ بمراحلها المختلفة.

العصر الحجرى القديم:

وحدات مخلفاته التى تشبه مثيلاتها فى الجهات الأخرى، فى كهوف عدلون التى تقع بين صيدا وصور، وفى الكرمل وأم قطفة فى شمال غرب البحر الميت، وفى الزيطة فى شمال غرب بحيرة طبرية، وفى رأس شمر (أوجاريت)، وفى الجليل الأعلى.

ومن المخلفات التى عثر عليها أدوات وأسلح١ نحتت من قطع حجر الصوان بصورة خشنة، وكانت تستخدم كفؤوس يدوية أو مكاشط أو سواطير.

ويتضح من دراسة بعض الهياكل العظمية البشرية التى عثر عليها فى هذه المنطقة أن إنسان هذا العصر كان خليطا من السلالات التى تمثل إنسان نياندرتال وأنواع أخرى أرقى منه تشبه كثيرا الإنسان الحديث، ويحتمل أن يكون إنسان هذا العصر قد اعتاد أكل لحوم البشر.

وفى نهاية هذا العصر عرف الإنسان النار واستخدمها فى طهى طعامه

العصر الحجرى المتوسط:

ويمثل مرحلة انتقال بين العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث، واستغرقت هذه الفترة نحو ستة آلاف سنة من حوالى عام ١٢ ½ ألف ق.م.

وتعرف حضارة هذا العصر باسم الحضارة الناطوفية، نسبة إلى وادى النطوف فى شمال غربى القدس بفلسطين.

ويستدل من بقايا إنسان هذا العصر أنه كان قصير القامة نحيف الجسم مستدير الرأس.

وكان النطوفيون صيادين مهرة، وخاصة فى صيد الغزلان، واستخدموا أدوات أكثر تقدما مثل رأس رمح مدببة، وصنانير لصيد الأسماك، وذلك بالإضافة إلى الأدوات الميكرولتية وقد عرفوا استئناس الحيوان مثل الكلب الذى كان يستخدم فى الصيد كما اتخذوا منازل من الحجر أو الطوب اللبن، دائرية الشكل.

ويرجح أن إنسان هذا العصر قد اهتدى إلى نوع من العقيدة، وعرفوا الآلهة، التى اعتقدوا فى حمايتها للمواشى والحقول، وقدّسوا الأرواح التى استعانوا بها فى الصيد، وعبدوا القمر الذى كانوا يرعون قطعانهم على ضوئه فى الليل.

وقد عثر على عدد من المقابر الفردية والجماعية التى تؤكد اعتقاد الإنسان فى الحياة الأخرى فى هذه المرحلة، وعثر بها على بعض أوانى الطعام وأدوات الزينة وتماثيل وغيرها، وفى هذه المرحلة حدثت خطوات رئيسية نحو الاستقرار.

العصر الحجرى الحديث:

وقد عثر على آثار هذا العصر فى عدة مواقع فى سوريا ولبنان وفلسطين، مثل منطقة العمق فى سوريا، ومنطقتى جريكو رتل الغول فى فلسطين.

واستغرق هذا العصر نحو ألفى سنة من عام ٦٠٠٠ ق.م، وحدث أثناءه

واستغرق هذا العصر نحو ألفى سنة فى عام ٦٠٠٠ ق. م، وحدث أثناءه تقدم ملموس فى الزراعة وتربية الحيوان، وانتشرت حياة الاستقرار.

وفى جبيل بلبنان عثر على كثير من المخلفات التى تنتمى لهذه المرحلة الحضارية منها بقايا المنازل المستطيلة الشكل التى بنيت أسسها بالحجر.

كما عثر على عدد من المناحل التى كانت تستخدم فى الزراعة، وعثر على أدوات عظمية، وأوانى فخارية وبعض التماثيل الصغيرة من الحجر الجيرى.

وفى نهاية هذا العصر ظهر فخار ملون عثر عليه فى موقع تل الجديدة فى شمال شرق أنطاكية بشمال سوريا.

عصر بداية المعادن:

وفى هذا العصر استخدم الإنسان النحاس، وبعد ذلك مزج بالبرونز لاستخدامه فى صناعة الأسلحة بالإضافة إلى الأدوات الحجرية.

ويقسم هذا العصر إلى عدد من المراحل الحضارية منها الحضارة الفسولية التى تقع فى سهل الأردن، وظهرت فيها آثار الحياة الزراعية وتربية المواشى،

بالإضافة إلى ممارسة الصيد.

وبالنسبة للعمارة، فقد تعددت أشكال المنازل وتخطيطها، وكانت ذات أحجام متوسطة.

وفي القرى شيدت مخازن الغلال والأجران، وصنعت المواقد والأوانى الحجرية والأدوات النحاسية.

وتنفرد الحضارة الفسولية باستخدام بعض الأوانى الفخارية لحفظ عظام الموتى، حيث كان الأطفال يدفنون فى أوانى فخارية تحت أرضية المنازل. ومن المظاهر الدينية عثر على معبد كبير فى تل الغسول.

وكانت حضارة بئر السبع تجمع بين الرعى والزراعة، وشملت أيضا صناعات متقدمة حجرية، وصناعات لأدوات من العاج والعظام، بالإضافة إلى صناعات الحلى والأوانى النحاسية.

وعلى أثر نمو صناعات المعادن والفخار، ظهرت حرف مختلفة، وإزدادت العلاقات التجارية بين القرى والمدن، ثم أخذت التجارة شكلا دوليا، بامتداد العلاقات التجارية بين سوريا وبلاد بابل ومصر.

حضارات العصور التاريخية فى بلاد الشام

تعتبر حضارات العصور التاريخية فى بلاد الشام مزيجا من العناصر الحضارية للشعوب السامية وغير السامية التى توافدت عليها على شكل هجرات وغزوات متتالية فى فترات مختلفة.

وكان لهذه الشعوب دور هام فى تاريخ بلاد الشام فى المراحل المختلفة.

الشعوب السامية التى توافدت على بلاد الشام فى العصور القديمة:

انطلقت من شبه الجزيرة العربية هجرات ضخمة تدفقت على شكل موجات متتابعة، وشقت طريقها إلى الأراضى الخصبة فى خارجها.

ويذكر أن الفترة بين الموجة والتى تليها من هذه الهجرات بلغت نحو ألف عام.

وكان بدء انطلاق أولى الهجرات السامية فى نحو عام ٥٠٠٠ ق. م، ويحتمل حدوث هجرات سامية بأعداد أقل قبل هذا التاريخ، ومنهم الساميون الذين دخلوا مصر عن طريق وادى الحمامات، وعن طريق سيناء والدلتا، واستقروا بها، واختلطوا بسكان مصر الأصليين.

وفى نهاية الألف الرابع وأوائل الألف الثالث قبل الميلاد، أخذت الهجرات السامية التى خرجت من الجزية العربية، صورة منتظمة، وبدأت تطغى على منطقة الشرق الأدنى وتؤثر فيها.

وكانت بلاد الشام مقرا لهذه الهجرات السامية، حيث تعرضت لخمس هجرات منها على الأقل، وذلك أكثر من الجهات الأخرى.

ولم يكن انشتار هذه الشعوب السامية فى أقاليم بلاد الشام بدرجة واحدة، ولم تتمكن إحداها من السيطرة على إقليم بالكامل.

وكانت الموجة الأولى التى نزلت بالإقليم السورى، موجة الأموريين وذلك فى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.

وفى نفس الوقت تقريبا انطلقت موجة الكنعانيين أو الفينيقيين، ونزلوا على السواحل، فى سوريا ولبنان وفلسطين، وهى الموجة الثانية.

وكانت الموجة الثالثة فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد، وهى موجة الآراميين، الذين توغلوا فى شمال ووسط سوريا.

وفى نفس الوقت تقريبا، انطلقت الموجة الرابعة، وهى موجة العبرانيين الذين نزلوا فى جنوب الإقليم السورى، وتركزوا حول منطقة البحر الميت.

وفى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد، انطلقت الموجة الخامسة، التى تمثلت فى هجرة الأنباط إلى شمال شرقى خليج العقبة، فى مواقع شرق الأردن حاليا.

ولم تكن بلاد الشام خالية من السكان عند قدوم هذه الهجرات السامية

الكبرى إليها، بل كان يسكنها أقوام من عناصر مختلفة، وكان ينتمى قسم كبير منهم إلى جنس البحر المتوسط، وهو فرع من الساميين.

وقد اندمج الساميون فى الهجرات المتتالية مع السكان الأصليين الذين كانوا أقلية، وأصبح الساميون يشكلون غالبية السكان، وسرعان ما طغت العناصر الحضارية السامية على العناصر الأخرى.

الفصل الأول

الأموريون والكنعانيون

الأموريون

أصل الأموريين والمنطقة التى نزلوا بها فى بلاد الشام:

وهم أول شعب سامى عاش فى إقليم سورية، وقد قدموا من شبه الجزيرة العربية فى هجرة واحدة مع الكعنانيين، فى حوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.

وغير معروف على وجه التحديد الإسم الذى كان يتسمى به الأموريون، أو القبائل اليت كانوا ينتمون إليها، قبل هجرتهم إلى بلاد الشام.

ويذكر أن السومريين جيرانهم فى الشرق، قد أطلقوا عليهم إسم مارتو Mar-tu، ووصفوهم بالبداوة، لأنهم «لا يعرفون القمح».

كما أطلق الأكاديون عليهم إسم أمورو Amuru، ويعنى ذلك سكان الغرب.

وأطلق البابليون إسم أمورو على كل إقليم سورية، وسموا البحر المتوسط «بحر أمورو العظيم».

وبعد ذلك عمم إسم أمورو، وصار يطلق على البدو القاطنين فى بادية الشام.

وفى العهد القديم يعنى إسم الأموريون «سكان البلاد الجبلية، أو طوال القامة».

وعندما نزل الأموريون فى بلاد الشام، أخذوا يتجولون فى شمال سورية، ثم استقرا فى أواسط حوض نهر الفرات، فى منطقة تشكل ممرا طبيعيا، له أهميته التجارية والحضارية.

وفى هذه المنطقة كانت تعيش جماعات سومرية، ولم يلبث الأموريون أن أصبحوا يمثلون غالبية السكان.

وكان أول ذكر لأرض الأموريين فى عهد سرجون الأكادى، عندما إجتاح بلادهم، وقال فى إحدى نصوصه أنه «قام فى مدينة توتول Tuttul بعبادة الإله داجان، الذى منحه منذ ذلك الوقت السيادة على الإقليم الأعلى مارى أرياموتى وأبلا، وكذلك غابة الأرز وجبل الفضة»[1].

وبعد ذلك أصبحت أرض الأموريين هدفا لكل من البابليين، والأشوريين، والكلدانيين، والمصريين، والفرس والحيثيين ومقدونيين، فى محاولاتهم للسيطرة على هذه المنطقة.

مملكة مارى:

وفى بداية الألف الثانى قبل الميلاد، تمكن الأموريون من تأسيس سلسلة من الوحدات السياسية فى فلسطين وسوريا وبلاد ما بين النهرين، كان منها مملكة يامخاد الأمورية وكانت عاصمتها حلب، ومنها مملكة سيمون بجانب نهر الأردن ومملكة عوج ملك باشان وجبل الشيخ.

وفى حوالى عام ١٨٢٠ ق.م، تأسست مملكة مارى، فى منطقة الفرات الأوسط التى كانت أهم مركز لتجمع العناصر السامية الغربية وتقع عاصمتها مارى على ضفة نهر الفرات، وإلى جنوب مصب رافد الخابور، وعلى بعد حوالى

---

(١) د. أحمد أمين سليم: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم. ص ٣٥ (سوريا وبلاد العرب)

٢٥ ميلا إلى الشمال الغربى من مدينة توتول.

وقد توالى على حكم مملكة مارى ستة ملوك لمدة ١٣٦ عاما، كان من بينهم ياجيد- ليم وياخذون - ليم، وسومويامام، ويا سماخ- أدد الأشورى، وآخرهم زيمرى - ليم.

وفى عهد زيمرى - ليم اتسعت مملكة مارى، بعد أن تمكن من ضم معظم أملاك شمس - أدد الأشورى فى جهة الغرب.

وفى عهد زيمرى - ليم أصبحت مارى من القوى الكبرى فى منطقة الشرق الأدنى القديم، وكان يوصف بأنه «رجل حرب»، كثير التنقل والحركة، وغالبا ما كان يتواجد فى معسكر جنده خارج عاصمته مارى» وكان يحشد فى جيوشه أعدادا ضخمة من العناصر السامية العربية(٢).

وكان سقوط مملكة مارى على أيدى حامورابى فى العام الخامس والثلاثين من حكمه فى حوالى عام ١٦٨٤ ق.م واستمر ريمرى - ليم يحكم لمدة عامين بعد ذلك تحت السيادة البابلية، حتى سيّر حامورابى جيشا إلى مارى، على أثر حركة العصيان التى اندلعت فيها، فهدم أسوارها، وأحرق قصر زيمرى - ليم الفخم، ولقى مصرعه بداخله.

الأموريون بين نفوذ المصريين والحيثيين واستغلال بعض الزعماء الأموريين الموقف لحسابهم الخاص:

وفى عهد الدولة المصرية الحديثة وتأسيس الإمبراطورية التى شملت أجزاء واسعة من سوريا وفلسطين، انحصرت بقية الإمارات الأمورية فى سوريا الوسطى، وخاصة فى الجزء الشمالى من لبنان، وفى الاقليم الداخلى حول دمشق.

وفى ذلك الوقت ظهرت قوة الحيثيين الفتية، وتمكنوا من إخضاع الجزء الشمالى من سوريا، وسيطروا على مملكة يامخاد الأمورية. وبين القوتين المصرية

---

(٢) د. محمد عبد اللطيف: سجلات مارى (د. محمد بيومى مهران: بلاد الشام. ص ٥٢.

والحيثيـة، انحصرت الدولة الأمورية فى سورية الوسطى، وأخذ الأموريون يتأرجحون فى بعض الولايات الأمورية، بين الولاء لمصر، والولاء للحيثيين.

وفى هذه الأثناء قام بعض الزعمـاء الأموريين بدور كبير فى إضعاف السيطرة المصرية على سورية الشمالية الوسطى، وخاصة فى عهد الملك أمنحتب الثالث، والملك أمنحتب الرابع، واستغلوا هذه الظروف لإقامة ممالك خاصة بهم فى هذه المناطق.

ومن أبرز هذه الشخصيات «عبدى شرتا»، وابنه «عزيرو»، وكانا من الموالين لمصر، واستخدما أساليب النفاق والكذب والرشوة، لإخفاء نواياهما الحقيقية فى سورية، باقتطاع أجزاء من المناطق التابعة للإمبراطورية المصرية، لإدارتها لحسابهم الخاص.

وفى إحدى الرسائل التى بعث بها عبدى شرتا إلى أمنحتب الثالث، جاء فيها «إلى الملك الشمس، سيدى، هكذا يقول عبدى شرتا، عبدك وغبار قدميك، عند قدمّى الملك أجثو سبع مرات، انظر اننى خادم الملك، وكلب بيته، وجميع أمورو أحرسها للملك سيدى»(٣).

وفى نفس الوقت، كان عبدى شرتا يتظاهر بالتعاون مع الحيثيين الغزاة، وساعدهم فى فتح بعض المناطق فى شمال سورية، بينما كان يحاول اكتساب مناطق جديدة لحسابه.

وبذلك تمكن عبدى شرتا من الاستيلاء على قطنة وحماة ثم دمشق، واحتل ايحا والتبرون وعددا من المدن الساحلية مثل جبل وسيميرا، التى كانت مقر الحاكم المصرى، وعلى أثر ذلك أرسل أمنحتب الثالث قوة من الجيش تمكنت من استرجاع سيميرا، ولكنها لم تتمكن من وقف زحف الحيثيين باتجاه الجنوب.

وبعد موت عبدى شرتا سار إبنه عزيرو على نفس أساليبه، وأخذ يستولى على

---

(٣) د. أحمد أمين سليم: دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم (سوريا وبلاد العرب) ص ٣٨.

المدن السورية الواحدة تلو الأخرى، ولم يستطع ربعدى الأمير المخلص لمصر، صد عزيرو وحلفائه ولم يهتم الملك المصرى بالرسائل التى كان يبعثها طلبا للنجدة.

وفى عهد أمنحتب الرابع اضطرت مصر إلى التخلى عن أجزاء سورية الشمالية، وعن أقاليم فينيقيا.

مظاهر حضارة الأموريين

فى عام ١٩٢٣ ، وفى أعمال التنقيبات الأثرية فى مدينة مارى، اكتشف فى مخطوطات قصر الملك زيمرى - ليم حوالى ٢٠ ألف لوحة فخارية كتبت بالخط المسمارى، وباللغة الأكادية فى معظمها، وتدل مفرداتها وخصائصها اللغوية، على أن الذين كتبوا هذه الألواح، كانوا يتكلمون باللغة الأمورية.

وبدراسة هذه الألواح أمكن معرفة بعض الأحوال السياسية والإقتصادية والإدارية عند الأموريين فى ذلك العهد.

وهذه بعض المظاهر الحضارية عند الأموريين التى عرفت عنهم.

انتقال الأموريين من حياة الرعى إلى حياة الاستقرار:

فى قصيدة لشاعر سومرى عاش قبيل عام ٢٠٠٠ ق.م، وقت احتلال الأموريين لمدينة بابل، تعبير محسوس عن انتقال الأموريين من حياة الرعى إلى حياة الاستقرار، مع المقارنة بأحوالهم فى المرحلتين.

وجاء ضمن هذه القصيدة قول الشاعر:

«بالنسبة للأمورى السلاح هو رفيقه:

... فلا يعرف الخضوع

وهو يأكل لحما غير مطبوخ

وفى حياته كلها لا يملك بيتا

---

(٤) فيليب حتى: تاريخ العرب، الجزء الأول. ص ٧١.

وهو لا يدفن صديقه أو رفيقة أذا مات

والآن مارتو يملك بيتا...

والآن مارتو يملك حبوبا...»(٤)

ويتضح من هذه القصيدة أن أهم معالم التغير فى حياة الأمورى، بعد انتقاله إلى حياة الاستقرار، أنه أصبح يملك بيتا يسكنه، وأن لديه الحبوب اللازمة لطعامه، بعد أن مارس أعمال الزراعة.

اللغة الأمورية:

لم يترك الأموريون وثائق هامة باللغة الأمورية، ولا تتضمن هذه الوثائق بلغتهم الخاصة سوى أسماء الملوك والحكام، وبعض أسماء الأماكن فى سورية.

وأكثر وثائق الأموريين كتبت باللغة الأكادية، واللغة البابلية القديمة.

ويبدو أن اللغة التى كان يتحدث بها الأموريون، ويستعملونها أحيانا فى كتابة وثائقهم الخاصة، كانت نوعا من اللغة الكنعانية، بلهجتها التى انتشرت فى المناطق الشرقية من الإقليم السورى.

وتختلف هذه اللهجة إلى حد ما، عن اللهجة الفينيقية، التى كانت أيضا لهجة كنعانية انتشرت فى غرب سورية، ولها خصائصها المميزة.

العبادات والفكر الدينى عند الأموريين:

فى البداية لم تختلف ديانة الأموريين عن مثيلتها عند الساميين الآخرين . فى بادية الشام وبلاد العرب، فقد عبدوا قوى الطبيعة التى كانت مقدسة لدى هؤلاء الساميين.

كما عبد الأموريون عددا من الآلهة السامية الغربية، ومن أهمها الإله «آمورو»، وهو الإله الرئيسى والمعبود القومى، الذى تسمى الأموريون بإسمه، وكان إله القبيلة، وإله الحرب، وأقيمت له معابد خاصة، ولكنه لم يحظ بشهرة ولا حفاوة كبيرتين.

ومن الآلهة الأخرى التى عبدها الأموريون الإله «داجان»، الذى كان مركز عبادته فى مدينة توتول.

ومنها الإله «حدد» إله المطر والعواصف.

ومن مظاهر الفكر الدينى لدى الأموريين، إقامة العمود المقدس، الذى كان يرمز إلى قبيلتهم، وانتشر تقديسه فى جنوب سورية، ومنها عادة التضحية كنوع من القرابين، وذلك عند تأسيس المنشآت العامة، وخاصة المعابد، حيث كانت ساحة العبد تقام على جثة رجل ميت.

فن العمارة عند الأموريين.

بلغ فن العمارة درجة عاليه من التقدم لدى الأموريين، ويتمثل دلك فى قصر الملك ريمرى - ليم فى مدينة مارى، الذى كان يضم نحو ٣٠٠ غرفه، وفى وسطها غرفة العرش وغرفة النظارة، زينت جدرانها بلوحات دات إطارات، وزينت برسوم ونقوش بإتقان، تمثل مناظر للملك ولعدد من الرجال والآلهة، ومن بينها منظر بألوان زاهية، يمثل الملك وهو يتسلم شعار السلطة من الإلهة عشتار

وكانت مساحة القصر تبلغ ٤٥٠٠ قدم مربع، وتغمرها أشعة الشمس، ومرصوفة ببلاطات من الجبس

وجدران القصر كانت سميكة جدا، وتبلغ فى بعض جوانبها أربعين قدما ومشيدة أسسها بالحجارة، ويصل إرتفاعها فى بعض الأماكن إلى حوالى ستين قدما.

وكان القصر يضم مدرسة من غرفتين تحتوى على مقاعد على شكل مصاطب فخارية، وما يشبه السبورة من الطين لكتابة التمارين المدرسية عليها.

كما كان يضم القصر معبدا خاصا للملك، كرّس لعبادة الآلهتين «أتونيت» و «عشتار».

وكان القصر مزودا بشبكة من المجارى كانت تستخدم أيضا لتصريف مياه الأمطار.

وهذا القصر يعتبر عند علماء الآثار «جوهرة الفن المعمارى الشرقى»، وكانت له شهرة كبيرة فى المنطقة، وزاره إبن ملك «أوجاريت» على الساحل السورى، لتفقد معالمه، بقصد إقامة قصر مماثل فى مملكته.

الكنعانيون

أصل الكنعانيين وموطنهم الأصلى والمنطقة التى نزلوا بها فى بلاد الشام

وقد سبق أن أشرنا أن الكنعانيين وفدوا مع الأموريين فى هجرة واحدة من شبه الجزيرة العربية، فى حوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، فالمجموعتان الأمورية والكنعانية تنتميان إلى أصل واحد، ولغاتهم متشابهة إلى حد بعيد.

والكنعانيون هم الجماعة السامية الثانية التى قامت بدور هام فى تاريخ وحضارة الإقليم السورى.

وقد اختلف المؤرخون حول أصل تسمية الكنعانيين، فالبعض يتجه إلى أن كلمة «كنعان» سامية فى الأصل، وأنها إسم الجد الأول للكنعانيين، الذين سموا بهذا الإسم نسبة إليه، وذلك تبعا لعادة العرب فى تسمية قبائلهم.

ويتجه أصحاب هذا الرأى إلى أن الكنعانيين كانوا يقيمون فى أرض سهلة على ساحل الخليج العربى، التى نسبت إليهم، وسميت بأرض كنعان، وعند هجرتهم إلى بلاد الشام، كانوا يحملون هذا الإسم، وأعطوه إلى وطنهم الجديد الذى نزلوا به.

ويرى آخرون أن كلمة كنعان مشتقة من كلمة سامية تعنى الأراضى المنخفضة، فسموا بالكنعانيين، بمعنى سكان الأراضى المنخفضة، ويتفق هذا المعنى مع الأصل العبرى لكلمة كنعان، وتعنى منخفض»، وتسمية الكنعانيين تعنى «سكان المنخفض».

وفى رأى آخرين أن أصل كلمة كنعان، مشتق من كلمة حورية، هى كناجى، وتعنى الصباغة القرمزية، التى اشتهروا بها، وأطلق الحوريون عليهم هذه التسمية، عندما اتصلوا ببلادهم فى القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد.

وهذه التسمية أطلقها الإغريق على الفينيقيين الذين يمتون إلى شعب سامى واحد مع الكنعانيين.

وهناك رأى آخر ذكره هيرودوت، نقلا عن الفينيقيين أنفسهم، أنهم مهاجرون من أريتريا رأنهم وصلوا أولا إلى الأراضى الصخرية فى شمال الحجاز، ومنها دخلوا إقليم النقب فى جنوب فلسطين، ثم استقروا على سواحل لبنان وسورية

وفى التوراة تطلق «أرض كنعان» على كل فلسطين فى غرب نهر الأردن، حيث أقاموا بها حضارة راقية، وهو أول إسم جغرافى يطلق على فلسطين وجزء كبير من سورية، ثم انتقل فريق من الكنعانيين إلى الساحل السورى على البحر المتوسط، حيث عرفوا بالفينيقيين، و يعتبرون بذلك امتدادا كنعانيا باتجاه الساحل.

المدن الكنعانية:

لم يتمكن الكنعانيون من تأسيس دولة قوية موحدة، بسبب طبيعة المنطقة التى عاشوا فيها، والتى كانت محل أطماع الدول الكبرى فى هذه الفترة وهى مصر، وبلاد ما بين النهرين وأسيا الصغرى.

وعى ذلك انتظم الكنعانيون فى جماعات صغيرة على رأس كل منها ملك، وتجمعوا فى مدن محصنة فى السهول غالبا، وتحيط بها أسوار ذات شرفات وأبراج للدفاع عنها، كما تحيط بها مناطق زراعية تابعة لها.

وفى وقت الخطر كان سكان الأرياف المجاورين يلجأون إلى هذه المدن المحصنة للاحتماء بها.

وبعض الجماعات احتلت جزرا صغيرة فى مواجهة مدنها الساحلية وكانت

تلجأ إلى هذه الجزر المحصنة، عندما يشتد هجوم الأعداء عليها، وكان ذلك يساعدها على الصمود طويلا أمام هجمات الغزاة وحصارهم لعدة سنوات.

وقد انتشرت المدن الكنعانية أو الفينيقية الأولى على طول الساحل من جبل كاسيوس فى الشمال، إلى جبل الكرمل فى الجنوب، حيث كانت هذه الجبال تمثل درعا واقيا ضد هجمات الغزاة.

ومن أقدم هذه المدن أوجاريت، وتقع فى شمال الساحل السورى، ومنها أرواد التى أطلق عليها الصليبيون إسم طرطوس، ومنها جبيل، وصور وصيدا، وعكا

وكثيرا ما كان يحدث النزاع بين هذه المدن، وتنشب الحروب بينها، وقد تحصل إحداها على مركز الزعامة، وتتمتع بنوع من السيادة على المدن الأخرى، ومنها مدينة أوجاريت التى كانت لها السيادة فى أواخر القرن السادس عشر قبل الميلاد

وفى كثير من الأحيان كانت هذه المدن تتحد فيما بينها، لمواجهة هجمات الشعوب الأخرى، ولكن هذه الأحلاف لم تكن تستمر طويلا بعد ذلك، لأن بعض المدن كانت تسعى للحصول على مكاسب خاصة على حساب المدن الأخرى.

ومن أشهر هذه المحالفات، ذلك الحلف المشهور بزعامة أمير قادش، الذى ضم ٣٣٠ أميرا بجيوشهم، واشتبك معهم الملك المصرى تحوتمس الثالث بجيوشه عند مدينة مجدو بفلسطين، فى حوالى عام ١٤٦٨ ق.م، وألحق بهم هزيمة منكرة، وقضى بذلك على هذا الحلف.

مملكة أوجاريت:

ويتضح من الآثار التى كشف عنها فى موقع مدينة أوجاريت، أن هذه المدينة خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، قد بلغت درجة كبيرة من العمران والتقدم.

وقد خضعت أوجاريت لسيطرة الحوريين، لفترة من الزمن، ثم بسطت مصر سيطرتها عليها، وانضمت إلى الامبراطورية المصرية فى عصر الدولة المصرية الحديثة.

ومن ملوك أوجاريت الذين عُرفت عنهم بعض المعلومات، الملك «نقعاد الثانى»، وكان حكمه من حوالى عام ١٣٦٠- ١٣٣٠ ق. م، وفى عهده كانت مملكة أوجاريت تمتد من جبل الأقرع شمالا، إلى سهل جبله الحالى جنوبا، وكان ميناؤها مركزا هاما للتبادل التجارى.

وفى عهد المللك نقعاد، وقعت مملكة أوجاريت تحت سيطرة الحيثيين، فى عهد الملك شوبلوليوما، وأصبح نقعاد الثانى تابعا للحيثيين.

وقد انضم حكام أوجاريت إلى الحيثيين وحلفائهم ضد الملك المصرى رعمسيس الثانى، أثناء محاولته استرداد أملاك مصر فى سورية، وانتصر عليهم رعميس الثانى فى معركة قادش فى حوالى عام ١٢٨٥ ق.م.

وكان آخر ملوك أوجاريت يحمل إسم «حمورابى»، وهو غير حمورابى البابلى، وفى عهده تخربت المدينة فى حوالى عام ١١٨٠ ق. م.، أثناء غارات شعوب البحر، التى أسقطت الدولة الحيثية، وحاولت غزو مصر، ولكن الملك المصرى رعمسيس الثالث تمكن من هزيمتهم، وخلص العالم القديم من شرورهم.

وبعد تخريب مدينة أوجاريت لم تقم لها قائمة بعد ذلك.

الفصل الثانى

الفينيقيون

وهم فريق من الكنعانيين الساميين، اتجهوا نحو الساحل السورى، وأطلق عليهم الإغريق هذه التسمية، نسبة إلى مادة الصباغة الحمراء التى اشتهروا بها فى صناعاتهم وتجارتهم.

- الموقع الجغرافى للفينيقيين:

نزل الفينيقيون على ساحل البحر المتوسط، فى موقع لبنان حاليا، وانحصروا فى شريط ضيق من الأرض، تحده من جهة الشرق جبال لبنان، التى لا تبعد عن البحر أكثر من ٥٠ ميلا، وفى بعض المواضع تلاصق البحر، وفى مواضع أخرى تقترب من البحر لمسافة تتراوح بين ١٢ و ١٥ ميلا.

وتغطى هذه الجبال الشاهقة غابات كثيفة تضم أشجار الأرز والصنوبر والسرو.

ولا يزيد طول هذا الشريط الساحلى الذى نزل به الفينيقيون، على مائتى ميل، ويحتوى على كثير من الخلجان، وعدد من الرؤوس البارزة فى البحر، التى تفصل الخلجان بعضها عن بعض.

كما يضم الساحل عددا من الثغور، وتقترب منه بعض الجزر، التى كانت أهميتها لا تقل عن أهمية الساحل نفسه.

وفضلا عن ذلك، كان هذا الشريط الساحلى الضيق، مقسما بالطول إلى عدة أقسام، تفصلها عن بعضها البعض نتوءات جبلية تمتد من جبال لبنان، وتقترب كثيرا من البحر بانحدارات عمودية، مما يشكل حواجز طبيعية تفصل بين أقسامه المختلفة.

وتبعا لذلك، لم يستطع الفينيقيون تكوين دولة قوية موحدة، وإنما قامت دويلات المدن الصغيرة، التى كانت تتنازع كثيرا فيما بينها، وتتولى إحداها الزعامة، حسب الظروف السياسية والاقتصادية السائدة فى الفترات المختلفة.

وفى نفس الوقت كان الوطن الفينيقى أو «فينيقيا»، معبرا للغزاة الأسيويين القادميين من منطقة الجزيرة، فى طريقهم إلى مصر، كما عبرتها الجيوش المصرية عدة مرات، أثناء قيام الإمبراطورية المصرية، وتوضح الآثار والوثائق المصرية هذه الصلة الوثيقة بين فينيقيا ومصر.

دويلات المدن الفينيقية ونظام الحكم فيها:

ونتيجة لهذه الطبيعة الجغرافية لفينيقيا، وتأثرها بالمنافسات التى تجاذبت العالم القديم، بالإضافة إلى اهتمام الفينقيين بالشئون الاقتصادية والتجارية، وحرصهم على توفير الأمان والأستقرار السياسى، مما يساعد على تحقيق النجاح فى المجالات التجارية بصفة عامة، فقط انخرط الفينيقيون فى وحدات سياسية صغيرة، وهى ما يعبر عنها «بدويلات المدن».

وكان لكل مدينة حكومة خاصة بها، ويرأسها حاكم يتولى السلطة فيها تبعا لنظام الوراثة، وقد ينتقل المُلك منه إلى أسرة أخرى، أو تنتزع منه السلطة، على أثر ثورة تقوم بها عناصر قوية.

ولم يكن الملك أو الأمير أو الحاكم سلطة استبدادية مطلقة، لأن ذلك لا يتفق مع النشاط التجارى الذى كان يمارسه الفينيقيون.

وإلى جانب الملك، كانت تقوم هيئة من رجال التشريع، وكان الدين يحد من سلطة الحاكم، ويحظى الكهنة بنفود يلى نفوذ الحاكم فى الدولة.

وكانت الموارد المالية تعتمد أساسا على التجارة، وعلى حصيلة المكوس أو احتكار السلع، أو منهما معا

وفى بعض الأحيان كانت تعقد مؤتمرات، يحضرها ممثلون عن المدن الكبرى، للتداول فى الشئون العامة المشتركة وكانت مدينة طرابلس غالبا مقرا لهذه الاجتماعات العامة وكثيرا ما كانت ترتبط فيما بينها بنوع من التحالف، وخاصة فى وقت تعرضها للأخطار الخارجية، وأحيانا تجمعها المصالح المشتركة.

وكانت زعامة هذه الأحلاف تنتقل بين المدن الكبرى، فكانت لمدينة أوجاريت فى القرن السادس عشر قبل الميلاد، ولمدينة جبيل فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ولمدينة صيدا بين القرنين الثانى عشر والحادى عشر قبل الميلاد، ولمدينة صيدا بين القرنين الثانى عشر والحادى عشر قبل الميلاد، ولمدينة صور بعد القرن الحادى عشر قبل الميلاد، ثم انتقلت إلى مدينة طرابلس فى القرن الخامس قبل الميلاد.

وكانت بعض المدن الفينيقية تشغل موقعين أحدهما على الساحل والآخر على الجزر الصغيرة فى مواجهتها للساحل، حيث كان السكان يلجأون إليها لحمايتهم وقت اشتداد الأخطار الخارجية.

كما كان لكل مدينة مرفأين، أحدهما شمالي، الآخر جنوبى، وتلجأ السفن إلى المرفأ المناسب حسب الفصول السنوية، واتجاه الرياح.

وفى مدينتى صيدا وصور، تفصل بين المرفأين مسافة ملاحة يوم كامل.

أهم المدن الفينيقية:

جبيل.

وتقع على بعد ٤٠ كم إلى الشمال من مدينة بيروت الحالية، وكانت تعرف عند المصريين القدماء باسم كبن أو كبين، ثم أطلق عليها الإغريق إسم بيبلوس، وكانت آهله بالسكان منذ أقدم العصور، كما كانت من المراكز القديمة الهامة لعبادة الالهة عشتار

وبحكم موقعها الجغرافى، كانت جبيل ذات مركز تجارى هام، وكانت لها علاقات وثيقة مع الدول المجاورة.

وتشير الأساطير والآثار المصرية، إلى عمق العلاقات بين مصر وجبيل، وامتدادها إلى عصور ما قبل التاريخ.

وتشير أسطورة أوزيروست، إلى قدم العلاقات بين مصر وجبيل، وتقول هذه الأسطورة أن جثة أوزير الذى قتله أخوه ست، ووضعه فى تابوت وألقاه فى البحر، قد وصلت إلى ميناء جبيل، وجرف التيار التابوت إلى الشاطئ حيث ثبت بين فرعى شجرة أثل ضخمة، ثم أمر ملك جبيل بقطع هذه الشجرة التى أعجبت بضخامتها، لتكون عمودا فى قصره، وبداخلها التابوت وجثة أوزير، وبعد ذلك وصلت إيزة أخت وزوجة أوزير إلى بيبلوس وهى تبحث عنه، فاحتالت فى زى خادمة ودخلت قصر الملك، وبعد أن اكتشفت حقيقتها، أذن لها الملك بحمل

التابوت وبداخله جسد زوجها، وعادت به إلى مصر.

وكانت مصر ترتبط بمدينة جبيل بعلاقات تجارية، فقد كانت تستورد من منطقتها أخشاب الأرز والصنوبر، التى كانت تستخدم فى بناء مقابر الملوك، وفى صناعة السفن الكبيرة، وذلك منذ عصر ما قبل الأسرة الأولى.

وفى عهد الدولة القديمة كان ميناء جبيل أكبر ميناء تجارى فى غربى آسيا، وكان أكبر ميناء تجارى تتعامل معه مصر، وأحيانا كان يقوم بدور الوسيط التجارى بين مصر وكريت، وفى ميناء جبيل كانت تقيم جالية مصرية من التجار.

وفى عهد الدولة الوسطى خضعت جبيل ومدن أخرى بالمنطقة لنفوذ مصر، وقد اعترف أمير بيبلوس باكين، بأنه «خادم ملك مصر»

كما استعمل أمراء بيبلوس الألقاب المصرية، وكتبوا أسماءهم باللغة الهيروغليفية المصرية، واستخدموا أدوات الزينة المصرية

«وفى عهد الدولة الحديثة كانت بيبلوس والإمارات التى حولها، تدين بالولاء لمصر، ولما تقلصت الإمبراطورية المصرية فى هذه المنطقة، ظل ربعدى أمير جبيل على ولائه لمصر، حتى سقطت مدينته فى أيدى الأموريين، ولم يهتم ملك مصر بإنقاذه، رغم رسائل النجدة التى بعثها إليه.

كما خضعت جبيل للملك الأشورى تجلات - بلاسر الأول، وقدمت له الجزية، حينما اجتاح فينيقيا بجيوشه، وجلب منها كميات من أخشاب الأرز

ومن ملوك جبيل المعروفين، أجيرام - أتيوبعل، أبى - بعل - إيلى - بعل، شيبيت - بعل، الذين حكموا من حوالى القرن العاشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد.

صيدا:

تقع صيدا على بعد ٤٥ كم إلى الجنوب من بيروت، وعلى بعد ٤٠ كم

شمالى صور، فى سهل ساحلى شديدا الخصوبة، ووافر المياه، ولكنه ضيق يصل اتساعه إلى نحو ميلين، وينحصر بين السفوح الغربية لجبال لبنان الجنوبية وبين البحر.

وفى بادئ الأمر، أنشئت مدينة صيدا على رأس جبلى، وكان لها سور لحمايتها ولها مرفآن يتكونان من سلسلة من الجزر الصغيرة المتلاصقة، أحدهما فى الشمال، والآخر فى الجنوب ويسمى «المرفأ المصرى»، وهو أكبر من المرفأ الشمالى، ولكنه أقل منه أمنا.

وقلعة صيدا الحالية التى تسمى «قلعة البحر»، ترجع إلى زمن الحروب الصليبية.

وقد اشتق إسم «صيدا» من الصيد، وخاصة صيد الاسماك، وينسب إليها الإله الفينيقى الوثنى «صيدون»، ويذهب البعض إلى أنها كانت محلة صغيرة لصيادى الأسماك

وعند الآشوريين عرفت صيدا باسم «صيدونا»، وعند المصريين القدماء «صيدونو»، وفى العبرية «صيدون»، وفى التوارة تنسب مدينة صيدا إلى «صيدون» وقيل أنه الإبن الأكبر لكنعان بن حام بن نوح، وبذلك تنسب التوراة الكنعانيين - الفيبيقيين» إلى الحاميين وليس الساميين، مع أنهم يتكلمون لغة سامية، وذلك لاعتبارات سياسية ودينية.

ويسميها الصليبيون «ساجيتا»، بمعنى «السهم» فى اللغة اللاتينية، الذى كان شعار مدينة صيدا في فترة الغزو الصليبى.

وكانت الحرفة الرئيسية للسكان الصيد، وتشمل صيدا الأسماك، واستخراج القواقع أو الأصداف، اليت كانت تؤخذ منها الأصباغ الأرجوانية الحمراء، وهده الحرفة كانت من أسباب ازدهار التجارة الفينيقية.

صور:

وتقع على بعد ٤٠ كم جنوب صيدا، وتعتبر .... أعظم المدن الفينيقية جميعا، ومن أقدمها، وشيدت فى الأصل على جزيرة تبعد عن الساحل بعدة أميال، واستخدمت كحصن فى بادئ الأمر.

وكان مرفؤها الرئيس يقع فى جنوب الجزيرة، وبسبب توفر الأمن فى مينائها، وسلامة المدينة من الغزو، سرعان ما أصبح لها مركز الزعامة على المدن الفينيقية، وقصدها التجار والعبيد من جميع بلاد البحر المتوسط، وأصبحت من أعظم موانئ حوض البحر المتوسط الشرقى.

وكانت مدينة صور تتمتع بالثروة والرخاء، بسبب التجارة، وازدادت ازدهارا فى عهد ملكها «جرام» (٩٨٠ - ٩٣٦ ق. م)، الذى كان يعاصر الملك النبى سليمان عليه السلام، وفى عهده شيدت حول المدينة الأسوار العالية والأبراج الشامخة.

وقد حافظت صور على استقلالها، حتى قدوم الأسكندر الأكبر وفى عام ٣٣٢ ق.م، الذى تمكن من إخضاعها، بعد حصار من البر والبحر، دام سبعة أشهر وعقب ذلك أمعن الأسكندر فى تقتل واضطهاد سكانها وباع الكثير منهم فى سوق النحاسة، وبعد ذلك بين سدا طوله نصف ميل لربط الجزيرة بالبر.

أرواد:

وكانت تقوم فوق موقعين، أحدهما على إحدى الجزر فى شمال فينيقيا، والآخر على البر فى مواجهتها، وأطلق عليها الصليبيون إسم «طرطوس».

وعلى البر اشتغل سكانها بالزراعة، وبالتجارة مع المناطق الداخلية، وعلى الجزيرة اشتغلوا بالملاحة ومهروا فيها وكان لهم وحدات كبيرة ضمن الأسطول الفينيقى. وكان سكانها يخزنون مياه الأمطار فى صهاريج أقاموها فى الجزيرة، بالإضافة إلى استخدام المياه من نبع مياه عذب تحت البحر، كانوا يحصلون عليها باستعمال أنبوب من الجلد.

وبالرغم من صغر مساحة مدينة أرواد، فكان لها السيادة على كثير من المدن المجاورة، مثل «سمييرا» و «مارثوس».

ومثل المدن الفينيقية الرئيسية الأخرى، فقد تعرضت مدينة أرواد لأطماع الشعوب المجاورة، ودمرها شعوب البحر فى غزواتهم فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد، ثم جرى إحياؤها، وقاست من غزوات الأشوريين المتكررة بعد ذلك، وأخيرا فتحت أبوابها أمام الإسكندر الأكبر عند قدومه.

توسع الفينيقيين فى حوض البحر المتوسط

تأثر الفينيقيون إلى أبعد الحدود، بالبيئة التى عاشوا فيها، فقد كانت جبال لبنان التى تقع خلف مواطنهم، تعرقل صلة السهول الساحلية بالأقاليم الداخلية.

كما أن هذه البيئة المحلية لم تعد تكفى لإعاشة السكان الذين يتزايد عددهم باستمرار، ولم يعد إنتاج الزراعة يكفى لإطعام سكان المدن الساحلية.

ونتيجة لهذه الظروف الطبيعية الصعبة، كان على الفينيقين أن يلتمسوا سبلا أخرى للمعيشة، فلم يجدوا مخرجا آخر لهم سوى أن يتجهوا للبحر، وساعدهم على ذلك توفر الموانئ الصالحة فى سواحل بلادهم.

الفينيقيون ودورهم فى التجارة البحرية:

يعتبر الفينيقيون أول أمة بحرية فى التاريخ، وفى البداية كانت رحلاتهم البحرية قصيرة، لصيد الأسماك، وللحصول على أنواع من الأصداف التى يستخرجون منها نوعا من الأصباغ التى عرفت باسم «الأرجوان» أو للبحث عن الزجاج والصلصال وبعض السلع الأخرى.

وكان الفينيقيون يتبادلون التجارة مع البلدان التى ترسو سفنهم على سواحلها.

ثم ازداد هذا النشاط التجارى بعد القرن الثالث عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد، بتأثير ضغط الآراميين عليهم فى وسط سورية، فى أعقاب هجمات

شعوب البحر على سورية ومن جانب الاسرائليين والفلسطينين، الذين أحاطوا بهم من الجنوب.

وقد دفعهم هذا الوضع الجديد إلى إنشاء تدريجيا محطات تجارية ومراكز استيطان لهم تتوفر فيها وسائل المعيشة والأمن.

وعلى أثر ذلك أصبحت مراكز الاستيطان الداخلية ذات أهمية ثانوية.

وكانت السفن الفينيقية بسيطة فى أول الأمر، وتشبه الزوارق المكشوفة، قليلة الارتفاع، ولا تستطيع أن تتوغل وسط البحر بسبب الأمواج الهادرة، ثم أخذ الفينيقيون يطورون فى صناعة السفن، فكبر حجمها وسمكها، واتخذوا الشراع والمجداف فى تسيير سفنهم، التى كانت تصنع من خشب الأرز، وأخيرا توصلوا إلى بناء السفن الضخمة التى تقوى على التوغل فى المحيطات

كما برع الفينيقيون فى فن الملاحة، واستطاعوا أن يشقوا لأنفسهم مسالك وطرق بحرية أكتشفوها، وأقبلوا على الإبحار ليلا، بالاعتماد على النجوم، وخاصة النجم القطبى الذى أدركوا أهميته

وبذلك زادت قدرة الفينيقيين فى السيطرة على البحر، وأخذوا يجوبون البحارين الشرق والغرب، وتضاعف نشاطهم التجارى، وضمن نقوش المصريين القدماء والأشوريين، توجد مناظر لسفنهم.

وقد وصلوا فى رحلاتهم إلى سواحل بريطانيا، التى كانوا يحصلون منها على القصدير، مقابل الخزف والملح والأوانى النحاسية.

وأهم رحلاتهم وأطولها التى استغرقت حوالى ثلاثة أعوام، دورانهم حول سواحل إفريقيا ووصولهم إلى رأس الرجاء الصالح، واستخدموا فى هذه الرحلة سفن نخاو الثانى (٦١٠ - ٥٩٥ ق.م)، وهو ثانى ملوك الأسرة السادسة والعشرين المصرية.

كما كان لهم علاقات تجارية مع مصر وأسبانيا، ومع قبرص وصقلية

وسردينيا وغيرها من جزر البحر المتوسط.

وكان الفينيقيون يصدرون الأخشاب والقمح والزيت والخمر، والمصنوعات المعدنية والمنسوجات، وكانوا يستوردون الفضة والذهب، والحديد والقصدير والرصاص، والأوانى النحاسية، والكتان، والأغنام، والتوابل، والرقيق.

المستعمرات الفينقيقة على سواحل البحر المتوسط:

وكان الفينيقيون يعمدون إلى الاستقرار والاستيطان فى الأماكن التى ينزلون بها للتجارة، على سواحل البحر المتوسط.

وإذا كانت البلاد التى ينزل بها الفينيقيون يتوفر فيها الأمن، بفضل حكامها القادرين، فإنهم يكتفون بإقامة مراكز تجارية لهم، ويحصلون على حق حرية التجارة، كما فعلوا فى مصر، حيث أقاموا مراكز تجارية عند مصبى فرعى دمياط ورشيد للنيل.

وفى أماكن أخرى على ساحل البحر المتوسط وبعض الجزر، كان الفينيقيون يستقرون، ويقيمون المستعمرات، وينشئون مدنا فينيقية جديدة، ويواصلون اتصالاتهم بالمدن الفينيقية الكبرى فى وطنهم الأصلى عن طريق البحر، ويقومون بتصريف المنتجات الفينيقية فى البلاد التى أقاموا فيها مستعمراتهم، وجمع المواد الخام المطلوبة، وأرسالها إلى بلاد الشام.

وكان الفينيقيون يتجنبون إثارة الشكوك حولهم، ولم يتخذوا إتجاها سياسيا معينا، ولم يحاولوا إثارة فزع السكان الأصليين فى المواطن التى نزلوا بها، وسرعان ما كانوا يتلاءمون مع البيئة الجديدة التى يعيشون فيها.

وكانت أقدم المستعمرات الفينيقية، ومن أهمها، التى أقاموها فى جزيرة قبرص فى منتصف القرن الحادى عشر قبل الميلاد، بسبب قربها من الوطن الأم، حيث ساد التبادل التجارى بينهما لدرجة أنه كان يصعب التمييز بين المنتجات الفينيقية والقبرصية.

كما استقروا فى جزيرة رودس فى ذلك الوقت، وبعد ذلك أنشأوا مستعمرات فى جزر كريت ومالطة وصقلية وسردينيا

وكان للفينيقيين عدد من المستعمرات فى أسبانيا، مثل «ترشيش» وتعنى باللغة الفينيقية «منجم أو معمل تكرير»، «ومقة» ومعناها معمل صغير أو حانوت صغير».

وفى بلاد اليونان أقام الفينيقيون بعض المستعمرات

قرطاج.

أما أشهر وأعظم المستعمرات الفينيقية، فكانت قرطاج، وتقع قرب مدينة تونس الحالية، ويرجع تأسيسها إلى عام ٨١٤ ق.م. ويعني اسمها «المدينة أو القرية الحديثة» ويروى أن الأميرة «إليسا» «ابنة بيلاد «ملك صور» هربت من ظلم أخيها «بيجماليون» لدى مقتل زوجها، ونقلت معها أموالها ومجوهراتها، ورافقها عدد من الأمراء والأتباع إلى شاطئ أفريقيا إلى الغرب حيث تأسست هذه المستعمرة فى هذه البقعة

وبعد تأسيس قرطاج اعتبرت تابعة لمدينة صور بفينيقيا، وبعد أن ضعفت صور منذ القرن السادس قبل الميلاد أخذت قرطاج تستقل سياسيا، وسرعان ما ازدهرت وأصبحت لها الزعامة على المدن الفينيقية فى وسط البحر المتوسط وعلى سواحله

وقد بلغت قرطاج الذروة فى السيادة التجارية والسياسية، عندما أنشأت امبراطورية واسعة امتدت من الساحل الغربى لليبيا إلى مضيق جبل طارق وأسبانيا، وأقامت مستعمرات جديدة فى هذه المواقع، وضمت جزر الباليار ومالطة وسردينيا وبعض المواقع على ساحل أسبانيا

ودخلت قرطاج فى حرب مع اليونانيين، ومع الرومان، بسبب التنازع على السيادة على البحر المتوسط وتجارته، وانتهت الحرب البونية الثالثة فى عام ١٤٦ ق. م مع روما، بتدمير وحرق قرطاج، التى تحولت بعد ذلك إلى ولاية رومانية.

الآراميون

الموطن الأصلى للآراميين:

يمثل الآراميون الموجة الثالثة من الهجرات السامية التى اتطلقت من شبه الجزيرة العربية، وكان خروجهم منها فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد، واتجهوا نحو بلاد الشام، حيث توغلوا فى شمال ووسط سوريا، ثم استقروا فى المناطق التى تتميز بخصوبة أراضيها، وذلك خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد.

ويرى بعض المؤرخين أن الموطن الأصلى للآراميين كان فى الصحراء العربية السورية، أو فيما يعرف بمنطقة الهلال الخصيب

ويتفق هذا الرأى مع ما جاء فى التوارة، ومن أن النشأة الأولى للآراميين كانت فى بلاد «أبناء الشرق»، ويقصد بها الصحراء الواقعة شرقى فلسطين، وهى الصحراء السورية

أصل تسمية آرام.

اختلفت الآراد حول أصل إسم «أرام»، ويذهب بعض اللغويين إلى أن هذا الإسم مشتق من كلمة تعنى «مخلوقات»، وفسرها البعض الآخر بأنها إسم أو لقب لإله.

ويرى آخرون أنها إسم لشعب، ويقصد به سكان الأراضى المرتفعة ويتوسع البعض فى إطلاق لفظ «الآراميين» على الشعوب السامية التى تناثرت وتوالت على منطقة الهلال الخصيب.

وعند اليهود «آرام» هو إبن سام بن نوح، وأن جميع الآراميين ينحدرون من نسله، ويطلقون على بلاد الآراميين إسم آرام.

وفى رأى بعض الباحثين أن الحيثين هم الذين أطلقوا إسم الآراميين على سكان جهات أعالى دجلة والفرات، ثم نقلوه إلى سوريا بعد أن سيطروا عليها.

بدء ظهور الآراميين:

يرجع بدء ظهور الآراميين إلى أزمنة قديمة، ففى أحد نصوص الملك نارام – سن، وردت إشارة إلى إقليم يدعى «أرام»، كان يقع فى أعالى بلاد الرافدين، ويرجع هذا النص إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد.

وجاء ذكر «أرام» فى لوحة وثائق تجارية ترجع إلى حوالى عام ٢٠٠٠ ق. م، وتشير إلى مدينة أو دولة «أرام» على مقربة من «أشنونا»، فى وادى دجلة الأسفل

وتكرر إسم «أرام» فى نصوص مدينة «أوجاريت» فى حوالى عام ١٤٠٠ ق م كما ورد فى نصوص مدينة «مارى» من حوالى عام ٧٠٠ ق.م.

ومن عهد سرجون الثانى الأشورى، وردت أسماء أكثر من خمسين قبيلة آرامية.

وفى البداية كان إسم «الآراميين» مرتبطا باسم «أخلامو» حلفائهم، وتكرر ذلك فى نصوص بعض الملوك الأشوريين الذى خاضوا معارك ضدهم، وظن البعض أن «الآراميين» فرع من «الأخلامو».

ويذكر البعض أن إسم «أخلامو»، كان يطلق على إحدى قبائل البدو، ثم توسع فى استعماله، وأطلق على القبائل المتحالفة، وتفسر كلمة «أخلامو» بمعنى «الحلفاء».

وفى نصوص بعض الملوك الأشوريين، وردت إشارات إلى «الأخلامو» و (الأخلامو – الآراميين)، وبعد ذلك ازداد استخدام اسم الآراميين، ثم استخدم منفردا، دون ذكر إسم «أخلامو»، وذلك فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد، ويدل ذلك على تفوق «الآراميين» على «الأخلامو» الذين كانوا متحالفين معهم منذ بداية ظهورهم فى سورية.

دويلات المدن الآرامية:

عندما دخل الآراميون منطقتى الجزيرة وسورية، كانت الظروف مهيأة لاستقرارهم فيها، على أثر سقوط شعب الميتانى فى أيدى الحيثيين خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد، ثم تعرض بلاد العراق والشام لغارات عنيفة من الشعوب الجبلية فى الشمال، فى أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد.

وقد استغل الآراميون الفوضى والاضطراب اللتين سادتا فى إقليم الجزيرة وبلاد الشام، وشقوا طريقهم إلى تلك الجهات، بما عرفوا به من شدة المراسى، وروح الصبر والكفاح.

وخلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، اجتاحت جماعات من الآراميين الجزء الشمالى من أرض الرافدين، والأجزاء الشمالية والوسطى من سورية، وحالت جبال لبنان دون زحفهم غربا على السهل الساحلى المطل على البحر المتوسط

وقد بلغ الغزو الآرامى أقصى شدته خلال القرن الحادى عشر قبل الميلاد، حين بلغوا ذروة سلطانهم السياسى، فى هذا القرن، وخلال القرن التالى العاشر قبل الميلاد، واستطاعوا أن يؤسسوا عددا من المدن والدويلات فى بلاد الرافدين، وبالأقاليم السورية، وساعد على ذلك ضعف الإمبراطوريات الكبرى فى ذلك الوقت، وخاصة الإمبراطورية الأشورية

ويمكن تقسيم الإمارات أو الدويلات الآرامية جغرافيا، **كالتالى**.

فى شمال العراق:

١) **دويلة بيت آدينى**: ويقع على ضفتى المنعطف الكبير لنهر الفرات، وعاصمتها «تل برسيب»، ومكانها حاليا «تل الأحمر»، ويتبعها عدد من المدن الهامة التى تنتشر شرقا، وبعد انتصار شلمنصر الثالث على ملك بيت آرينى، أطلق عليها «قلعة شلمنصر».

وكانت دويلة بيت آديني أقوى ولاية في شمال العراق، حيث كانت تشغل مركزا استراتيجيا على الطريق بين حران وسورية، وهذا الموقع جعلها تساهم في اشعال الثورات بين الدويلات الآرامية ضد الدولة الآشورية، مما دفعها إلى تأديب مملكة بيت آديتي، واجبارها على دفع الجزية، وانتهى الأمر بأن تغلب شلمنصر الثالث على ملكها «أخوني»، وضمها إلى الإمبراطورية الأشورية.

٢) **دويلة بيت بخياني**: وكان مركزها مدينة «جوزانا» (تل حلف حاليا).

٣) وإلى الشرق في أعالي رافد الخابور، تأسست عدد من المدن الآرامية، من أهمها «نصيبين»، وخوريزانا» و «جيدارا»

في شمال سورية:

وإلى الغرب من المنعطف الكبير لنهر الفرات، تمكن الآراميون من إنشاء عدد من الولايات الصغيرة، ومن أهمها

١) **دويلة بيت آجوشي**. وكانت عاصمتها مدينة «خلبو» (حلب حاليا)، وكانت قريبة من دويلة «بيت آديني»

٢) **دويلة سمأل**: وكانت تقع في منطقة جبلية بإقليم كليكيا، وعاصمتها «سنجيرلي»

٣) **دويلة جرجوم**: وكانت عاصمتها «مرقاش»، وهي «مرعشي» الحالية.

٤) **دويلة ياخان**: وكانت عاصمتها «أرباد».

٥) **دويلة خاتينا**: وكانت عاصمتها «كوتالوا».

وقد تعرضت هده الدويلات لهجمات الأشوريين عدة مرات، وخاصة دويلة خايتنا، التي أغار عليها الأشوريون في عهد أشور ناصر بال الثاني، وشلمنصر الثالث، وانتهى الأمر بتولية أحد الموالين للأشوريين على عرش خاتينا.

كما وقعت مدينة أرباد في يدى تجلات بلاسر الثالث.

وكانت دويلة سمأل آخر الولايات الآرامية، التى ظلت تكافح من أجل الحفاظ على استقلالها، حتى القرن الثامن قبل الميلاد، عندما تغلب عليها شلمنصر الخامس، وضمها إلى امبراطوريته الواسعة.

فى وسط وجنوب سورية:

١) **دويلة أرام النهرين**: وكانت تقع وسط السهول المنبسطة بين إقليم الجزيرة والشام، وكان مركزها مدينة «حران»، والتى أصبحت من المراكز الهامة للحضارة الآرامية، وكانت تتمتع بمركز تجارى على طريق القوافل بين نينوى وأشور وبابل ودمشق وصور، وتعتبر دويلة أرام النهرين من أقدم الإمارات الآرامية فى سورية، ويرجح أن إسم «أرام النهرين» يقصد به نهر الفرات ورافده الخابور، حيث استقر فيها الآراميون الأوائل، ومن هذه المنطقة بدأوا فى الانتشار

وقد استمرت هذه الدويلة حتى القرن التاسع قبل الميلاد، وتعرضت لهجمات الأشوريين والكلدانيين

٣) **دويلة أرام دمشق**: وكانت عاصمتها «دمشق»، وقد تأسست هذه الدويلة فى أواهر القرن الحادى عشر، أو القرن العاشر قبل الميلاد وكانت معاصرة تقريبا، لتأسيس مملكة العبرانيين.

وجاء فى التوراة، أن أحد ضباط ملك صوبا الآرامية، ويدعى «رزون»، قد تمرد على ملكه وتحصن مع عدد من جنوده فى أحد الأدغال، وبعد ذلك انطلقوا إلى دمشق، حيث أعلن رزون نفسه ملكا عليها، واستمر فى النضال ضد العبرانيين، الذين كانوا يحاولون السيطرة على هذه المنطقة.

وسرعان ما تطورت دويلة دمشق، وأخذت إمكانياتها وقواها تنمو بسرعة، ويرجع ذلك إلى بعدها حتى ذلك الوقت عن أخطار الغزو الأشورى، الذى تعرضت له مرارا الممالك الآرامية الشمالية، كما استفادت من التوتر الذى قام بين المملكتين العبريتين فى فلسطين المجاورة، منذ القرن التاسع قبل الميلاد.

وقد أصبحت دويلة دمشق مملكة كبرى، تمتد من الفرات شرقا، إلى نهر اليرموك غربا، وتتاخم أرض الأشوريين فى الشمال، وأرض العبرانيين فى الجنوب.

وأثناء الصراع بين الدولتين العبرانيتين، طلب «آسا» ملك مملكة «يهودا»، العون والدعم من الملك الآرامى فى دمشق، لصد الغارات التى كان يشنها على بلاده ملك مملكة «إسرائيل»، ويدعى «بعشا»، بقصد ضمها إلى مملكته، وبعث ملك يهودا هدايا ثمينة من الفضة والذهب، إلى ملك دمشق بن حدد طاب بن خريون، وذلك اعترافا بالجميل الذى أسداه إليه.

كما يذكر أن ملك دمشق، وقد استغل النزاع القائم بين المملكتين العبريتين، وقام بمهاجمة مملكة إسرائيل المجاورة، وتكرر ذلك فى تمهد مل إسرائيل «عمرى» والملك «آحاب»، وفرض ملك دمشق الجزية على مملكة اسرائيل.

وقد أمتد نفوذ ملك دمشق إلى شمال سورية، وخاصة حلب، حيث كان يتدخل فى الصراعات التى كانت تنشب بين الحين والآخر، بين الإمارات الآرامية، وعثر على مسلة بالقرب من مدينة حلب، نقش عليها إسم ملك دمشق بن حدد بن كاب بن حزيو، وعليها صورة لإله الفينيقيين «ميلقارت».

وكان ملك دمشق على رأس تحالف المدن الآرامية فى سوريا ضم اثنى عشر ملكا، ضد الملك الأشورى شلمنصر الثالث، الذى لم يحقق انتصارا حاسما على هذا الحلف، فى موقعة «قرقارة» الشهيرة، التى تعنى فيها الآراميون بخسائر فادحة فى الأرواح، حيث ضاقت ساحة المعركة بجثثهم، كما خسروا عرباتهم وخيولهم، التى استولى عليها شلمنصر الثالث، ومع ذلك لم يتمكن شلمنصر الثالث من الاستيلاء على دمشق وبعد ذلك بنحو سبعين عاما أصاب الضعف مملكة دمشق، بسبب توالى هجمات الأشوريين عليها، مما شجع ملك إسرائيل «يربعام الثانى» على مهاجمتها.

وفى عهد الملك الأشورى تيجلات يلاسر الثالث، اجتاح الأشوريون معظم

المدن السورية، وحاصروا دمشق، وسقطت فى أيديهم، وقتل ملكها «رصين»، وذلك فى سنة ٧٣٢ ق.م، وانتهت بذلك فترة السيادة الآرامية ولكن دمشق ازدهرت من جديد فيما بعد فى عهد السيطرة الفارسية على سوريا ومصر.

٣) **دويلة أرام صوبا**: وكانت مملكة آرامية قوية، وتقع عاصمتها «صوبا» فى سهل البقاع جنوبى «زحلة الحالية»، وقد امتدت فى عهد ازدهارها إلى حدود حماه فى الشمال الغربى من سورية.

وكانت صوبا فى ذروة قوتها تعاصر عهد ملك إسرائيل «شاؤول»، عندما كانت العدواة على أشدها فى عهده بين الدويلات الآرامية ومملكة إسرائيل، واستمر هذا العداء فى عهد الملك داود الذى تمكن من ضمها بصفة مؤقتة.

وبعد أن ضعفت صوبا أخذت مكانها دمشق تدريجيا، حتى أصبحت أعظم الدويلات الآرامية.

٤) **دويلة معكة**: وتقع فى شرق الأردن قرب جبل حرمون، وامتدت فى اتساعها نحو نهر الأردن غربا، وباتجاه الجنوب والشرق فى الصحراء وقد اشتركت دويلة معكة مع الآراميين فى دمشق وصوبا والعمونيين فى الحرب ضد الملك داود، ولكنه تغلب عليهم.

٥) **إمارات آرامية أخرى**: ومنها إمارة «جشور»، وتقع بين حرمون وباشان، فى شرق الأردن، وإلى الجنوب من معكة.

ومنها إمارة «بيت رحوب»، وتقع قرب معكة، وإلى جوار جشور، وإمارة «طوب»، وهو إسم عبرى معناه «طيب»، وتقع فى شرق الأردن، إلى الجنوب من بلدة أم قيس حاليا.

الحضارة الآرامية

لم يكن الآراميون فى بداية تاريخهم سوى جماعات من البدو، كانوا يعيشون حياة خشنة قاسية.

ولما استقروا فى وطنهم الجديد، سرعان ما تأثروا بحضارات شعوب المنطقة

التى نزلوا بها، وكانت أكثر تقدما، فتفاعلوا معها، واقتبسوا الكثير من عناصرها، مزجوا بها ثقافاتهم البدائية. ومن الحضارات التى تأثر بها الآراميون، حضارة الكنعانيين، وحضارة البابليين، وحضارة الحيثيين، كما تأثروا بحضارة المصريين التى، أخذت تتسرب إلى تلك المنطقة، على أثر قيام الإمبراطورية المصرية فى بلاد الشام.

ولكن الآراميين، وقد تخصلوا من بداوتهم، واكتسبوا مظاهر حضارية متفوقة، ظلوا محتفظين بلغتهم، وتمسكوا بها إلى آخر فترة من تاريخهم، ولم يلبث الآراميون أن اضطلعوا بدور فعال فى التاريخ الحضارى لمنطقة الشرق الأدنى القديم بوجه عام، وهذه بعض العناصر الحضارية التى تميز بها الآراميون.

اللغة الآرامية:

اللغة الآرامية إحدى اللغات السامية، مثل اللغات الأشورية والبابلية والفينيقية والعبرية والعربية، وكانت واسعة الانشار فى منطقة الشرق الأدنى القديم، بدرجة لم تصل إليها واحدة من اللغات السامية الأخرى فى ذلك الوقت

وبالرغم من الخصائص الكثيرة المميزة للغة الآرامية، فإنها قريبة الصلة باللغتين الفينيقية والعبرية، ويشترك معها فى عدد من المصطلحات اللغوية، ولكنها تقترب أكثر إلى اللغة العربية، وتشترك معها فى كثير من المصطلحات والألفاظ اللغوية.

وتشتمل اللغة الآرامية على عدة لهجات، وتشبه فى ذلك اللغة العربية ذات اللهجات المتعددة.

وعبر تاريخها الطويل، كانت اللغة الآرامية تستخدم كلغة للكتابة ولغة للتخاطب، فى كثير من مناطق الشرق الأدنى القديم.

ولعل من أهم أسباب انتشار اللغة الآرامية، أن كانت لغة التجار الآراميين الرحل، وساعد على ذلك أيضا حملات النفى والتهجير التى قام بها ملوك الأشوريون، كما كانت تتميز بسهولة الخط فى الكتابة وبساطة ابجديتها وقواعد النحو والصرف الخاصة بها.

وقد استخدمت اللغة الآرامية عند الأشوريين والبابليين والحيثيين والعبرانيين والمصريين والفرس، ووصلت الأبجدية الفينيقية الآرامية إلى حدود الهند، حسب رأى «جيمس هنرى برستد».

وفى رأى بعض اللغويين، تعتبر اللغة الآرامية دولية، وفى فترة ما بين القرنين الثامن والخامس قبل الميلاد، وظلت سارية كلفة للكتابة فى الدواوين الحكومية، بعد انهيار الدويلات الآرامية، وحتى عندما انتقل الحكم فى المنطقة إلى الفرس وخاصة فى عهد الملك دارا الأول، وفى عهد السلوقين وغيرهم.

وقد أخذ عرب الشمال أبجديتهم التى كتب بها القرآن الكريم، من الكتابة الآرامية التى كان يستخدمها الأنباط

كما استخدمت الآرامية فى كتابة بعض أجزاء التوراة، فكانت الآرامية لغة السيد المسيح عليه السلام، وكتبت بها معظم أناشيد الديانة المسيحية، وكانت اللغة السريانية إحدى لهجات اللغة الآرامية.

التجارة عند الآراميين:

اشتغل الآراميون كوسطاء تجاريين بين دول الشرق الأدنى، وكانت مدينة دمشق مركزا تجاريا هاما تمر به القوافل المحملة بالسلع المختلفة، القادمة من الأسواق الفينيقية والعبرانية، ومن الأسواق العراقية.

وقد حققت دمشق من التجارة أرباحا طائلة، وعمّها الرخاء المادى. وكانت التجارة البرية فى دمشق، لا تقل فى قيمتها ومكانتها عما كانت تحظى به صور وصيدا فى مجال التجارة البحرية.

الفن عند الآراميين

تأثر الآراميون بالأسلوب الفنى للدول المجاورة، ففى جوزانا (تل حلف) عثر على مجموعة من التماثيل والنقوش، وكانت متأثرة بشكل واضح بالفن الميتانى، عندما كانت هذه المنطقة خاضعة لسيطرة الدولة الميتانية.

وفى مدينة زنجيزلى وحماة، عثر على بعض القطع الأثرية، التى كانت متأثرة

بالفن الحيثى، وقت السيطرة الحيثية على هذه البلاد.

وفى «دويلة سمأل» التى خضعت للآشوريين، عثر على بعض القطع الأثرية، كانت متأثرة بالفن الأشورى.

وفى دمشق عثر على بعض النقوش التى ترمز إلى تمثال «أبى الهول» استخدم فيها الأسلوب الفينيقى، إذ كان ملوك دمشق يستخدمون العمال والفنيين فى أعمال البناء والنحت والرسم.

كما عثر على نماذج أخرى كانت متأثرة بالأسلوب المصرى وذلك فى مجدو والناصرة وغيرهما

ديانة الآراميين

بعد أن استوطن الآراميون فى منطقة الهلال الخصيب تبنوا العقائد المختلفة التى كانت سائدة هناك، وعبدوا كل الآلهة التى كانت معروفة آنذاك، وهى آلهة بلاد ما بين النهرين، وآلهة الكنعانيين والفنيقيين، وآلهة الحيثيين والحوريين.

وكان الإله «حدد» إله العواصف والأعاصير، أكثر الآلهة تقديرا وإجلالا لدى الآراميين.

كما عبدوا الإلهة «أتارجايتس»، وهى ربة الخصب، وتماثل الإلهة «عشتارت» عند الفينيقيين.

وفى مملكة دمشق، كان الإله «حدد»، المعبود الوحيد بلا منازع، وتسمى على إسمه ثلاثة من ملوكها، منهم «بن حدد بن طاب بن مزيون»، وفى دمشق بين معبد مشهور للاله «ريّمون»، إله «العاصفة أو الرعد»، وهو نفس الإله «حدد».

كما كان إله إسرائيل المسمى «يهوه» معروفا فى دمشق.

وكان الآراميون يقدسون قوى الطبيعة مثل الشعوب المجاورة، وعبدوا الشمس والقمر.

ومثل الأشوريين والبابليين والفينقيين والعبريين،كان الآراميون يؤمنون باليوم الآخر، وكانوا يعتقدون أن الميت سينتقل فى قبره إلى العالم السفلى، الذى تتجمع فيه أرواح الموتى، حيث يعيشون حياة غامضة، ودون أن تتوفر فيها لهم السعادة والفرح.

الفصل الرابع
العبرانيـــون

أصل العبرانيين وموطنهم الأصلى:

ومنهم اليهود الذين ينتسبون إلى النبى يعقوب (اسرائيل). وكان العبرانيون شعبا من البدو الرحل يتجولون بقطعانهم فى المراعى الفسيحة.

والعبرانيون مثل الآراميين والكنعانيين والفينقيين ينتمون إلى الجنس السامى، وقد نشأوا فى الأصل فى شبه الجزيرة العربية، ثم هاجرا منها طلبا لمزيد من الرزق الأراضى الخصبة فى خارجها.

وتذكر التوراة التى يعتبرها المؤرخون المصدر الأساسى لتاريخ العبرانيين، أنهم قد هاجروا إلى بلاد الشام على ثلاث مراحل.

وكانت الهجرة الأولى خلال القرن الثامن عشر قبل الميلاد حيث نزحوا إلى الصحارى القريبة من شمال بلاد العراق، والهجرة الثانية توافق هجرة الآراميين فى حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وكانت الهجرة الثالثة خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وفيها خرجوا من مصر إلى جنوب شرق فلسطين، بعد أن تجولوا لفترة فى شبه جزيرة سيناء.

وتذكر الأساطير العبرانية أن جدهم الأكبر إبراهيم عليه السلام أتى من أور فى جنوب العراق واستقر قرب حبرون (الخليل) فى فلسطين، وذلك فى حوالى عام ١٨٥٠ ق. م، وأن حفيده يعقوب بن اسحق قد عاش لفترة فى فدان آرام قبل انتقاله إلى مصر، وبعد أن أصبح صاحب الشأن بينهم غيّر إسمه إلى اسرائيل، كما غيّر أخوه عيسو إسمه إلى أدوم وسمى ورثته بالأدوميين.

استقرار يعقوب وأولاده فى مصر:

وفى حوالى عام ١٦٥٦ ق.م رحل يعقوب وأولاده إلى مصر، سيما كان إبنه يوسف الذى انتقل إليها وهو غلام صغير من قبل، قد بلغ مكانة مرموقة

فيها أثناء حكم الهكسوس، وأصبح أمينا على الخزانة المصرية.

وقد نزل يعقوب وأولاده فى بلدة بلبيس بشرق الدلتا، وعاش بنو إسرائيل فى مصر طوال أربعة قرون نعموا بالإزدهار فيها كثيرا، وتكاثرت أعدادهم.

ظهور موسى وتزعمه لليهود:

وبعد فترة من الزمن خلال عصر الدولة الحديثة فى مصر، ظهر موسى من بين بنى إسرائيل، فى الوقت الذى تعرض فيه اليهود إلى الإضطهاد والإذلال.

وقد تزوج موسى من إبنة النبى شعيب فى مدين بجنوب سيناء التى فر إليها، ثم بعثه الله رسولا هو وأخاه هارون إلى فرعون مصر، لدعوته إلى عبادة الله الحقة وهو إله واحد لا شريك له، وعرض أمامه المعجزات التى أتى بها، ولكن فرعون أبى واستكبر، وصب غضبه على موسى وأتباعه.

هجرة موسى وأتباعه اليهود من مصر فى حوالى عام ١٢٣٠ ق.م:

وذلك امتثالا لأمر الله، وهربا من إيذاء فرعون لبنى إسرائيل، وعبر موسى وأتباعه البحر الأحمر بمعجزة من الله تعالى، وتبعه فرعون بجنوده، حيث أطبق عليهم البحر وغرقوا جميعا، وكان ذلك فى حوالى عام ١٢٣٠ ق.م، فى عهد رمسيس الثانى على أغلب الظن، «والذى جعله الله قاسى القلب»، كما جاء فى التوراة.

وهذه الهجرة كانت الهجرة الثالثة للعبرانيين، التى تعد بداية التاريخ الحقيقى لبنى إسرائيل.

وقد اتجه موسى وأتباعه إلى سيناء، حيث أنزل الله عليهم المن والسلوى كطعام لهم، كما فجر الله لهم اثنتى عشرة عينا من صخور الجبال ليشربوا منها.

وحدث أن اخذ اليهود عجلا كتمثال عبدوه من دون الله، أثناء غياب موسى فى مناجاة ربه عند جبل الطور فى سيناء.

وقد غضب موسى لذلك عند عودته إلى قومه، وحطم هذا التمثال، ثم عفا الله عنهم.

رحيل موسى وأتباعه إلى أرض كنعان (فلسطين):

وكان موسى يسعى للاستقرار بأتباعه في فلسطين، وهى أرض خصبة كثيرة الخيرات، ومدنها محصنة، ولكن معظم أتباعه من اليهود رفضوا أمره خوفا من بطش سكانها، فغضب الله عليهم وقضى عليهم بالتشتت والضياع، يتيهون فى الأرض لمدة أربعين عاما، وخلال هذه الفترة توفى هارون.

وكانت جموع بنى اسرائيل، ويقدر عددهم بحوالى ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ نسمة، قد نزلوا فى موضع بجنوب شرقى الأردن إستعدادا لدخول فلسطين

وبعد انقضاء فترة التيه سار موسى بأتباعه إلى فلسطين، وفى الطريق وافاه الأجل، وقيل أنه دفن قرب مدينة «مأدبا» فى الأردن.

يوشع بن نون (يهوشع) يتولى زعامة اليهود بعد وفاة موسى ويعبر نهر الأردن بأتباعه إلى فلسطين:

وكان «يوشع» من المساعدين المخلصين لموسى، وقد عبر مع إتباعه نهر الأردن فى حوالى عام ١١٨٦ ق.م، ويذكر أنهم قد سموا «العبرانيون» بعد هذا العبور.

وقد استولوا على مدينة أريحا الكنعانية، وأمعنوا فى قتل سكانها، وأعملوا فيها الخراب والفساد، ومارسوا هذه الأساليب الوحشية فى المدن الأخرى التى استولوا عليها ولكن بعض المدن المحصنة استعصت على اليهود مثل أورشلم وبيت شان، ولم تسقط المدينة الأخيرة فى أيديهم إلا فى حوالى سنة ١٠٠٠ ق.م، وقد استغرق إتمام سيطرتهم على أرض كنعان حوالى المائة عام.

وبعد ذلك إمتزج اليهود بالسكان الأصليين بفلسطين، وتعلموا منهم أساليبهم فى الزراعة وفن المعمار والصناعة ومظاهر الحضارة الأخرى.

عصر القضاة:

ويمتد من دخول اليهود فلسطين وانتصارهم على الكنعانيين، إلى قيام الملكية العبرانية.

ويعتبر عصر القضاة من أهم العصور فى تاريخ اليهود، ففيه بدأوا يتخلون عن بداوتهم تدريجيا، ويأخذون بقسط من الحضارة والمدنية.

وكان اليهود الغزاة عقب دخولهم فلسطين قد قسموا الجهات التى سيطروا عليها بين إحدى عشرة قبيلة من الإثنى عشرة قبيلة التى يتألفون منها، وظلوا مستقلين عن بعضهم فى الحكم، على أساس الحكم الأبوى، ولم يكن نظامهم فى ذلك الوقت يقوم على أساس بناء دولة موحدة.

وكانت القبيلة الباقيه، وهى قبيلة «لاوى الكهونية»، قد تفرغت للشئون الدينية، فوزعوا على القبائل الأخرى.

أما القضاة فكانوا أبطالا ورجال حرب، وزعماء عشائر، وحكاما قادرين، قادوا قبائلهم فى حروبهم ضد اعدائهم،

ومن الذين اشتهروا منهم «شمشون الجبار»، الذى تروى عنه الأساطير العبرانية الكثير من البطولات أثناء حروبه ضد شعوب البحر الذين جاءوا من منطقة بحر إيجة فى أواخر القرن الثالث عشر، ونزلوا على سواحل بلاد الشام الجنوبية واستقروا بها، ومن إسمهم اشتق إسم فلسطين، وجعلوا عاصمتهم فى مدينة أشدود.

وكانت القبائل اليهودية تخضع لهؤلاء القضاة، بسبب مكانتهم وخبرتهم ومنزلتهم فى نفوس العبرانيين.

نشأة الملكية العبرانية:

وعلى أثر الهزائم المنكرة التى أنزلها الفلسطينيون المسيطرون على المناطق الساحلية، باليهود عندما كانوا يوطدون أقدامهم فى المناطق الداخلية بفلسطين،

فى عام ١٠٥٠ ق.م، وأخذوا منهم تابوت العهد، وهو من مخلفات موسى عليه السلام، ونقلوه إلى عاصمتهم أشدود، وكان الفلسطينيون أكثر تفوقا فى السلام وفنون الحرب، وجد اليهود فى ذلك نذيرا بالفناء إن لم يتحدوا ويتكتلوا أمام منافسيهم الأقوياء، ومن ثم نشأت المملكة العبرانية.

وقد طلب اليهود إلى زعميهم الدينى «صموئيل» أن يعين عليهم ملكا، فاختار «شاؤول» الذى كان بمثابة شيخ قبيلة أكثر منه ملكا، وكان ضعيفا ومسنا، ولم يتجاوز نفوذه الفعلى مضارب قبيلة «بنيامين» التى ينتمى إليها.

وفى عهد «شاؤول» ازداد نفوذ الفلسطينيين. وسيطروا على مدن داخلية بعيدة مثل «بيت شان». وفى إحدى المعارك بين الفلسطينيين واليهود، انتصر الفلسطينيون وقتلوا ثلاثة من أبناء «شاؤول». وأصيب هو بجراح خطيرة مات على أثرها بعد قليل.

الملك داود (١٠٠٤ - ٩٦٠ ق م)

وقد خلف «شاؤول» بعد مقتله. وتذكر التوراة أن «داود» كان حاملا لدرع «شاؤول». فاختير ملكا من بعده، وهو يعد المؤسس الحقيقى للدولة العبرانية.

وقد نجح الملك «داود» فى التخلص من سيطرة الفلسطينيين وانتصر عليهم وعلى الكنعانيين، وتمكن من توسيع مملكته إلى أقصى حد، ومن بين الإمارات التى أخضعها إمارة «إيدوم» فى الجنوب، واتخذ «أورشليم» عاصمة له بعد استيلائه على حصنها.

وعلى أثر ذلك أصبح «داود» يسيطر على الطريق التجارى الذى يصل بلاد الشام ببلاد العرب، وأقام علاقات ودية مع «حيرام» ملك صور الفينيقى، واستعان بمهندسين ومعماريين من طرفه فى تشييد قصره العظيم، وفى عهده ظهر الأدب العبرى الرفيع.

الملك سليمان (٩٦٠ - ٩٣٥ ق.م):

تولى «سليمان» العرش بعد وفاة أبيه داود، ونال شهرة عظيمة، وفى عهده ساد الرخاء الذى لم يشهد له العبرانيون مثيلا، وأصبحت فلسطين تحت حكمه تخضع لحاكم واحد لأول مرة فى التاريخ إمتدت سلطته من «دان» أسفل جبل عرمون إلى بئر السبع على مشارف صحراء النقب، وصارت «أورشليم» عاصمة لهذه الدولة، وكانت قبل ذلك مدينة صغيرة

وكان لهذه الدولة جيش يزود بأسلحة حديدية وعربات للقتلا تجرها الجياد

وقد اهتم الملك سليمان بالصناعة والتجارة، ولقد حافظ على صلات الود مع ملك صور، وشجع تجار فينيقيا على أن يسيروا بقوافلهم داخل أرض فلسطين، فازدهرت التجارة التى قامت على استبدال مصنوعات صور بالغلات الزراعية الفلسطينية، كما أنشأ أسطولا تجاريا فى البحر الأحمر، كان ينطلق من ميناء «عزيون» قرب العقبة، ثم يعود محملا بالدهب من شبه جزيرة العرب وأثيوبيا، وحقق بذلك ثروة عظيمة

وكانت أعمال سليمان العمرانية عظيمة للغاية، ومن أهمها قصره العظيم، وهيكله الشهير الذى كان عبارة عن معبد ملكى ملحق بالقصر، واستغرق إنشاؤه سبع سنوات، واستغل فى بنائه مائتا ألف عامل

وتذكر التوراة أن سليمان قد عاش بين مظاهر الترف، وأنه كان شهوانيا مستبدا مولعا بالنساء، رغم أنه كان نبيا هو وأبوه داود، وعرف بالحكمة، إذ ينسب إليه أنه كان يعيش فى قصره بين سبعمائة زوجة وثلاثمائة خليلة، وفى ذلك إسراف كبير من الناحيتين المادية والأخلاقية.

ويذكر أن سليمان قد تزوج من إبنه فرعون مصر، ويرجح أنه «بسونس الثانى» آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين، وأن سليمان أعطى الملك المصرى حصن جزر الكنعانى كمهر لإبنته.

وتشير بعض الوثائق التاريخية أن فلسطين كانت تعترف بالسيادة المصرية فى ذك العهد.

إنقسام المملكة العبرانية واضمحلالها:

ولم يدم فترة حكم المملكة العبرانية الوحدة أكثر من قرن واحد من الزمان، وتذهب التوراة إلى أن إسراف سليمان وسوء إدارته كانت سببا فى انقسام المملكة من بعده.

ويذكر أنه بعد وفاة سليمان اجتمع ممثلوا القبائل العبرانية الإثنى عشر، لتنصيب ولده «رحبعام» ملكا عليهم، وأبدوا له رغبتهم فى أن يخفف عنهم عبء الضرائب التى فرضها عليهم والده، ولكنه رفض ذلك بعنف، وعلى أثر ذلك رفضت عشرة قبائل فى الشمال أن تعترف به ملكا عليهم، وانتخبت بدلا منه «يربعام» الذى كان يناوئ سليمان، واضطر إلى الهرب إلى مصر حيث لجأ إلى ملكها «شيشنق»، وعرفت هذه المملكة بإسم «اسرائيل». أما القبيلتان الباقيتان فى الجنوب، فقد بقيتا على ولائهما لبيت سليمان، وخضعتا لرحبعام، وعرفت مملكتهما بإسم «يهوذا».

وبذلك انشطرت المملكة العبرانية بعد انتهاء عهد سليمان المجيد، إلى شطرين: مملكة إسرائيل فى الشمال وعاصمتها «السامرة»، ومملكة يهوذا فى الجنوب وعاصمتها «أورشليم» التى كانت عاصمة للمملكة الموحدة.

وكان يهود الشمال يختلفون عن يهود الجنوب بشكل واضح من الناحية الإقتصادية، فالشماليون كانوا يشتغلون بالزراعة، والجنوبيون يشتغلون بالرعى.

وكان الشماليون على صلة بالحضارة الفينيقية، فتأثروا بعقائدها الدينية، وخاصة عبادة الشمس، بينما حافظ الجنوبيون على ولائهم للشريعة الموسوية.

وقد ثار التنافس بين المملكتين، واستحكم العداء بينهما وتواصل الصراع بينهما، حتى انتهى الأمر بانهيارهما.

مملكة إسرائيل:

ومن أشهر ملوك إسرائيل «عمرى»، ومن أعماله المعمارية تحصين عاصمته السامرة، وبناء قصر له منها.

وفى عهده، وفى حوالى عام ٨٥٠ ق.م دخلت فى طاعة الشماليين عاصمة الجنوب أورشليم، فى إحدى جولات الحرب بين المملكتين، حيث كان النصر حليف أهل الشمال.

وبعد وفاته تولى العرش إبنة «آحاب»، فقام بتوسيع قصر أبه وزخرفته، الذى عرف باسم «بيت العاج»، لوجود قطع كثيرة من الأثاث فيه مصنوعة من العاج ومكسوة بالذهب.

وكانت علاقة «آحاب» مع جيرانه ودية، فقد تحالف مع مملكة دمشق فى معركتها ضد الأشوريين، وتزوج من إبنه ملك صور، التى كانت ذات شخصية قوية فرضت سيطرتها على زوجها، كما حاولت فرض عبادة الإله الفينيقى «بعل» على إسرائيل، وانتشرت عبادته بين يهود الشمال، ولم يلبث أن احتدم الصراع فى هذه المملكة بين أنصار عبادة الإلة «بعل» وعبادة الإله «يهوه»، وانتهى الأمر بعزل الملك «آحاب».

وبعد قليل قام بالثورة أحد الضباط ويدعى «يا هو» وتمكن من الاستئثار بالملك، وجعل عبادة الإله «يهوه» العبادة الوحيدة فى اسرائيل.

وفى هذه الفترة القلقة كانت دولة آشور تتطلع إلى بسط سيادتها على أراضى الشرق الأدنى، فاضطر «يا هو» إلى الخضوع «لشلمنصر الثالث» ملك آشور، وقدم له الجزية.

ولكن قوة إسرائيل ما لبثت أن تجددت فى عهد «يربعام الثانى»، وهو ثالث ملك من سلالة «يا هو»، حيث أمكنها توسيع حدودها الشمالية على حساب الآراميين.

وظلت إسرائيل تنعم بالهدوء إلى أن أعتلى عرش آشور «تجلات بلاسر الثالث»، الذى تمكن من الاستيلاء على دمشق وأخضع سورية، وفرض الجزية على إسرائيل التى انكمشت مساحتها فى ذلك الوقت. وبعد بضع سنين رفض «هوشع» ملك إسرائيل الاستمرار فى دفع الجزية، فهاجمه «شلمنصر الخامس»

الذى خلف «تجلات بلاسر الثالث»، وحاصر السامرة ثلاث سنوات، ولكنها لم تسقط إلا في يد خلفه «سرجون» الثانى الذى ساق شبابها فى الأغلال كأسرى إلى نينوى، وعددهم ٢٧٠٨٠، وكان ذلك فى عام ٧٢٠ ق.م، وقضى بذلك على مملكة إسرائيل.

وما تبقى من رجال إسرائيل فقد شكلوا جانبا صغيرا من سكان المملكة، وكانوا يسكنون فى غرب نهر الأردن. أما المسببون فلم يلبث أن اندمجوا مع الشعوب الأخرى فى المناطق التى نقلوا إليها.

ولم يكتف «سرجون» وخلفاؤه بذلك، بل حاولوا إفناء معالم شعب إسرائيل، فنقلوا جماعات من بابل وعيلام وسورية وغيرها، وأسكنوهم فى السامرة وما حولها، فامتزج هؤلاء بالسكان الأصليين، وعبدوا الإله «يهوه»، وأصبح يطلق على الجميع إسم «السامريين»، ولكن لم يلبث أن نشب النزاع بين اليهود والسامريين، بعد عودة بعض رجال الدين اليهود من السبى فقد دافعوا عن فكرة النقاوة العنصرية لليهود.

مملكة يهودا:

عمرت مملكة الجنوب «يهودا» مدة أطول من المدة التى عاشتها مملكة «إسرائيل»، بما يزيد على قرن من الزمان.

وقد توالى على عرشها ١٩ ملكا، وهذا العدد مساو لعدد ملوك «إسرائيل».

وفى بداية عهدها أثناء حكم رحبعام تعرضت مملكة «يهودا» للغزو من جانب ملك مصر «شيشنق»، الذى خرّب مدنها ونهب خزائن «الرب» فى عاصمتها «أورشليم».

وكان شيشنق» قد انتهز فرصة الصراع والتنافس بين المملكتين العبريتين، فتقدم بجيشه إلى مملكة «يهودا» فى حوالى عام ٩٢٠ ق.م لمساعدة حليفه «يربعام» ملك «إسرائيل»، والذى يرجح أنه تزوج إبنة «شيشنق» أثناء التجائه إليه فى مصر فى أواخر عهد سليمان. وبعد مدة قصيرة رجع «شيشنق» إلى مصر،

وسجل بيان الجزية التى وصلته من فلسطين ومن النوبة على جدران معبد الكرنك.

وبعد زوال خطر كل من مصر وآشور، قامت مملكة «يهودا» بتنظيم جيشها، وأصلحت حصونها، ووسعت حدودها، ونظمت شئونها الداخلية.

ولكن بعد انهيار مملكة «إسرائيل»، تعرضت مملكة «يهودا» من جديد لهجمات آشور، وخاصة فى عهد ملكها «حزقيا»، فتوالت عليها حملات «سرجون الثانى» وخلفه «سنحريب»، وأجبرت «يهودا» على دفع الجزية لآشور، وتقلصت مملكة «يهودا» فى ذلك الوقت.

وبعد أن سقطت آشور فى أيدى الكلدانيين والميديين فى عام ٦١٢ ق.م، سعت مصر إعادة إمبراطوريتها فى سوريا، وقام ملكها «نخاو» بحملة وصل بها إلى قرب أعالى نهر الفرات، فقاومه «يوشع» ملك «يهودا» عند مجدو أثناء مروره فى أرض مملكته، ولكنه هزم وقتل فى هذه المعركة.

وبعد ذلك ببضعة أعوام انتصر الملك البابلى «بنو خذنصر» عى الملك «نخاو»، وأخضع مملكة «يهودا» لسيطرته. ولما حاول «يواقيم» ملك «يهودا» التحالف مع مصر، هاجم «بنوخذنصر» أورشليم وقبض على ملكها وقيده بالسلاسل، وحمله معه إلى بابل ولكنه قضى نحبه بعد قليل، وخلفه فى الحكم ولده الذى لم يمكث سوى ثلاثة شهور، ثار خلالها على سلطة بابل، فجاء «بنوخذنصر» إلى أورشليم، وسبى الملك ونساءه وأعوانه، وسبعة آلاف من الجنود، وألف من الصناع والمهرة، ونقلهم إلى بابل، وعين «صدقيا» ملكا على «يهودا»، وهو عم الملك السابق.

وقد ظل «صدقيا» يتظاهر بالولاء لبابل بضع سنين، ثم حاول الاستقلال والتخلص من سيطرة بابل، فأرسل إليه «بنوخذ نصر» جيشا دخل أورشليم وخربها، فهرب ملكها ولكن قبض عليه فى أريحا، وأوسل إلى معسكر «بنوخذ نصر»، حيث قتل أبناؤه أمامه، ثم سملت عيناه، وحمل إلى بابل.

ثم أمر «بنوخذ نصر» بحرق أورشليم، وهدم هيكل سليمان، وسبى نحو خمسين ألفا من أعيان سكان أورشليم والمدن الأخرى، وساقهم أمامه إلى بابل.

وفى ظل الإمبراطورية الفارسية، وسيطرتها على معظم أقطار الشرق الأدنى، عامل الفرس اليهود المسببين فى بابل معاملة حسنة، وأعادوا من رغب منهم إلى أوطانهم فى فلسطين.

وقد تمتعت الدولة اليهودية باستقلال ذاتى تحت سيطرة الفرس، ونعم اليهود بالهدوء والإستقرار.

مظاهرة الحضارة العبرانية

قبل قيام النظام الملكى عاش اليهود حياة قبلية كانت فيها الأسرة عماد البنائين السياسى والإقتصادى.

وكانت القرية نواة المجتمع اليهودى، حيث اشتغل اليهود بالزراعة والتجارة

نظام الحكم فى العصر الملكى:

بعد إعلان الملكية تم تنظبم الحكومة المركزية التى شرعت فى تصنيف الصرائب وتحديد طريقة جبايتها.

وقد قسم سليمان الدولة إلى إثنى عشر قسما، وألزم كل قسم بأن يتكفل بنفقات البلاد لمدة شهر واحد فى كل عام، كما فرض ضرائب أخرى تخصص للإنفاق على الهيكل ومستلزماته.

ولم يلبث أن تضاعف عدد الموظفين فى الحكومة الملكية.

وكان المعبد خاضعا لإشراف القصر الملكى، والكهنة كانوا تابعين للبلاط الملكى.

ومن الكهنة وكبار الموظفين تشكلت فئة أرستقراطية احتكرت أغلب الحقوق، وأستأثرت بمعظم النفوذ والسلطان فى الدولة.

الجيش:

لم يعرف العبرانيون الجيش كهيئة دائمة إلا فى العصر الملكى وقد أنشأ شاءول حرسا ملكيا، وأعقبه داود بأن نظم الجيش وضم إليه كثيرا من المرتزقة.

وفى عهد سليمان أصبح الجيش يشكل قوة كبيرة، وكان أفراده يحملون أحسن أنواع الأسلحة المعروفة، واستخدموا العجلات الحربية.

القضاء:

فى البداية كان القضاء منوطا بشيوخ القبائل، ثم أصبح فى العصر الملكى بأيدى الكهنة، وصار من حقهم القضاء بين المتنازعين.

وفى ذلك الوقت خفت حدة القانون القبلى، وأصبحت العقوبات فردية، وأضفى عليها سمة إنسانية مدينة.

نمو المدن:

بعد نشأة الملكية عظم شأن المدن، وانتقل إليها السكان الذين هجروا القرى.

وفى المدن اشتغل اليهود بالتجارة، وأهملوا الزراعة، ومنذ ذلك الحين أصبحوا تجارا بارعين، وأخذ الملوك والأفراد يزاولون التجارة إلى أن أصبحت حرفتهم الأولى.

الدين:

فى بادئ الأمر عبد اليهود مظاهر الطبيعة وبعض الحيوانات، مثل غيرهم من الشعوب السامية.

ولما ظهر موسى دعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، فاستجابوا إلى حد ما، إذ ظلوا على ولائهم لعدد من آلهتهم القديمة مثل العجل الذى عبدوه أثناء غياب موسى فى مناجاة ربه.

تأثر اليهود بالحضارات المجاورة:

ولما استقر اليهود فى فلسطين تأثروا بشدة بالحضارات المحيطة بهم وخاصة

الحضارة الفينيقية، التى أخذوا عنها اللغة والكتابة وسجلوا بها أحداثهم وآدابهم.

- كما تأثر اليهود بالعمارة والفنون الفينيقية، وخاصة الموسيقى الفينيقية، وأبح لهم شغف بالشعر والموسيقى، ومن ذلك مزامير داود المشهورة
- وفى مجال الصناعة عرف اليهود صناعة النسيج، وصناعة الحديد الذى صنعوا منه معظم آلاتهم.

خريطة بلاد العرب

ثالثاً : شبـه الجزيرة العربية القديمة وحضارتها

الموقع الجغرافى وتضاريس شبه الجزيرة العربية وأقسامها السياسية.

الفصل الأول

اليمن وعرب الجنوب

الدولة المعينية:

- توسعات دولة معين.
- ملوك معين.

أهم المدن المعينية:

- قرناو أو معين - براقش - نشان أونشن.

الدولة القتبانية:

- مراحل تاريخ الدولة القتبانية وأهم ملوكها.
- النشاط التجارى فى الدولة القتبانية.

دولة سبأ:

- أصل السبئيين وموطنهم الأصلى وتأسيس دولتهم فى اليمن.

المرحلتان التاريخيتان لعصر الدولة السبئية:

- مرحلة المكارب - مرحلة ملوك سبأ.
- مكارب سبأ وأهم أعمالهم.
- ملوك سبأ وتطور أحوال الدولة.

الدولة الحميرية:

- الدولة الحميرية الأولى (ملوك سبأ وذى ريدان).
- الدولة الحميرية الثانية (ملوك سبأ دوى زيدان وحضرموت ويمنت).
- الغزو الحبشى الأول لليمن فى عهد الدولة الحميرية الثانية.
- اليمن بعد طرد الأحباش.

- ذو نواس والغزو الحبشى الثانى لليمن وسقوط الدولة الحميرية الثانية.
- الإمبراطور البيزنطى چستنيان يعهد إلى نجاش بالانتقام من ملك حمر لاضطهاده للمسيحيين.
- هزيمة جيش دولة حمير وانتحار ذى نواس غرقا.
- تولى أبرهة الحكم فى اليمن.
- حملة أبرهة على مكة المكرمة فى عام ٥٧٠م (عام الفيل).
- مسروق بن أبرهة وحكمه الاستبدادى فى اليمن.
- سيف بن يزن وجهوده لإخراج الأحباش من اليمن.
- اليمن تحت حكم الفرس.

مظاهر الحضارة اليمنية القديمة:

- نظام الحكم.

- الحياة الإقتصادية:

- الزراعة - الثروة المعدنية - الصناعة - التجارة.
- العمارة - القصور - السدود (الخزانات) - الكتابة اليمنية - الديانة اليمنية.

الفصل الثانى

بـــلادالحـــــجاز

- مكة المكرمة:

- مصادر الثروة والموارد الإقتصادية فى مكة فى العصر الجاهلى.
- القبائل التى توافدت على مكة والتنظيمات التى أدخلها قصى بن كلاب زعيم قريش.
- تنظيمات وإصلاحات قصى بن كلاب زعيم قريش فى مكة.

- مدينة الطائف:

- الحياة الإقتصادية فى الطائف.
- سكان الطائف وعلاقتهم بأهل مكة.
- مركز الطائف الدينى.

- يثرب:

- سكان يثرب وطوائفهم - العرب - تدهور العلاقات بين العرب واليهود فى يثرب.
- النزاع بين الأوس والخزرج فى يثرب.
- اليهود.
- الحياة الإقتصادية فى يثرب - الزراعة - التجارة - الصناعة.

ثالثاً : شبــه الجزيرة العربية القديمة وحضارتها

الموقع الجغرافى وتضاريس شبه الجزيرة العربية وأقسامها السياسية :

تقع شبه الجزيرة العربية بين خطى عرض ١٢ و ٣٢ شمالا، وخط طول ٣٤ و ٥٨ شرقا، وتبلغ مساحتها أكثر قليلا من مليون ميل مربع، وتحدها من الشمال بادية الشام، ومن الشرق الخليج العربى وبحر عمان، ومن الجنوب المحيط الهندى، ومن الغرب البحر الأحمر.

وقد قسمها الجغرافيون والمؤرخون اليونانيون إلى ثلاثة أقسام طبيعية، كانت تتفق مع الأحوال السياسية لبلاد العرب، فى القرن الأول الميلادى، وذلك كالتالى:

١) بلاد العرب الصخرية: Arabia Petrix

وتقع شمالا، فى جنوب غربى بادية الشام، حيث كانت تقوم مملكة الأنباط.

٢) بلاد العرب الصحراوية: Arabia Deserta

وتشمل الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية، وتضم بادية الشام، والمناطق الصحراوية الواسعة فى الشمال والوسط والجنوب.

وتضم «الحرات» أو «الحرار»، التى تكونت بفعل البراكين، ويعرفها ياقوت الحموى بأنها «أرض ذات حجارة سوداء نخرة كأنها أحرقت بالنار».

وتتناثر الحرات من شرقى حوران حتى المدينة المنورة.

وفى شمال شبه الجزيرة العربية تقع «صحراء النفود»، وتمتاز بكثبانها الرملية التاعمة التى يصعب السير فيها، وتشغل مساحة كبيرة من الأرض، وكان سكانها من البدو الرحل، مصدر قلق للحكومات التى كانت تسيطر على منطقة الهلال الخصيب.

وإلى الجنوب من صحراء النفود تقع «الدهناء»، أو صحراء الجنوب، وهى أرض رملية حجرية، وتشغل مساحة كبيرة من شبه الجزيرة العربية، وتمتد إلى حضرموت فى الجنوب، ومن اليمن غربا إلى عمان شرقا، وتقدر مساحتها بخمسين ألف ميل مربع، وتخترقها كثبان وتلال رملية كثيرة.

وتعرف الأجزاء الجنوبية من الدهناء فى الوقت الحاضر باسم «الربع الخالى»، ويطلق على القسم الغربى منها إسم «الأحقاف».

وعندما تسقط الأمطار على أرض الدهناء فى فصل الأمطار الموسمية، تنبت فيها الأعشاب والنباتات المختلفة.

٣) بلاد العرب السعيدة: Arabia Felix

وبقصد بها بلاد اليمن، أو الأرض الحضراء، وأطلقت عليها هذه الصفة، لوفرة محاصيلها وتنوعها، ولاعتدال مناخها.

ونتيجة لهذه الظروف الملائمة، فقد قامت فى تلك المنطقة مجتمعات سياسية مستقرة، وذلك منذ الألف الأول قبل الميلاد.

ويقسم الجغرافيون العرب شبه الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام كبرى هى:

١) **تهامة**: وتشمل المنطقة الساحلية الضيقة الموازنة لشاطئ البحر الأحمر من اليمن جنوبا إلى العقبة، شمالا، ويحجزها عن داخل شبه الجزيرة سلسلة جبال السراة الضخمة وتشمل جبال الحجاز وجبال عسير.

وقد سمى إقليم تهامة بهذا الإسم، لانخفاض أرضه، وتميزه بشدة الحر، وركود الريح أو تغير هوائه.

٢) **نجد**: ويمثل الهضبة الوسطى فى شبه الجزيرة العربية، وتقع بين بادية السماوة فى الشمال، وصحراء الدهناء فى الجنوب، وأطراف العراق شرقا، والحجاز غربا. وهى أوسع أقاليم شبه الجزيرة العربية، وتتخللها أودية كثيرة، ومنها وادى الرمة، ووادى حنيفة، ووادى عاقل، وبها جبلان شاهقان هما:

جبل أجأ وجبل سلمى.

ويقسمها العرب إلى قسمين: نجد العالية، وتلى الحجاز وسهل تهامة، ونجد السفلى، وتلى بلاد العراق.

٣) **الحجاز**: ويمتد بين نجد وسهل تهامة، وسمى بهذا الإسم لأنه يحجز بين هذين الإقليمين، كما قيل أن سبب هذه التسمية، لأنه يحجز بين إقليم تهامة والشام، ويرجح التعليل الأول.

٤) **العروض**: وتشمل أراضى اليمامة والبحرين وما يليهما، وسميت بهذا الإسم، لأنها تمثل عارضا بين اليمن ونجد والعراق.

وكانت اليمامة تسمى قديماً «جوا»، عندما نزلتها «طسم» و «جديس»، وهما من قبائل العرب البائدة.

كما عرفت اليمامة بهذا الإسم نسبة إلى «اليمامة بنت سهم بن طسم»، ومركزها قديما مدينة «حجر»

أما البحرين أو هجر، فهو إقليم فسيح، يمتد من البصرة شمالا إلى عمان جنوبا، ويشمل حاليا قطر، والأحساء والكويت.

وفى مناطق اليمامة والأحساء تكثر الآبار والعيون والمزارع.

٥) **اليمن**: وتشمل منطقة واسعة تمتد من أقاليم تهامة إلى العروض، وسميت بهذا الإسم لأنها تقع على يمين الكعبة، واشتق إسمها من «يمنات»، وتعنى الخير والبركة، فقد عرفت منذ القدم بكثرة مزارعها ونخيلها وأشجارها وثمارها وأشار إلى ذلك القرآن الكريم.

الأقسام السياسية القديمة لشبه الجزيرة العربية

وتشمل الأقسام الكبرى التالية، وذلك حسب تصنيف الجغرافيين والمؤرخيين اليونانين القدماء:

أولاً: اليمن أو بلاد عرب الجنوب:

وقد شهدت قيام الدول التالية:

١) **الدولة المعينية**: وشغلت الفترة من عام ١٣٠٠ - إلى عام ٦٥٠ ق.م تقريبا.

٢) **الدولة القتبانية**: وتمتد من القرن الحادى عشر إلى عام ٢٥ ق.م تقريبا.

٣) **الدولة السبئية**: وتمتد من عام ٨٠٠ - إلى عام ١١٥ ق.م.

٤) **الدولة الحميرية**: وتمتد من عام ١١٥ ق.م إلى عام ٥٢٥ ميلادية.

ثانياً: بلاد الحجاز:

وعواصمها: مكة المكرمة، والطائف، والمدينة أو يثرب.

ثالثا: الدويلات العربية التى قامت على أطراف بادية الشام والعراق والجزيرة العربية:

وتشمل دويلات الأنباط وتدمر، والغساسنة والمناذرة، والكنديون، وسنفرد لها قسما خاصا بعد ذلك.

الفصل الأول

اليمن وعرب الجنوب

الدولة المعينية (١٣٠٠ - ٦٥٠ ق.م)

وهى أقدم الدول العربية التى قامت فى اليمن، وكانت تقوم فى منطقة الجوف بين نجران وحضر موت، فى سهل اشتهر بكثرة نخيله ومراعيه، وتحيط به الجبال من ثلاث جهات، مما جعل لها حماية طبيعية.

وهذه العوامل الطبيعية قد ساعدت على أن تكون منطقة الجوف، مركزا هاما للحضارة اليمنية القديمة.

ولم ترد تفاصيل عن «دولة معين» فى المصادر العربية، سوى إسم «معين» و «براقش»، على أنهما موضعان فى منطقة الجوف، ونسب تأسيسهما إلى سلالة «التبابعة».

وتدل لفظة «معان» على نبع ماء، وجاء ذكر المعنيين فى التوراة، على أنهم سكان النقب أو سيناء.

ويذهب فريق من الباحثين إلى أنهم سكان منطقة «معان» التى تقع إلى الجنوب الشرقى من «البتراء».

ويوجد خلط بين إسم «معان» و إسم مجان، التى أثار موقعها هى الأخرى، جدلا طويلا بين الباحثين.

والمرجح أن المعينيين هم من سكان جنوب شبه الجزيرة العربية، ولم يفدوا من الشمال كما زعم البعض.

وقد اشتغل المعينيون بالتجارة، وسيطروا على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب، ونافسوا فى ذلك السبئيين، الذين يشتركون معهم فى أصل واحد، ويقول فى ذلك «ألويس موسل» «أنه خلال الألف الأول قبل الميلاد، كان الجزء الأعظم من التجارة العالمية فى بلاد العرب، واقعا فى أيدى السبئيين

والمعنيين ، الذين كانوا يسيطرون على الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية، وكان السبئيون والمعينيون أبناء جنس واحد، ولكنهم كانوا يتنافسون على السيادة، لا فى بلادهم فحسب، بل فى الواحات التى كانت تمر بها الطرق التجارية كذلك[1].

توسعات دولة معين:

وكان الطريق التجاريالبرى الموصل بين اليمن والشام ومصر يمر غربى تيماء، وهذا الطريق كان يخضع أحيانا لسيطرة المعينيين، وفى أحيان أخرى يكون تحت السيطرة السبئيين الذين كانوا يعاصرونهم.

وفى جميع الواحات التى يمر بها هذا الطريق فى الشمال الغربى من شبه الجزيرة العربية، مثل واحة مدين وواحة ديدان أو ديدن العلا التى ذكرت فى الكتاب المقدس، كان ملوك دولة معين يعينون ولاة من قبلهم لإدارة هذه الواحات التى كانت بمثابة جزء من الدولة المعينية، وكان يطلق على الواحد من هؤلاء الولاة، لقب «كبر»، «أى كبير»، ويعهدون إليهم بإدارة هذه الواحات، وحفظ الأمن فيها، وجمع الضرائب وإرسالها إلى عاصمة الدولة «قرناو».

وإلى جانب هؤلاء الولاة، كانت توجد حاميات عسكرية، وجاليات تتألف من الفئات التجارية، وتضم جماعات من الإفريقيين المجاورين الذين كانوا يمارسون التجارة مع المعينين أو السبئيين.

وقد أدى توسع المعينين فى الشمال، إلى احتكاكهم بدول أشور وفينيقيا ومصر، وكان الأشوريون يتعاملون مع حكام الواحات من المعينين، على أساس أنهم «الملوك الجنوبيون».

وفى وقت ازدهار الدولة المعينية، كانت تخضع لسيطرتها المنطقة الممتدة من الحجاز إلى فلسطين، ولما ضعفت دولة معين، اقتصرت سيطرتها على منطقة «معين وصرى»، فى شمال غربى بلاد العرب.

---

(١) ألويس موسل، وترجمة د. عبد المحسن الحسينى: شمال الحجاز، ص ١ -٢.

ملوك معين:

عن طريق الرحالة والبعثات العلمية، أمكن معرفة أسماء عدد من ملوك دولة معين، ولكن هناك خلاف بين الباحثين حول فترة حكم هؤلاء الملوك.

ويرتب «هومل» ملوك دولة معين فى أربع سرات، منها ثلاث أسرات، تضم كل منها أربعة ملوك، والأسرة الرابعة تضم ملكين.

ويربتهم «جون فلبى» فى خمس أسرات، تفصل بين كل منها فترة غير معروفة، ويضع «فلبى» على رأس الأسرة الأولى، ملكا يدعى «إلى يفع وقة»، ويجعل بداية حكمه فى عام ١١٢٠ ق.م، ويجعل «تبع كرب» (٦٥٠ - ٦٣٠ق.م)، آخر ملوك الأسرة الخامسة.

ويقدم «وليم أولبرايت» قائمة تضم سبعة عشر ملكا، وله قائمة أخرى فى ثلاث مجموعات، تضم المجموعة الأولى ١٢ ملكا، والثانية تضم ٦ ملوك، والمجموعة الثالثة تضم ٣ ملوك.

ومن الملوك المعينين المعروفين، «أب يدع يثع»، وفى عهده وقعت حرب بين الجنوب والشمال.

ومن ملوك دولة معين المتأخرين «يثع ال ريم»، وإبنه «تبع كرب»، وفى عهدهما خضعت دولة معين للنفوذ السياسى لدولة سبأ.

أهم المدن المعينية:

قرناو أو معين: وهى العاصمة وأهم المدن، وتعرف أيضا بمعين، وتقع على بعد حوالى سبعة كيلو مترات من بلدة الخرم الحالية فى منطقة الجوف.

ومن أهم آثار قرناو معبد «رصاف» الذى كان يقع خارج أسوار المدينة، بالإضافة إلى آثار مساكن فى مواضع متفرقة من المدينة، التى كانت آهله بالسكان حتى القرن الثانى عشر قبل الميلاد، ثم تحولت إلى خرائب وهجرها السكان.

براقش: وكانت مركزا دينيا هاما، وكانت تسمى أيضا «ياثل» أو «وثلة، وهناك اختلاف بين الباحثين حول سبب تسميتها بهذا الإسم، والبعض ينسبونها إلى إمرأة بهذا الإسم، والبعض الآخر ينسبها إلى كلمة إسمها «براقش».

نشان أويشن: وكانت تقوم فى موضع «الخربة السوداء» حاليا، وتشير الاكتشافات الحالية، إلى أنها كانت مركزا صناعيا هاما.

الدولة القتبانية (١١٠٠ - ٢٥ ق.م تقريبا)

أغلب الظن أن القتبانيين كانوا يقطنون فى الطرف الجنوبى من بلاد اليمن، إلى جنوب سبأ، وعلى تخوم حضرموت، وعاصمتهم مدينة «تمنع»، وتقع فى وادى بيمان فى موضع كحلان حاليا.

وقد شهدت الدولة القتبانية سقوط الدولة المعينية، وكانت تعاصر دولة سبأ والدولة الحميرية، ثم اندمجت فيما بعد بالدولة الحميرية.

ومعظم أخبار الدولة القتبانية يرجع إلى النقوش الكثيرة التى جمعها المستشرق النمسوى «إدوارد جلازر»، الذى زار اليمن عدة مرات، وحصل على مساعدات المسئولين الأتراك فى صنعاء، بعد أن أقنعهم بأهمية البحوث التى يقوم بها فى اليمن.

وفى سنة ١٨٩٢ زار «جلازر» اليمن للمرة الرابعة، حيث استعان ببعض الأعراب فى نسخ النقوش القديمة التى عثر عليها فى مناطق الجوف على أوراق من نوع معين، وكان بينها نقوش قتبانية.

كما تمكن «جلازر» من الحصول على مجموعة من العملات العربية القديمة، وقد كشفت هذه النقوش عن كثير من عناصر حضارة الدولة القتبانية.

مراحل تاريخ الدولة القتبانية وأهم ملوكها:

اختلف المؤرخون فى تحديد بداية ونهاية الدولة القتبانية، ويقسم البعض تاريخ دولة قتبان إلى ثلاث مراحل مختلفة **كالتالى**:

المرحلة الأولى: امتدت هذه المرحلة إلى حوالى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، وأهم فتراتها كانت تقع بين القرنين السابع والخامس، قبل الميلاد، حيث كان يسود حكم المكربين، ومن أشهرهم «يدع اب ذبيان»، الذى قام بمهاجمة دولة سبأ واستولى على بعض أملاكها.

ومن الأعمال العمرانية التى قام بها «يدع اب ذبيان» تشييد المدخل الجنوبى لمدينة «تمنع»، وإنشاء طريق يخترق الجبل، وبعض الأعمال الأخرى، ويرجح أن بعض القبائل غير قتبانية شاركت فى إنشاء طريق الجبل للاستفادة من فوائده.

وتبين من بعض النقوش أن مجالس المدن كانت تقترح مشروعات القوانين، وكان للملك وحده حق إصدارها.

المرحلة الثانية: وكان تمتد من ٣٥٠ إلى ٢٥٠ ق.م، وتعتبر هذه المرحلة العصر الذهبى لدولة قتبان، وفيها أخضعت دولتى معين وسبأ، ومن دواعى قوتها موقعها الجغرافى بجوار باب المندب وإقليم حضرموت.

وقد تولت أسرة ثانية الحكم فى هذه المرحلة من دولة قتبان، وأول ملوكها «أب شيم»، وخلفه ولده «شهر غيلان»، وتدل النقوش على إنشاء الأخير لأحد الأبراج، وبناء إحدى العمارات.

كما انتصر «شهر غيلان» على حضرموت، ولتخليد هذا الانتصار قام بتشييد معبد للإله «عشتر» فى زبحان (بيحان القصب حاليا)، ويشير إلى ذلك أحد النقوش.

وفى ذلك الوقت كان رؤساء القبائل مسئولين عن جمع الضرائب التى

تورد لخزينة الدولة فى نهاية كل عام، بالإضافة إلى ضرائب أخرى كانت تورد للمعابد.

ومن ملوك هذه المرحلة « شهريجيل» الذى تولى الحكم فى حوالى عام ٣٠٠ ق.م، الذى أخضع دولة معين؛ ثم خلفه أخوه «شهر هلال بو هثعم»، الذى انتهت بوفاته الأسرة الحاكمة الثانية، كما انتهت المرحلة الثانية من تاريخ الدولة القتبانية.

المرحلة الثالثة: وقد توالى على العرش فى الفترة الأولى من هذه المرحلة عدد من الملوك كان آخرهم «يدع أب غيلان»، ثم تولت الحكم أسرة ملكية أخرى ضعيفة، من عام ١٠٠ إلى ٢٥ ق.م، وبإنهيارها سقطت الدولة القتبانية.

وفى عام ٥٠ تعرضت مدينة «تمنع» العاصمة لغزو أجنبى، على أثره تخربت تماما، مما عجل بانهيار الدولة القتبانية.

النشاط التجارى فى الدولة القتبانية:

إستفاد القتبانيون من موقع بلادهم بالقرب من باب المندب، ومجاورتهم لحضرموت التى كانت تنتج أجود أنواع الطيب والبخور، فاشتغلوا بالتجارة وخاصة فى هذه الأصناف وحققوا أرباحا ضخمة.

تأثر القتبانين بالحضارتين الهيلينية والرومانية:

فى موضع «تمنع» العاصمة بوادى بيحان، كشفت حفريات البعثة الأمريكية عن كثير من التحف المعدنية والحرفية، ومتأثرة فى صناعتها بالفن اليونانى.

كما عثر على كمية من العملات الهيلينية والرومانية، الأمر الذى يوحى بتأثر القبتانيين بالحضارتين الهيلينية والرومانية(٢).

---

(٢) د. جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام. الجزء ٢ ص. ٤٤

دولة سبأ (٨٠٠ - ١١٥ ق.م)

جاء ذكر السبئيين فى النصوص الأشورية من أيام تجلات بلاسر الثالث وسرجون الثانى وسنحريب، وتشير إلى أن هؤلاء الملوك قد فرضوا الجزية على ملكى سبأ «يثعمر» و «كرب ايلو»، وهما فى الواقع ضمن حكام سبأ المقيمين فى واحات ديدن ومعان وتيماء على طريق التجارة إلى الشام، ويمثلون ملوك سبأ.

كما ورد إسم سبأ فى التوراة بأنها «بلاد تنتج الطيوب واللبان والأحجار الكريمة ومعدن الذهب».

وذكر أيضا أن ملكة سبأ بِلْقيس قد زارت النبى سليمان فى أورشليم، وحملت إليه الكثير من الطيوب والذهب والأحجار الكريمة.

كذلك جاء فى القرآن الكريم فى سورة النمل ذكر ملكة سبأ وعلاقتها بسليمان، وتوجد سورة فى القرآن باسم سبأ.

أصل السبئيين وموطنهم الأصلى وتأسيس دولتهم فى اليمن:

اختلف المؤرخون فى أصل السبئيين ونسبهم، فتذكر الروايات العربية أن «سبأ من ولد يشجب من يعرب بن قطحان، وتسميه بعبد شمس، وتفسر تسميته بسبأ بأنه كان يسبى الذرارى والأطفال فسمى لذلك بسبأ».

وفى التوراة ذكر إسم سبأ باعتباره من نسل كوش بن حام[٣]، وفى مرة أخرى ذكر أنه من ولد يقطان.

وأغلب الظن أن السبئين فى الأصل شعب بدوى، كانوا يتنقلون بين شمال الجزيرة العربية وجنوبها، ثم استقروا فى بلاد اليمن فى حوالى عام ٨٠٠ ق.م، تحت ضغط الآشوريين عليهم من جهة الشمال.

وقد استغل السبئيون ضعف المعينيين، وأخذوا يوسعون نفوذهم على حساب الدولة المعينية، ثم قضوا على هذه الدولة، لما اشتدت قوتهم، وأقاموا دولتهم على

(٣) وهب بن منب: كتاب التيجان فى ملوك حمير، حيدر آباد الداكن. ص ٤٨.

أنقاضها، وورثوا لغتها وديانتها وحضارتها، واشتغلوا محلهم فى نقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق، وأصبحوا فى القرون التالية قبل الميلاد أعظم الوسطاء التجاريين بين هذه الأقطار.

ويذكر «هومل» أن السبئيين كانوا يستوطنون في الجوف في بلاد العرب الشمالية، ثم ارتحلوا إلى جنوب الجزيرة العربية فى القرن الثامن قبل الميلاد، واتخذوا عاصمتهم فى صرواح، ثم في مأرب، التى سميت بهذا الإسم نسبة إلى موطنهم الأصلى أريبى أو يارب[٤].

المرحلتان التاريخيتان لعصر الدولة السبئية:

تبعا لما جاء في النقوش السبئية، يمكن تقسيم عصر الدولة إلى مرحلتين تاريخيتين متتابعتين، **هما:**

المرحلة الأولى؛ وهى مرحلة «المكارب»، وتمتد من عام ٨٠٠ إلى عام ٦٥٠ ق.م. وفى هذه المرحلة كان حاكم دولة سبأ يلقب «بالمكرب»، أى المقرب من الألهة والناس، أو الوسيط الذى يقرب بين الآلهة والناس.

وكانت صرواح أول عاصمة لمكارب سبأ، ثم نقلوا عاصمتهم إلى مأرب. **المرحلة الثانية** وهى مرحلة ملوك سبأ، وتمتد إلى عام ١١٥ ق.م، وفى هذه المرحلة كان حكام سبأ يلقبون بالملوك.

مكارب سبأ وأهم أعمالهم:

يذكر أن «سمه على» هو أول المكارب ومؤسس دولة سبأ، وتبين من نقش من عهده أنه كان يقدم البخور باسمه ونيابة عن شعبه إلى الإله «المقة» إله القمر.

وفى حوالى عام ٧٨٠ ق.م خلفه إبنه «يدع ايل دريح»، الذى شيد معبدا للإله المقه فى صرواح، وأقام معبدا آخر لهذا الإله فى مأرب، وقدم القرابين إلى الإله عشتر.

وخلف يدع إيل دريح إبنه «يثع أمر»، الذى ينسب إليه تشييد معبد للإله المقة فى بلدة دابز بين مأرب ومعين فى الجوف، ويستدل من ذلك على وقوع

---

(٤) د. جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام. الجزء ٢ ص. ١٠٦.

صدام بين السبئيين والمعينين فى هذا الموضع، ثم قام إبنه وخليفته «يدع إيل بين» بتحصين أبراج مدينة نشن المعينية.

ومنذ القرن السابع قبل الميلاد، أولى مكارب سبأ إهتمامهم بالإصلاحات الزراعية، فقد وزع «كرب إيل بين» وإبنه من بعده «دمر على ذريح» الأراضى الواقعةحول نشن على الفلاحين لاستصلاحها واستغلالها فى الزراعة.

أما «سمة على ينف» ابن «زمر على»، فقد شيد فى حوالى عام ٦٠٠ ق.م، سدا على مدخل وادى «زنة» بمأرب لحجز مياه الأمطار والسيول، يعرف بسد رحب»، مما ساعد على تنظيم رى المناطق المجاورة طوال العام، ولكنه لم يكن يفى باحتياجات جميع الأراضى الزراعية، فعمد إبنه وخليفته «يثعمر أمربين» إلى زيادة حجم هذا السد طولا وعرضا وارتفاعا، كما أقام سدا آخر أعظم منه يعرف بإسم «سد حبابض » بلغ طوله بنحو ٨٠٠ ذراع، وبهذين السدين اتسعت رقعة الأراضى الزراعية فى مأرب، وازدادت ثروة البلاد.

وقد أشار القرآن الكريم إلى مأرب، ذلك البلد الطيب الذى كان يشتمل على جنتين عن يمين وشمال.

وقد رمم سد وادى زنة وأصلح فى العصور التالية، ولكن اضطراب أحوال الدولة السبئية فيما بعد، واهمالها له عجّل بتصدعه ثم انهياره، تحت وطأة سيل العرم وترتب على ذلك تحول الأراضى الزراعية إلى أرض مقفره مما أدى إلى هجرة بعض القبائل إى مشارف الشام والعراق والبحرين.

وآخر مكارب اليمن يدعى «كرب ايل وتر»، الذى تخلى عن سياسة التعمير، واتجه نحو التوسع العسكرى، فهاجم الدولة المعينية وقضى عليها، كما انتصر على القتبانيين، وسجل انتصاراته على جدران معبد صرواح، قربانا للإله المقة والإله عشتر.

وبعد ذلك اتخذ «كرب إيل وتر» لقب «ملك سبأ»، وأصبح بذلك أول حاكم فى سبأ يلقب بهذا اللقب.

ملوك سبأ وتطور أحوال الدولة:

فى الفترة الأولى من العصر الملكى فى سبأ، وخاصة منذ عام ٥٠٠ ق.م،

اعتلى العرش أسرات قوية قامت بدور خطير فى سياسة بلاد العرب الجنوبية، ومن بينها أسرة همدانية.

وفى ذلك الوقت أصبح لسبأ أسطول تجارى كبير، كان ينقل تجارة الشرق ومنها الحرير والتوابل والبخور والعطور وغيرها، من الهند واليمن إلى مصر والبلاد الأخرى المجاورة.

وأثناء ذلك حدثت تغيرات هامة فى النظم السياسية والاجتماعية، وفى الدين، بظهور آلهة جديدة مثل «ذو السماء»، أو «ذو سماوى»، أو «رب سماوى».

ومنذ عام ٣٥٠ ق.م بدأ ملوك سبأ يتعرضون لمتاعب كثيرة عندما عملوا على القضاء على استقلال الإمارات ودمجها فى المملكة، فأثار ذلك أصحاب المصالح الإقطاعية وخاصة فى القبائل القوية، ولم تلبث أن قامت إضطرابات وثورات داخلية عنيفة، فأضر ذلك بالأوضاع الإقتصادية والسياسية لمملكة سبأ مما جعل الدول الأجنبية تتدخل فى شئونها، وخاصة بعد أن فقد السبئيون السيطرة على البحر الأحمر وسواحل إفريقيا، نتيجة لانتقال التجارة البحرية من أيديهم إلى البطالمة والرومان.

وفى الفترة الأخيرة من العصر الملكى حدث نزاع خطير حول العرش فى سبأ أصاب البلاد بالخراب والدمار، وحوّل مساحات واسعة من الأراضى المزروعة إلى صحارى مقفرة.

وقد استفاد الريدانيون والحميريون من هذا النزاع، وتمكنوا فى النهاية من انتزاع العرش فى سبأ، وأسسوا فى عام ١١٥ ق.م أسرة حاكمة جديدة، اتخذ ملوكها لقب «ملوك سبأ ذوى ريدان»، وبدأ قيام الدولة الحميرية.

الدولة الحميرية (١١٥ ق.م - ٥٢٥ م)

اصطلح المؤرخون على تقسيم عصر الدولة الحميرية إلى فترتين تاريخيتين، هما «الدولة الحميرية الأولى»، وهى فترة حكم «ملوك سبأ وذى ريدان»، ويمتد من ١١٥ ق.م إلى ٣٠٠ ميلادية، «والدولة الحميرية الثانية»، وهى فترة حكم «ملوك سبأ وذى ريدان وحضر موت ويمنت»، وتمتد من ٣٠٠ إلى ٥٢٥ ميلادية.

وكانت مدينة ريدان عاصمة الدولة الحميرية.

الدولة الحميرية الأولى (ملوك سبأ وذى ريدان) (١١٥ ق.م - ٣٠٠م)

يذكر الإخباريون أن أول ملوك دولة حمير هو «صلهان نهفان»، وأن حكمه دام لمدة ٣٥ سنة، وفى رواية أخرى أن مؤسس الدولة الحميرية الأولى هو اليشرح يخضب»، وينسب إليه إلى الإخباريون بناء قصر غمدان أشهر قصور اليمن(٥).

وفى عهد هذه الدولة، وفى عام ٢٤ ق.م، قام الرومان بحملة بقيادة «اليوس جالوسى»، حاكم مصر الرومانية تكونت من عشرة آلاف جندى، بقصد الاستيلاء على اليمن لاستغلال ثرواته، والسيطرة على طرق التجارة التى كان يحتكرها ملوك سبأ، وتطهير البحر الأحمر من القراصنة.

وقد اعتمد «اليوس جالوس» على مساعدة «عبادة الثانى» ملك الأنباط، وقام وزيره «صالح سايليوس» بدور الدليل لهذه الحملة فى بلاد العرب، حيث سلكت الطريق البرى عبر الحجاز، ووصلت إلى نجران فى اليمن، وواصلت زحفها إلى مأرب حيث دارت معركة عنيفة مع اليمنيين بقيادة ملكهم، وقيل أنه «اليشرح يخضب».

وفى هذه المعركة قتل عدد كبير من الجند الرومان وانسحب الباقون، وبذلك فقد أخفقت هذه الحملة بعد مضى ستة أشهر، تعرضت خلالها للأمراض والأوبئة ولخطر المجاعة، ومتاعب جمة بسبب وعورة الطرق الجبلية والمقاومة

(٥) الهمدانى (أبو محمد الحسن بن أحمد): كتاب الإكليل، الجزء الثامن. ص ١٩.

العنيفة التى واجهتها، ثم عادت إلى مصر بعد أن هلك معظم رجالها، وأتهم الوزير صالح بالخيانة وسوء المشورة، وتعمده إهلاك جند الرومان.

وعلى أثر ذلك عدل الرومان عن فتح هذه البلاد بالقوة العسكرية، واكتفوا بمحاولة السيطرة على التجارة البحرية، وتدعيم مصالحهم التجارية فى بلاد العرب بالعسى لتحسين علاقاتهم السياسية بالدول والإمارات فى الجنوب العربى، ومع دولة الحبشة.

ويذكر فى هذا الإتجاه «أن الرومان عقدوا حلفا مع ملك الحميريين الذى كان يملك مناطق واسعة من سواحل بلاد العرب الجنوبية على البحر الأحمر وعلى ساحل المحيط الهندى حتى حضرموت، كما كان يملك ساحل عزانيا فى افريقيا»(٦).

ثم بدأ الضعف يدب فى كيان «دولة سبأ وذى ريدان»، بعد أن تدهور إقتصادها، نتيجة لسيطرة الرومان على الطريق التجارى البحرى، بالإضافة إلى انهيار سد مأرب.

ويُذكر أن آخر ملوك هذه الدولة المعروفيين فى المصادر العربية «بالتبابعة»، هو «ياسر يهنعم»، وتسميه المصادر العربية «ناشر النعم»، أو ناشر ينعم»، أو «ياسر ينعم».

ويعّرفه الإخباريون بأن مالك بن يعفر بن عمرو بن حمير بن السياب بن عمرو بن زيد بن يعفر بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ.

ويزعمون أنه عاش فى أيام البنى سليمان، مع أن عهده يرجع إلى القرن الثالث الميلادى، وورد إسمه فى نقش مؤرخ فى سنة ٢٧٠ ميلادية.

وينسب إليه الإخباريون فتوحات عظيمة تتضمن روايات خرافية، ومن ذلك أنه «جمع حمير وقبائل قحطان وخرج بالجيوش إلى ما حوى آباؤه والتتابعة

---

(٦) د. جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء ٣. ص ١٣٨

العظماء، فوطئ موطئا من الأرض عظيما، واشتد سلطانه، فخرج إلى المغرب حتى بلغ إلى البحر المحيط..... وعبرت عساكره إلى أرض الصقالية فغنموا الأموال وسبوا الذرارى، ورجعوا إليه بسبى من كل أمة فى جزائر البحر....»[٧].

كما يزعمون أنه غزا الجبشة، وزحف على أرض الترك وطبرستان وجبال الضفد، ووصل إلى أرض الكرد والزط والخزر وفرغان، وانتصر عليهم، ثم مات بدينور.

الدولة الحميرية الثانية (ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت) (٣٠٠ - ٥٢٥ ميلادية)

مؤسس هذه الدولة هو «شمريهرعش بن ناشر النعم»، وعند الأخباريين هو «تبع الأكبر»، الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم فى قوله تعالى

«أهم خير أم قوم تبع الذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين».

ويذكر الهمدانى أنه أول من أمر «بصناعة الدروع السوابغ المفاضة التى منها سواعدها وأكفها، وهى الأبدان»[٨].

ومن الثابت أنه تغلب على قبائل تهامة على ساحل البحر الأحمر، وحقق انتصارات على القبائل فى مناطق كثيرة فى جنوب بلاد العرب.

ولكن الإخباريين ينسبون إليه فتوحات كبيرة فى خارج الجزيرة العربية، لا تعدو أن تكون قصصا خرافية، فيذكرون أنه زحف بجيوشه إلى أرمينية. وهزم الترك، وهدم المدائن بدينور وسنجار، ودخل مدينة السفد وهدمها، وأنه فتح سمرقند وهدمها ثم أمر ببنائها، وأنه بسط نفوذه على الهند، وزحف على أرض الصين، وأخضع فارس وخراسان والشام ومصر»[٩].

---

(٧) وهب بن منبه: كتاب التيجان فى ملوك حمير. ص ٢٢٠.

(٨) الهمدانى: كتاب الإكليل - الجزء الثامن. ص ٢١١.

(٩) وهب بن منبه: كتاب التيجان فى ملوك حمير. ص.ص. ٢٢٧ - ٢٣٦.

الغزو الحبشي الأول لليمن فى عهد الدولة الحميرية الثانية:

ازدهرت مملكة أكسوم الحبشية فى القرن الثالث الميلادى، وأخذت تمد نفوذها وسيطرتها على المناطق المجاورة لها فى الشمال والجنوب والشرق وفى حوالى عام ٣٤٠ م قام نجاشى أكسوم «الأعميدا» بغزو اليمن، وفى عهد «يريم مرحب بن شمر يهرعش»، وأصبح ملك أكسوم يلقب منذ ذلك الوقت «ملك أكسوم وحمير وذى ريدان وحبشت وسبأ وتهامه».

وعقب ذلك فرملك حمير وأبناؤه إلى يثرب فى الحجاز، حيث اعتنق ابناؤه اليهودية فيما بعد.

وفى ذلك الوقت كانت المسيحية آخذة فى الانتشار فى اليمن، على أيدى بعض المبشرين المسيحيين السوريين الذين انتقلوا إلى اليمن فى حوالى عام ٣٢٠ ميلادية.

ومع ذلك فلم يكن غزو الأحباش لليمن بدافع دينى، وإنما كان للعوامل الإقتصادية اعتبارها، على أثر اعتداء الحميريين على السواحل الشرقية للحبشة فى القرن الأول الميلادى، مما هدد التجارة الحبشية.

ولكن الاحتلال الحبشى لليمن لم يطل أمده، فقد قامت بعض الثورات فى متاطق إفريقية من مملكة أكسوم، فى عهد الملك «عزانا» الذى اعتنق المسيحية فى سنة ٣٥٠م وجعلها الدين الرسمى للدولة، وأثناء انشغال الملك «عزانا» بإخماد هذه الثورات، تمكن «ملكى كرب يهمن» الذى عاد إلى اليمن من استردادها من الأحباش، وطردهم منها خلال الفترة من ٣٧٠ إلى ٣٧٨م.

اليمن بعد طرد الأحباش:

وفى نقش يرجع إلى عام ٣٧٨م، ورد إسم «ملكى كرب يهمن» مع إبنيه «أبى كرب أسعد وأمر أيمن»، بأنهم أقاموا معبدا للإله «دوسموى»، أى إله السماء أو رب السماء.

وقد دعا «أبو كرب أسعد» قومه إلى الدخول فى اليهودية، فطلبوا أن يتحاكموا إلى النار حسب العرف الشائع لديهم، وكانت النتيجة أن اقتنع قومه بالدين الجديد، «فمن هناك كان أصل دين اليهودية»[١٠].

وبذلك فقد خطا عرب الجنوب «خطوة نحو التوحيد»، والاعتقاد بوجود إله واحد أعلى قاهر هو رب السماء».

وفى عهد «شرحبيل» يعفر الذى آل إليه الحكم فى سنة ٤٢٠م، بعد أخويه «أبى كرب أسعد» و «دوامر أيمن»، انتشرت عقيدة التوحيد فى اليمن.

ومن الأعمال النافعة التى قام بها «شرحبيل يعفر» ترميم سد مأرب فى ٤٤٩م، ولما تهدم بعد ذلك بعام واحد، وأدى ذلك إلى فرار العديد من سكان هذه المنطقة إلى الجبال، قام «شرحبيل يعفر» ببناء ذلك السد من جديد فى سنة ٤٥١م، وسجل هذه الأعمال فى نقش طويل»، أشار فيه أيضا إلى انتشار عقيدة التوحيد فى اليمن فى عهده.

وقد خلف «شرحبيل» «عبدكلال» الذى لم يستمر حكمه طويلا، وكان مؤمنا بعقيدة عيسى المسيحية، وورد إسمه فى نص أثرى تضمن عبارة تشير إلى عقيدته.

ذو نواس والغزو الحبشى الثانى لليمن وسقوط الدولة الحميرية الثانية:

وفى نهاية مة الملوك الذين توالوا على العرش بعد «عبدكلال»، جاء الملك المشهور «ذو نواس» (٥١٠ - ٥٢٥م)، وهو آخر ملوك دولة حمير، وفى نهاية عهد عام ٥٢٥م، سقطت الدولة الحميرية الثانية على أثر الغزو الحبشى الثانى لليمن.

وكان «ذو نواس» قد اعتنق اليهودية، وعوّل على تمويل نصارى نجران عن دينهم بالقوة، وكان يربط بين انتشار المسيحية فى اليمن وبين ازدياد نفوذ

---

(١٠) وهب بن منبه: المرجع السابق. ص ٢٩٧.

الأحباش السياسى الذى ظل قويا فى البلاد، حتى بعد أن تمكن «أبو كرب أسعد» من تحرير اليمن من حكمهم.

وفى عام ٥٢٣م قام «ذو نواس» بمهاجمة نجران، وهى أكبر مركز للمسيحية فى اليمن، وخيّر أهلها بين نبذ المسيحية والدخول فى اليهودية أو القتل حرقا. فتمسك معظمهم بديانتهم المسيحية وأثروا القتل، فأمر «ذو نواس» بحفر أخدود عميق فى الأرض وأشعل فيه النيران، وأمر بإلقائهم فيه حتى هلكوا. وبدأ «ذو نواس» بضرب رقبة كبيرهم بالسيف، ويدعى عبد الله بن التامر.

وقد ذكرهم الله تعالى فى سورة البروج، وبقوله تعالى «قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، الذى له ملك السموات والأرض، والله على كل شئ شهيد»(١١).

ويعتقد «فيليبى» الذى زار وادى نجران، أن الخرائب الموجودة حاليا فى بلدة «رقمت بنجران هى آثار الأخدود الذى أمر بحفره ذو نواس.

الإمبراطور البيزنطى جستيان يعهد إلى نجاشى الحبشة بالإنتقام من ملك حمير لاضهاده للمسيحيين:

ويذكر أن رجلا يقال له «دوس ذو ثعلبان» قد أفلت من هذه النيران، وسار إلى ملك الروم»، فأعلمه ما صنع ذو نواس بأهل دينه من قتل الأساقفة واحراق الانجيل وهدم البيع، فكتب إلى النجاشى ملك الحبشة يذكر له حقه وما بلغ منه ومن أهل دينه، ويأمره بنصر ذى ثعلبان، وطلب ثأره ممن بغى عليه وعلى أهل دينه، فلما قدم ذو ثعلبان على النجاشى ومعه كتاب قيصر، سيّر معه سبعين ألفا من الأحباش يقودهم قائد يقال له أرياط»(١٢).

---

(١١) القرآن الكريم، سورة البروج؛ الآيات من ٤ - ٩.

(١٢) محمد بن جرير الطبرى: تاريخ الأمم والملوك. الجزء ٢ ص ٩٢٧ قم ١.

وقد استاء الإمبراطور البيزنطي «چستنيان» لهذه الحادثة الشنيعة، وكلف نجاشي الحبشة المسيحي بالانتقام من ملك حمير «ذى نواس»، وكان الإمبراطور البيزنطي يعد نفسه حاميا للكنيسة الشرقية.

أما نجاشي الحبشة فكان بدوره يطمع فى السيطرة على اليمن، فأعد لذلك الغرض جيشا من نحو ٧٠ ألف جندى بقيادة «أرياط بن أصحمة»، وذلك فى عام ٥٢٥م.

هزيمة جيش دولة حمير وانتحار ذى نواس غرقا:

ويذكر الإخباريون أن نجاشي الحبشة أوصى قائد هذا الجيش «أرياط» بأن ينتقم أشد انتقام من ذى نواس وأجناده، «وعهد إليه بأن يقتل ثلث رجالهم، ويخرب ثلث بلادهم، ويسبى ثلث نسائهم وأولادهم»(١٣).

وقد أبحر الأحباش فى سفنهم من «بلاد ناصع وزيلع»، ونزلوا على «ساحل زبيد من أرض اليمن»، بينما حشد ذو نواس جيوشه والتقى مع جيش الأحباش على ساحل البحر الأحمر، وحلت بالحميريين هزيمة نكراء، «فلما رأى ذو نواس افتراق قومه وانهزامهم، ضرب فرسه واقتحم به البحر، فكان آخر العهد به»(١٤).

وعلى أثر ذلك مات «ذو نواس» غرقا، وفى رواية أخرى أنه قتل فى هذه المعركة، وكان ذلك نهاية مُلك الحميريين.

وقد انتقم الأحباش من الحميريين، فهدموا قصورهم ومنها قصر «سلحين» و «بينون»، وقال فى ذلك الشاعر علقمة ذوجدن:

---

(١٣) الطبرى: المرجع السابق. الجزء ٢ - قسم ١ ص ٩٢٧.

(١٤) اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب): تاريخ اليعقوبى - جزء ١، ص ١٦٢.

أو ما رأيت وكل شئ هالك[١٥]	بينون خاوية كأن لم تعمر
أو ما رأيت وكل شئ هالك	سلحين خاوية كظهر الأدابر
أو ما رأيت بني عطاة باهتا	قد أصبحت تفي عليهم صرصر
أو ما سمعت بحمير وقصورها	أمست معطلة مساكن حمير
فأبكيهم أما بكيت لمعشر	لك درك حمير بن معشر

ويذكر أن أحد قادة «ذى نواس» ويدعى «السمفيع أشوع»، وقد تخلى عنه بعد الهزيمة، وتحصن هو وأولاده فى حصن «مويجت»، فنصبه نجاشي الحبشة ملكا على اليمن وتابعا له، على أن يدفع إلى الأحباش جزية سنوية. وكان «السميفع أشوع» يدين بالمسيحية، ولكن عهد «السميفع» كان قصيرا، إذ ثار عليه الأحباش فى اليمن.

تولى أبرهة الحكم فى اليمن:

كان «أبرهة» مساعدا «لأرياط» فى قيادة الحملة الحبشية التى قامت بغزو اليمن فى عام ٥٢٥م فى عهد «ذى نواس».

وحدث أن انقسم معسكر الأحباش فى اليمن إلى فريقين، بسبب سوء تصرف «أرياط» فى الأموال التى يجبيها من البلاد، إذ كان يؤثر بها الذين يحبهم، فأعلن فريق من الأحباش تأييدهم لأرياط، بينما انضم فريق آخر إلى أبرهة وبايعوه، وعلى أثر ذلك قامت مبارزة بينم أرياط وأبرهة»، «فدفع أرياط عليه حربته، فوقعت فى وجه أبرهة فشرمته، ولذلك سمى الأشرم، وضرب أبرهة أرياط بالسيف على مفرق رأسه فقتله، وانحازت الحبشة إليه، فملكهم وأقره النجاشى على سلطان اليمن»[١٦].

ويذكر أن نجاش الحبشة لما بلغه هذه الحادثة غضب على «أبرهة» أقسم بالمسيح أن يجز ناصيته، ويريق دمه، ويطأ تربته، فبلغ ذلك أبرهة فجز ناصيته

(١٥) وهب بن منبه كتاب التيجان فى ملوك حمير، ص ٣٠٢.
(١٦) أبو حنيفة الدينورى: الأخبار الطوال. ص ٦٢.

وجعلها فى حق من العاج، وجعل من دمه فى قارورة، وجعل من تراب اليمن فى جراب، وانفذ ذلك إلى النجاشى ملك الحبشة، وضم إلى ذلك هدايا كثيرة وألطافا، وكتب إليه يغترف بالعبودية ويحلف له بدين النصرانية أنه فى طاعته، وأنه بلغه أن الملك حلف بالمسيح أن يجز ناصيته ويريق دمه ويطأ أرضه، ثم قال فليهرقه، وبجراب من تربة بلادى فليطأه بقدميه، وليطفئ الملك عنى غضبه، فقد أبررت يمينه، وهو على سرير ملكه»، فلما وصل ذلك إلى النجاشى استصوب رأيه، واستحسن عقله، وصفح عنه[(١٧)].

وقد أقر نجاشى الحبشة «أبرهة» على حكم اليمن نظير جزية يدفعها له

ويستدل من النص المعروف «بنص أبرهة»، أن «أبرهة» قد اتخذ لنفسه اللقب الرسمى لملوك حمير فى دولتهم الثانية، مع إضافة عبارة تشير إلى أنه نائب ملك الحبشة فى اليمن.

ويتضمن هذا النص أن ثورة قام به «يزيد بن كبشة»، وهو أحد رؤساء الحميريين، كان «أبرهة» قد أنابه عنه فى قبيلتى «كدة ودا»، فوجه إليه أبرهة قوة من الأحباش والحميريين، أرغمته على الاستسلام.

ويشير النص إلى تصدع أجزاء من سد مأرب، فبادر «أبرهة» بترميمها.

كذلك يتضمن النص وصول وفود إلى «أبرهة» فى مأرب، من طرف نجاشى الحبشة، ومن ملك الروم، ومن كسرى فارس، ومن المنذر ملك الحيرة، ومن الحارث بن جبلة الغسانى، ويدل ذلك على استقلال «أبرهة» بحكم اليمن، وبرغبة هؤلاء الملوك فى تعزيز علاقاتهم به، ولخدمة المصالح المشتركة بين اليمن وبلادهم.

حملة أبرهة على مكة المكرمة فى عام ٥٧٠م (عام الفيل):

عمل «أبرهة» على التوسع فى نشر المسيحية بين اليمنيين، وبنى عدة

---

(١٧) المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر الجزء ٢، ص ٧٨.

كنائس كان من أهمها كنيسة «القليس» فى صنعاء التى اتخذها الأحباش عاصمة لهم فى اليمن وسعى أبرهة لتوجيه العرب ليحجوا إلى هذه الكنيسة بدلا من الكعبة المشرفة.

وذكر ياقوت الحموى أن «أبرهة» «استذل أهل اليمن فى بنيان هذه الكنيسة، وجشمهم فيها أنواعا من السخرة، وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام، وكان موضع هذه الكنيسة على فراسخ، وكان فيه بقايا من آثار ملكهم، فاستعان بذلك على ما أراده من بناء هذه الكنيسة وبهجتها وبهائها، ونصب فيها صلبانا من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والأبنوس»(١٨).

وقد استخدم فى بنائها الذهب والفضة والزجاج والفسيفاء وألوان الأصباغ، فلما تم بنيانها كتب إلى نجاشى الحبشة قائلا «إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنتهى حتى أصرف إليها حج العرب»(١٩).

وحدث أن دخل أحد العرب من قبيلة «بنى فقيم بن عدى بن عاقر بن ثعلبة»، كنيسة القليس وألقى فيها بعض القاذورات، لتدنيسها، بعد أن انتشر خبرها بين العرب ومقصد أبرهة منها، ولما وصل أبرهة خبر ما فعله ذلك العربى فى كنيسته، استشاط غضبا، وساءه أن يفعل ذلك رجل من أهل البيت الذى يحج إليه العرب، فأقسم ليسيرن إلى الكعبة ويهد منها حجرا حجرا.

وقد أعد «أبرهة» جيشا كبيرا جعل فى مقدمته بعض الفيلة لاستخدامها فى هدم الكعبة، على رأسها فيل ضخم مغطى بالشعر الكثيف.

ولما اقترب «أبرهة» من مكة أرسل مجموعة من جنده للغارة وبث الفزع

(١٨) ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله): معجم البلدان – مجلد ٤، ص ٢٩٥.

(١٩) الطبرى (محمد بن حرير): تاريخ الأمم والملوك – جزء ٢. ص ١٣١.

بين أهلها، فأصابوا إبلا لعبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف زعيم قريش.

ثم نزل «أبرهة» في الموضع المعروف «بحب المحصب»، ويقع بين مكة ومنى، فأتاه عبد المطلب، فعظمه «أبرهة» وهابه، ثم قال له «سلني يا عبد المطلب»، فسأله عن إبله، فقط، فأمر بردها عليه، وقال «ألا تسألني الرجوع؟»، فقال «أنارب هذه الإبل، وللبيت رب سيمنعه منك»[20].

ثم انصرف عبد المطلب إلى قومه **وقال لهم**:

يا أهل مكة قد وافاكم ملك[21] ... مع الفيول على أنيابها الزرد
هذا النجاشي قد سارت كتائبه ... مع الليوث عليها البيض تتقد
يريد كعبتكم والله مانعه ... كمتع تبع لما جاءها حزد

وبعد ذلك أمر عبد المطلب قريشا بأن يلحقوا ببطون الأودية ورؤوس الجبال، ووقف بباب الكعبة، **وهو يقول**:

يا رب لا أرجو لهم سواكا ... يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا ... فامنعهم أن يخربوا قراكا

وعندما عزم «أبرهة» على هدم الكعبة برك الفيل بالمغمس «فلم يتحرك، ونخس بالرماح، فلم ينهض، ثم بعث الله على الجيش طيرا، مع كل طير ثلاثة أحجار، فالقتها عليهم، فلم ينجح منهم شفر»[22].

وقد أخبرنا الله بذلك في سورة الفيل، بقوله تعالى ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيرا أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول**﴾.

---

(٢٠) ابن هشام (أبو محمد عبد الملك): كتاب سيرة النبي – الجزء ١، ص ٤٧.

(٢١) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر الجزء ٢، ص ١٢٨.

(٢٢) البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر): أنساب الأشراف – جزء ١ ص ٦٧.

ويصف الإخباريون طير الأبابيل بأنها أشباه اليعاسيب، وأن سجيل هو طين خلط بحجارة استخرجت من البحر.

ويضيف الإخباريون أنه على أثر ذلك تفشى وباء الحصبة والجدرى فى جيش «أبرهة».

وكانت هذه الحملة عام ٥٧١م التى يسميها العرب «عام الفيل»، وفى هذه السنة ولد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

هذا، ويشكك الدكتور صالح العلى فى هدف «أبرهة» من هذه الحملة، بأن يحول العرب عن الكعبة ويصرفهم إلى كنيسة القليس، **ويقول**:

«فإن أبرهة إذا كان قد بنى كنيسة نصرانية فى اليمن ليأتيها النصارى، لا تستطيع إجبار المشركين على زيادة الكنيسة النصرانية، وإذا كان قد فعل ذلك فإن نطاق أمره ينحصر فى اليمن، وهى البلاد التى يحكمها، ولا يمتد إلى غيرها من المناطق، فمكة إذا لا تغتاظ من إنشاء كنيسة نصرانية، لأن مركزها الدينى لا علاقة للنصارى به .... أنه ليس لأبرهة سلطة عليها، فضلا عن أن هناك عدة بيوت مقدسة لم يرد فى التاريخ خبر استياء أهل مكة منها، فلماذا تستاء من القليس؟»(٢٣).

ويعتقد صالح العلى أن هذه الحملة كانت موجهة ضد الفرس الساسانيين بناء على طلب نجاشى الحبشة، لمساعدة الروم حلفاء الأحباش، فسلك الطريق البرى للقوافل، الذى يصل إلى الشام، ومرورا بمكة.

ومهما كان الدافع من حملة «أبرهة»، فقد أخفقت إخفاقا ذريعا، وعاد «أبرهة» إلى اليمن وهو يعانى من الهزيمة النكراء التى منى بها، ولم يلبث أن قضى نحبه، فخلفه على اليمن إبنه «يكسوم»، الذى كان حكمه إستبداديا، واستمر نحو عشرين عاما.

---

(٢٣) د. صالح أحمد العلى: محاضرات فى تاريخ العرب. الجزء ١، ص ٢٦٠

مسروق بن أبرهة وحكمه الإستبدادى فى اليمن:

وبعد وفاة يكسوم بن أبرهة، خلفه أخوه «مسروق»، فى حكم اليمن، وكان يتولى إمارة مخلاف شناتر فى عهد أبيه.

وكان «مسروق» أكثر تعسفا من أخيه «يكسوم» فى معاملة الحميريين، فكان «شرا من أخيه وأخبث سيرة»(٢٤).

وهذه المعاملة السيئة كانت سببا فى نفور أهل اليمن من حكم الأحباش، ورغبتهم فى التخلص من استبدادهم.

سيف بن يزن وجهوده لإخراج الأحباش من اليمن:

ولما طال أمد الاستبداد على أهل اليمن من الأحباش، ظهر زعيم وطنى من الحميريين يدعى «سيف بن ذى يزن»، عقد العزم على تخليص قومه من بطش «مسروق»، وأخذ على عاتقه تحرير بلاده من احتلال الأحباش.

ولكن «سيف بن ذى يزن» رأى استحالة قهر الأحباش بالسيف، وخاصة أن الأحباش قد جردوا الوطنيين من قواهم، فطلب العون من القوى الكبرى الخارجية.

وبدأ بأن وصل إلى القسطنطينية بطريق البحر، حيث التمس العون من الإمبراطور «جستين الثانى»، وقدم له الوعود بأن تحقق بيزنطة من اليمن منافع جمة إقتصادية وسياسية، مع استعدا د الوطنيين فى اليمن لموالاة البيزنطيين.

وقد طال مقام «سيف بن ذى يزن» فى بلاط الإمبراطور البيزنطى، وقيل أنه أقام ببابه سبع سنين، وفى النهاية قوبل طلبه بالرفض. ولم يكن الإمبراطور لينجده على الأحباش حلفائه، الذين يرتبط معهم بعلاقات دينية وسياسية وإقتصادية.

ولما يئس «سيف بن ذى يزن» من نجدة البيزنطيين، تحول بطلبه إلى كسرى

(٢٤) الدينورى (أبو حنيفة): الأخبار الطوال. ص ٦٣.

أنو شروان ملك الفرس، ومضى إلى الحيرة حيث عرض الأمر على النعمان بن المنذر الذى يرتبط مع كسرى الفرس برابطة الولاء والتبعية، وشكا إليه من ظلم الأحباش في اليمن، على أمل أن يقدمه لكسرى، ويضمن استجابته، فاستضافه النعمان ووعده بأن يقدمه إلى كسرى، ثم خرج معه وأدخله عليه.

ولما دخل «سيف وبن ذى يزن» إيوان كسرى، طلب من كسرى أن يساعد قومه على طرد الأحباش وتحرير اليمن، فاستهان كسرى بأمره فى البداية، وقال له «بعدت أرضك من أرضنا، وهى أرض قليلة الخير وإنما بها الشاه والبعير وذلك مما لا حاجة لنا به»، ثم صرفه بعد أن أعطاه عشرة آلاف درهم وخلع عليه، فغضب سيف بن ذى يزن لصرفه بهذه الوسيلة، «فهو لم يتجشم المشاق والمتاعب منذ رحيله عن بلاده لكى يظفر بتلك الدراهم، وفى غمرة غضبه نثر دراهم كسرى بعد خروجه من حضرته على الناس،ولما علم كسرى بذلك أمر به فأحضر أمامه، فقال له «عمدت إلى حباء الملك تنثره للناس، فرد عليه: ما أصنع به، ما جبال أرضى كلها إلا ذهب وفضة»(٢٥).

ويذكر أن كسرى عندئذ طمع فى بلاد اليمن لوفرة معادنها وكثرة ثرواتها، وعقد مجلسا من وزرائه، واستشارهم فى أمر سيف بن ذى يزن، فقال أحدهم «أيها الملك إن فى سجونك رجالا حبستهم للقتل، فلو أنك بعثتهم معه فإن يهلكوا كان الذى أردت بهم، وإن أظفروا كان ملكا زاده الملك إلى ملكه»(٢٦).

وقد استحسن كسرى هذا الرأى، وبعثه مع سيف ذى يزن بمن كان فى سجونه، وبلغ عددهم ثمانمائة رجل، وجعلهم تحت قيادة رجل له خبرة وتجربة يدعى «وهرز بن الكامجار»، وأبحروا فى ثمان سفن، ووصلوا إلى ساحل عدن، ونزلوا فى موضع يقال له «مثوب».

---

(٢٥) الدينورى: المرجع السابق. ص ٦٣.

(٢٦) وهب بن منبه: كتاب التيجان فى ملوك حمير. ص ٣٠٤.

ويستبعد الدكتور السيد عبد العزيز سالم ذلك الحديث الساذج الذى دار بين سيف بن ذى يزن وكسرى، الذى يعرف جيدا عظم ثروات اليمن، وتلهفه للسيطرة على طريق التجارة عبر البحر الأحمر، والقضاء على نفوذ الروم السياسى والإقتصادى فى اليمن، كما يستبعد أن يكون الجيش الذى سيره كسرى لتحرير اليمن، من السجناء، مع حرصه على نجاح هذه الحملة(٢٧).

وقد نجحت حملة «وهرز»، وحلت الهزيمة بمسروق بن أبرهة، الذى قتل فى هذه المعركة، ودخل «وهرز» صنعاء، وانتهى بذلك حكم الأحباش لليمن، وحل الفرس مكانهم.

وبعد ذلك كتب «وهرز» إلى كسرى بفتح اليمن، فكتب إليه كسرى يأمره أن يقتل كل حبشى باليمن، وأن يملك سيف بن ذى يزن عليها، واشترط عليه عدة شروط منها أن يحمل «سيف بن ذى يزن» الخراج إليه.

ويبدو أن كسرى اكتفى فى ذلك الوقت بإقامة حكم وطنى فى اليمن يرتبط بالتبعية له، تحت رئاسة «سيف بن ذى يزن».

اليمن تحت حكم الفرس:

إستبقى «سيف بن ذى يزن» بقايا من الأحباش بالغ فى اضطهادهم وإذلالهم وذكر أنه اتخذ منهم عبيدا حرّابة يمشون بين يديه بالحراب إذا ركب، واتفق أن اختلوا به يوما فى متصيد له، فزرقوه بحرابهم، فقتلوه وهربوا فى رؤوس الجبال»(٢٨).

كما ذكر أن الفرس عمدوا إلى التخلص من «سيف بن ذى يزن»، وتآمروا على قتله، بعد أن شعروا باستيائه من تدخلهم فى شئون البلاد، وفطنوا إلى ما يبيته لهم».

---

(٢٧) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب فى عصر الجاهلية. ص ١٧٤.

(٢٨) الأصفهانى (حمزة بن الحسن): تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ٩٠.

وبعد مصرع «سيف بن يزن»، رد كسرى القائد الفارسى «وهرز» إلى اليمن ومعه أربعة آلاف من جنود الفرس، استخدمهم فى القضاء على من بقى من الأحباش فى اليمن(٢٩).

وخلف «سيف بن يزن» فى حكم اليمن إبنه «معد يكرب»، وهو آخر ملوك حمير في اليمن، وبعد موته «انقضى ملك حمير فصارت اليمن بأيدى عمال ملوك الفرس»(٣٠).

وقد عين كسرى الفرس القائد «وهرز» حاكما على اليمن، ثم تتابع ولاة الفرس من بعده، وقد اختلف الإخباريون فى ذكر أسمائهم.

ولكن من الثابت أن «باذان» هو آخر حكام الفرس فى اليمن، وقد استجاب لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام سنة ٦٢٨م ودخل هو ومعظم أهل اليمن فى الإسلام.

مظاهر الحضارة اليمنية القديمة

كان اليمن أكثر بلاد العرب تحضرا، بسبب ما حظى به من الثروات، بالإضافة إلى غزارة أمطاره وموقعه الاستراتيجى.

نظام الحكم:

عاش اليمنيون فى البداية على شكل قبائل بدوية متنقلة، وكان لكل قبيلة شيخ يقوم بتصريف شئونها.

ولما قامت الدول فى اليمن أصبح نظام الحكم ملكيا وراثيا، ومن الألقاب الملكية عند المعينين لقب «يطوع» أى المخلص، ولقب «صدوق» أى العادل، ولقب «يام» أى المضىء، ومنها لقب «مزود» أى مقدس، و«كبر» أى كبير وعظيم(٣١).

---

(٢٩) الطبرى (محمد بن جرير): تاريخ الأمم والملوك. الجزء ٢ قسم ١ ص ٩٥٨.

(٣٠) المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر جزء ٢، ص ٨٧.

(٣١) فرتز هومل: التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية. ص ١٢٠.

وكان إلى جانب الملك «مجلس عام» يساعده على تصريف شئون البلاد كما كان لكل مدينة حكومة محلية ،ومجلس خاص بها يضم شيوخ المدينة.

وكان للمدن المعينية مجالس محلية تدير شئونها فى السلم والحرب، وتعرف بإسم «مسود».

وفى الدولة المعينية كانت الضرائب التى يتم تحصليها تنقسم إلى ثلاثة أنواع: ضرائب تجبى لخزانة الملك، وضرائب تجبى لحساب المعابد، وكانت على نوعين: نوع يسمى «أكرب» أى تقربا للآلهة وتقدمها القبائل، ونوع إجبارى يطلق عليه «عشر»، وكان يفرض على الأفراد، ومن ناحية التقسيم الإدارى، فقد كان اليمن ينقسم إلى عدد كبير من المقاطعات تعرف بإسم «مخاليف»، تضم عددا من الحصون والقصور كان يطلق عليها «المحافد»، وبلغ عدد المخالف ٨٤ مخلافا كان من أهمها مخلاف صنعاء ومخلاف همدان ومخلاف خولان ويتولى الحكم فى كل مخلاف أمير كان يطلق عليه «قيل» وجمعه «أقيال».

الحياةالإقتصادية:

الزراعة:

ساعدت خصوبة التربة واعتدال المناخ وغزارة الأمطار على تقدم الزراعة فى اليمن، فزرعت الحبوب والتوابل وغيرها.

وجاء فى وصف «ديودور الصقلى» لبلاد سبأ «تفوح فى طول البلاد وعرضها روائح عطر طبيعى،... وتنمو فيها أشجار البلسم والقرفة، وفى داخل البلاد غابات كثيفة تنمو فيها أشجار النجور والصبر الضخمة وأشجار النخيل والكافور وغيرها من الأشجار ذات الروائح العطرية...»(٣٢).

(٣٢) فيليب حتى: تاريخ العرب. ص ٥٦.

الثروة المعدنية:

يتوفر في اليمن معدن الذهب، وقد أشار ابن رستة إلى وفرة الذهب فى مأرب.

ومن المعادن الأخرى الرصاص والفضة والحديد، ويوجد الرصاص بين فهم وخولان، والفضة تتوفر فى الرضراض، أما الحديد فيوجد فى عدن، وفى نجران وغمدان، وفى الأراضى الواقعة بين صعدة والحجاز.

أما الأحجار الكريمة، فمنها العقيق الذى يكثر فى جبل شبام، ومنه نوع يطلق عليه «الجزع»، وأجود أنواعه البقرانى، ومن أنواع الجزع الأخرى العروانى، والفارسى، والحبشى، والعشارى، والسعوانى، والمعرق.

ويكثر العنبر فى سواحل عدن وما يليها، كما يستخرج اللؤلؤ بالقرب من عدن وعن خيرات اليمن يقول المقدسى «واليمن معدن العصائب والعقيق، والأدم، فإلى عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر والمسك والزعفران والبقم والساج، واللؤلؤ، والجزع، واليواقيت... والصبر، والحديد، والرصاص... والبلور، وتزيد عدن بالعنبر، والشروب»(٣٣).

الصناعة:

عرفت اليمن بصناعة السيوف والحلى الذهبية، والفضة، والبروق المشهورة، والشروب وهى منسوجات رقيقة تصنع من الكتان وتدخل فى نسجها خيوط الذهب، وتشتهر عدن ودبيق بصناعة الشروب.

ومنها صناعة الجلود المعروفة بالأدم وصباغتهعا، وقد اختصت بصناعتها صنعاء ونجران وجرش وصعدة وزبيدة.

كما اشتهرت اليمن بصناعة البخور والطيوب واللادن.

---

(٣٣) المقدسى (المطهر بن طاهر): كتاب البدء والتاريخ. الجزء ٤. ص ٩٧.

التجارة:

وقد ساعد موقع اليمن الجغرافى، حيث يطل على البحر الأحمر من جهة الغرب، وبحر العرب والمحيط الهندى من جهة الجنوب، على ازدهار التجارة سواء فى البحر أو البر، ووصلت سفن اليمنيين المحتلة بالمنتجات المختلفة إلى الهند ومصر وبلاد الرافدين والشام والخليج العربى والحبشة.

كما أقام المعينيون والسبئيون والحراسات على طول طرق القوافل فى شبه الجزيرة العربية عبر الحجاز إلى بلاد الشام.

وقد عرفت بلاد اليمن قديما بتجارة العطور والبخور والطيوب والمر والصمغ والكافور والورس، وهو نبات يشبه الزعفران يستخدم فى الصباغة.

وكان لمنتجات اليمن سوق رائجة فى مصر الفرعونية، إذ كان يستخدم اللبان اليمنى والصومالى مع البخور فى المعابد، كما يستخدم فى تحنيط جثث الموتى.

كما عمل اليمنيون كوسطاء للتجارة بين الهند وغيرها وبين بلاد العراق والشام ومصر، وعن طريقهم انتقلت اللآلىء من الخليج العربى، والتوابل والسيوف الهندية، والحرير الصينى، والعاج والذهب الأثيوبى، إلى مصر الشام والعراق.

العمارة:

بناء المدن: ومن أهمها معين، وظفار، وصرواح، ومأرب، وصنعاء، وريدان، وحول هذه المدن أقيمت الأسوار والقلاع والحصون لحمايتها.

وعن مأرب وقصورها وحصونها يقول الشاعر أبو الطمحان:

أما ترى مأربا ما كان أحصنه[٣٤]   وما حواليه من سور وبنيان

(٣٤) الهمدانى (أبو محمد الحسن بن أحمد): كتاب الإكليل - الجزء الثامن. ص ٤٥.

القصور:

أقام الملوك وكبار رجال الدولة والقصور الفخمة التى كانت تعرف بإسم «المحافد»، ومن أشهرها غمدان، وناعطا، وصرواح، وظفار، وكوكبان وبراقش، ومعين، وروثان، وريام، وعمران، وسلحين، وبينون. وكان صاحب المحفد أو القصر ينسب إليه، فيقال: ذو غمدان، وذو صرواح وذوسلحين.

وهذه القصور لم يكن لها نظير فى ذلك الوقت فى عظمة البنيان وفخامته، وقد عجز الروم والفرس الذين كانوا يتفاخرون بمنشآتهم ومبانيهم، عن تشييد مثل قصور غمدان ومأرب وسلحين وصرواح وبينون وغيرها.

وفى ذلك يقول أحد الشعراء:

هل بعد غمدان أو سلحين من أثر[٣٥]   وبعد بينون يبنى الناس بنيانا

ويعتبر قصر غمدان من القصور الأسطورية، وهو «أقدمها وأعجبها ذكراً وأبعدها صيتا»، وقد اختلف الإخباريون فى ذكربانى هذا القصر، فقال بعضهم إن الذى بناه سليمان بن داود عليهما السلام، أمر الشياطين، فبنوا لبلقيس ثلاثة قصور بصنعاء: غمدان وسلحين وبينون»[٣٦].

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبى أن الذى بناه ليشرح بن يحصب.

كما قيل أن الذى بناه هو الملك شر حبيل بن عمرو بن غالب بن المنتاف بن زيد من ملوك حمير.

ويذكر أن إسم غمدان مشتق من غمد الشئ أى غشاؤه، وأن هذا القصر كان غشاء لما دونه من المقاصير والأبنية.

وقد بنى قصر غمدان بالحجر على أربعة أوجه، ولكل وجه لون يختلف عن الآخر، فوجه أبيض، ووجه أحمر، ووجه أصفر، ووجه أخضر.

---

(٣٥) ياقوت الحموى: معجم البلدان – مجلد ٤، ص ٢١٠.

(٣٦) ياقوت الحموى: المرجع السابق – مجلد ٤، ص ١٢٠.

وكان القصر يتألف من سبعة أسقف أو طوابق، بين كل سقفين أربعون ذراعا؛ وقيل أن عددها عشرين سقفا، وبين كل سقفين منها عشرة أذرع، وفى أعلى القصر بنى مجلس من الرخام الملون الشفاف، بحيث كان الجالس فيه يمكنه رؤية الطيور التى تحلق فوق القصر، وفى كل ركن من أركان هذا المجلس نصب تمثال لأسد ضخم رابض من النحاس مجوف، بحيث إذا دخلت الريح من دبرة وخرجت من فمه، أحدثت صوتا يشبه زئير السباع، وكان يضاء المجلس العلوى بالمصابيح ليلا، بينما سائر القصر يلمع بشكل يخطف الأبصار. ويصف ذو جدن الهمدانى قصر غمدان وما آل إليه من خراب، **فقال**:

وغمدان الذى حدثت عنه[٣٧]	بناء تشيدا فى رأس نيق
بمرمره وأعلاه رخام	تمام لا يعيب بالشقوق
مصابيح السليط ملحين فيه	إذا يمس كتوما فى البروق
فأضحى بعد جدته رمادا	وغير حسنه لهب الحريق

ويتحدث إبن حوقل عن قصر غمدان بعد أن شاهد أطلاله، ويقول «وبها آثار بناء عظيم قد خرب، فهو تل كبير يعرف بغمدان، وكان قصراً لملوك اليمن، وليس باليمن بناء أرفع منه على خرابه»[٣٨].

ومن القصور الأخرى الضخمة قصر ريدان، وهو قصر ملوك ظفار، وقصر كوكبان، «وسمى كذلك لأنه كان مؤزر الخارج بالفضة وما فوقها أحجار بيض، وداخله منطق بالعود والفسيفاء والجزع وصنوف الجواهر»[٣٩].

السدود (الخزانات):

وكانت تبنى بالحجارة الكبيرة الصلبة والحديد فى عرض الأودية، لحجز مياه الأمطار للاستفادة منها فى رى المزروعات.

(٣٧) ياقوت الحموى: نفس المرجع - مجلد ٤، ص ١٢٠.

(٣٨) ابن حوقل (أبو القاسم محمد): كتاب صورة الأرض. ص ٤٣.

(٣٩) الهمدانى: كتاب الإكليل - الجزء الثامن. ص ٢٣.

وقد بلغ عدد السدود التى بناها اليمنيون أكثر من مائة سد، كان أشهرها سد مأرب، الذى بلغ طوله نحو ٨٠٠ ذراعا وعرضه ١٥٠ ذراعا وبنى بالحجارة والتراب، وينتهى فى أعلاه بسطحين مائلين على شكل زاوية منفرجة، وتغطيهما طبقة من الحصى لمنع انحراف التراب عند تدفق المياة

ويرتكز السد على جبلين، ويتفرع منه عند كل من طرفيه قنوات تعرف بالميزاب، لها فتحات تفتح بعض الوقت لرى سطح الجبلين، ثم تغلق بعد ذلك.

الكتابةاليمنية:

الخط المسند:

ويطلق على الكتابة اليمنية التى كانت تتكون من ٢٩ حرفا، وهى مقتبسة من الابجدية الفينيقية، بعد ادخال بعض التعديلات عليها، وقد عثر على نقوش لهذه الكتابة على مبانى اليمن القديمة ومعابدها.

وكان المعينيون يستخدمونها فى تدوين مكاتباتهم التجارية، وقد عثر على كتابات معينية فى مصر بالجيزة، وفى جزيرة ديلوس باليونان، ترجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد، وتشير إلى صلات التى كانت تربط مصر واليونان بالدولة المعينية فى اليمن.

كما عثر على كتابات معينية فى أور والوركاء بالعراق، تشير إلى العلاقات التجارية بين هاتين المدينتين والدولة المعينية.

الديانةاليمنية:

عبادة مظاهر الطبيعة:

مثل الشعوب القديمة الأخوى، عبد اليمنيون مظاهر الطبيعة كالرياح والأمطار وبعض الأشجار والصخور والآبار.

الثالوت:

وكان يطلق على عبادة الشمس والقمر وكوكب الزهرة. وكان اليمنيون

يعبدون القمر، ويعتبرونه الإله الأب، وسموه «المقة»، وعبدوا الشمس باعتبارها الإلهة الأم، وسموها «عشتار»، كما عبدوا كوكب الزهرة، واعتبروه الإبن، وسموه «ود».

ومن أهم المعابد التى أقامها البنيون للإله المقة (القمر) معبد صرواح الكبير الذى أقيم فى القرن الثامن قبل الميلاد، وهو من أهم آثار اليمن القديمة.

الأصنام:

لذلك عبد اليمنيون الأصنام ومنها نكرج، وهو إله البغض والحرب، ومنها «يعوق» الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم. وكان لكل قبيلة يمنية إله خاص بها.

المسيحية واليهودية:

بدأت المسيحية فى الانتشار فى اليمن منذ أوائل القرن الرابع الميلادى، بعد أن تمكن الراهب السورى «فيميون» من تحويل كثير من سكان نجران إلى المسيحية، وأسس بها كنيسة على المذهب «المونوفيز يقى» وربما كانت الكنيسة الكبيرة التى سماها العرب «كعبة نجران».

وبالرغم من قضاء ذى نواس الحميرى على نصارى نجران بإحراقهم فى الأخدود، فقد عادت المسيحية إلى سابق عهدها فى نجران أثناء حكم الأحباش والفرس.

وفى العام التاسع الهجرى، جاء وفد من نصارى نجران إلى الرسول ﷺ، وفيهم عبد المسيح بن دارس بن عدى والأسقف أبو حارثة، وصالحوا النبى، فكتب لهم كتابا بذلك.

أما اليهودية، فقد بدأت فى الانتشارفى اليمن منذ أواخر القرن الرابع الميلادى، ويذكر أن أباكرب أسعد» الذى اعتنق اليهودية وهو فى يثرب، رجع إلى اليمن بعد أن استردها من الأحباش، ومع جنوده وحبران يهوديان، فدعا قومه

إلى الدخول فى اليهودية، وقبل الحميريون ذلك بعد أن احتكموا إلى النار كعادة أهل اليمن التى تأكل الظالم ولا تضر المظلوم شيئا»، وكان ذلك بداية ظهور اليهودية فى اليمن.

الفصل الثانى

بلاد الحجاز

بلاد الحجاز فى المناطق الهامة فى الجزيرة العربية، وتتميز بأهميتها الإقتصادية والدينية.

فمن الناحية الإقتصادية، كان يشق الحجاز «شريان رئيسى من شرايين التجارة العالمية، تتفرع منه شرايين تتجه صوب الشرق والشمال الشرقى، وفى موازاته شريان رئيسى آخر كان له خطره فى عالم تجارة ذلك الزمن[١]». والمقصود بالشريان الثانى طريق البحر الأحمر الذى يوصل إلى الهند.

وبذلك فقد كانت بلاد الحجاز جسرا يربط بلاد الشام وحوض البحر المتوسط باليمن والحبشة والصومال والسواحل المطلة على المحيط الهندى، وترتب على ذلك قيام عدد من المدن والثغور التجارية فى الحجاز، تعتبر محطات تجارية على هذا الطريق البحرى.

ومن الناحية الدينية، وقبل ظهور الإسلام، كانت بلاد الحجاز ملتقى الديانات الوثنية، إلى جانب اليهودية والمسيحية.

ويستنتج من النقوش القديمة التى عثر عليها فى أعالى الحجاز، وترجع إلى ما قبل الميلاد، أن بلاد الحجاز الشمالية كانت خاضعة للمعينيين، ثم للسبئيين فالحميريين.

ولما ضعف شأن الحميريين، انتقلت السيطرة على شمال الحجاز إلى الأنباط، كما يستدل من الكتابات البنطية التى عثر عليها فى بلدة العلا ومدائن صالح، وترجع إلى القرن الأول الميلادى.

(١) د. جواد على تاريخ العرب قبل الإسلام - جزء ٤، ص ١٦١.

وقد بسط الأنباط سلطانهم المادى والروحى على بلاد الحجاز الشمالية، وفرضوا على أهلها حضارتهم وثقافتهم، فعبدوا آلهتهم مثل ذى الشرى ومناة واللات.، واستخدموا فى الكتابة الخط النبطى.

ونظرا لأهمية بلاد الحجاز، فقد حاول الرومان والأحباش والفرس بسط نفوذهم عليها، وقد باءت بالفشل محاولات الرومان والأحباش، بينما حقق الفرس المناذرة فى الحيرة مكاسب هائلة.

وكان للحروب المتواصلة بين فارس والروم أثرها فى احتكار قريش لتجارة الهند والحبشة واليمن، منذ نهاية القرن السادس الميلادى.

وأهم عواصم الحجاز مكة والطائف ويثرب.

مكة المكرمة

اختلف الإخباريون فى أصل كلمة مكة وتفسيرها، وجاءوا بروايات مختلفة منها:

١) حسب قول أبى بكر بن الأبنارى، سميت مكة بهذا الإسم «لأنها تمك الجبارين أى تذهب نخوتهم»[٢].

٢) قال الشرقى بن القطاعى «إنما سميت مكة لأن العرب فى الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتى مكان الكعبة فنمك فيه أى نصفر صفر المكاء حول الكعبة، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا كانوا بها، والمكاء بتشديد الكاف طائر يأوى الرياض»[٣].

٣) وقيل «سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها، وهى فى هبطة بمنزلة المكوك».

٤) وفى تفسير لغوى أن «مكة مشتقة من امتك لقلة مائها، وفى قولهم امتك الفصيل أخلاف الناقة، إذا جذب جميع ما فيها جذبا شديدا فلم يبق فيها

(٢) ياقوت الحموى: معجم البلدان – مجلد ٥، ص ١٨١.

(٣) ياقوت الحموى: المرجع السابق. ص ١٨٢.

بشيئا، ولما كانت مكة مكانا مقدسا للعبادة، فقد امتكت الناس أى جذبتهم من جميع الأطراف».

٥) وفى قول آخر «أنها قد تكون مشتقة من ملك فى البابلية بمعنى البيت»[٤].

وفى القرآن الكريم ورد إسم آخر لمكة هو «بكة»، فى قوله تعالى «إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين»[٥].

ويذكر الأخباريون أن «بكة موضع البيت وما حول البيت مكة».

وفى رأى بعضهم أن بكة هى نفس مكة أبدلت فيها الميم باء على عادة أهل الجنوب، ويؤيد ذلك الدكتور جواد على «أن بكة ليست سوى لهجة من لهجات القبائل التى تبدل الميم باء»[٦].

ومن الأسماء الأخرى التى ذكرها الإخباريون «الباسة»، لأنها تبس أى تحطم الملحدين، ومنها «الحاطمة» لأنها تحطم من استخف بها، ومنها «القادسى» لأنها تقدس أى تطهر من الذنوب، وسميت أيضا «أم القرى» وجاء فى ذلك قوله تعالى «لتنذر أم القرى ومن حولها»[٧].

وقد وصفها الله تعالى بالبلد الأمين، فى قوله تعالى ﴿ والتين والزيتون وطور سينين، وهذا البلد الأمين ﴾[٨].

وتقع مكة فى بطن وادى يعرف ببطن مكة، وتشرف عليها الجبال من جميع النواحى، فى دائرة حول الكعبة.

---

(٤) چورچى زيدان: العرب قبل الإسلام. ص ٢٧٥.

(٥) سورة آل عمران - آية ٩٦.

(٦) د. جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام - جزء ٤، ص ١٨٩.

(٧) سورة الأنعام آية ٩٢.

(٨) سورة التين - آيات ١ - ٣.

مصادر الثروة والموارد الإقتصادية فى مكة فى العصر الجاهلى:

كانت مكة تقع فى واد «غير ذى زرع»، مما جعل أهلها يعتمدون فى أقواتهم وحياتهم المعيشية على البلاد الأخرى، فكانت الأقوات تأتيهم من الطائف ومن السراة.

وكان عماد دخل أهل مكة يقوم على التجارة، والضرائب التى تجبى من التجار الأجانب والقوافل التجارية، بالإضافة إلى ما كان ينفقه الحجاج فى موسم الحج.

وقبل الإسلام كانت مكة مركزا للطريق التجارى بين اليمن وبلاد الشام، كما كانت على اتصال وثيق ببلاد الحبشة.

وبفضل جهود هاشم بن عبد مناف زعيم قريش، فقد سيطرت مكة على تجارة الهند، والحبشة واليمن، وهو أول من سن رحلتى قريش؛ رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق، ورحلة الصيف إلى الشام.

ويذكر أن هاشم رحل إلى بلاد الشام، وشاع عنه الكرم والسماحة[٩]، وبلغ ذلك قيصر الذى كانت بلاد الشام تابعة له، فأرسل إليه، فلما رآه وسمع كلامه أعجب به، فقال له هاشم «أيها الملك لى قوم وهم تجار العرب، فتكتب لهم كتابا يؤمنهم ويؤمن تجاراتهم حتى يأتوا بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه، ففعل قيصر ذلك، فجعل كلما مربحى من العرب أخذ من أشرافهم الإيلاف (أى العهد) أن يأمنوا عندهم وفى أرضهم، فأخذوا الإيلاف من مكة والشام»[١٠].

وذكر البلاذرى أن هاشم بن عبد مناف أخذ لقريش «عصما من ملوك الشام، فتاجروا آمنين، ثم إن أخاه عبد شمس أخذ لهم عصما من صاحب

---

(٩) البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر): أنساب الأشراف، جزء ١، ص ٥٩.

(١٠) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى - جزء ١، ص ٢٠١.

الحبشة، وإليه كان متجره، وأخذ لهم المطلب بن عبد مناف عصما من ملوك اليمن، وأخذ لهم نوفل بن عبد مناف عصما من ملوك العراق، فألفوا الرحلتين فى الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق، وفى الصيف إلى الشام»[11].

بالإضافة إلى ذلك، فقد أتاح موقع مكة الجغرافى وحيدة قريش، أن تقوم بدور الوسيط التجارى، إذ استعان البيزنطيون بالقرشيين كوسطاء للتجارة الهندية، وكانوا يتهافتون على منتجات الهند والصين.

وقد نجح القرشيون فى عقد المعاهدات التجارية مع حكومتى بيزنطة وطيسفون، للحصول على ضمانات لتأمين تجارتهم.

وكانت حكومة بيزنطة لا تسمح لتجار العرب بحرية الإقامة والتجارة إلا فى عدد محدود من المدن فى بلاد الشام، منها آيلة وغزة والقدس وبصرى. كما عقد القرشيون معاهدات مماثلة مع أمراءالعرب فى الجزيرة العربية، ومنهم شيوخ قيس وأقيال اليمن وأمراء اليمامة وملوك غسان والحيرة. ومن التجارة حققت بعض الأسر والشخصيات فى مكة ثروات ضخمة، منهم هاشم والمطلب ونوفل بنى عبد مناف، وأبو احيحه . وعبد الله بن جدعان والوليد والمغيرة المخزومى وأبو سفيان وأمية بن خلف.

وكانت قريش تفرض الإتاوات على التجار الغرباء وعلى العرب الذين لايرتبطون بحلف معها.

ومن بين الضرائب التى كانت تفرضها قريش على التجار الغرباء ضريبة العشور، التى كانت تحصلها ممن يدخل مكة من تجار الروم والفرس وأقباط مصر، وقد توافد على مكة عدد من هؤلاء وأقاموا فيها، وتحالفوا مع أثريائها، ومنهم من أقاموا بمكة نظير دفع جزية مقابل حمايتهم وحفظ أموالهم وتجارتهم.

وكان حج البيت أحد مصادر دخل أهل مكة، فإلى جانب كونه مظهرا دينيا للعرب فى الجاهلية، كان الحج وسيلة للاجتماع والتعارف، ووسيلة للكسب

(١١) البلاذرعى: أنساب الأشراف، جزء ١١، ص ٩٥.

بالتجارة، إذ كانت تقام في موسمه أسواق تجارية وأدبية مثل سوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذى المجاز، وفى هذه الأسواق كان العرب من أنحاء الجزيرة العربية يفدون بسلعهم للتبادل والبيع، ويستفيد منهم أهل مكة.

وكانت العملات السائدة فى مكة والحجاز بوجه عام، الدينار والدرهم وهما عملتان أجنبيتان، والدينار وحدة ذهبية، وهو مشتق من اللفظة اليونانية اللاتينية «ديناريوس»، أما الدرهم فمشتق من لفظة الدراخمة اليونانية، وهو وحدة فضية.

وعن طريق الإشتغال بالتجارة عرف أهل مكة الكتابة، وأخذوها عن الأنباط وأهل الحيرة، كما عرفوا مبادئ الحساب والمكاييل والموازيين والمقاييس، وعرف تجار مكة نظام الأمانات والودائع والصكوك وغير ذلك.

ومن الحرف والصناعات التى كانت مصدر دخل أخرى لأهل مكة، صناعة الأسلحة من رماح وسيوف ودروع ونبال وسكاكين، وصناعة الأوانى الفخارية وأعمال النجارة.

القبائل التى توافدت على مكة والتنظيمات التى أدخلها فيها قصى بن كلاب زعيم قريش:

يذكر الإخباريون أن العمالقة بزعامة السميدع بن هوبر بن لاوى هم أقدم القبائل التى نزلت فى مكة وحكمتها، وخلفهم بنوجرهم القحطانية، وكانت منازلهم بداخل مكة وما حولها.

وقد تزوج اسماعيل عليه السلام امرأة جرهمية، وكان أبوه إبراهيم عليه السلام قد أسكنه وهو طفل صغير مع أمه هاجر فى مكة بوحى من الله، ولما شب قام بمعاونة أبيه فى بناء البيت العتيق. وبعد وفاة إسماعيل تسلم الإشراف على البيت الحارث بت مضاض الجرهمى، وهو أول من ولى أمر البيت.

ثم وفدت خزاعة بعد سيل العرم فى اليمن، إلى مكة ونزلوا بظاهرها، وأمكنهم التغلب على الجرهميين فى مكة وطرودهم عنها، وكان عمرو بن لحى

أول من تولى أمر البيت من خزاعة، فقام بتغيير دين إبراهيم وبدله بعبادة الأوثان، وذكر أنه استحضر من الشام أصناما نصبها حول الكعبة(١٢).

وفى ذلك الوقت كانت مضر تقيم بظاهر مكة، وقد احتفظت بحق الإجازة للحجاج من عرفة والإفاضة بهم إلى منى غداة يوم النحر. وبعد أن تشعبت مضر وبطون كنانة، وصاروا أحياء وبيوتات، تمكن زعيمهم قصى بن كلاب بن مرة من بسط سيادته على مكة، وانتزع ولاية البيت من خزاعة، وفى عهد زعيمهم أبى غبشان الخزاعى.

تنظيمات وإصلاحات قصى بن كلاب زعيم قريش فى مكة:

يرجع الفضل إلى قصى بن كلاب فى جمع بطون قريش وترتيبها فى منازل بداخل مكة وخارجها، وقدميز بين قريش البطاح التى تسكن بداخل مكة، وهم بنوعبد مناف وعبد الدار، وبنو عبد العزى وبنو زهرة، وبنو مخزوم وبنو تيم بن مرة، وبنو جمح وبنو سهم وبنو عدى وبنو عتيك بن عامر، وكان منهم التجار والأثرياء.

أما قريش الظواهر، فكانوا يسكنون خارج مكة، ومنهم بنو محارب، والحارث بن فهر، وبنو الأدرم بن غالب بن فهر، وبنو مصيص بن عامر ابن لؤى(١٣).

وقد قسم قصى بن كلاب مكة خططا ورباعا بين قريش، ودانت له بالطاعة، وأحرز شرف قريش كلها، وقام بإدخال التنظيمات **التالية:**

دار الندوة: بنى قصى بن كلاب داراً له سميت دار الندوة، «لأنهم كانوا ينتدون فيها فيتحدثون ويتشاورون فى حروبهم وأمورهم، ويعقدون الألوية، ويزوجون من أراد الترويج»(١٤).

وكانت هذه الدار دار للشورى فى أمور السلم والحرب، وتعتبر دار حكومة يديرها «الملأ» أو مجلس شيوخ قريش، ولم يكن يدخلها ويشارك فى مداولاتها

---

(١٢) ابن الكلبى (أبو المنذر هشام بن محمد): كتاب الأصنام، ص ٨.

(١٣) المسعودى: مبروج الذهب ومعادن الجوهر - جزء ٢، ص ٥٩.

(١٤) البلاذرى: أنساب الأشراف، ص ٥٢.

إلا من بلغ عمره أربعين سنة.

وإلى جانب دار الندوة كانت هناك الحجابة والرفادة، والسقاية واللواء والقيادة، وكانت في أيدى قصى وأولاده.

الحجابة أو السدانة:

وكان القائم بها يحتفظ فى يده بمفاتيح الكعبة، ولا تقام الشعائر الدينية إلا بحضوره.

الرفادة:

وهى إطعام المحتاجين من الحجاج ... وكان ينفق على طعام الحجاج وشرابهم

السقاية:

وهى القيام بسقاية الحجاج، بوضع المياه فى أحواض فى فناء الكعبة وفى منى وعرفات.

اللواء:

وهى راية تثبت على رمح وتنصب كعلامة للجند إذا توجهوا للحرب، وتدور المعارك حوله.

القيادة:

وهى قيادة الجيش فى حالة الحرب، وكان يتولاها قصى بنفسه، أو من ينيبه عنه.

ويذكر أن قصى لما بلغ سن الشيخوخة وعجز عن مباشرة هذه المهام بكاملها، جعل هذه المهام فى يدى إبنه البكر عبد الدار الذى كان يؤثره على بقية أبنائه، وقيل أن قصى قسم مهام مكة بين أبنائه، فجعل دار الندوة والحجابة واللواء لعبد الدار، وجعل السقاية والقيادة لعبد مناف، وأعطى الرفادة لعبد العزى.

ولما توفى قصى بن كلاب أجمع بنو عبد مناف، وهم عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل، على أن يأخذوا ما فى أيدى بنى عبد الداربن قصى واعتبروا أنفسهم أحق بذلك منهم، لما لهم من شرف وفضل فى قومهم، وعندئذ تفرقت

قريش، وأجمع كل من الفريقين وحلفائهم على الحرب، ثم مالوا إلى الصلح، واتفقوا على أن يأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء ودار الندوة لبنى عبد الدار، وقد استمر الوضع على هذا النحو حتى ظهور الإسلام.

وقد أصبحت دار الندوة مقر الإدارة بمكة، وقد باعها عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار إلى معاوية بن أبى سفيان.

أما الحجاية فقد آلت إلى طلحة بن أبى طلحة، وبعد فتح مكة أراد النبى ﷺ أن يسلم مفتاح الكعبة إلى عمه العباس بن عبد المطلب، فأنزل الله عليه «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم به، إن الله كان سميعا بصيرا»(١٥).

وعلى أثر ذلك أعطى النبى مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة بن أبى طلحة، وكان قد أسلم فى شهر صفر من العام الثامن للهجرة.

وقد استمر اللواء فى أيدى بنى عبد الدار، ثم أبطل بعد أن دخلوا فى الإسلام.

وأما السقاية والرفادة فقد صارتا لهاشم بن عبد مناف، ثم آلتا إلى أبى طالب، ولما عجز عن الإنفاق فى هذا السبيل انتقلت إلى العباس بن عبد المطلب، واخيرا آلت إلى ولده عبد الله بن العباس.

وكانت القيادة لعبد شمس بن عبد مناف.

مدينة الطائف

تقع مدينة الطائف بالقرب من مكة، وذكر أنها سميت بهذا الإسم لأن رجلا يدعى «الدمون بن عبد الملك»، وكان تاجرا ثريا، قتل ابن عم له بحضر موت، ثم خرج هاربا حتى نزل بأرض الطائف، وتزوج من ثقيف وأقام

(١٥) سورة النساء، آية ٥٨.

لهم طوفا من الحائط يمنع أى أحد من العرب أن يصل إلى ثقيف، وبناه بما له الخاص، فسمى ذلك الموضع بالطائف[١٦].

وكانت الطائف تسمى قديما «وج»، نسبة إلى وادى وج الذى سمى بهذا الإسم تبعالوج بن عبد الحى وهو من العماليق.

وتقع الطائف على سطح جبل غزوان، وهو أعظم جبال السراة التى تمتد بمحاذاة ساحل البحر الأحمر، ويحيط بالطائف مساحة واسعة من المزارع والبساتين، ويطوق جبل غزوان جانبا من هذه المزارع، بينما يتفتح سهل الطائف باتجاه مكة.

ويقترن إسم الطائف عادة بإسم مكة، فيقال «مكة من الطائف والطائف من مكة»، وكانتا تسميان بالقريتين، كما جاء فى قوله تعالى «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»[١٧]، والمقصود بذلك مكة والطائف، وعرفتا أيضا بالمكتين، ويقول فى ذلك ورقة بن نوفل:

ببطن المكتين على رجائى حديثك أن أرى منه خروجا[١٨]

ومناخ الطائف معتدل، وقد عرفت بطيبة هوائها، ووصفها المقدس «بأنها شامية الهواء باردة الماء»[١٩].

ولذلك تعتبر الطائف مصيفا لأهل مكة، يقبلون عليها فى الصيف عندما تشتد الحرارة فى مكة، ونتيجة لوقوع الطائف فى منطقة مرتفعة، وتفتحها للرياح الشمالية، فإن مناخها لطيف صيفا، ولكنها فى الشتاء تتعرض لبرودة شديدة تتجمد معها المياه.

---

(١٦) ياقوت الحموى: معجم البلدان – مجلد ٤، ص ٩.

(١٧) سورة الزخرف، آية ٣١.

(١٨) ابن هشام (أبو محمد عبد الملك): سيرة النبى، جزء ١، ص ٢٠٣.

(١٩) المقدس (شمس الدين أبو عبد الله محمد): أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم..ص ٧٩.

الحياة الإقتصادية فى الطائف:

كانت الطائف المدينة الثانية فى الحجاز من حيث الأهمية الإقتصادية.

الزراعة:

وقد ساعد اعتدال مناخ الطائف، وجودة تربتها، مع توفر مياهها وعذوبتها ، على قيام نشاط زراعى واسع النطاق فيها. وتعتبر الحنطة الإنتاج الزراعى الأول فى الطائف، وكانت مكة ومدن الحجاز الأخرى تعتمد على حنطة الطائف والحبوب والسمن والعسل والفواكه التى تحملها العير القادمة من السراة.

كما اشتهر الطائف بفواكهها المتعددة الأنواع، وأهمها التمر والعنب، حيث تكثر أشجار النخيل والكروم، ويتمتع تمر الطائف بشهرة كبيرة، أما العنب فتعتمد عليه ثروة الطائف الإقتصادية، بسبب كثرة إنتاجه وجودته.

ويصف المقدسى كروم الطائف المزروعة على جوانب جبلها، قائلا

«فيها من العنب العذب ما لا يوجد مثله فى بلد من البلدان، وأمازيبيها فيضرب بحسنه المثل،»[٢٠] وكان الزبيب يحمل من الطائف إلى مكة، فيوضع فى السقاية للحجاج، وإلى جانب الزراعة اشتغل أهل الطائف بحرف الصيد وتربية النحل واستخراج العسل والتجارة.

الصيد:

وكانت الغابات المجاورة للطائف التى تنمو على سفوح جبل غزوان، ميدانا لصيد الحيوانات والفهود،، إذ كان يفد إليها جماعات من الصيادين من مكة ومعهم كلاب الصيد والبزاة لاستخدامها فى صيد هذه الحيوانات.

وبالإضافة إلى ذلك كانت هذه الغابات يستفاد من أشجارها فى جمع الحطب لاستعماله فى الوقود فى صناعة الفحم، وكان يستخرج منها القطران.

---

(٢٠) المقدسى: المرجع السابق. ص ٧٩.

تربية النحل واستخراج العسل:

وهى من الأعمال الهامة التى اشتهر بها أهل الطائف، وكان العسل أحد مصادر ثروة الطائف.

وكان عسل الطائف الشهى مما يهادى به فى مكة، ويطلب فى سائر أنحاء بلاد العرب فى الجاهلية والإسلام.

ويعتبر العسل من الأطعمة الممتازة عند العرب، كما يستخدم كعلاج لبعض الأمراض، لقوله تعالى «يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس»[٢١].

وكان العسل يستخرج من خلايا النحل فى الجبال والأشجار.

التجارة:

وكانت من الحرف الهامة التى اشتغل بها أهل الطائف، إذ كانوا يتاجرون فى الزبيب والحنطة والعسل والأديم، وكانت القوافل تحمل هذه السلع إلى مكة باستمرار.

وكان عيلان بن سلمة الثقفى أحد زعماء ثقيف بالطائف، يشتغل بالتجارة مع العراق وفارس، وكان له قصر فى الطائف مبنى بالحجارة.

سكان الطائف وعلاقتهم بأهل مكة:

كان معظم سكان الطائف من ثقيف، وأول من نزلها منهم قسى بن منبه بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان.

وكان قيسى قد نزل على عامر بن الظرب العدوانى سيد قيس، واستجاره فزوجه إبنته، ثم غرس قيسى أعواد الكرم بوادى وج، فنبتت وأثمرت، فقيل «قاتله الله كيف ثقف عامرا حتى بلغ فيه ما بلغ، وكيف ثقف هذه العيدان حتى جاء منها ما جاء»، فسمى ثقيفا من ذلك اليوم.

---

(٢١) سورة النحل، آية ٦٩.

ولما كثر أولاد قيس أو ثقيف وقوى جأشهم، نسبت بينهم وبين عدوان حروب انتهت بتغلبهم على عدوان وأولاده وأرغموا على الخروج من أرض الطائف، واستأثر بها بنو ثقيف واستخلصوها لأنفسهم، وغرسوا فيها كرومهم، «وأصبحت ثقيف أعز الناس بلدا، وأمنعه جانبا، وأفضله مسكنا وأخصبه جنابا، مع توسطهم الحجاز، وإحاطة قبائل مضر واليمن، وقضاعة بهم عن كل وجه، فحمت دارها وكافحت العرب عنها»(٢٢).

وقد ضرب المثل بثقيف فى حماية بلدهم، وفى ذلك قال أبو طالب بن عبد المطلب:

منعنا أرضنا من كل حى كما امتنعت بطائفها ثقيف
أتاهم معشركى يسلبوهم فحالت دون ذلكم السيوف

وإلى جانب بنى ثقيف كان يسكن بالطائف جماعة من «حميرون» ومن قريش، ومن هوزان والأوس والخزرج ومزينة وجهينة، ومن قبائل هذيل.

وكان أهل مكة يرتبطون ارتباطا وثيقا بأهل الطائف من الناحيتين الإجتماعية والإقتصادية.

وكان كثير من قريش يمتلكون مزارع وبساتين من الطائف، كما كانت لهم فيها متاجر وأموال، ومن هؤلاء العاصى بن وائل السهمى الذى كانت له أموال ومزارع فى وهط بالطائف، كما كان لإبنه عمرو بن العاصى كروم كثيرة فيها، بلغ عدد أشجارها مليون عود.

وإلى جانب هذه الفئات من العرب، كان يسكن فى الطائف جماعات من اليهود الذين أقاموا فيها للتجارة، كما سكنها جماعة من الروم، كان بينهم الأزرق والد نافع بن الأزرق الخارجى، وكان روميا حدادا. كذلك سكنها بعض النصارى، كان بينهم غلام لعتبة وشيبة إبنى ربيعة يدعى عداسى، وكان نصرانيا من نينوى(٢٣).

---

(٢٢) البلاذرى: أنساب الأشراف. ص ٢٧.

(٢٣) ابن هشام: كتاب السيرة - جزء ٢، ص ٦٢.

مركز الطائف الدينى:

كانت الطائف تمثل المركز الدينى الثانى في بلاد العرب بعد مكة.

وكان لثقيف فى الطائف بيت مقدس يضم صخرة مربعة تعرف باللات، كان سدنتها من ثقيف بنو عتاب بن مالك، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها.

وكانت ثقيف تستر البيت الذى يضم المعبودة اللات بالثياب، ويقدمون له الهدى ويطوفون حوله، ويعظمونه كتعظيم أهل مكة للكعبة.

وكان الرسول ﷺ عند انصرافه من حنين فى العام الثامن للهجرة، قد عزم على فتح الطائف، فامتنع أهلها فى حصنهم، فنصب عليها ميخانيقا أعده سلمان الفارسى، ثم حاصرها لمدة تتراوح بين خمسة عشر يوما وشهر، وعاد إلى مكة عندما استهل شهر ذى الحجة.

وبعد انقضاء الأشهر الحرم تجهز النبى لمعاودة حصار الطائف، فلما بلغ أهل الطائف ذلك أرسلوا وفدا إلى النبى للتفاوض على الصلح وقدموا الشروط التالية: «ألا يحشروا وألا يعشروا، وأن يتمتعوا باللات سنة»[٢٤].

ولما أعرض رسول الله، قبلوا أن تكسر اللات، وقيل أن المغيرة بن شعبة هو الذى قام بتكسيرها وأحرقها بالنار.

وقال فى ذلك شداد بن عارض الجشمى، وهو ينهى ثقيفا أن تعود إلى تقديسها:

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها[٢٥]	وكيف نصركم من ليس ينتصر
إن التى حرقت بالنار فاشتعلت	ولم تقاتل لدى أحجارها هدر
إن الرسول متى ينزل بساحتكم	يظعن وليس بها من أهلها بشر

---

(٢٤) الواقدى (أبو عبد الله محمد بن عمر): مغازى رسول الله، ص ٣٢٩.

(٢٥) ابن الكلبى : كتاب الأصنام، ص ١٧.

يثرب

يثرب مدينة قديمة، ورد ذكرها فى الكتابات المعينية حيث أقامت فيها جاليات من معين، ثم انتقل أمرها إلى السبئيين، بعد انهيار دولة معين.

ومن المعروف أن بلاد العرب الشمالية كانت تخضع لنفوذ دولتى معين وسبأ، ومن بينها يثرب.

كما جاء يثرب العرب الشمالية كانت تخضع لنفوذ دولتى معين وسبأ، ومن بينها يرثب.

كما جاء ذكر يثرب فى خريطة بطليموس تحت إسم Jathrippa، وذكرها اصطيفانوس البيزنطى بإسم Jathrippa polis.

وعند الأخباريين كانت تعرف إسم أثرب ويثرب، وزغم بعضهم أنها سميت بهذا الإسم نسبة إلى يثرب بن قاينة بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوص بن ارم بن سام بن نوح، وأن يثرب هذا كان أول من نزل بها عند تفرق ذرية نوح[٢٦].

وذكر أخباريون آخرون أن إسم يثرب مشتق من الثرب بمعنى الفساد، أو من التثريب بمعنى المؤاخذة بالذنب، وذكروا أن الرسول ﷺ نهى عن تسميتها بيثرب لهذا السبب، وأنه سماها طيبة وطابة.

وذكر البلاذرى أن يثرب سميت بهذا الإسم نسبة إلى إسم زعيم العماليق الذين نزلوها، بعد أن أخرجوا منها بنى عبيل بن عوص بن ارم بن سام بن نوح،[٢٧] وذلك قرابة عام ٢٦٠٠ ق.م.

وقد ورد إسم يثرب فى القرآن الكريم فى قوله تعالى «وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فأرجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة، وما هى بعورة، إن يريدون إلا فرارا.»[٢٨].

---

(٢٦) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر - جزء ٢، ص ٨٣.

(٢٧) البلاذرى: أنساب الأشراف، ص ٦.

(٢٨) سورة الأحزاب، آيات ١١ ، ١٢ ، ١٣.

أما إسم «المدينة»، الذى أطلق على يثرب بعد الهجرة النبوية، فقد يكون مشتقا من لفظة «مدينتا» Medinta الآرامية ومعناها الحمى أو المدينة، ويرى بعض المستشرقين أن اليهود المتأثرين بالثقافة الآرامية الذين نزلوا بيثرب سموها مدينتا، وبذلك يكون هذا الإسم قد أطلق على يثرب قبل ظهور الإسلام.

وقد يكون إسم «المدينة» إختصاراً «لمدينة الرسول».

وليثرب أو المدينة أسماء عديدة حددها الأخباريون بـ ٢٩ إسما، وزادها السمهودى إلى ٩٤ إسما، تذكر منها طيبة، وكابه، والعذراء، والحابرة، والمجبورة، والناجية، والمحفوفة، والمحرمة، والقاصمة، ودار الأبرار، ودار الهجرة، وقبلة الإسلام، والمقدسة.

وكل هذه الأسماء أطلقت على يثرب أو المدينة فى العصر الإسلامى، لتعظيمها وإظهار فضائلها ومآثرها، باعتبارها دار الهجرة، ومركز الدولة الإسلامية فى عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين.

وتقع يثرب على بعد نحو ٥٠٠ كيلو مترا إلى الشمال من مكة، فى حرة كثيرة المياه والأشجار والدوحات، وإلى الشمال منها يقع جبل احد، وفى جنوبها الغربى يقع جبل عير.

وليثرب ثلاث حرات؛ هى حرة راقم فى الشرق، وحرة الوبرة فى الغرب، وحرة قباء فى الجنوب والحرة ارض ذات حجارة سوداء نخرة كأنها أحرقت بالنار، وهى من أثار البراكين.

ويشبه مناخ يثرب مناخ مكة إلى حد ما، إذ تشتد الحرارة صيفا، وتشتد البرودة شتاء، وتسقط الأمطار شتاء، وكثيرا ما تحدث سيول عارمة، تتخلف عنها غدران ومستنقعات وبرك. ونتيجة لركود المياه بهذه المستنقعات، كانت تنتشر الأوبئة والأمراض، وكان ذلك معروفا فى زمن الجاهلية، وحتى بعد أن أقدم إليها الرسول وأصحابه، فأصابت الحمى كثيرا من أصحاب الرسول.

ومع ذلك فيعتبر مناخ يثرب معتدلا بوجه عام، وقال عنها ياقوت الحموى «أنها طيبة الريح»[٢٩].

وقد ساعد هذا المناخ، بالإضافة إلى توافر المياه، وخصوبة التربة، على اشتغال سكان يثرب بالزراعة، التى تقوم على زراعة النخيل والشعير والقمح، والفواكه مثل العنب والرمان والموز والبطيخ، والخضروات.

سكان يثرب وطوائفهم:

كانت يثرب تضم كتلتين رئيسيتين من السكان هما؛ العرب واليهود.

العرب:

يذكر الأخباريون أن أول من سكن يثرب من العرب هم العماليق، وينتسبون إلى عملاق بن أرقمشذ بن سام بن نوح، وأنهم أول من زرع النخيل وغيرها، وعمّر الدور والآطام (الحصون) بها.

ثم جاءت هجرة الأوس والخزرج اليمنيين إلى يثرب بعد انهيار سد مأرب، وأقاموا إلى جانب اليهود الذين سبقوهم واستقروا فيها من قبل.

ويذكر الأخباريون أن الأوس والخزرج هما ولدا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس، ويمتد نسبه إلى الأزد بن الغوث بن مالك بن كهلان.

وقد سكن الأوس فى جنوب وشرق يثرب، بينما سكن الخزرج فى جهة الشمال الغربى فيها.

وفى ذلك الوقت كانت الأموال والنخيل والأطام فى أيدى اليهود، وكانت لهم الغلبج والمنعة، فأراد الأوس والخزرج أن يعقدوا معهم حلفا واتفاق حسن الجوار، يأمن به بعضهم من بعض، فتعاقدوا وتحالفوا، واشتركوا وتعاملوا»[٣٠].

---

(٢٩) ياقوت الحموى: معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٨٧.

(٣٠) ابن النجار (محمد بن محمود): كتاب الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة، ص ٣٢٦.

وقد أنجب الأوس بن حارثة مالكا الذى أنجب عوفا، وعمرا، ومرة، وجشم، وامرئ القيس، وأمهم هند بنت الخزرج.

أما الخزرج بن حارثة فقد أنجب خمسة أولاد هم؛ عمرو، وعوف، وجشم، وكعب، والحارث.

تدهور العلاقات بين العرب واليهود في يثرب:

وقد مضى زمن طويل على الحلف المنعقد بين اليهود والعرب، فأثرى الأوس والخزرج، وصار لهم أموال وأعداد كثيرة، «فلما رأت قريظة والنضير حالهم خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم، فتنمروا لهم، وقد حطم الحلف الذى كان بينهم، وكانت قريظة أعدوا وأكثروا، فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم وهم خائفون أن تحتلهم يهود، حتى نجم منهم مالك بن العجلان، أخو بنى سالم بن عوف ابن الخزرج؛ وهو شاب قوى طموح سوده الحيان عليهما، وأنف مالك أن يظل قومه تحت رحمة اليهود، فعزم على أن يضع حدا لسيطرة اليهود على قومه، فوثب بزعيم يهودى يقال له الفطيون وقتله، ويذكر أن الفطيون كان رجلا مستبدا، وكان يعتدى على نساء الأوس والخزرج، وبعد أن قتله مالك بن العجلان خرج حتى وصل إلى الشام، ونزل على أبى جبيلة الغسانى، وهو من ملوك غسان، والتمس مالك نصرته على يهود يثرب، ولم يتردد الملك الغسانى فى تسيير جمع من قواته إلى يثرب لنصرة الأوس والخزرج، ويذكر أنه «عاهد الله لا يبرح حتى يخرج من بها من اليهود أو يذلهم ويصيرهم تحت أيدى الأوس والخزرج».

ولما اقترب الملك الغسانى من يثرب اتصل بوفد من الأوس والخزرج، الذين نصحوه أن يدعو اليهود للقائه، ويتلطف بهم، حتى يأمنوا جانبه، فيتمكن منهم، فأعد لهم وليمة فاخرة، وأرسل إلى وجوههم ورؤسائهم لحضورها، فقدموا ثم وثب بهم وقتلهم عن آخرهم، وبعد ذلك أصبح للعرب الغلبة على يهود يثرب، «فعزت الأوس والخزرج بالمدينة، واتخذوا الديار والأموال والآطام، فابتنوا مائة وسبعة وعشرين أطما»(٣١).

---

(٣١) ابن النجار: المرجع السابق. ص ٣٢٧.

النزاع بين الأوس والخزرج في يثرب:

وبعد أن تغلب الأوس والخزرج على اليهود فى يثرب، استمروا على الوفاق والاتحاد فترة من الزمن، ثم ساءت العلاقات بينهما، ووقع الخلاف، وانتهى الأمر بنشوب حروب كثيرة بينهما امتدت حتى قبيل الهجرة النبوية.

وكانت أوائل هذه الحروب «حرب سمير، ويوم السرارة، ويوم الديك، ويوم فارع، ويوم الفجار الأول والثانى، وكان آخرها يوم بعاث الذى وقع قبل الهجرة النبوية بخمس سنوات»(٣٢).

وفى هذه الحروب استعان كل جانب بقبيلة يهودية تحالف معها على خصمه من بنى جنسه.

ويبدو أن اليهود فى يثرب كانت لهم يد فى نشوب الخلاف بين العرب بعضهم بعضا، وأنهم كانوا يسعون إلى تفتيت وحدتهم. حتى ينالوا منهم وتعود لهم السيادة فى يثرب(٣٣).

وفى جميع الأيام السابقة على يوم بعاث، كانت الغلبة للخزرج على الأوس، وافتخر الخزرج بذلك فى أشعارهم على الأوس. وقد التقت أهداف الأوس مع أهداف يهود بنى قريظة والنضير، وتحالفوا معا، وعلى أثر ذلك قامت الحرب بين الأوس والخزرج فى بعاث، وهو حصن، وانتهى ذلك اليوم بهزيمة الخزرج(٣٤).

وأصل النزاع بين الأوس والخزرج فى يثرب يرجع إلى عوامل اقتصادية وسياسية؛ فالعوامل الإقتصادية مصدرها تطلع زعيم الخزرج عمرو بن النعمان البياضى إلى إنزال قومه فى منازل بنى قريظة ،النضير، وكانت أكثر مياها وأكرم نخلا، إذ قال:

---

(٣٢) السمهودى (أبو الحسن بن عبد الله): كتاب وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، جزء ١، ص ١٥٥.

(٣٣) الشريف (أحمد إبراهيم): مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول ص ٣٣٨

(٣٤) السمهورى: كتاب وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى. جزء ١، ص ١٥٤.

«يا قوم إن بياضة بن عمرو أنزلكم منزل سوء، والله لا يمس رأسى غسلا حتى أنزلكم منازل بنى قريظة والنضير وأقتل رهنهم، وكانت لهم غزار المياه وكرام النخيل»[٣٥].

وأما الأسباب السياسية، فمصدرها أن انتصار العرب على اليهود قد تم على يدى مالك بن العجلان الخزرجى، ومن ثم فهم أحق بالسيادة فى يثرب من الأوس، الذين أبوا أن يتباهى عليهم الخزرج بذلك، وأن يحظى الخزرج بالذكر والشرف فى يثرب دونهم.

وقد تسببت الحروب بين الجانبين فى خسائر كثيرة لهما فى الأرواح والأموال والأملاك، وفطن الأوس والخزرج فى آخر إلى دسائس اليهود، وما كانوا يسعون إليه بضرب فريق منهم بالآخر، حتى تصبح لهم السيادة من جديد من يثرب.

وعلى أثر ذلك عمد الأوس والخزرج إلى تحقيق السلام بينهما فى يثرب، واعتزموا تولية ، واحد منهم أميرا وسيدا عليهم، وكان سيد الخزرج عبد الله بن أبى بن سلول، وسيد الأوس أبو عامر بن عبد عمر بن صيفى بن النعمان، والإثنان شقيا بشرفهما عند ظهور الإسلام، فدخل عبد الله بن سلول فى الإسلام كارها وأصر على النفاق والضغينة، وكان يعتقد أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكه، فكان قومه قد نظموا له تاجا من الخرز، واعتزموا أن يجعلوه ملكا عليهم.

أما أبو عامر بن صيفى، فقد أصر على الكفر، وخرج بجماعة من قومه إلى مكة، ولما فتحها النبى رحل إلى الطائف، فلما أسلم أهلها عادروها إلى الشام، وظل بها حتى مات «طريدا غريبا وحيداً»[٣٦].

---

(٣٥) السمهورى: المرجع السابق، جزء ١، ص ١٥٣.

(٣٦) ابن هشام: كتاب السيرة، جزء ٢، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥.

اليهود:

كان يعيش فى يثرب جماعات يهودية قديمة، نزحت إليها فى أزمان قديمة، وأمكنها التغلب على أصحابها من العماليق.

وفى عام ٧٠ ميلادية، فرت جموع كثيرة من يهود فلسطين إلى الجزيرة العربية، على أثر ثورة اليهود فى أورشليم على الرومان، الذين قاموا بطردهم من فلسطين وتشتيتهم، كما هدموا معبدهم، وكان ذلك فى عهد الإمبراطور الرومانى «طيطس» فى سنة ٧٠م.

وقد استوطنت جماعة من هؤلاء اليهود فى أخصب بقاع الحجاز، فى يثرب وفدك وخيبر ووادى القرى وتيماء، ونزل بعضهم فى اليمن، وأمكنهم تهويد جماعة من أهلها[٣٧].

وفى يثرب استوطن اليهود الجدد إلى جانب اليهود القدامى.

وفى يثرب أقام اليهود أطاما، وهى حصون كانوا يلجأون إليها فى أوقات الغارات، ويتحصن فيها النساء والأطفال والشيوخ. عندما يخرج رجالهم للقتال.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تحصنهم فى هذه الحصون عندما حاصر الرسول الكريم يهود بنى النضير فى العام الرابع الهجرى، فى قوله تعالي «هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف فى قلوبهم الرعب، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين، فاعتبروا يا أولى الأنصار»[٣٨].

وكان يهود يثرب يتجمعون فى قرى محصنة أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى «لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم

(٣٧) د. جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام – جزء ٤، ص ١٧٨.

(٣٨) سورة الحشر، آية ٢.

بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون»(٣٩).

وكان ليهود يثرب بيت يعرف بإسم «بيت المدراس»، فكان يجلس فيه علماؤهم وأحبارهم وربانيوهم، لتدارس الثوراة، والفصل فيما يحدث بينهم من خلافات(٤٠).

وقد ذكر إبن النجار أن اليهود فى يثرب كانت لهم تسعة وخمسون أطما، بينما كان للعرب القدامى ثلاثة عشر أطما.

ووقت نزول عرب الأوس والخزرج فى يثرب، كان اليهود يشكلون أكثر من عشرين قبيلة، كان أكبرها بنى قريظة، وبين النضير، وبنى قينقاع، وإلى جانب هذه القبائل الثلاث أقامت قبائل يهودية صغيرة، منها بنو محمحم، وبنو زعورا، وبنو القصيص، وبنو القمعة، وبنو مرانة وغيرهم(٤١).

وقد تأثر اليهود فى يثرب بجيرانهم العرب، فاتخذوا أسماء عربية، وتخاطبوا بالعربية، مع تداخل رطانة عبرية فيها، ولكنهم ظلوا محافظين على انتسابهم إلى المدن والأقاليم التى قدموا منها، وأطلقوا على معالم ومواضع يثرب أسماء عبرية، مثل وادى بطحان، وتعنى بالعبرية الاعتماد، ووادى مهروز، ومعناه مجرى الماء.

وكان اليهود يخشون على أنفسهم وأملاكهم وأموالهم من جيرانهم العرب، وتوقعوا أن يطمع العرب فى قراهم الخصبة ومزارعهم الغنية بالأشجار والثمار، ووديانهم غزيرة المياه، وآبارهم وعيونهم العديدة.

ولذلك أكثر اليهود فى يثرب من بناء الأطام والحصون، وخاصة بعد نزول الأوس والخزرج إلى جانبهم، وتطلعهم إلى الحصول على السيادة والغلبة فيها.

---

(٣٩) سورة الحشر، آية ١٤.

(٤٠) ابن هشام: كتاب السيرة، جزء ٢، ص ٢٠١.

(٤١) ابن النجار: الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة، ص ٣٢٦.

الحياة الإقتصادية فى يثرب:

كانت الحياة الإقتصادية فى يثرب تقوم على الزراعة والتجارة والصناعة.

الزراعة:

أرض يثرب بركانية خصبة، تعتبر من أخصب أراضى الحجاز، وتتوفر فيها المياه من الأودية والآبار والعيون، مما يجعلها صالحة للزراعة.

وترى النخيل أهم المزروعات فى يثرب، وكان يعتمد عليه سكانها، وتمورها تفوق التمور الأخرى(٤٢).

وكان الشعير المصدر الثانى للثروة الزراعية فى يثرب، ومن الشعير والتمر كان يتكون طعام معظم سكان يثرب.

ومن المحاصيل الزراعية الأخرى القمح والكروم والرومان والموز وغيرها من الفواكه، بالإضافة إلى الخضروات المختلفة.

كما كان يزرع حب البان الذى كان يصدر إلى البلدان الأخرى.

التجارة:

كان الاشتغال بالتجارة من الأعمال الرئيسية للسكان فى يثرب، وقد نشطت حركة التجارة الداخلية، التى كانت تقوم على الأسواق المختلفة فى يثرب، ومنها سوق بنى قينقاع، وسوق زبالة، وسوق الجسر، وسوق الصفاصف، وسوق البطحاء(٤٣).

وفى هذه الأسواق الأسواق كانت تباع التمور والشعير والصوف والسلاح، والسمن، والنخيل والإبل والأغنام وغيرها.

وكان يجلب إلى أسواق يثرب الزبيب من الطائف، والمنسوجات القطنية والحريرية من اليمن، والحنطة من الشام.

---

(٤٢) ياقوت الحموى: معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٨٧.

(٤٣) السمهودى: كتاب وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، جزء ١، ص ٥٤٤.

وكانت التجارة الخارجية مع الشام واليمن تتبع طريق القوافل المعروف عبر الحجاز، والطريق البحرى عبر البحر الأحمر.

الصناعة:

قامت فى يثرب بعض الصناعات التى تعتمد على الإنتاج الزراعى، مثل صناعة الخمور من التمور، وصناعة المكاتل والقفف من سعف والنخيل، وأعمال النجارة من أخشاب أشجار الطرفاء والأتل المتوفر فى غابات يثرب(٤٤).

كما اختصت يثرب بصناعة التحف المعدنية مثل الحلى وأدوات الزينة، وبصناعة الأسلحة والدروع، وكان يحترف هاتين الصناعتين اليهود، وخاصة بنى قينقاع.

ويذكر أن المسلمين عندما أجلوا يهود بنى قينقاع عن المدينة، غنموا كثيرا من الدروع والسيوف والأقواس، وجددوا فى حصونهم أسلحة كثيرة وآلة للصياغة(٤٥).

---

(٤٤) أحمد الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول، ص ٣٧٦.

(٤٥) الواقدى: مغازى رسول الله، ص ١٤٢.

رابعا: الدويلات العربية التى قامت

ببادية الشام والعراق والجزيرة العربية قبل الإسلام:

تمهيد:

الفصل الأول

دولة الأنباط

- الموقع الجغرافى
- أصل الأنباط
- **مدن الأنباط:**
- البتراء
- الحجر
- **ملوك الأنباط:**
- الحارث الأول (أرتياس الأول) (١٦٩ - ١٤٦ ق.م)
- الحارث الثانى (أيروتيموس) (١٢٠ - ٩٦ ق.م)
- عبادة الأول (٩٦ - ٨٧ ق.م)
- الحارث الثالث (٨٧ - ٦٢ ق.م)
- عبادة الثانى (٦٢ - ٤٧ ق.م)
- مالك الأول (٤٧ - ٣٠ ق.م)
- عبادة الثالث (٣٠ - ٩ ق.م)
- الحارث الرابع (٩ ق.م - ٤٠م)
- مالك الثانى (٤٠ - ٧١ ميلادية)
- رب إيل الثانى (٧١ - ١٠١ ميلادية)

- مالك الثالث (١٠١ - ١٠٦ ميلادية)، وسقوط دولة الأنباط تحت حكم الرومان.

حضارة الأنباط:

- نظام الحكم

الحياة الإقتصادية

- التجارة
- الزراعة
- الصناعة
- فن العمران
- الديانة
- اللغة والكتابة

رابعا: الدويلات العربية التى قامت ببادية الشام والعراق والجزيرة العربية قبل الإسلام:

تمهيد:

شهدت مناطق بادية الشام وجنوب العراق منذ القرن الخامس قبل الميلاد، هجرات متتابعة قامت بها مجموعات من القبائل العربية التى نزحت من جنوب الجزيرة العربية ووسطها إلى أطرافها الشمالية.

ومن بين هذه القبائل الأنباط والغساسنة والمناذرة، ومنها قبائل تنوخ، وقبيلة بنى سليح وآل جفنة.

وكانت هجرة جماعات الأنباط إلى موضع شرق الأردن حاليا، فى القرن الخامس قبل الميلاد.

وجاءت هجرة الغساسنة إلى جنوب الشام، والمناذرة إلى منطقة الحيرة فى غرب العراق، فى أواخر القرن الثالث الميلادى، وقيل أن هذه الهجرات حدثت بعد تصدع سد مأرب.

وبعد أن استقرت هذه الجماعات فى المناطق الجديدة، نشأت حضارات مزدهرة، وتأسست عدد من الدويلات العربية، هى: دولة الأنباط، ودولة تدمر، ودولة الحيرة، ودولة الغساسنة، ودولة كندة.

ونتناول فيما يلى بشئ من التفصيل هذه الدويلات وطابعها الحضارى.

الفصل الأول

دولة الأنباط

وهى مملكة عربية لم يرد ذكرها بالتفصيل فى كتب العرب القدماء، وإنما عرفت أخبارها ضمن كتابات اليونانيين عن البطالمة والسلوقيين والرومان.

الموقع الجغرافي:

نشأت دولة الأنباط فى شمال غرب الجزيرة العربية، فى الموضع الذى عرف بإسم «بلاد العرب الحجرية أو الصخرية»، بسبب كثرة المرتفعات الصخرية الوعرة التى تتميز بها أراضيها، مع قلة المياه، وفى هذا الموضع تقع دولة شرق الأردن حاليا. وكانت دولة الأنباط تمتد من حدود فلسطين شمالا، إلى حدود الحجاز جنوبا، ومن بادية الشام شرقا إلى شبه جزيرة سيناء غربا.

وفى أوج إتساعها، امتدت دولة الأنباط إلى منطقة دمشق، وسهل البقاع، وضمت الأجزاء الجنوبية والشرقيةمن فلسطين، وأقاليم حوران وأدوم ومدين ودان، وأجزاء من ساحل البحر الأحمر.

أصل الأنباط:

الأنباط عرب رحل، وأسماؤهم وأسماء ملوكهم عربية، ولكن غير معروف على وجه التحديد الموطن الذى قدموا منه، ويقال أنهم نزحوا من بوادى الجزيرة العربية، إلى شمال الحجاز.

ويرى بعض الباحثين الغربيين أن الأنباط ليسوا عربا، وإنما هم من الآراميين، بحجة أنهم كانوا يستعملون الآرامية فى كتاباتهم، وأن تشابه الأسماء بين الأنباط والعرب، وامتزاج الألفاظ العربية فى اللغة الآرامية، إنما ذلك نتيجة لاستمرار الاختلاط والاتصال بين الشعبين بحكم الجوار.

ويرد بعض الباحثين العرب على هذه المزاعم، بأن اللغة الآرامية كانت واسعة الإنتشار فى مناطق الشرق الأدنى، وكانت متفوقة على اللغات الأخرى بها، وظلت تستخدم لعدة قرون فى الكتابة والتحرير فى الدواوين الرسمية، ولا يعنى أن الأقوام الذين كتبوا باللغة الآرامية، هم بالضرورة من الآراميين، كما نسب إلى الأنباط.

وما جاء عن الأنباط فى كتب الإخباريين العرب، لا يعدو أنهم «جيل من

العجم نزلوا [١] فى منطقة البطائح بين العراقيين»، وأنهم سموا بهذا الإسم «لكثرة النبط عندهم، وهو الماء».

ويرى «ولفنسون»، أنهم من بقايا الشعوب القديمة الذين نزلوا فى «البطائح» قبيل الإسلام، ومنهم الآراميين.

وقد اختلفت تفاسير الباحثين فى معنى كلمة «النبط»، ومما قيل فى معناه أنه «الماء الذى ينبط[٢] من قعر البئر إذا حفرت».

مدن الأنباط:

ومن أهمها:

البتراء (بترا، بطرا) Patra:

وهى كلمة يونانية، معناها فى العربية «الصخر»، وكان إسمها القديم (ها - سلع) Selah، وتعنى أيضا «الصخر» فى لغة الأدوميين العبرانيون «سلاع»، وتعنى فى لغتهم الحجر»، ويعرفها العرب بإسم «الرقيم»، وهو الإسم الذى كان السكان الأنباط يطلقونه عليها.

وقد سكن الحوريون والأدوميون فى «البتراء» حتى أواخر القرن السادس قبل الميلاد، وكانت عاصمة للادوميين وفى حوالى سنة ٥٠٠ق.م قدم إليها الانباط واتخذوها عاصمة لهم، ثم صارت عاصمة لدولة «مؤاب» بعد ذلك .

وكانت «البتراء» من أشهر مدن العالم القديم، وتقع على مسافة خمسين ميلا تقريبا إلى الجنوب من البحر الميت، وإلى الشمال الشرقى من رأس خليج العقبة، وغير بعيدة عنه.

وذكر «سترابو»، أن «بطرا» كانت «عاصمة النبط ومقر[٣] حكمهم

---

(١) الدكتور جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء الثالث. ص ١١.

(٢) الدكتور جواد على: نفس المرجع. ص ٥٤.

(٣) الدكتور جواد على: نفس المرجع. ص ٥٤.

ودولتهم، وهى لا تبعد إلا أربعة أيام عن (أريحا)، وخمسة أيام عن غابة النخيل (بوسيديون)، وهى موضع غنى بالماء كثير البساتين بالنسبة إلى من يأتى إليها من البوادى القاحلة».

ومكانها حاليا فى وادى موسى، الذى يمتد إلى الشرق من وادى العربة فى أراضى شرق الأردن.

ووصفها «سترابو» بأنها «مدينة صخرية قائمة فى مستوى من الأرض تحيط به الصخور كالسور المنيع، وليس وراءها غير الرمال المحرقة».

وكانت «بطرا» تقع فوق هضبة تعلو ١٠٠٠ متر عن سطح البحر، وتحيط بها الصخور كالحصون من جوانبها الشرقية والغربية والجنوبية، وكان منفذها الوحيد من جهة الشمال من مضيق تحفه التلال الصخرية من جانبيه، بارتفاع لا يقل عن ١٠٠ متر، ويضيق تدريجيا حتى لا يتجاوز عرضه خمسة أمتار عند مدخل المدينة.

وقال عنها الاصطخرى فى كتابه (المسالك والممالك)، أنها «مدينة بقرب البلقاء، وهى صغيرة منحوتة بيوتها كلها وجدرانها من صخر كأنها حجر واحد».

وقد اكتسبت «البتراء» أهمية كبيرة، واتسع عمرانها بسبب موقعها الجغرافى الذى يشرف على طريق القوافل التجارية القادمة من الجزيرة العربية وغيرها، وبسط بقعة وحيدة تتوفر فيها المياه العذبة بكثرة، التى كانت تجمع فى صهاريج من مجارى السيول، مما جعلها محطة تجارية عظيمة الأهمية، كانت تتزود فيها القوافل التجارية بالمياه والطعام، وتجد فيها وسائل الراحة، بعد مسيرها فى الصحراء لمسافات بعيدة.

ومن الآثار المهمة «للبتراء» المنحوتة فى الصخر هيكل يسمى «خزنة فرعون»، وقوس النصر، وبقايا مسرح كبير يتسع لنحو أربعة آلاف شخص، وهياكل ومقابر عدة، وبعض هذه الآثار مبنى على الطراز النبطى القديم، والبعض

الآخر متأثر بالفن المصرى، أو الأشورى، أو اليونانى، أو الرومانى.

الحجر:

«الحجر» Egra أو Hegra من مدن الأنباط القديمة المهمة، وكانت تقع على شريان التجارة القديم، وكان إسمها القديم «حجرا» أو «هجرا»، أو «حجرو» أو «هجرو».

وقد ذكر «سترابو» أنها كانت مقرا للقبيلة المسماة «ليانيته» Laenitae. كما ذكر بعض الباحثين وعلماء اللغة العربية، أن «الحجر» هى ديارثمود قوم النبى صالح، جاء ذكرها فى القرآن فى سورة الحجر، بقوله تعالى (وقد كذب أصحاب الحجر المرسلين).

وقد تضاءل شأنها فى العصر الإسلامى، ثم أصبحت خرابا بعد القرن العاشر الميلادى، وهجرها سكانها.

ومن آثارها الهامة المتبقية منها حاليا، بعض المقابر الفخمة التى كانت تخص عائلات ثرية، من عهد الملك الحارث الرابع فى القرن الأول للميلاد، ومن أهمها المقبرة المسماة «قصر البنت»، وهى منحوتة فى داخل تل، وتعد من أغنى تلك المقابر من الناحية الفنية، ولها مدخل خارجى ارتفاعه عشرون مترا، وقد زين بالزخارف والنقوش فى حذق ومهارة.

ومنها مقبرة تتألف من عدة غرف نحتت فى الصخور، تصل بينها عدد من الدروب والطرق.

ومن الآثار القيمة الباقية ما يسمى «ديوان»، وهو معبد نحت فى جبل «أثلب»، وهو مقام على قاعدة ذات زوايا مربعة، عرضها عشرة أمتار، وعمقها اثنى عشر مترا، وارتفاعها ثمانية أمتار، ولها مدخل عرضه ثمانية أمتار، وارتفاعه سبعة أمتار، وعلى كل جانب منه عمود من الحجر، ويؤدى إلى مدرج.

ملوك الأنباط

غير معروف متى تأسست مملكة الأنباط، ولا الأسرة التى تولت الحكم فيها على وجه التحديد، وإنما يعرف فقط أسماء عدد من الملوك، وهم:

الحارث الأول (أرتياس الأول) (١٦٩ – ١٢٦ ق.م):

وهو أول ملك يحمل هذا الإسم (أرتياس) Arteas، من ملوك الأنباط. ويظن بعض الباحثين أن «أرتياس» هو إسم الأسرة الحاكمة فى الأنباط، وأنها من أصل آرامى.

وقد جاء ذكره في كتاب «الأسفار»، على أنه زعيم العرب، ولم يلقب بملك، وكان يعاصر «أنطيوخوس الرابع» السلوقى ملك سوريا، «وبطليموس فيلوماتر» ملك مصر.

وكان الحارث الأول متحالفا مع جيرانه «المكابيين» اليهود فى فلسطين، ضد السلوقين فى سوريا، وقدم المساعدات من الرجال والعتاد للملك «يهوذا» المكابى فى حربه ضد «تيموتاوس» فى عام ١٦١ ق.م.

الحادث الثانى (ايروتيموس) (١٢٠ – ٩٦ ق.م):

وغير معروف إسم الملك الذى تولى الحكم بعد الحارث الأول مباشرة على وجه التحديد، ويذكر البعض أن إسمه كان «زيد – إيل».

وفى عام ١٢٠ ق.م، تولى «الحارث الثانى» الحكم، وكان يعرف بإسم «إيروتيموس» Eratimus، وفى عهده بلغت الدولة على درجة عالية من القوة واعترف المكابيون بتفوقها العسكرى، وطلبوا مساعدتها ضد أعدائهم.

وقد نعته المؤرخ اليهودى (يوسيفوس) بلقب (ملك)، ويبدو أن هذا اللقب صار يطلق رسميا على حكام الأنباط منذ ذلك الوقت.

ويذكر هذا المؤرخ أن «الحارث الثانى» رفض مساعدة سكان (غزة) عندما طلبوا منه ذلك أثناء محاصرة الملك المكابى «اسكندر جنيوس» لمدينتهم فى عام

٩٦ ق.م.

ويضيف أن «الحارث الثانى» قد استغل ضعف الأوضاع فى مصر والشام، فهاجم بأتباعه وجنوده الأراضى المجاورة التابعة لأملاك الدولتين، وحصل على غنائم كثيرة.

وفى عهدة صدرت نقود نبطية تحمل حرف (A)، وهو الحرف الأول من إسمه Arethas.

عبادة الأول Obedas (**٩٦ – ٨٧ ق.م**):

وقد دخل فى حرب ضد الملك المكابى «اسكندر جنيوس»، عندما اتضح له أهداف سياسة المكابيين، والتى لم تقتصر على طلب الاستقلال التام والخلاص من الحكم الأجنبى، بل تجاوزت ذلك إلى محاولة الاستيلاء على أراضى الأردن والتوغل فى مناطق الأنباط ذاتها، والعمل على إنشاء حكومة قوته قد تزاحم حكومة الأنباط مستقبلا.

وكان الملك المكابى «اسكندر جينوس» قد استعان بجنود مرتزقة من اليونان وآسيا الصغرى، ومن «المؤابيين» «والجلعاديين» العرب (أهل مؤاب وأهل جلعاد)، وأرغمهم على دفع الجزية، فأثار ذلك معارضة الملك «عبادة الأول» وبادر بإعلان الحرب عليه، واشتبك معه فى معركة على الضفة الشرقية لنهر الأردن، فى سنة ٩٠ ق.م، وكاد اسكندر جنيوس يهلك فى هذه المعركة، لولا فراره على وجه السرعة إلى القدس.

وفى القدس، لم يلبث «اسكندر جنيوس» أن واجه معارضة قوية، قامت بها جماعة شديدة البأس، وتمادت فى مقاومتها لسياسته، بأن استدعت «ديمتريوس أويكروس»، وهو من بقايا الأسرة الحاكمة فى مملكة السلوقيين السوريين المنهارة، ونصبته ملكا عليها، مما أحرج مركز الملك المكابى.

وعلى أثر ذلك، اضطر «اسكندر جنيوس»، إلى التودد إلى العرب، وتنازل لهم عن «مؤاب» و «جلعاد»، ومواقع أخرى كان يخشى إنضمامها إلى خصومه، وقدمها إلى ملك الأنباط «عبادة الأول».

وبعـد قليل اضطر «ديمتـريوس» إلى مغادرة مملكة «يهـوذا» وتوجـه إلى حلب ودخل فى نزاع مع أخيه «فيليب»، الذى إستعان بأحد أعوانه، وقبائل عربية أخرى، وجمع قوات كبيرة تمكن بها من الإنتصار على «ديمتريوس».

الحارث الثالث (٨٧ - ٦٢ ق.م):

وهو أشـهر ملوك الأنباط على الإطلاق، ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الحقيقى لدولة الأنباط.

وفى عهده اتسعت رقعة مملكة الأنباط، نتيجة لفتوحاته وانتصاراته، وذلك على حساب السلوقيين ومملكة اليهود، وخاصة بعد انتصاره على الملك السلوقى «انطيوخس الثانى عشر»، وصد قواته التى أخذت تتوغل فى أراضى الأنباط، وفى معركة قرب يافا قتل «أنطيوخس» نفسه، وكان ذلك فى عام ٨٦ ق.م.

وبعد ذلك اشتد عزم الأنباط، وتمكن «الحارث الثالث» من الاستيلاء على دمشق وعلى سهل البقـاع، ووسع رقعة مملكة، التى أصبحت تحيط بمملكة المكابيين من جهتى الشرق والجنوب.

وكـان دخـول دمـشق فى سنة ٨٥ ق.م، بناء على رغبـة أهلهـا الذين استنجدوا به لإنقاذهم من هجمات «اليطوريين» بقيادة ملكهم «بطليمـوس بن مينوس»، وأضفى عليه أهل دمشق لقب «محب الهيلينين» Philhellen.

ثم اشتبك «الحارث الثالث» مع قوات مملكة «يهوذا» فى معركة قرب بلدة «اللد»، وأرغم ملكهم «اسكندر ينيس» على عقد الصلح وفق شروطه، وبعد ذلك عاد الحارث الثالث بقواته إلى بلاده.

وبعد وفـاة «اسكندرينيس»، أخذت مملكة «يهوذا» فى الإنهيـار، على أثر الخـلاف الذى نشب بين الأخـويين «أرسطوبولس»، و «هركـانوس»، إبنى «اسكندرينيس»، واشتد الإنقسام بين الجماعات والأحزاب اليهـودية، فأيدت جماعة «الفرنسيين» Phirrisees وانضمت جماعة «الصدوقيين» Sadducées إلى «أرسطوبولس»، الذى حشد أنصاره وجيشا من العرب ومن الجنود المرتزقة،

وتفوق على أخيه، فاضطر إلى الالتجاء إلى مملكة الأنباط، وألح على «الحارث الثالث» أن يساعده في العودة إلى مملكة «يهوذا»، وينصره على أخيه، وتعهد «هركانوس» فى مقابل ذلك أن يعيد إليه المدن الإثنى عشرة التى أخذها أبوه «اسكندرينيس» من العرب، فوافق «الحارث الثالث» على هذا العرض، وفى عام ٦٦ ق.م، جرد جيشا قوامه خمسون ألف جندى، وهجم على مملكة «يهوذا»، وأرغم «أرسطوبولس» على الفرار إلى القدس بعد أن مزق شمل أتباعه.

فتعقبه «الحارث الثالث» بقواته إلى القدس، وأحكم الحصار حولها، وكادت تسقط فى يديه، لولا تدخل الرومان فى ذلك الوقت فى عهد القنصل «بومبتوس»، بهجومهم فجأة على دمشق وأجزاء أخرى من سوريا ومملكة «يهوذا»، فاضطر «الحارث الثالث» إلى رفع الحصار عن القدس وعاد إلى بلاده، وبصحبته «هركانوس»، ولكن «أرسطوبولس» الذى اكتسب ثقة القائد الرومانى «سكوروس»، تعقب المنسحبين فى طريقهم إلى «فيلادلفيا» (ربت – عمان)، واشتبك معهم فى موقع يسمى (بابيرون) Papyron، وألحق الهزيمة «بالحارث الثالث»، وقتل ستة آلاف من اتباعه.

ثم تعقدت الأمور من جديد بين الرومان والأنباط، وهدد القائد الرومانى «سكوروس» بالزحف على مملكتهم وتخريبها، فاضطر «الحارث الثالث» إلى طلب الصلح، ووسط فى ذلك لدى القائد الرومانى، صديقه «انتيباطر» Antipater وتم الصلح على أن يدفع «لحارث الثالث» ضريبة محددة للرومان.

وقد استحسن القنصل «بومبيوس» هذه النتيجة التى أسفر عنها الصلح، وأمر بوضع صورة «الحارث الثالث» فى مواكب النصر الذى أقيم لتكريمه.

كما أمر القائد الرومانى سكوروس بضرب عملة نقدية، صور الحارث الثالث عليها، وهو يحنى رأسه راكعا وبيده سعفة نخيل، تعبيرا عن خصوعه له.

وقد حدث ذلك فى عام ٦٢ ق.م، ولم يلبث أن توفى «الحارث الثالث» فى نفس العام، وتبددت أحلامه فى أن يصبح وريث مملكة السلوقيين فى بلاد

الشام، وربما تكون هذه النكسة قد أثرت فى نفسيته وعجلت بمنيته.

وقد ورد إسم «الحارث الثالث» مدونا على جدران (المدراس)، وهو معبد خصص لعبادة إله الأنباط الكبير (دوالشرى) Dushara.

عبادة الثانى (٦٢ – ٤٧ ق.م):

وهو إبن الحارث الثالث، وقد تولى الحكم بعد وفاته.

ولا يعرف من أمره إلا القليل، ومن ذلك ما عثر من عملة فضية من فئة (دراخما) Dirakhma، ضربت فى السنة الثانية أو الثالثة من سنى حكمه، وعلى هذه العملة صور الملك بوجه حليق، وشعر رأسه قصير.

وفى رواية للمؤرخ اليهودى «يوسيفوس»، ذكر أنه فى عام ٥٥ ق.م، منى الأنباط بهزيمة منكرة فى إحدى المعارك أمام الرومان بقيادة «جابينيوس» A. Gabinius، فى عهد الملك «عبادة الثانى»، وهناك رأى آخر يقول أن هذه المعركة قد وقعت فى عهد إبنه «مالك الأول».

وبعد هذه المعركة إنتزع الرومان الأراضى التى كان «الحارث الثالث» قد استولى عليها فى الشام من قبل، وتقلص بذلك نفوذ دولة الأنباط.

مالك الأول Malichus (٤٧ – ٣٠ ق.م):

تولى الحكم بعد أبيه «عبادة الثانى»، وقد أخذ يتقرب إلى الرومان الذين اتسعت إمبراطوريتهم، وشملت آسيا الصغرى والشام ومصر، وأثناء حصار «يوليوس قيصر» لمدينة الإسكندرية، أمده «مالك الأول» بفرقة من الفرسان، وذلك فى بداية حكمه.

وفى عهده تمكن القائد الرومانى «أنطونيوس» من إسقاط حكم أسرة «المكابى» اليهودية فى بيت المقدس، وأقام فى حكمها الأسرة «الهيرودية»، و «هيرودوس» الذى نصب ملكا، هو إبن «انتباطر»، وكان له نفوذ كبير فى مملكة «يهوذا»، وصاحب الحظوة عند الرومان.

ولم يلبث هيرودوس أن تحول إلى أداة طيعة فى أيدى الرومان، وأخذوا يدفعونه لخوض الحروب ضد خصومهم نيابة عنهم.

ومن ذلك، أنه كلف من قبل الرومان بمحاربة الأنباط، بحجة أن «ملك العرب»، وهو ملك الأنباط «مالك الأول»، قد رفض دفع الجزية للرومان، التى أصبحت تحول إلى ملكة مصر «كليوباترا».

وقد قامت عدة معارك بين الطرفين إنتهت بانتصار «هيرودوس» على «مالك الأول».

عبادة الثالث(٣٠ - ٩ ق.م):

خلف «عبادة الثالث» أباه «مالك الأول» فى الحكم، ويصفه «يوسيفوس» بالضعف وفتور الهمة والكسل، ويصف وزيره «صالح» Syllaeus، بالمقدرة والكفاية، برغم صغر سنه، ولذلك أصبح المتصرف والمدير الفعلى لشئون المملكة، ورجل الدولة الحقيقى.

وكان الوزير «صالح» صديقا لملك «يهوذا» «هيرودوس»، وكان يطمع فى الزواج من أخته، لولا اختلاف الدين بين الطرفين، ورفض «صالح» إعتناق الديانة اليهودية ليسمح له بالزواج منها.

وقد سار الملك «عبادة الثالث» على سياسة أبية «مالك الأول»، فى التقرب للرومان، فقام بمساعدة «إيليوس جاليوس» فى حملته على اليمن، وتولى وزيره «صالح» مهمة إرشاد الجيش الرومانى، فى طريقه عبر الجزيرة العربية.

كما قدم «هيرودوس» ملك «يهوذا» خمسمائة رجل للمساهمة فى هذه الحملة.

وقد انتهت الحملة بالفشل الذريع، وهلك معظم جنودها، ويرجع «استرابو» وقادة الرومان السبب فى ذلك، إلى سوء نية الأدلاء الذين بعث بهم الوزير «سّل» أو «صالح»، وبإيعاز منه، ففرروا بالحملة وقادوها فى طرق وعرة لا تتوفر

فيها المياه مما أدى إلى هلاك معظم الجنود من العطش والجوع والتعب.

ومع ذلك، فلم تتأثر العلاقات الجيدة بين الإمبراطورية الرومانية ودولة الأنباط في ذلك الوقت، واستمر نفوذ الأنباط في جنوب فلسطين وشرقي الأردن وجنوب شرقي سوريا، وفي شمال الجزيرة العربية.

ولكن صلات المودة بين «هيرودوس» و الوزير «صالح»، وقد إنتقلت إلى عداوة شديدة، عندما ذهب «صالح» إلى روما، للكيد «لهيرودوس» لدى الإمبراطور «أوغسطس»، بسبب الحملات التي شنها «هيردوس» على أرض (اللجاة) Trachanites، وعلى المناطق التي التجأ إليها «التراخونيين» أهل (اللجاة)، وقام أهلها العرب بمساعدتهم.

وكان «هيرودوس» قد طلب من الملك «عبادة الثالث»، ومن وزيره «صالح»، إبعاد رؤساء (اللجاة) عن أرض الأنباط، وعدم حمايتهم، ولما رفضا، طلب «هيرودوس» إعادة الأموال التي اقترضها «عبادة الثالث» منه، ولم يستجيبا لذلك، فأمر «هيرودوس» قواته بالهجوم على المناطق التي التجأ إليها الهاربون من أهل (اللجاة)، فهبت جماعة من الأنباط بقيادة «نكوبوس» Macebus لمساعدتهم، واشتبكوا مع جنود (هيرودوس)، وفي هذه المعركة قتل «نكوبوس» ونحو عشرين من اتباعه، وبعد ذلك أمر «هيرودوس» بإسكان «الأدوميين» في (اللجاة).

وبينما كان الوزير «صالح» في روما للشكوى إلى الإمبراطور «أغسطس» من أفعال «هيرودوس»، مات الملك «عبادة الثالث»، وأفادت الأخبار أن الوزير «صالح» قد أمر بدس السم له، فغضب الإمبراطور لذلك، ولقتله عددا من أشراف مملكة الأنباط، وأفعال منكرة أخرى، وأمر الإمبراطور بمعاقبة «صالح». وخلال حكم عبادة الثالث صدر نوعان من النقد، هما: «النقد البطلمي»، «والنقد اليوناني»، وعلى جميع النقود كتبت عبارة «عبادة الملك، ملك الأنباط».

الحارث الرابع (٩ ق.م - ٤٠ م):

وقد خلف الملك «عبادة الثالث» على العرش، وذكر اسمه في بعض النصوص أثناء حكمه، بلقب (رحم عمه)، أى (محب شعبه)، وفي عهده ساد الرخاء والسلام. وفي حوالى عام ٤ ق.م، أمد «الحارث الرابع» القائد الرومانى «فاروس»، بقوة من المشاه والفرسان، أثناء زحفه على مملكة «يهوذا»، بقصد الإنتقام من «هيرودوس»، وللتقرب إلى الرومان، كما ذكر «يوسيفوس».

ثم نشبت الحرب بين «الحارث الرابع» و «هيرودوس انتيباس» ملك «يهوذا» في عام ٣٦ ميلادية، بسبب رغبة الأخير في تطليق زوجته، وهى إبنة «الحارث الرابع»، لكى يتزوج من «هيروديا زوجة أخيه «فيلبس»، بالإضافة إلى خلافات حدودية بين الدولتين.

وقد انتهت هذه المعارك بانتصار «الحارث الرابع»، في (جلعاد)، فاستنجد «هيردوس أنتيباس» الذى تشتت شمل جيشه، بالإمبراطور الرومانى «طيباريوس»، الذى أمر عامله على سورية «فيتليوس» بمحاربة «الحارث الرابع»، وإحضاره إليه مكبلا بالسلاسل حيا، أو إرسال رأسه إلى روما إذا قتل، ولم يلبث أن توفى «طيباريوس» في عام ٣٧ ميلادية، فتوقف القائد الرومانى عن الزحف على مملكة الأنباط.

وأثناء هذه الحرب، وفي عام ٣٧ ميلادية، تمكن «الحارث الرابع» من الاستيلاء على دمشق، ويبدو أنها ظلت تحت حكم الأنباط حتى عام ٦٢ ميلادية.

وكان عامل «الحارث الرابع» حاكما على دمشق أثناء سجن «القديس بولس»، وذكر ذلك في الإنجيل، وفي رسالة «القديس بولس» إلى أهله «كوزنثوس».

وكان الحارث الرابع متأثرا بالثقافة الهيلينية، وبأسلوب الحياة الهليلينية، وظهر أثر ذلك في المبانى العامة التى أقيمت في عهده، وفي الكتابات اليونانية التى ترجع إلى عهده.

مالك الثانى (٤٠ - ٧١ ميلادية):

تولى «مالك الثانى» الحكم بعد وفاة والده «الحارث الرابع»، وفى عهده خرجت دمشق عن حكم الأنباط، ولا يعرف زمن ذلك على وجه التحديد.

وفى عام ٧٠ ميلادية، سير الإمبراطور الرومانى «تيطس» Titus حملة ضد بيت المقدس، اشترك فيها «مالك الثانى» بفرقة من من جيشه قوامها ألف فارس، وخمسة آلاف من المشاه، وذلك لقمع ثورة اليهود على الحكم الرومانى، والتى اندلعت فى عام ٦٩ ميلادية.

ويوجد من عهده عملة فضية وبرونزية، نقشت عليها صورته، وصورة زوجته «شقيلة» وهى أخته التى تزوجاه على عادة ملوك الأنباط، وبعض ملوك الفراعنة والبطالمة، الذى كانوا يتزوجون شقيقاتهم.

رب إيل الثانى (٧١ - ١٠١ ميلادية):

ويعرف أيضا بلقب (سوتر) Soter، وكان صغير السن عندما آل إليه العرش، بعد وفاة والده «مالك الثانى»، فقامت أمه «شقيلة» بالوصاية عليه، وساعدها فى تحمل أعباء الحكم شقيقة «أنيشو» Oneishu.

وتظهر صورة «شقيلة» مع إبنها «رب إيل» فى عملة نقدية من عهده.

وقد تزوج «رب إيل» من شقيقته «جميلة» Gamilath، وأمر بضرب عملة تحمل صورتيهما.

وكان «رب إيل»، وبعض ملوك الأنباط المتأخرين، يقضون أطول أوقاتهم فى مدينة (بصرى) Bostra، مما أضعف من شأن العاصمة (بترا)، ومن إدارة شئون الدولة.

مالك الثالث (١٠١ - ١٠٦ ميلادية) وسقوط دولة الأنباط تحت حكم الرومان:

وهو آخر ملوك الأنباط، وفى نهاية عهده فى عام ١٠٦ ميلادية، سير الإمبراطور الرومانى (تراچان) حملة كبيرة على (البتراء) بقيادة نائبة فى دمشق

(كورنليوس بالما) Cornelius Palma، فتمكن من الاستيلاء عليها، وقضى بذلك على إستقلال دولة الأنباط، وضمها إلى (المقاطعة العربية) Pravinica Arabia، تحت سيطرة حاكم سوريا الرومانى، التى أقامها الرومان، وشملت أيضا أجزاء من جنوب سوريا، وكان الغرض من ذلك تسهيل مرور الجيوش الرومانية إلى مواضع الاضطرابات، مما يساعد على إحكام سيطرتهم، وضبط الأمن، ورد هجمات البدو على هذه المناطق.

وقد نقل الرومان مقر الحكم إلى (بصرى)، التي ورثت مجد (البتراء) السياسى والاقتصادى.

حضارة الأنباط

يذكر «فيليب حتى» أن حضارة الأنباط «كانت حضارة مركبة[٤]، وإن كانت حضارة عربية فى جوهرها، فهى عربية فى لغتها، آرامية فى كتابتها، سامية فى ديانتها، يونانية ورومانية فى فنها وهندستها المعمارية.

ويشيد «استرابون» بنشاط الأنباط وإجتهادهم فى أعمالهم، لزيادة ثرواتهم، مما أدى إلى أزدهار إقتصادهم، وخلو مجتمعهم من الفقراء والمعدمين، وفى ذلك **يقول**:

«يمتاز الأنباط باعتدالهم وجدهم حتى أنهم[٥] يفرضون عقوبة علنية على كل شخص تتناقص ثروته، أما الشخص الذى ينمى ثروته فيزداد تكريما وشرفا.

وإذ أن الأنباط لا يقتنون سوى عدد قليل من العبيد، فإنهم يستخدمون أقاربهم فى أعمالهم، أو يخدمون بعضهم بعضا، أو يخدمون أنفسهم بأنفسهم، حتى أن الملوك يتبعون هذه العادة...»

ونتناول فيما يلى أهم مظاهر حضارة **الأنباط**:

---

(٤) فيليب حتى: تاريخ سوريا – الجزء الأول. ص ٤٢٦.

(٥) لانكسترهاردنغ، وتعريب سليمان موسى: آثار الأردن. ص ١٢٠.

نظام الحكم:

ويقوم على النظام الملكى الوراثى، ومن الألقاب والصفات التى كان ملوك الأنباط يضفونها على أنفسهم، وليس لها مثيل فى الكتابات الأخرى فى عهود ما قبل الإسلام، عبارة (ملك رحم عمه)، أى «الملك الرحيم بشعبه، أو الملك الحب لشعبه». ويتحدث «استرابون» عن ديمقراطية ملوك الأنباط، ويقول «فبالإضافة إلى قيام الملك بخدمة نفسه، فإنه يقوم بخدمة الآخرين، كما أنه كثيرا ما يقدم حساب نفقاته إلى الشعب، وأحياناً أخرى يجرى التدقيق فى مسلك حياته».

والملك هو رئيس الدولة، والمسئول الأعلى للحكومة، ويساعده فى إدارة شئون الدولة، وبحث المسائل العليا، وتقديم المشورة له، مجلس إستشارى يضم حاشيته المقربين، ويقال لكل منهم (أخ ملكا)، أى (أخو الملك)، وكانوا ينتمون إلى طبقة أرستقرطية خاصة، وتنحصر فى أيديهم الوظائف العليا فى الدولة.

كما كان الملك يختار الموظفين اللازمين لإدارة الأعمال العادية، ولقضاء مصالح الرعية.

الحياة الإقتصادية:

وفى بادئ الأمر، كان الأنباط كعادة الأعراب، رعاة للأغنام والماشية، وبعد أن استقروا أخذوا يشتغلون بتجارة القوافل، وفى أعمال الزراعة، والصناعة، واستخراج (الأسفلت) أو (القار) من سواحل البحر المتوسط، وتفصيل ذلك فيما يلى:

التجارة:

ويقوم حضارة الأنباط أساسا على التجارة، ومنها جمعوا ثروة عظيمة، واكتنزوا الذهب والفضة، وذلك بفضل الموقع الممتاز لدولة الأنباط، وخاصة عاصمتها «البتراء»، التى كانت تلتقى عندها طرق القوافل التجارية القادمة من

الحجاز واليمن، ومن الشام ومصر والخليج، وكانت تسيطرعلى الطرق التجارية ما بين غزة وبصرى، وما بين دمشق وآيلة.

وقد استفاد ملوك الأنباط من طرق القوافل هذه، بما يخدم مصلحتهم ومصالح الدولة، فوضعوا حرسا قويا لحمايتها، وقدموا التسهيلات اللازمة لأصحابها، مقابل دفع مبالغ محددة (ضريبة الترانزيت)، لضمان سلامتها.

وكان العمل الأساسى لسكان العاصمة «البتراء»، التجارة وخدمة القوافل التجارية، وكان ذلك محور حياة الأنباط بوجه عام.

وكان نشاط الأنباط التجارى يمتد إلى مماطق واسعة، شملت سلوقية وموانئ سوريا، والإسكندرية وجزيرة رودس وغيرها.

وكانت القوافل التجارية تنقل منتجات الهند والصين وبلاد الشرق الأقصى الأخرى، ومحاصيل إيران والخليج واليمن والحبشة، بالإضافة إلى منتجات بلاد الشام وبلاد الأنباط، ومن بعض الدول الأوربية مثل روما التى كان يجلب منها الخزف.

ومن أهم السلع التى كان يتاجر فيها الأنباط؛ الحرير، والحناء، والزجاج، والأرجوان، والأفاوية، والخزف، واللؤلؤ، والذهب، والفضة، وزيت السمسم، والقار.

وكان القار يصدرونه للمصريين لاستخدامه فى تحنيط جثث موتاهم.

ولما عمد البطالمة إلى السيطرة على البحر الأحمر، واحتكار التجارة عبره، اضطر الأنباط إلى التمرس بسفنهم، ومهاجمة السفن التى كانت تتجه إلى مصر، والاستيلاء على حمولتها، وذلك نتيجة للأضرار التى لحقتها من تحكم البطالمة فى تجارة البحر الأحمر. وبعد ضم الرومان لدولة الأنباط، استمر سكانها فى ممارسة التجارة وقيادة القوافل التجارية، بين مصر والجزيرة العربية وموانئ البحر الأحمر.

الزراعة:

إشتغل فريق من الأنباط بالزراعة، وقد استطاعوا أن يحولوا بعض المناطق الصحراوية إلى أراضى زراعية خصبة.

ولأجل رى المزروعات وللشرب وفى الأغراض الأخرى، قام الأنباط بحفر الآبار وشق القنوات، وحفروا الصهاريج فى الصخور لتجميع مياه الأمطار والسيول فيها، وجعلوا فوهاتها ضيقة، وحرصوا على إخفائها عن أعين الأعداء.

الصناعة:

اشتهر الأنباط بصناعة الأوانى الخزفية والفخارية، وبرعوا فى ذلك، بحيث لم تكن تقل فى الجودة والإتقان عن الخزف الصينى الذى كان يستورد من روما.

ومن القطع التى تعتبر من أجود أنواع الخزف التى انتجتها منطقة الشرق الأدنى، كؤوس وفناجين وصحون وأباريق وكاسات، كانت فى رقتها تشبه قشرة البيضة، وبعضها بسيط خال من الزخارف، والبعض الآخر مزخرف برسوم فى أشكال الزهور، أو أوراق الكروم وعناقيد العنب.

كما عرف الأنباط إستغلال مناجم النحاس والحديد فى (أدوم)، ومن هذين المعدنين صنعوا الأدوات اللازمة فى حياتهم اليومية.

فن العمران:

وهو من النوع الفريد فى إبداعه، ويتمثل فى الأبنية الجميلة المنحوتة فى الصخر، التى تشكل تراثا فنيا رائعا، وتجذب السياح لمشاهدتها، وتستفيد المملكة الأردنية من دخلها فى الوقت الحاضر.

ويغلب اللون الوردى على الصخور التى نحتت فيها هذه الأبنية، حتى أطلق عليها الأثريون الأوائل إسم «المدينة الوردية».

ومن أهم الآثار الباقية إلى اليوم، «خزنة فرعون»، وهى عبارة عن بناء شامخ من مخلفات مدينة البتراء، ويرجح أنها ترجع إلى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد،

وتتكون من طابقين منحوتين فى الصخر، وفى واجهتها حفر صفان من الأعمدة، ونقشت رسوم وأفاريز بديعة.

وفى أعلى الطابق الثانى، مثبت كتلة بيضاوية الشكل تشبه الجرة، اعتقد أهالى هذه المنطقة أنها «خزنة فرعون»، وبداخلها كنز عظيم من الذهب، ومن ثم أطلق على هذا المبنى إسم «هيكل الخزنة»، ويرجح أنه قد أنشئ ليكون معبدا.

ويذكر «استرابو» أن هذا المبنى قد تعرض لاعتداءات متكررة من قبل بقصد الحصول على الكنز المزعوم الذى يحتوى عليه.

ومن الآثار الأخرى، بناء فخم يعرف «بالدير»، يقع فوق مرتفع من الأرض، ويبلغ عرضه ٥٠ مترا، وارتفاعه ٤٥ مترا، ويرجع بناؤه إلى القرن الثالث الميلادى، ويظهر أنه كان مخصصا لعبادة الإله «دوشرى».

ومنها بناء يعرف «بقصر البنت» أو «قصر بنت فرعون»، وهو بناء مشيد غير منحوت فى الصخر، وربما أقيم فى العصر الرومانى.

وقد تأثر فن المعمار النبطى بأساليب الفن الهيلينستى الذى كان سائدا فى سوريا وقتذاك، ونقله الملك الحارث الثالث إلى بلاده، بعد ضم دمشق، فقد استقدم الصناع السوريين، واستخدمهم فى أعمال النقش والنحت، لتجميل مبانى العاصمة البتراء، ومن ذلك نقش واجهة مبنى «هيكل الخزنة» المشار إليه.

الديانة:

وهى ديانة وثنية من نوع الديانة الوثنية التى كانت سائدة فى الجزيرة العربية، وفى الشام.

وقد عبد الأنباط الأصنام والآلهة التى كانت معروفة عند عرب الحجاز، وبنفس أسمائها، مثل «اللات»، و «مناة»، و«العزى»، و«هبل»، و «ذى الشرى» وعلى مكان مرتفع فى البتراء أقام الأنباط معبدا خالصا للإلهة «العزى».

ومن آلهة الآراميين فى الشام التى عبدها الأنباط «أتاجارتس»، وهى إلهة النماء للحبوب والنباتات والثمار والأسماك.

وأهم آلهة الأنباط، وأكثرها تقديسا «دوشرى»، وكان مقر عبادته فى البتراء، ثم انتشرت فى باقى البلاد، وهو يمثل الشمس، كما يعتبر إلها للتجارة، ويستدل على ذلك من إسمه (سيد الشراء)، وكانوا يرمزون له فى شكل مسلة، أو حجر أسود غير منحوت له أربع زوايا.

ومن الآلهة الأخرى التى عبدها الأنباط، (شيخ القوم)، الذى يحمى القوافل التجارية، و (بعل شمين)، وهو إله السماء والمطر والخصب.

وفى بعض الفترات عبدوا بعض ملوكهم، كما كانوا يقدسون الأفعى.

ولا يعرف إلا القليل عن طقوسهم الدينية، والاحتفالات التى كانت ترافقها. ومن أهم المعابد النبطية معبد حزبه التنور، ومعبد وادى رم.

اللغة والكتابة:

كان الأنباط يتكلمون باللغة العربية، إلى جانب اللغة الآرامية، وأحيانا اللغة اليونانية، واللاتينية بدرجة أقل.

وكانت لغة النصوص النبطية، والنقوش الأثرية، مكتوبة باللغة الآرامية التى كانت منتشرة فى جميع أرجاء الشرق الأدنى آنذاك.

كما استعمل الأنباط اللغة الآرامية فى الكتابة على نقودهم، وفى النقش على أبنتيهم، ثم أخذ استعمالها يقل فى ذلك تدريجيا، وفى منتصف القرن الأول قبل الميلاد، أصبح لهذه النقوش طابع مميز، ذو صفة ثابتة.

ويختلف رسم الحروف فى الكتابات البنطية القديمة، إلى حد ما عن الكتابات النبطية المتأخرة، المدونة بعد الميلاد، كما تختلف تبعا للأماكن التى دونت فيها، فالكتابات التى عثر عليها فى (طور سيناء)، تختلف فى خصائصها

عن الكتابات التى وجدت فى أماكن أخرى.

وكان الأنباط قد حوروا الخط الآرامى، مع مرور الزمن، حتى تحول إلى خط عرف بإسم (الخط النبطى)، وبهذا الخط دونت النصوص العربية فى شمال الجزيرة العربية، ومنها نص (النمارة)، وهو أقدم نص عربى كتب بحروف نبطية.

وعن الخط النبطى، انبثق (خط النسخ)، الذى يماثل من حيث القدم (الخط الكوفى)، وينسب للكوفة والحيرة.

الفصل الثانى
دولة تدمر

- الموقع الجغرافى
- نشأة دولة تدمر
- التطورات التى مرت بها تدمر حتى سقوطها تحت السيطرة الرومانية
- وضع تدمر المميز تحت حكم الرومان

أسرة أذنية الحاكمة فى تدمر:

- أذنية بن خيران
- سبتيموس خيران
- أذنية الثانى وتوسعاته وإصلاحاته ومقتله فى عام ٢٦٦م
- زينوبيا (الزباء) وتوليها الحكم فى تدمر بعد مقتل زوجها أذنية الثانى
- فتح مصر عام ٢٧٠م
- توتر العلاقات بين تدمر وروما وزينوبيا تعلن إستقلالها التام.
- تدخل الرومان بقوات كبيرة وانتزاع مصر وأجزاء من آسيا الصغرى وسوريا من نفوذ التدمريين
- زحف الرومان على العاصمة تدمر ودعوة الملكة الزباء للإستسلام
- سقوط تدمر فى بداية عام ٢٧٣م وخضوعها للحكم الرومانى المباشر.
- اندلاع الثورة على حكم الرومان فى تدمر ومصر وتصدى الإمبراطور أورليانوس لقمعها
- الملكة الزباء ومدينة تدمر فى أيامها الأخيرة

حضارة تدمر:

- نظام الحكم
- الحياة الإقتصادية (التجارة - الزراعة)
- الحياة الإجتماعية
- الفن والعمران (فن النحت - العمارة - المعابد - المدافن)
- الديانة
- الكتابة

الفصل الثانى
دولة تدمر

-الموقع الجغرافى:

تدمر مدينة عربية تقع وسط واحة فى طرف بادية الشام، إلى الشرق من مدينة حمص، وعلى بعد نحو ١٦٥ كيلو مترا منها، وإلى الشمال الشرقى من مدينة دمشق، وعلى مسافة نحو ٢٠٠ كيلو متر منها.

وكانت محطة تجارية هامة، وعقدة للمواصلات على طرق القوافل بين العراق وبلاد الشام، وترد إليها القوافل القادمة من آسيا الصغرى، والجزيرة العربية، ومصر.

وقد وسفها «بلينيوس» بأنها «كانت مدينة شهيرة[١]، ولها موقع ممتاز، وأرضها خصبة، وبها ينابيع وعيون، وتحيط الرمال بحدائقها، وتعزلها عن العالم المحيط بادية مترامية الأطراف، بعيدة المسافات، وتقع يبن إمبراطوريتين عظيمتين، إمبراطورية روما وإمبراطورية الفرس، ولهذا استرعت أنظار الدولتين».

نشأة تدمر:

أقدم نص ورد فيه إسم تدمر، يرجع إلى حوالى عام ١٨٠٠ ق.م، كما ورد ذكرها فى نقوش الملك الآشورى «تجلات بلاسر الأول» Tirlat-Pileser، فى حوالى عام ١١٠٠ ق.م، ضمن أخبار حملته ضد العموريين، تحت عنوان (تدمر أمورو).

وأكثر ما كتب عن مدينة (تدمر) يرجع إلى فترة ما بعد الميلاد، عندما ازدادت شهرة هذه المدينة.

وكانت تعرف عند مؤرخى اليونان والرومان بإسم «بلميرا» Palmyra، وذلك نسبه إلى (النخل) Palma، ويذكر أن الإسكندر الأكبر عندما فتحها، أطلق

(١) د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء الثالث. ص ٧٩ .

عليها إسم (Palmyra)، أى مدينة النخيل، بسبب غابات النخيل الكثيفة التى كانت تخيط بها.

وهذه الكلمة يقابلها فى العبرانية كلمة «تامار» Tamar، وتعنى (النخلة)، وقد أدى ذلك إلى الخلط بين مدينة (تدمر) الشهيرة، وبلدة يهودية تسمى (تامار)، وتقع بمنطقة صحراوية فى جنوب البحر الميت، وللملك سليمان عدة مبان فيها.

وفى ذلك يقول المؤرخ اليهودى «يوسيفوس»، أن سليمان هو الذى بنى مدينة (تدمر)، واستخدم الجن فى تشييد عدد من المبانى الهامة فيها.

ويردد ذلك بعض الإخباريين العرب مثل (ابن الكلبى)، بدون تحقيق أو تمحيص، وجاء ذلك أيضا فى شعر (النابغة الذبيانى).

ويذكر (ياقوت الحموى) أن قوما يزعمون أن (تدمر) من بين المدن التى بنتها جن سليمان، بينما يذكر أهلها أنها قد بنيت قبل عهد سليمان بمدة طويلة.

والواقع أن أملاك سليمان لم تمتد إلى هذه المنطقة

وينسب بعض الإخباريين بناء (تدمر) إلى (تدمر بنت حسان بن أذنية بن السميدع بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح)، ويشيرون إلى الكتابة التى دونت على مقبرتها التى عثر عليها فى مدينة (تدمر).

وهذه القصة تنقصها الأدلة، وهى من وضع الإخباريين والقصاصين.

التطورات التى مرت بها تدمر حتى سقوطها تحت السيطرة الرومانية:

خضعت مدينة تدمر لحكم الآشوريين، عندما استولى عليها «تجلات بلاسر الأول» فى حوالى عام ١١٠٠ ق.م.

وقيل أن الملك سليمان قد استولى عليها بعد ذلك بنحو قرن من الزمان. كما دخلت ضمن إمبراطورية الإسكندر الأكبر، وبعد وفاته وتقسيم إمبراطوريته،

كانت تدمر ضمن حصة «السلوقيين».

وفى عام ٢٨٠ ق.م، شيد أحد القادة السلوقيين حصنا فى مدينة تدمر، ليضم مجموعة من الجنود المقدونيين، وهو واحد من سلسلة الخصون التى أقامها «السلوقيون» فى المراكز الخطيرة، التى تتميز بأهميتها السياسية والعسكرية والتجارية، وذلك من أجل حماية مصالحهم فيها.

ولكن غير معروف على وجه التحديد مدة بقاء «السلوقيين» فى تدمر.

وقد حافظت تدمر على كيانها أثناء النزاع بين «البارثيين» و «السلوقيين». كما اتخذت موقف الحياء طويلا خلال الصراع بين الفرس والروم، خاصة وأن مصلحة الدولتين المتنافستين كانت تقضى بوجود منطقة منعزلة محايدة تكون سوقا يلتقى فيه التجار من الجانبين.

وكان لسقوط دولة «السلوقيين» وسيطرة «البارثيين» على إيران والعراق، أثره فى الإضرار بمصالح تدمر، وخاصة بعد فصل العراق عن سوريا.

ولم يستمر الوضع طويلا بعد ذلك حتى سقطت تدمر تحت سيطرة الرومان، الذى كانوا يسعون لفرض هيمنتهم على الطرق التجارية فى المنطقة.

وحدث فى عام ٤١ ق.م، أن مر القائد الرومانى «مرقس أنطونيوس» بالقرب من تدمر، فأوفد رسلا من طرفه إلى أهلها لإبلاغهم بأنه سينزل فى مدينتهم، ليأخذ هو وجنوده قسطا من الراحة، من متاعب الحرب التى خاضها منذ قليل ضد «الأرشكيين»، ومن مشقة الطريق، وكان يضمر من نفسه أن يستولى على المدينة، وينهب محتوياتها من أموال ونفائس.

ولكن أهل المدينة أحسوا بالمكيدة التى يدبرها القائد الرومانى، فبادروا بنقل أموالهم وممتلكاتهم الثمينة إلى خارجها، فتعقبهم الرومان، واشتبكوا معهم فى معركة حامية، إنتهت بتغلب التدمريين، بعد أن حل بالمدينة الدمار والخراب.

ولا يعرف على وجه التحديد تاريخ خضوع تدمر لحكم الرومان، ويرجح أن

يكون ذلك خلال الربع الأول من القرن الأول الميلادى، ويستدل من الكتابات التى عثر عليها فى تدمر، على تبعيتها لحكم الرومان، وهذه الكتابات كانت عبارة عن قوائم للجمارك تبين بعض الرسوم التى كانت تحصل عن البضائع، وتوضح أثمانها، وكتبت باليونانية والتدمرية، فى عهد الإمبراطور «طبريوس» Tiberius، بتاريخ عام ١٧ ميلادية.

وقد ثبتت تبعية تدمر لنفوذ الرومان فى عهد الإمبراطور «دوبيطيوس كوربولو» Domituis Corbulo (٥٧ – ٦٦م)، وفى أيام الإمبراطور «فيسبيان» Vespasian (٦٦ – ٧٩م).

وفى عهد الإمبراطور «تراجان» ألحقت تدمر بالمقاطعة العربية التى أنشأها فى بلاد الشام عام ١٠٦ ميلادية.

وضع تدمر المميز تحت حكم الرومان:

ولكن حتى ذلك الوقت، كان النفوذ الرومانى (صوريا) فى الغالب، ولم تتخل تدمر عن إستقلالها الداخلى بصفة خاصة.

وكان الموظفون الرومان يباشرون إشرافا عاماً على شئون المدينة، ولا يتدخلون بشكل فعلى فى الشئون الداخلية التى كانت بأيدى أهلها.

وقد وضعت الحامية الرومانية فى مواضع معينة فى خارج المدينة، ولم تكن تشكل خطورة على أهلها، أو على القبائل المجاورة.

ولقد استفاد الرومان من المحاربيين التدمريين، وكوّنوا منهم فرقا و (كراديس) لحماية الطرق والقوافل التجارية فى البوادى.

وفى عام ١٣٠ ميلادية، زار الإمبراطور الرومانى «هدريانوس» Hadrianus مدينة تدمر، وأضفى عليها لقب «هدرينا بالميرا» Hadriana Palmyra، أو «هدريانوبوليس» Hadrianopolis، كما بذل عناية كبيرة بتدمر، حتى اعتبره بعض المؤرخين (المؤسس الثانى) للمدينة، ومن ذلك إهتمامه بحماية الطرق

البرية التى تصلها بنهر الفرات.

وفى عهده منحت تدمر درجة «مستعمرة رومانية عليا»، ونال أهلها الحقوق الإيطالية Italic Juric.

وبموجب ذلك اكتسبت المدينة وأهلها «حق الإمتلاك التام، والإعفاء من الخراج، والحرية الكاملة فى إدارة سياسة المدينة».

وبذلك أصبحت لتدمر حكومة مستقلة، ذات سلطة واستقلال فى إدارة شئونها، وكان خضوعها لحكم الرومان شكليا محضا.

وكان مجلس الشيوخ فى المدينة يتولى السلطة التشريعية، ويقوم بسن القوانين، ويتكون من رئيس، وأحد الكتبة، وعدد من الأعضاء.

ويشرف على السلطة التنفيذية شيخان، وديوان يضم عشرة حكام وكانت السلطة القضائية فى أيدى عدد من الوكلاء والعمال، وهذا التنظيم كان مطابقا لنظام المدن اليونانية التى كانت فى حماية الإمبراطورية الرومانية.

أما أهل تدمر الذين حصلوا على حقوق المواطنين الرومان، فقد أضافوا إلى أسمائهم العربية أسماء رومانية، مثل «سبتيموس»، و «يوليوس»، و «سرجيوس»، وذلك على سبيل التكريم.

وفى عهد «سبتيموس سفيروس» (١٩٣ - ٢١١ م)، صارت تدمر وملحقاتها مدنا إقليمية فى الإمبراطورية الرومانية، ومن أهم المدن التى كانت تابعة لتدمر «دورا أوريس»، التى استخدمت لحماية تجارة تدمر، ومنها «سرجيوس بوليس»، التى كانت مركزا دينيا يقصده الزوار، حيث كانت مقراً للقديس «سرجيوس»، وأقيمت بها أسقفية للديانة المسيحية.

أسرة أذنية الحاكمة فى تدمر:

وهى إحدى الأسرات الأرستقرطية العريقة فى تدمر، ومن أصل عربى، ويبدو أن جد «أذنية» ويدعى «نصور»، أو «ناصر»، أو «نصر»، كان من سادات قبائل

العرب، وقد استقر فى هذه المنطقة.

وكانت هذه الأسرة تمتلك ثروة ورؤوس أموال كبيرة من التجارة، وكان عدد من أبنائها أعضاء فى مجلس المدينة، ويشاركون فى حكمها.

وقد نالت هذه الأسرة الحظوة لدى الرومان وخاصة فى عهد «سبتيموس سفيروس» بسبب الخدمات التى قدمتها لهم فى صراعهم ضد دولة الفرس، باستخدام «الميليشيا» Militia التى شكلتها من أبنائها ومن أبناء القبائل المتحالفة معها، وكانت أيضا تقوم بحماية قوافلها التجارية.

ولقد استفادت أسرة «أذنية» من الحروب التى نشبت بين دولة الرومان والدولة «الساسانية» الناشئة، وحصلت على الكثير من المغانم، وعلى مركز مرموق لدى الرومان، وأنعم على زعمائها بالألقاب الرومانية الرفيعة.

كما استغلت هذه الأسرة الإضطرابات السياسية والعسكرية التى سبقت توغل الملك «سابور» الفارسى فى بلاد الشام، واستيلائه على ولاية أنطاكية، فجمعوا الجنود التدمريين الذين تركوا الخدمة فى الجيش الرومانى هناك، وكوّنوا منهم ومن الميليشيا التابعة لهم، جيش تدمر الذى اعتمدوا عليه فى مواجهة الفرس والرومان.

أذنية بن خيران:

وكان زعيم هذه الأسرة فى تلك الفترة، وينتمى إلى بنى «السميدع»، وينسب الطبرى إلى «هوبر» من العرب العمالقة.

وكان مقربا إلى الرومان بما قدمه لهم من التأييد والمساعدات.

وقد ورد ذكره فى كتابه ترجع إلى حوالى عام ٢٣٥ للميلاد، باسم (أذنية بن خيران بن وهب اللات بين نصور)، وأصفى عليه لقب (سقلطيق) Skiltyk، كما كان يحمل لقب «عضو فى مجلس الشيوخ الرومانى»، وكان لقبه الرسمى (رأس تدمر). غير أن طموحه لم يقف عند هذا الحد، إذ كان يخطط

للاستقلال بتدمر، وإقامة مملكة فيها لخصه ولأسرته من بعده.

وحدث فى حوالى عام ٢٥٠ ميلادية، أن إتخذ لنفسه لقب (ملك) Rex، وجمع الناس حوله.

وعند ذاك أدرك الرومان خطر هذه الدعوة على مصالحهم، ولمسوا طموحه للاستقلال التام، فأوعز الإمبراطور «اسكندر سفيروس» Alexandre Sévérus إلى أحد أعوانه ويدعى (روفينوس) Rufinus، لتدبير خطة لاغتياله، وقتل بعد قليل، وتخلص الرومان منه.

سبتيموس خيران:

وبعـد مقتـل (أذينة بن خيران)، خلفه إبنه الأكبر (سبتيموس خيران) Septimius Hairan فى رئاسة تدمر.

وجاء ذكر إسمه فى كتابة ترجع لعام ٢٥١ ميلادية، وكان بدرجة (عضو مجلس الشيوخ) Senator، كما كان يحمل لقب (رأس تدمر).

ولم يحاول أن يصطدم بالرومان، وسرعان ما أدركته المنية.

أذنية الثانى:

عند وفاة «سبتيموس خيران»، كان إبنه «معنى» صغير السن قاصرا، فخلفه على رأس تدمر «أذنية الثانى»، وذكر بعض المؤرخين أنه كان شقيق «سبتيموس خيران»، وإبن «أذنية الأول».

وقد وصف بالشجاعة والجرأة، كما كان فارسا إعتاد حياة البداوة، ومارس بشغف صيد حيوانات البرية وخاصة الذئاب والفهود والأسود.

وقبل إنتقال الحكم إليه، تولى قيادة الجيش والقوافل التجارية، فأكتسب خبرات وكفايات جيدة، رفعت من شأن تدمر على يديه، وجعل لها مقاما ساميا لدى الرومان والفرس على السواء.

وفى كتابة ترجع إلى عام ٢٥٨ ميلادية، ونصوص أخرى، من عهد

الإمبراطور «فاليريانوس» Valerianus، ذكر إسم «أذنية الثانى»، وهو يحمل درجة «قنصل» Vir Consularis.

كما ذكر أنه قد طلب من الإمبراطور «فاليريانوس» أن ينزل العقاب «بروفينوس» قاتل أبيه «أذنية الأول»، ولكن الإمبراطور لم يهتم بطلبه، فأضمر ذلك فى نفسه، ولم يلبث أن أندلعت الحرب بين الفرس الساسانيين والرومان، بسبب سياسة التوسع التى اتبعها الساساينون، واصطدامهم بالرومان حول مناطق النفوذ فى هذه المنطقة.

وفى عام ٢٦٠ ميلادية، وأثناء معركة بين الجانبين قرب الرها، التى انتصر فيها الفرس، وخاصة على أثر خيانة القائد الرومانى «مكريانوس»، ثم أسر الإمبراطور «فاليريانوس» وزحف الفرس الساسانيون بقيادة الملك «شابور الأول»، على منطقة أنطاكية.

وقد انتهز «أذنية الثانى» فى الفرصة للإنتقام من الرومان لمقتل ولده، وعدم الإهتمام بمعاقبة قاتله فأرسل رسلا من طرفه، يحملون هدايا قيمة ورسالة منه، إلى الملك «شابور»، يتودد فيها إليه، ويعرض التحالف معه، ولكنه إستقبل مبعوثيه بجفاء، وأمر بإلقاء الهدايا فى النهر، واستخف بهم وبسيده ومكتوبه الذى مزقة، وتعجب لجرأته، وهو شيخ مدينة فى بيداء مقفرة، وعلى مخاطبته، وهو «ملك الملوك»، وفوق ذلك توعده بإنزال العقاب به وبأسرته وبمدينته، إذا لم يأته «ويداه مغلولتان إلى ظهره».

ولقد إستاء «أذنيه الثانى» لمسلك الملك المتغطرس «شابور»، وصمم على الإنتقام منه، وبادر بجمع جيش كبير من فرسان تدمر ومن القبائل المحيطة بها، وجعلها تحت إمرة إبنه «هروديس، وبقيادة «زبدا» و «زبادى»، وهما من أسرة «أذنيه»، وضم هذا الحشد بعض الكتائب الرومانية، وفلول جيش «فالير يانوس»، وسار «أذنيه الثانى» على رأس هذا الجيش قاصدا (طيسفون) Ctesiphon (المدائن) عاصمة «شابور»، للإنتقام منه، ولتخليص الإمبراطور «فاليريانوس» من الأسر.

وقرب نهر الفرات إشتبك «أذنية الثانى» بقواته مع فلول جيش الفرس، وألحق بهم هزيمة منكرة، وكان القائد الرومانى «كالبستوس» قد سبق أن أوقع بهم خسائر فادحة، وشتت شملهم.

وعلى أثر ذلك هرب شابور مذعورا مع فلول جيشه، وترك أمواله وحريمه غنيمة فى أيدى التدمريين، فتتبعهم «أذنية الثانى» بقواته حتى أسوار عاصمته (طيفسون)، ولكنه لم يستطع تخليص الإمبراطور «فاليريانوس» الذى ظل فى الأسر حتى وفاته.

وبعد ذلك كتب «أذنية الثانى» إلى الإمبراطور الجديد «غاليا نوس بن واليريانوس»، يخبره بانتصاره على الفرس، ففرح لذلك كثيرا، وأنعم عليه فى سنة ٢٦٢م، بدرجة «قائد عام على جميع جيوش الشرق Dux Romanorum، وطلب إليه أن يواصل جهوده لإنقاذ والده «واليريانوس» من الأسر.

توسعات أذنية الثانى وإصلاحاته:

وبعد ذلك أخذ «أذنية الثانى» يعمل لاسترجاع الأراضى التى استولى عليها الفرس، وكانت خاضعة للرومان من قبل، ولعله كان يستهدف تأمين السيطرة على طرق التجارة الهندية والعراقية التى اضطربت بعد ظهور الساسانيين.

وفى سنة ٢٦٤ ميلادية سار بجيوشه، باتجاه (طيسفون) عاصمة الملك شابور، الذى جمع كل قواته للدفاع عنها، وفى الطريق استولى على الرها ونصيبين وحران، ولقى هو وجنوده إستقبالا جافلا من أهل الجزيرة، الذين كرهوا الإمبراطور «غاليانوس»، لأنه تركهم يعانون من إستبداد الفرس.

وعندما وصل «أذنية الثانى» بقواته إلى (طيفسون)، فرض حصاره عليها، ونصب المجانيق والأدوات الأخرى لفتحها، وكادت تسقط فى يديه، لولا حادث تمرد القائد الرومانى السابق «مكريانوس» Macrianus، الذى نصب نفسه إبمراطورا على آسيا الصغرى والشام وفلسطين ومصر، وكان «أذنية الثانى» يكرهه، ويخشى أن يستولى على ملكه، ففك الحصار عن (طيسفون)، وعاد إلى تدمر.

وقد بادر «أذنيه الثانى» بمنازله «مكريانوس»، وأثناء زحفه على حمص التى اتخذها عاصمة له، جاءه نبأ مقتله، وتولى إبنه «كيانوس» مكانه، ولكن السوريين أعلنوا ولاءهم لأذنية، وانضموا إلى قواته، وتوجهوا لمحاصرة «كيانوس» فى مدينة حمص، وبعد أن اشتد الحصار، قام أحد أتباعه ويدعى «كاليستوس» بقتل «كيانوس»، وألقى برأسه من فوق سور المدينة تحت قدمى «أذنية الثانى»، ثم فتح له أبواب المدينة، والتمس منه الأمان، فمنحه إياه، ودخل المدينة منتصرا.

ولكن أهل حمص كانوا يكرهون التدمريين، ويعتبرونهم بدوا، أقل حضارة وثقافة، رغم أنهم كانوا يعبدون (إلهة الشمس) مثلهم.

وبعد استراحة قصيرة سار «أذنية الثانى» بقواته نحو الشمال لمحاربة المنشقين، وفى الطريق تلقى نبأ عصيان «كاليستوس»، وإعلان نفسه ملكا، فبعث إلى معسكره نفرا من رجاله لاغتياله، وتمكن أحدهم من دخول خيمته وقتله ثم واصل «أذنية الثانى» زحفه إلى الجزيرة لمطاردة الفرس، وقبض على عدد من (المرازبة) Strapen، وأرسلهم إلى روما، معربا عن إخلاصه وولائه للإمبراطور الرومانى، الذى رضى عنه، وكافأة للمرة الثانية، بأن منحه لقبا رفيعا هو إمبراطور عموم الشرق» Imparator Totius Orientis، وكان ذلك فى عام ٢٦٤ ميلادية. وعلى أثر ذلك أصبح سلطان «أذنية الثانى» يشمل بلاد الشام وآسيا الصغرى، باستثناء (بتينية وبعض الجهات الشمالية)، ووضعت تحت إمرته جميع القوات الرومانية المرابطة فى المشرق، وضربت النقود بإسمه، وعليها صورته، وخلفه بعض أسرى الفرس.

وقد كلفه الإمبراطور الرومانى بالقضاء على فلول «مكريانوس»، وتخليص المقاطعات الرومانية منهم.

وبالإضافة إلى هذا اللقب الرفيع، منح «أذنية الثانى» لقب (أغسطس) Augustus، الذى كان يلقب به أباطرة الرومان، ومنحه إياه مجلس الشيوخ الرومانى، فصار بذلك مساويا للإمبراطور، وأمر بوضع صورته مع صورة إمبراطور

الرومان، على النقود التى استولى عليها من الفرس.

ولكن «أذنية الثانى» إختار لقبا آخر محببا إلى نفوس الشرقيين، وهو لقب «ملك الملوك»، ولعله كان يتشبه بملوك الفرس الذين اتخذوا هذا اللقب.

ولم يكن أذنية الثانى قائدا قديرا فحسب، بل كان أيضا رجل إدارة وسياسة، كما اتصف بالحزم والتسامح.

وفى عهده إستتب الأمن، فقد تعقب اللصوص وقطاع الطرق، من الجنود الهاربيين والمسرحين من الخدمة وغيرهم، الذين دأبوا على مهاجمة القوافل والقرى والمدن، للحصول على المغانم والأموال، وبثوا الذعر فى نفوس الناس، فأعاد أذنية الثانى الطمأنينة والاستقرار إلى السكان، وأمنهم على متاجرهم وأمتعتهم وأموالهم.

كما كان متسامحا مع الطوائف الدينية المختلفة، ومنح كلا منها حرية ممارسة شعائرها الدينية، فمنع تعصب الوثنيين على النصارى واضطهادهم، وخوّل للنصارى حق بناء الكنائس فى الأماكن التى يرغبون فيها.

وكان يساعده فى إدارة شئون الدولة، ويحل مكانه أثناء غيابه، (ورود) Worod، الذى كان يعتبر (الرجل الثانى) فى تدمر، بعد الملك «أذنية الثانى»، وكان من الطبقة الأرستقراطية، ويرى بعض الباحثين أنه كان من أصل فارسى أو رومانى، وقد نال أعلا الدرجات.

وبعد أن استقرت له الأمور، واصل «أذنية الثانى» محاربة الفرس لتخليص، الإمبراطور «واليريانوس» من أسرهم، وإمعانا فى إذلالهم.

وفى أوائل عام ٢٦٥ ميلادية، سار على رأس جيشه إلى (طيسفون) عاصمة الملك «شابور»، بعد أن عين إبنه الأكبر «هيروديس» من زوجته الأولى، نائبا عنه فى إدارة شئون المملكة.

وقام «أذنية الثانى» بمحاصرة (طيسفون) بعض الوقت، وكان الملك

«شابور» يميل لعقد صلح معه، لولا أن «أذنيه الثانى» إشترط فك أسر «واليريانوس»، وكان الفرس يمانعون فى ذلك بشدة، ويعتبرون أسرهم له أمرا عظيما.

وفى هذه الأثناء حدث أمر مهم أدى إلى تبديل خطط «أذنية الثانى» العسكرية، ودفعه لرفع حصاره عن (طيسفون)، للمرة الثانية، ذلك أن (القوط) انتهزوا فرصة محاصرته لها، وإبتعاده عن آسيا الصغرى وبلاد الشام، فعبروا البحر الأسود Pontus، ونزلوا بميناء (هرقلية) Heraclea، واستولوا على (بتينية)، و (فريجية)، و (غلاطية)، و (قيادوقية)، وكانوا يقصدون التوسع فى آسيا الصغرى وبلاد الشام.

وقد أسرع «أذنية الثانى» لملاقاتهم، فلما بلغهم ذلك، ولوا الأدبار، وهرب (القوط) عن طريق ميناء (هرقلية) الذى نزلوا به من قبل، وعادوا إلى بلادهم.

وبعد ذلك قرر «أذنية الثانى» العودة إلى العراق، لمتابعة فتح (طيفسون).

مقتل أذنية الثانى عام ٢٦٦ ميلادية:

وقبل أن يواصل مسيرته إلى العراق، مرعل حمص ليستريح فيها بجنوده قليلا، وهناك أعد وليمة كبيرة بمناسبة ذكرى يوم ميلاده، وحضرها قادته وكبار القوم ورجال الدولة، ومن بينهم إبن أخيه «خيران»، ويدعى «معنى» أو «معنيوس» Maeonius، الذى استغل هذه الفرصة للتخليص منه، واستعادة ملك أبيه. وقد تمكن «معنيوس» هو وعصابته من قتل عمه «أذنية الثانى» وولده، إبن عمه «هيرودس»، وأعلن نفسه ملكا على الدولة التى كوّنها على هذه الصورة، عمه القتيل.

ولكن «معنيوس» لم يهنأ بالجلوس على العرش إلا أياما معدودة، إذ إنتقم منه أهل حمص، واغتالوه بسيوفهم، فى أواخر عام ٢٦٦ ميلادية.

ويكتنف الغموض ظروف مقتل «أذنيه الثانى»، والأسباب الكامنة وراءه، وغير معروف إذا كانت لدى «معنيوس» دوافع أخرى لقتله غير إغتصابه حقه الشرعى فى الملك.

المؤرخون والإخباريون يهملون أخبار حروب أذنية الثاني ضد ملك الفرس شابور:

فلم يشيروا إلى محاصرته مرتين لمدينة (طيسفون) عاصمة ملك الفرس شابور، وذلك يرجع في الغالب إلى إعتماد هؤلاء المؤرخيين والإخباريين المسلمين، على مصادر فارسية الأصل متعصبة لقوميتها، أو من مصادر عراقية ميالة للفرس.

وقد يكون ذلك بدافع العاطفة، والنزعات القومية، التي لم يرقها هذه الإنتصارات التي حققها (ملك من البادية)، على «شابور» صاحب إمبراطورية واسعة تنافس إمبراطورية الرومان، على الزعامة في هذه المنطقة العربية.

ويحدث ذلك الإهمال، بينما لا ينس هؤلاء المؤرخون والإخباريون، الإشارة إلى حادث أسر الملك «شابور» للإمبراطور الروماني «واليريانوس»، ومن ذلك ما ذكره (الطبرى)، أثناء كلامه على «شابور»، قائلا «وأنه حاصر ملكا كان بالروم يقال له اليريانوس، بمدينة أنطاكية، فأسره وحمله وجماعة كثيرة معه وأسكنهم جنديسابور».

زينوبيا (الزباء):

وهي من الشخصيات العامة في تاريخ هذه المنطقة في فترة ما قبل الإسلام.

وقد حظيت باهتمام المؤرخين والإخباريين العرب، ويذكر الطبرى أن إسمها (نائة بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذنية بن السميدع بن هوبر العمليقى). ويسميها المسعودى (الزباء بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذنية بن السميدع بن هوبر العمليقى). كما يذكر إبن خلدون، أن أباها (عمرو بن الظرب)، كان ملك العرب في أرض الحيرة، وبمشارف الشام والجزيرة، وأنه قتل في الحرب بينه وبين (جذيمة الأبرشى) ملك عرب الناحية بين الحيرة والأنبار في بادية العراق، فلما آل الملك إلى (الزباء)، صممت على الإنتقام من (جذيمة الأبرشى)، للثأر لمقتل إيها.

وكانت لها أخت تدعى (زبيبة)، كانت ذات دهاء، فنصمتها بالتخلى عن فكرة الحرب، لأنها غير مضمونة النتائج، وعرضت عليها أن تستدرجه بالمكر

والخديعة إلى قصرها على شاطئ الفرات الغربى، وتوقع به، وتمت هذه الخطة بنجاح، وتمكنت من قتله فى قصرها غدرا.

وتضيف هذه الرواية، أن (عمرو بن عدى) خليفة (جذيمة الأبرشى)، قد احتال بدوره لقتل (الزباء(، بعد أن أطمأنت إلى جانبه، وأدخل إلى المدينة مجموعة من رجاله المسلحين بالسيوف، ووضعهم فى جوالات كبيرة، وأن (الزباء) لما اكتشفت الحيلة، وأدركت أنها لا محالة ستلقى حتفها بسيوفهم، فضلت أن تنتحر، فمصت خاتمها الذى كان يحتوى على كمية من السم، ونطقت بالمقولة المشهورة (بيدى لابيدك يا عمرو).

وهذه القصة أقرب إلى الأساطير، وينفى إنتسابها إلى (زينوبيا) تطورات الأحداث منذ تسلمت مقاليدا الحكم فى تدمر، بعد مقتل زوجها (أذنية الثانى)، وربما قصد بهذه القصة أختها التى عاشت فى الحيرة قرب نهر الفرات.

وهناك رواية أخرى، تقول أنها زعمت أنها من مصر، ومن صلب الملكة (كيليوبترا) الشهيرة، وأنها تتكلم اللهجة المصرية بطلاقة، وأنها ألفت كتابا عن تاريخ مصر والأمم الشرقية، ولعلها قصدت فى ذلك اكتساب ود المصريين، حتى يسهل تحقيق مشروعها بالإستيلاء على مصر.

وفى رأى (وايت) Wright وآخرين، أن (الزباء) من أب عربى، وأم مصرية وبعض المؤرخين يزعمون أنهاه (رومية) تتكلم العربية.

ويرى المؤرخ اليهودى (كريتس) Gractz، وأنها (أدومية) من نسل (هيرودس)، وتدين باليهودية، ولكن لا توجد من الآثار ما يفيد أنها كانت يهودية، بل هناك أخبار تدل على أن اليهود كانوا ناقمين على دولة تدمر.

ولكنها فى رأى أكثر المؤرخيين عربية الأصل، وكانت تعرف عند العرب بإسم الزباء، وفى الكتابات التدمرية كانت تذكر بإسم (بت زباى)، نسبة إلى والدها (زباى) ثم حور إلى (الزباء).

تولى زنوبيا الحكم فى تدمر بعد مقتل زوجها أذنيه الثانى:

بعد مقتل «أذنية الثانى»، إنتقل الملك إلى إبنه (وهب اللات)، ويسمى أيضا (وهبلت) أو (وهبلات)، وأمه (زنوبيا) أو (الزباء)، وكان له شقيقان آخران هما (خيران)، و (يتم الله).

وفى ذلك الوقت كان (وهب اللات) صغير السن قاصرا، فتولت أمه الوصاية عليه، وحكمت الدولة بإسمه.

وقامت بتأديبه بأدب الملوك، وعلمته الفروسية، واللاتينية، والعلوم التى كانت معروفة فى عصره، وهيأته لأن يصبح عندما يبلغ سن الرشد، ملكا عظيما، يليق بدولة فتية طموحة تسعى لمنافسة الرومان والفرس، وهما القوتان العظميتان آنذاك.

ومن جهة أخرى، قامت (زنوبيا) بأعباء الحكم على خير وجه، وأظهرت مقدرة فائقة فى إدارة شئون الدولة، وسعت لتوسيع حدودها، وبسط نفوذها على مناطق واسعة لم تخضع من قبل لتدمر، وهذه المطامع قد أدت إلى خدوث صدام بينها وبين الرومان، الذين حاولوا القضاء عليها قبل استفحال أمرها.

وبتحريض من أعضاء مجلس الشيوخ فى روما، أرسل الإمبراطور (غاليا نوس) جيشا إلى الشرق، متظاهرا أنه يريد محاربة الملك (شابور)، ولكنه كان يعتزم مهاجمة تدمر، وإخضاع الملكة (زينوبيا)، فلما أدركت حقيقة مقصده، إستعدت لمقابلته فى ساحة القتال، واشتبكت قواتها بكتائب الرومان، وحققت إنتصارا باهرا عليها، فاضطرت إلى الفرار، وسقط قائدها (هرقليانوس) قتيلا فى هذه المعركة، وكان لذلك أثر بالغ فى نفوس الرومان.

وقد تنبهت (زينوبيا) إلى الخطر لفارسى، فعملت على تقوية حدود مملكتها من ناحيتهم، وأمرت بتشييد (حصن زنوبيا) على نهر الفرات، ليصد هجمات الفرس الساسانيين التى يوجهونها نحوها من الشرق.

وكانت السياسة العربية التى اتبعتها (زينوبيا) بعد مقتل زوجها، تعتمد على التقرب من الأعراب، والإعتماد عليهم فى القتال والحروب.

كما تقربت إلى العناصر العربية من المقيمين فى المدن، وأخذت تعمل لتنظيم.

وإستغلال قوة العرب التى لا يستهان بها، ومن أجل تكوين دولة عربية قوية واحدة بزعامتها، وذلك بعد أن أدركت أن الرومان هم أعداء تدمر، وأنهم لا يفكرون إلا فى مصالحهم الخاصة.

وقد تكرر تحريض أعضاء مجلس الشيوخ، للتخلص من (زينوبيا)، بعد مقتل الإمبراطور (غاليانوس) سنة ٢٦٨ ميلادية، وأثناء مبايعة الإمبراطور الجديد (أوريليوس قلوديوس) Morcus Aurelius Clauduis فقد صاح أعضاء مجلس الشيوخ عدة مرات، بصوت واحد، قائلين «يا قلوريوس أغسطس نجنا من ڤيكتوريا ومن زينوبيا، يا قلوديوس أغسطس أغثنا من التدمريين».

وفى الرسالة التى بعث بها الإمبراطور (قلوديوس) إلى مجلس الشيوخ فى روما، أثناء إحدى حملاته لتأديب الجماعات التى اعتدت على حدود الإمبراطورية، قال «إن جبينى ليندى خجلا كلما تذكرت أن جميع الرماة بالقس هم فى خدمة زنوبية».

---

(٢) د. جواد على: المرجع السابق – الجزء الثالث. ص ١٣٣.

فتح مصر عام ٢٧٠ ميلادية:

أخذت (زينوبيا) تتحين الفرصة لتتدخل فى مصر، ومهدت لنفسها عندما أعلنت أنها مصرية الأصل.

وكان الإمبراطور (قلوريوس) قد أمر عامله على مصر، ويدعى (بروبوس) Pro-bus، بالخروج على رأس أسطول الإسكندرية إلى عرض البحر، لمطاردة (القوط) Goths الذين يحاولون مهاجمة حدود الإمبراطورية.

فخرج (بروبوس) بالأسطول ومعه قوة كبيرة من الرومان لمطاردتهم، فانتهز هذه الفرصة الوطنيون والمعارضون لحكم الرومان، وفى مقدمتهم رجل يونانى الأصل يدعى (تيماجينيس) Timagenes، وذكر بعض الباحثين أنه عربى، واشتق إسمه من (يتم اللات)، وكتبوا إلى (زينوبيا) يحضونها على تحرير مصر من حكم الرومان، وتولى الحكم فيها.

وأبدى (فيرموس) Firmus، وهو من كبار الأثرياء المصريين، إستعداده لمساعدة (زينوبيا) بالمال واللوازم الأخرى، إذا اعتزمت الاستيلاء على مصر.

وعلى أثر ذلك، وفى عام ٢٧٠ ميلادية، أرسلت (زينوبيا) قائدها (زبدا) Zab-da، إلى مصر على رأس جيش قوامه سبعون ألف رجل، فاشتبك مع الجيش الرومانى الذى كان يبلغ ٥٠ ألف رجل، وانتصر عليه، وفرق شمله.

وبعد قليل عاد (زبدا) بقواته إلى تدمر، بعد أن ترك فى مصر حامية صغيرة من خمسة آلاف رجل، وعين (تيماجينيس) نائبا عن (زنيوبيا) فى مصر.

وأثناء ذلك، علم (بروبوس) بهجوم التدمريين على مصر، وتغلبهم على الرومان، فأسرع بالعودة إليها، وجمع جيشا من المصريين الموالين للرومان، وزحف به على الإسكندرية، وأخذ يتعقب التدمريين، ويعمل فيهم بسيوفه.

فلما سمعت (زنيوبيا) بذلك، أمرت قائدها بالعودة بجيشه ثانية إلى مصر، ووقعت معارك بين الجانبين، انتهت بانتصار التدمريين على (بروبوس) وقواته، وذلك

عند حصن (بابيلون) Babylon، الذى عرف بإسم (الفسطاط) فيما بعد.

ويذكر أن عرب مصر من سكان الأقاليم الشرقية، قد قدموا مساعدات كبيرة لجيش تدمر، وخاصة أثناء القتال حول حصن (بابليون).

وبعد تحقيق النصر لجيش (زينوبيا) فى مصر، حدثت تطورات غير معروفة على وجه التحديد.

ويظهر أنه قد حدث إتفاق بين (زينوبيا) والمسئولين فى روما، وعقدت إتفاقية بين الجانبين فى أواخر عهد الإمبراطور (قلوريوس)، وافقت فيها روما على بقاء جيش تدمر فى مصر، مقابل إعتراف التدمريين بسيادة الرومان على مصر.

ويؤكد ذلك وجود نقد ضرب فى الإسكندرية، خلال سنتى ٢٧٠، ٢٧١ ميلادية، نقشت على أحد وجهيه صورة مزدوجة لوجه الإمبراطور (أورليانوس) Au-relianus وهو يحمل لقب (أغسطس)، مع وجه (وهبلات) صاحب العرش فى تدمر، تحت وصاية أمه (زينوبيا)، وأضفى عليه لقب رومانى ممتاز.

ولكن هذا الحكم المزدوج فى مصر لم يدم طويلا.

توتر العلاقات بين تدمر وروما وزينوبيا تعلن إستقلالها التام:

وكان كبار رجال الدولة فى روما قد مارسوا ضغطا شديدا على الأمبراطور (أورليانوس) لكى ينقذ الإمبراطورية مما لحق بها من تصدع فى أوروبا فى الشرق.

وكانوا يقصدون من جملة التصدع فى الشرق، ظهور ملكة تدمر (زينوبيا)، وأطماعها الواسعة، التى امتدت إلى مصر والشام وآسيا الصغرى، وأصبح لها دولة مترامية الأطراف على حساب الإمبراطورية الرومانية.

وكان الإمبراطور (أورليانوس) يعتزم، بعد تأديب الجرمان، إخضاع العصاة، ووضع حدد للطامعين فى الشرق.

فلما علمت (زينوبيا) بنوايا الإمبراطور تجاهها، قررت القيام بعمل سريع قبل مباغتتها، فألغت الأتفاق الذى عقدته مع الرومان فى عهد الإمبراطور (قلوريوس)، وأمرت بمحو صورة الإمبراطور (أورليانوس) من النقود.

وفى ذلك الوقت شعرت (زينوبيا) بأنها قد أصبحت على درجة من القوة تسمح لها بأن تعلن إستقلالها التام عن الرومان، وأن تتحرر من سيادة روما الإسمية عليها.

وبدأت (زينوبيا) بإضفاء لقب «ملك الملوك» (أغسطس) المخصص للإمبراطور الرومانى، على إبنها (وهبلات)، وأمرت بوضع صورته وحده، مع لقب الإمبراطور الرومانى، على النقود.

كما أضفت على نفسها لقب (ملكة)، وأمرت بنقش إسمها وإسم إبنها (وهبلات) بهذه الألقاب، على المنشآت الضخمة التى شرعت فى تشييدها، ومنها تمثال للملكة أقيم على عمود مرتفع فى شارع الأعمدة الكبيرة فى تدمر، بتاريخ أغسطس سنة ٢٧١م، نقش عليه باللغتين اليونانية والتدمرية العبارة التالية:

«إلى سيدتهم سبتيما زنوبيا(٣)، أكثر الملكات شهرة وتقوى، وإلى القائدين الممتازين بلقب سبتيموس، وهما زبدا القائد العام، وزباى قائد الموقع».

وذكر أن الملكة (الزباء)، قد اتفقت مع (ڤيكتوريا) ملكة إقليم (الغال)، على تنسيق الخطط فيما بينهما لمهاجمة الإمبراطورية الرومانية وإقتسامها.

وعقب ذلك، أرسلت حملة إلى آسيا الصغرى، بقيادة (زبدا) و (زباى)، تمكنت من الاستيلاء على (بتينية) Bithynia.

واستمرت فى تقدمها من غير مقاومة تذكر حتى بلغت (أنكيرا) Ancyra (أنقرة)، (وخلقيدون)، فى مواجهة القسطنطينية.

وفى هذه الأثناء كانت الجيوش الرومانية منشغلة بحروبها مع الجرمان فى حوض الدانوب ويقال أن (زينوبيا) كانت تستعد لدخول عاصمة الرومان، وأمرت بصنع عجلة فاخرة تدخل بها فى موكب النصر.

---

(٣) د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول. ص ١٣٨.

تدخل الرومان بقوات كبيرة وانتزاع مصر وأجزاء من آسيا الصغرى وسوريا من نفوذ التدمريين:

وكانت الملكة (الزباء) قد اضطرت إلى سحب جزء كبير من جيشها المعسكر في مصر، معتمدة على المصريين فى الدفاع عن أنفسهم إذا هاجمهم الرومان، وذلك عندما شرعت فى التوغل فى آسيا الصغرى.

فانتهز الإمبراطور (أورليانوس) هذه الفرصة، وأرسل بعض الإمدادات إلى قائده فى مصر (بروبس)، فى حين وصل إليها القائد (زبدا) بفرقة لمساعدة (فيرموس) نائب ملكة تدمر، على صد الرومان.

وقد دارت معارك بين الجانبين فى أواخر عام ٢٧١ ميلادية، كانت تنتهى بالنصر للتدمريين، لولا أن (بروبس) قد أمكنه إستمالة فريق من المصريين، فآزروه حتى تغلب على جيش (زبدا)، وبعد ذلك اضطر التدمريون إلى التخلى عن مصر، وتركها للرومان، وكان ذلك أول نكبة فادحة تلحق (بالزباء).

ومنذ ٢٩ أغسطس سنة ٢٧١م، إنقطع فى الإسكندرية ضرب النقود التدمرية التى كانت تحمل صورة الملكة (الزباء) وإبنها (وهبلات).

وخسارة مصر على هذا النحو، قد أدت إلى إضعاف معنويات التدمريين، وشدت من أزر الرومان، وانعكس ذلك على أوضاع تدمر العسكرية فى آسيا الصغرى وبلاد الشام آنذاك.

وكان أهل (خلقيدون) قد أبوا التسليم للتدمريين أثناء زحفهم على آسيا الصغرى وأرسلوا إلى الإمبراطور الرومانى فى طلب النجدة.

وبعد أن إستقرت أوضاع الإمبراطورية فى أوروبا، سار الإمبراطور (أورليانوس) على رأس جيش إلى الشرق، وفى أوائل عام ٢٧٢ ميلادية، عبر مضيق (البوسفور)، وفاجأ التدمريين بنزوله بقواته فى (بتينيه) وطردهم منها، ثم سار إلى (جلاطية) Galatia، و(قفادوقى Cappadocia، حتى بلغ (أنقرة)، وسلمت له البلاد، ثم واصل الرومان تقدمهم السريع إلى بلاد الشام.

وكان التدمريون قد توقفوا عند (خلقيدون)، ولم يتمكنوا من الاستيلاء على (نيقية)، وتراجعوا فى خططهم العسكرية الهجومية، ثم أخذوا موقف الدفاع على أثر تقدم الرومان السريع، الذى أفزع الملكة (الزباء) ورجالها، وجعل المدن التى كانت موالية لتدمر تشك فى مقدرة ملكتها فى الدفاع عن نفسها، وشاعت بين الناس أبناء عن اعتزام الإمبراطور الرومانى القضاء على حكم الملكة الزباء، وإخضاع تدمر لحكم الرومان.

وعند مدينة (أنطاكية) Antiochua، تهيأت الملكة (الزباء) لملاقاة الإمبراطور (أورليانوس) وقواته، وكانت قواتها بقيادة القائد (زبدا).

وفى بداية المعركة، هجم فرسان تدمر على الكتائب الرومانية وشتتوا شملها، فأمر الإمبراطور بتراجع قواته لمسافة معينة، ليوهم التدمريين أنه قد فر من المعركة، ثم يباغتهم بالهجوم بعد أن يبتعدوا عن قواعدهم.

وبالفعل ظن التدمريون أن الرومان قد انهزموا، فتعقبوهم إلى مسافات بعيدة، وفجأة انقلبت عليهم الكتائب الرومانية، وباغتوهم بهجوم ساحق بعد تطويقهم، وألحقوا بهم هزيمة منكرة عند (أنطاكية).

وعلى أثر ذلك إستقر رأى الملكة (الزباء) على ترك المدينة والرحيل عنها بسرعة، وخاصة أن سكانها كانوا يكرهون حكم التدمريين، فكان فيها جالية كبيرة من اليونانيين، كانوا يفضلون حكم الرومان على حكم الشرقيين عليهم، وكان بها جماعة من النصارى إستاؤوا من موقف الملكة (الزباء) تجاه رجل الدين «بولس السميساطى»، الذى قرر مجمع (أنطاكية) عزله من منصبه، فجعلته الرئيس الروحى والدنيوى على الأنطاكيين، كما أن اليهود الذين كانوا يعيشون فى المدينة كانوا يكرهون حكم التدمريين.

وبعد مغادرة (الزباء) وقواتها (أنطاكية)، توجهت إلى حمص، وفى اليوم التالى دخلها (أورليانوس) بجيشه، وأعطى أهلها الأمان.

ثم أخذ (أورليانوس) يتعقب خط سير الملكة (الزباء) وقواتها، وفتح عددا من

المدن فى طريقة، حتى أدركها عند مدينة حمص، وكانت على رأس جيش قوامه ٧٠ ألف رجل.

وفى حمص دارت معركة حامية بين الفريقين، وقد تفوق التدمريون فى الجولة الأولى، وولي الرومان الأدبار مذعورين، ولكن الإمبراطور (أورليانوس) أدرك نقطة الضعف في خطة قتال التدمريين، وسببها وجود فاصل ومسافة بعيدة بين الفرسان والمشاة فى جيش تدمر، وكان فرسان تدمر يتعقبون فرسان الروم الفارين، وعندئذ أمر (أورليانوس) جنوده بالهجوم على مشاة التدمريين، وكانوا أقل من جنود الرومان فى التدريب والاستعداد، فتمزقوا كل ممزق وحلت بهم هزيمة منكرة.

وأثناء المعركة أحجم أهل حمص عن مساعدة التدمريين، الذين كانوا يحقدون عليهم، ويريدون التحرر من سيطرتهم.

وعقب ذلك اضطرت الملكة (الزباء) إلى مغادرة حمص بقواتها، قاصدة عاصمتها تدمر، للدفاع عنها، فدخلها الإمبراطور أورليانوس بجيشه، وتوجه بالشكر إلى إله حمص (الشمس)، وتعهد بأن يوسع معبده ويجمله بأحسن زينة.

زحف الرومان على العاصمة تدمر ودعوة الملكة الزباء للإستسلام:

وقد أيقن الإمبراطور (أورليانوس) أن أحراز نصر حقيقى يمكن أن يحقق الإستقرار للإمبراطورية فى تلك المنطقة، لا يتأتى إلا بفتح تدمر، والقبض على الملكة (الزباء)، لذلك قرار الزحف على المدينة بأقصى سرعة، قبل أن تتمكن الملكة من تحصينها، أو تتصل بالفرس وبالقبائل العربية فى البادية لمساعدتها.

وبسرعة وصل (أورليانوس) العاصمة تدمر، أن تغلب على صعوبات ومشقات الطريق وسط الصحراء، وألقى الحصار عليها، ولكن التدمريين أخذوا يقذفون الرومان بالحجارة والنيران والنبال، وصبوا عليهم أقذع الشتائم والاستهزاء من فوق أسوار المدينة.

وأثناد ذلك تعرض الإمبراطور (أورليانوس) فى روما للسخرية، ووصف بعجزه عن احتلال هذه المدينة الصحراوية، وعدم قدرته على قهر إمرأة تحكمها، فساءه

ذلك كثيرا، وكتب إلى مجلس الشيوخ **يقول**:

«... قد يستضحك منى بعض[٤] الناس لمحاربتى إمرأة... فأعلموا أن الزباء إذا قاتلت كانت أرجل من الرجال..»

وبعد ذلك كتب إلى الملكة (الزباء) طالبا منها التسليم والخضوع للرومان، حتى تستحق العفو، وتنال السلامة، وأن يسمح لها بالإقامة مع أسرتها فى مدينة يحددها مجلس الشيوخ.

وقد رفضت (الزباء) فى كبرياء هذه الدعوة للخضوع والاستسلام، وأبلغته أنها ستقاوم للنهاية عندما تصلها مساعدات الفرس والأرمن والعرب، وقالت فى جوابها:

«إن ما التمسته منى فى كتابك لم يتجاسر[٥] أحد من قبلك أن يطلبه منى برسالة، أنسيت أن الغلبة بالشجاعة، لا بتسويد الصفحات، إنك تريد أن أستسلم لك، أتجهل أن كليوبترة قد آثرت الموت على حياة سبقها عارة الدّبرة.

فها أناذى منتظرة عضد الفرس والأرمن والعرب لفك شباتك وكسر شوكتك، وإذا كان لصوص الشام قد تغلبوا عليك وهم منفردون، فما يكون حالك إذا اجتمعت بحلفائى على مقاتلتك، لا شك أنك ستذل وتخنع لى، فتجرد نفسك من كبريائها التى حملتك على طلب المحال كأنك مظفر منصور فى كل أين وآن».

ولكن الفرس لم يتمكنوا من إرسال قوة لمساعدة الملكة (الزباء)، بسبب الفتن الداخلية التى ظهرت فى بلادهم، بعد وفاة الملك (شابور الأول) فى عام ٢٧١ ميلادية، وتولية ملك ضعيف عزل بعد سنة من حكمه، هو (هرمركز) Qrmidus.

كما أن القبائل العربية لم يمكن الاعتماد عليها وحدها، فقد تحرش قسم منها بالرومان ثم تخلوا عن مهاجمة المحاصرين، بعد أن أصيبوا بخسائر فادحة، وقسم آخر أغراهم الإمبراطور بالمال، فانفقوا معه وتجنبوا محاربته.

(٤) د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام – الجزء الثالث. ص ١٢٠.
(٥) د. جواد على: المرجع السابق – ص ١٢١.

وعندئذ أدركت (الزباء) أنها تحارب فى معركة خاسرة، وأن لا أمل فى إرغام العدو على فك حصاره عن المدينة، بعد أن تقاعس الفرس والقبائل العربية والأرمن عن مساعدتها.

ومع تحسن وضع الإمبراطور بوصول مدد كبير إليه من الشام، بالإضافة إلى كمات كبيرة من المواد الغذائية، تكفى لإطالة أمد الحصار، فقد قررت التخلى عن العاصمة مؤقتا، وتسللت منها ليلا بنفسها قاصدة الفرس، لعلهم يرسلون لها النجدة المطلوبة، التى يمكن أن تحسم الموقف وتبدل الحال الراهن.

وقد دبرت أمر هذه الخطة فى سرية تامة، وهربت من المدينة ليلا دون أن يشعر بها الرومان، ويرى بعض الباحثين أنها هربت عن طريق نفق سرى يتصل بمعبد المدينة، ويمر من تحت السور إلى مسافة كافية خارج المدينة، وله باب سرى خصص لمثل هذه الحالات، وربما خرجت من أنفاق سرية أخرى، وهذه السراديب والقنوات ترى بقاياها تحت أسوار تدمر وقلاعها حتى الوقت الحاضر.

ويذكر أن (الزباء) بعد خروجها من المدينة امتطت ناقة سريعة، واتجهت بها نحو نهر الفرات، ووصلت سالمة إلى شاطئ النهر عند (دير الزور)، وبالقرب من (زليبية Halebiya).

ولكن الحظ قد خانها بعد ذلك، إذا اكتشف بسرعة أمر هربها من المدينة، وكان صدمة للإمبراطور، فأمر على الفور، خيرة فرسانه بامتطاء أسرع خيوله، لاقتفاء أثرها، والقبض عليها، وإحضارها وهى على قيد الحياة، مهما كلفهم الأمر.

وبينما كانت (الزباء) تهم بركوب زورق لينقلها إلى الشاطئ الآخر من نهر الفرات، إنقض عليها هؤلاء الفرسان، وعدوا بها مسرعين إلى تدمر، للمثول أمام الإمبراطور (أورليانوس)، وهو على رأس جنوده يحاصر تلك المدينة العنيدة التى امتنعت عن الخضوع والتسليم له.

ولما أحضرت (الزباء) أمام الإمبراطور، قال لها «صرت فى قبضتنا[٦] يازينب، ألست أنت التى أدت بك الجسارة إلى أن تستصغرى شأن قيصر رومانى؟».

فأجابت قائلة «نعم، إنى أقر لك الآن بكونك قيصرا، وقد تغلبت عليّ، وأما غاليانوس وأورليوس وغيرهما، فلست أنظمهم في سلك القياصرة، وإنما بارتنى فيكتورية في السلطنة والعز، فلولا بعد الأوطان لعرضت عليها أن تشاركنى فى الملك».

وكان لهذه الكلمات تأثيرها الطيب في نفس (أورليانوس)، فأعطاها الأمان.

سقوط تدمر في بداية عام ٢٧٣ ميلادية وخضوعها للحكم الرومانى المباشر:

وبعد أن علم أهل المدينة المحاصرون بأسر ملكتهم، انقسموا فى الرأى، فأراد فريق منهم الإستمرار فى المقاومة وعدم تسليم المدينة مهما كان الثمن، وفريق آخر آثروا السلامة، ورأوا عدم الفائدة فى إطالة أمد المقاومة، وقد تغلب رأيهم وصاحبوا من أعلى الأسوار فى طلب الأمان، ثم فتحوا أبواب المدينة، فدخلها الإمبراطور (أورليانوس) وقواته ظافرين، وكان ذلك فى بداية عام ٢٧٣ ميلادية.

ويذكر أن أول عمل قام به الإمبراطور عند دخوله إلى المدينة، هو ذهابه إلى معبد الإله (بعل) Bel، للتشكر على أن وفقه ونصره على أهل تدمر وبعد ذلك تم القبض على حاشية (الزباء) ومستشاريها، والمحرضين على معارضة الرومان، وفرضوا غرامة كبيرة على سكان المدينة.

كما استولى الرومان على أموال (الزباء) وجواهرها، ونهبوا كنوز المدينة، وزخارفها الثمينة لاستخدامها فى تزيين معبد الشمس الجديد الذى أنشئ فى روما.

وقد اختار الإمبراطور قائدا من الرومان نصبه حاكما على المدينة ويدعى (سنداريون) Sandarion، كلفه بحفظ الأمن وإدارة شئونها، ووضع تحت إمرته حامية تضم ستمائة من الرومان.

---

(٦) د. جواد على: نفس المرجع. ص ١٢٣.

ثم غادر (أورليانوس) المدينة، متوجها إلى حمص، واصطحب معه (الزباء)، ومستشاريها والآخرين الذين قبض عليهم.

وفى حمص، على زعم المؤرخ (زوسيموس) Zosimus، تعرضت (الزباء) ومستشاروها للمحاكمة أمام الإمبراطور، فأخذت تتنصل من مواقفها المتصلبة السابقة مع الرومان، تحت إغراء ونصائح بعض مستشاريها، وفى مقدمتهم (لونجينوس)، فحكم عليه الإمبراطور بالإعدام، ونفذ فيه حكم الموت فورا بعد تعذيبه، وقد شكك بعض الباحثين فى صحة هذه الرواية، بحجة أن سمو أخلاقها وثقافتها يمنعها من الوشاية بأتباعها الذين أخلصوا فى خدمتها.

وبعد ذلك غادر الإمبراطور (أورليانوس) حمص قاصدا روما، ومعه (الزباء) وأبناؤها وعدد من الأسرى، ويذكر أنه أثناء عبور (البوسفور) غرق عدد من أتباع (الزباء)، وقيل أن بينهم إبنها (وهبلات).

إندلاع الثورة على الرومان فى تدمر ومصر وتصدى الإمبراطور أورليانوس لقمعها والاحتفال بانتصاراته فى روما:

وأثناء تواجد الإمبراطور فى (تراقية) Threzien، جاءت أخبار عن قيام أهل تدمر بالثورة على (سنداريون) الذى عنيه الإمبراطور حاكما عليها.

كما وصلت أخبار من مصر تفيد قيام (فيرموس) الثرى المشهور بالثورة، وأنفق أموالا كثيرة لمساعدة الجمعيات الوطنية المناهضة لروما، وشكل جيشا استولى به على الإسكندرية، واتخذ لنفسه ألقاب قياصرة الرومان.

وقد جمع (فيرموس) حوله أنصار (الزباء) فى مصر، وأخذ يتفاوض مع التدمريين لتوحيد الخطط، والعمل بجدية للتحرر من حكم الرومان والحصول على الاستقلال، وكان ذلك هدف الثوريين فى مصر وتدمر.

وعلى أثر ذلك أسرع الإمبراطور (أورليانوس) بالعودة إلى الشرق لمعالجة، الموقف المضطرب هناك قبل فوات الأوان.

وعندما وصل إلى تدمر، تداعت المدينة بسرعة للمفاجأة المذهلة بعودته، فأذعنت للإمبراطور يتصرف فيها كيفما شاء.

وكان الثوار فى تدمر قد أعدموا (سنداريون) الحاكم الذى عينه الإمبراطور على المدينة، وفتكوا بحاميتها الرومانية.

وقد عفى الإمبراطور عن (أنطيوخس) الذى أقامه التدمريون ملكا عليهم، وهو من أقارب (الزباء)، ولكنه اقتص من أهلها، وجعلهم تحت رحمة جنوده، الذين أعلموا فيهم سيوفهم وخناجرهم، بدون تمييز للجنس أو العمر.

كما أباح لهم نهب أموال التدمريين، وتخريب وهدم مبانى المدينة وأبراجها ودك أسوارها.

وبعد فترة صفح الإمبراطور عن أهل تدمر، فطلب من قائد المدينة أن يكف الجند عن المذابح والتخريب، وأن يعيد بناء هيكل الشمس وتزيينه، وترميم الأسوار.

وأثناء تواجد (أورليانوس) فى تدمر، صدقوة أرسلها الفرس لمساعدة أهلها، ثم عين أحد قادته الماهرين ويدعى (ساتر نينوس) Saturninus، قائدا على الحدود لحمايتها من هجمات الفرس.

وبعد أن أطمأن على الأوضاع فى تدمر، توجه (أورليانوس) إلى مصر لقمع الثورة فيها، فاستولى على الإسكندرية، وقبض على حاكمها (فيرموس) الذى اتخذ لقب قيصر، وأمر بمعاقبته فى قسوة بالغة، كام يعاقب اللصوص، بإعدامه مصلوبا على صليب خشبى.

وبعد هذه الإنتصارات التى أحرزها الإمبراطور (أورليانوس)، وتمكنه من إعادة الإستقرار إلى الأقاليم الشرقية للإمبراطورية، عاد إلى عاصمته روما، فى عام ٢٧٤ ميلادية، وأضفى عليه لقب «معيد الشرق للرومان» Recepto Orientis. وكان دخول الإمبراطور للعاصمة فى موكب عظيم، اشترك فيه ١٦٠٠ مصارع، وعدد كبير من الأسرى من أقوام مختلفة، من بينهم الملكة (الزباء) وأبناؤها، وسار فى الموكب ثلاث عجلات ملكية مزينة بالذهب والجواهر، وهى عجلة (أذنية الثانى)

زوج (الزباء)، وعجلة أهداها (هرمز بن شابور) إلى القيصر، وعجلة (الزباء) التى أعدتها لتدخل بها عاصمة الرومان فى حالة إنتصارها فى الحروب السابقة.

وكان يتقدم الموكب عشرون فيلا، وعدد من الوحوش والحيوانات التى جئ بها من فلسطين ومصر وليبيا وأماكن أخرى.

وقد سار الموكب إلى (الكابيتول)، ثم إلى قصر الإمبراطور.

وفى اليوم التالى أقام الشعب إحتفالا خاصا، جرت فيه ألعاب مختلفة، وقدمت فيه مشاهد تمثيلية، وسباق من مختلف الأنواع.

الملكة الزباء ومدينة تدمر فى أيامهما الأخيرة:

أما (الزباء)، فقد خصص لها ولأبنائها بيت فى مدينة (تيبور) Tibur بإيطاليا، عاشت فيه مع أبنائها بقية حياتها، فى عزله بعيدا عن السياسة والشرق.

وقد تحدث بعض المؤرخين اليونان عن زواج الزباء بأحد أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى، وذلك ضمن الأساطير التى راجت عن حياة ملكة الشرق الزباء، وعن أبنائها فى الفترة الأخيرة من حياتها.

ولم تعد تدمر على حالها منذ غادرتها الملكة (الزباء)، وخاصة بعد أن نقل مركز الطرق التجارية بعيدا عنها.

وفى عهد الإمبراطور (ديوكليتيانوس) Dioceletian (٢٨٥ - ٣٠٥م)، كانت تدمر مجرد قرية صغيرة، وقلعة من بين قلوع الحدود لصد هجمات رجال القبائل على المدن المتاخمة للبادية.

وقد استمرت على هذا الحال حتى فتحها المسلمون عام ٦٣٤م.

حضارة تدمر

أهم ما عرف عن حضارة تدمر يرجع إلى العصر الرومانى، لكثرة الوثائق التاريخية والآثار التى تعطينا فكرة واضحة عن حضارتها.

وبوجه عام كانت تدمر مدينة عربية شرقية، بالرغم من الطابع (الهيليني – الرومانى) الذى غلب عليها.

وهذه أهم مظاهر حضارة تدمر:

نظام الحكم

تأثرت النظم الإدارية عند التدمريين بالأساليب والمفاهيم اليونانية، ويتبين من الوثائق أن تدمر كان فيها مجلسان لإداتها، (مجلس الشيوخ) ويدعى Boule، و(مجلس العشائر)، ويدعى Demos، ويضم كل البالغين من أفراد القبيلة.

أما مجلس الشيوخ، فكان يضم أصحاب الجاه والثروة من السكان، ورئيس هذا المجلس كان له مركز هام فى شئون الدولة.

وفى القرن الثانى الميلادى إزداد نفوذ مجلس الشيوخ، بينما تناقص نفوذ مجلس العشائر، وأثناء حكم أسرة أذنية، تناقص نفوذ كلا المجلسين.

وكان يشرف على شئون المدينة رئيس يدعى (أراجون)، وموظفى يدعى (متقن المدينة)، ويتولى الشئون المالية، وموظف يدعى Procurator، ويشرف على الأسوار، وموظف يطلق عليه Agoronomos، وهذه الوظيفة تشبه وظيفة المحتسب فى النظام الإسلامى.

ويتولى الشئون القضائية وفض المنازعات موظف يدعى Guridicus. وهناك قائد للجيش يدعى Argapad، وقائد لحامية المدينة يدعى Strategos. ولا توجد معلومات كثيرة عن إختصاصات هؤلاء الموظفين، ولا علاقتهم بعضهم ببعض.

وغالبا كانت السلطة فى يد رئيس المدينة (الأراجون)، الذى كان يشرف أيضا على حامية المدينة.

وفى عهد أسرة أذنية، كانت السلطات كلها فى يد الملك، الذى تولى بنفسه الإشراف على إدارة الشئون المدنية، مما أضعف سلطة المجالس التشريعية والتنفيذية.

وبالإضافة إلى هذه التنظيمات، كان للمدينة قوة من الشرطة تتولى حماية

القوافل والطرق التجارية من هجمات البدو، وذلك برئاسة أحد زعماء التجار والأثرياء، كما كانت هناك قوة عسكرية (ميليشيا)، تتخذ مواقعها عند الآبار والمواضع الهامة فى الصحراء.

وفى أوقات الحروب كان يجمع جيش يتولى (الستراتيجوس) قيادته وإدارة شئون القتال.

ولقد اشتهر التدمريون فى فن الرماية، وكان لديهم أمهر الرماة بالسهام، وقد كوّن الرومان كتائب منهم استخدموها فى حروبهم.

وكانت لهم أيضا شهرة بفرسانهم، وقد ألف منهم أذنية فرقة جهزها بالدروع وصفائح من المعدن يلبسها الفارس من رأسه إلى قدميه لحمايته من الأذى، كما كسيت الخيل والإبل بصفائح معدنية لوقايتها على نحو ما كان يفعل الفرس أثناء القتال.

وقد اكتسبت هذه الفرق شهرة كبيرة فى الحروب مع الفرس والرومان.

الحياة الإقتصادية

التجارة:

كانت التجارة تمثل النشاط الأول لأهل تدمر، وأهم مصدر لدخلهم، نتيجة لموقعها الهام الذى كانت تلتقى عنده طرق القوافل القادمة من مختلف الجهات، مما جعلهم يتصلون بأسواق العراق وإيران والهند والصين والخليج العربى والحجاز واليمن، فضلا عن أسواق الشام ومصر وجزر البحر المتوسط، والبلاد الأوروبية المطلة عليه، مثل أسبانيا والغال (فرنسا) وروما.

وبعد سقوط دولة الأنباط، إنتقل مركز النشاط التجارى إلى تدمر، وتجمعت فيها رؤوس الأموال والذهب والفضة والجواهر.

وتبين من إحدى النصوص التى عثر عليها، وترجع إلى عام ١٠٠ ق.م، أن القوافل التجارية كانت تمر بمدينة تدمر فى أثناء تنقلاتها بين مدينة (دورا Doura

والشام.ويتضح من قوائم الجمارك على السلع التجارية، أن أهم البضائع التى كانت تشملها متاجرهم، الأنسجة الصوفية، والحرير، والأرجوان، والعاج، والزجاج، والعطور، وزيت الزيتون، الجبن، والفواكه، والخمر.

وكان مجلس شيوخ المدينة يحدد رسوم الجمارك التى تحصل عن البضائع التى تمر بها، أو تباع فيها.

وكان من الضرورى إنشاء علاقات سياسية وإقتصادية مع الفرس والرومان والأروام والقبائل العربية فى البادية، التى كان يفرض زعماؤها إتاوة سنوية، أو ضريبة معينة، مقابل مرور القوافل التجارية سالمة فى أراضيها.

كما اقتضت سلامة القوافل التجارية، إرسال حراس مسلحين بصحبتها، وإقامة مراكز للأمن والإستراحة، فى مواضع متعددة من البادية.

وقد أولى الإمبراطور الرومانى (هدريانوس) عناية خاصة بحماية طرق القوافل البرية التى تصل تدمر بنهر الفرات، الذى كان أحد الشرايين المهمة للتجارة العالمية فى ذلك العهد، ويقوم بمهمة قناة السويس فى الوقت الحاضر.

ومن أجل ذلك سعى (هدريانوس) إلى تحسين علاقاته بالفرس، ووضع حامياته على شواطئ الفرات الغربية، ويقال أنه أنشأ أسطولا فيه، كما اهتم بالمحافظة على الأمن فى البادية.

ونتيجة لذلك تمكنت تدمر من توسيع تجارتها، وزادت فى عدد قوافلها، وجمعت ثروة هائلة.

وكثيرا ما ورد فى النصوص ذكر (زعيم القافلة)، و (زعيم السوق)، وكانت لهما ولكبار التجار مكانة مرموقة فى المجتمع.

الزراعة:

كانت الزراعة مهملة فى بادئ الأمر فى تدمر، ثم تقدمت بعد ذلك، على أثر بناء السدود لجميع مياه الأمطار فيها واستغلالها فى الرى.

ومن الآثار الباقية فى تدمر سد طوله نصف ميل، وأقيم بين تلين، لتجميع مياه الأمطار فيه.

الحياة الإجتماعية

كان سكان تدمر يشملون طبقات المواطنين الأحرار، والعبيد، والأجانب. والمواطنون الأحرار كانوا ينتمون إلى عدة قبائل منتشرة فى هذه المنطقة، مثل بنى أنوبات، بلتى، يلفا، برسيه، جدبعل، زيد بعل، حتار، حشائش، حنف، قمر وغيرها.

ولم يكونوا متكافئين فى منزلة الشرف، فهناك فئة خاصة لها مكانة شرفية عالية، تختص بالوظائف الإدارية الرفيعة، وتمسك بزمام التجارة، وتتمتع بالثروة والنفوذ، وهؤلاء كانوا يتشبهون فى معيشتهم بالرومان، والبعض منهم كانوا يتسمون بأسماء إغريقية أو رومانية.

أما فئة العامة العريضة فكانت أقل شأنا، وتضم الفلاحين والعمال والمتشغلين فى القوافل التجارية.

ولطبقة العبيد أدنى منزلة، وبعض العبيد المحررين كانوا يتمتعون بمكانة أفضل نسبيا فى المجتمع.

وطبقة الأجانب، وكانت تشمل جاليات يونانية ورومانية وفارسية، ويهودية وهؤلاء فضلوا السكن فى تدمر على الأماكن الأخرى، وتقيم كل منها فى حى خاص بالمدينة.

وكان الفرس يتمتعون فى تدمر بمكانة عالية، ويعاملون كأنهم من المواطنين الأحرار. أما الجالية الأجنبية الأخرى، فكانت أقل منزلة، ومنهم الرومان الذين كانوا يشغلون بعض الوظائف، وبينهم بعض التجار الذين يقيمون لأغراض تجارية بصفة مؤقتة، وكانوا يسكنون فى خانات خاصة، ويخضعون لمراقبة موظف خاص يشرف على الغرباء والزوار الأجانب.

وكان هناك جالية يهودية نزحت إلى تدمر فى زمن غير معروف على وجه التحديد، وربما كان ذلك بعد سقوط القدس فى أيدى الرومان فى عهد الإمبراطور (تيتوس)، وأخذوا يشتغلون بالتجارة، وكوّنوا ثروات هائلة، كما قام بعضهم بالتبشير لديانتهم بين السكان.

وكان لبعض اليهود شأن كبير فى المدينة، بينهم (يوليوس أورليوس شميط)، الذى كان يرأس إحدى القوافل التجارية، وينفق عليها من ماله خاص، وقد أقيم له تمثال فى عام ٢٥٧ ميلادية.

ويذكر أن اليهود الذين كانوا ينتمون إلى منطقة الفرات كانوا يكرهون تدمر، واشتركوا مع الفرس والرومان فى حروبهم ضد حكام تدمر، وخاصة فى عهد الملكة (الزباء).

وكان لكل جالية أجنبية رئيس من بين أفرادها، يتولى الإشراف على شئونها.

الفن والعمران:

أول ما نشأ الفن فى تدمر كان ذا طابع محلى، ونتيجة للإختلاط والمؤثرات الخارجية، فقد امتزج الفن التدمرى بعناصر يونانية، ورومانية وفارسية، وعراقية، وسورية.

ويظهر التأثير اليونانى – الرومانى فى المخطط العمرانى العام للمدينة، فمعظم المبانى كانت وفق الطراز الهيلينستى بزخارفه العديدة والمتنوعة.

وفى بقية المظاهر الفنية يتجلى الأسلوب الشرقى الأصيل، النابع من التقاليد البابلية، والأشورية، والسورية، والعربية بوجه عام.

فن النحت:

ويعتبر النحت أبرز آثار الفن التدمرى، وبعض الزخارف تبدو كأنها نفذت على خشب، لا حجر، بسبب دقتها المتناهية.

وكان الفنانون التدمريون ينحتون الحجر فى سهولة ويسر، ويستخدمون فى زخارفهم الجص وعجينة الجبس، ويقتصر ذلك غالبا على تزيين الأفاريز والنوافذ، وأقدم المنحوتات التى عثر عليها ترجع إلى منتصف القرن الأول قبل الميلاد، وتتميز بصفات مشتركة فى وضع الجسم وتفاصيله والثياب البسيطة التى تدتديها، وتشمل تماثيل وآلهة يمتطون خيولا وجمالا، وتماثيل للإلهين عغلبول ويرحبول، وهناك تماثيل غير كاملة لعظماء المدينة وشيوخ قبائلها وأعضاء مجلس الشيوخ، وكبار الموظفين والقادة والتجار والكهنة، تخليدا لذكراهم.

وهذه التماثيل مثبتة فوق أعمدة، ووضعت فى شوارع المدينة ومعابدها وفى ميدانها، وأغلبها كان بالحجم الطبيعى، وفى الهيئة التقليدية، ووضعت عليها ثياب طويلة تصل إلى القدمين، وفق النسق (البارثى)، وهو عبارة عن قميص وسروال مزركش، أوتبعا للزى المحلى، ويتكون من ثوب طويل وعباءة فوقه، وفى الأقدام تلبس الصنادل، أو الأخفاف والأحذية. ومن المنحوتات الدينية توجد مشاهد لآلهة منفردين أو مجتمعين منقوشة على جدران المعابد، أو أفاريزها أو سقوفها.

ومنها مناظر تمثل التقدمات الدينية فى صورة شخص أو أكثر يشعل محرقة البخور، وأشخاص يقدمون النذور قربانا للآلهة.

وتوجد مشاهد لآلهة ومتعبدين فى أوضاع مختلفة على مذابح القرابين. وهناك عدد كبير من صور الجدران الملونة (الفريسكات)، ذات الطابع (الهيلينستى) فى التفاصيل، وتتمشى مع التقاليد الشرقية القديمة، استخدم الفنانون فى تنفيذها طبقة من مؤنة الجير الأملس والجاف، وأعدوا الألوان من (الأكاسيد) المعدنية، بعد تخفيفها بالماء.

ومن بين هذه الصور أشكال أغصان الشمر مثل غصن الكرمة بأوراقه وعناقيد العنب، وكانت تزين بها واجهة العمائر وغيرها.

العمارة:

في أول عهد تدمر لم يكن هناك مخطط عمراني محدد، ثم اتبعت المخطط العمراني اليوناني – الروماني الذي كان شائعا في المدن السورية خلال العهدين الهيلينستي والروماني.

ومع الإزدهار الإقتصادي والسياسي اللذين عاشتهما تدمر خلال القرن الأول للميلاد، أخذت المدينة تتسع وتنظيم، فمدت الشوارع الواسعة، بينها شارعان رئيسيان، أحدهما شارع عريض معروف (بطريق دمشق)، يتقاطع في الشارع الآخر، ويعرف (بالشارع الكبير) أو (طريق الأعمدة)، وفي مكان التقاطع شيدت (التيترابيل)، وهي «مصلبة من أربع[7] دكات ضخمة فوق كل منها أربعة أعمدة غرانيتية بينها تمثال، وفوق الأعمدة تيجان كورنثية تحمل سقيفات مزينة بأفاريز وأطناف غاية في الذوق.

ومن هذا الشارع الرئيسي تتفرع طرقات مستقيمة تؤدي إلى بيوت المدينة... كما تؤدي إلى معابد المدينة ومنها معبد بعل شمين... وإذا ما سرنا قليلا نجد في الجهة الأخرى من الشارع مسرح تدمر الذي بني في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي على الطراز الروماني... ويحف بالمسرح رواق بشكل قوس يؤدي إلى بناء مجلس الشيوخ أو المجلس البلدي، وهو يضم في صدره ردهة للإجتماعات فيها مسطبة بشكل حدوة حصان لجلوس الأعضاء... وإلى الجنوب الغربي من المسرح هناك (الأغورا) أي الميدان، حيث تعقد الإجتماعات العامة، وهذا البناء من منجزات القرن الثاني، ومشيد على الطراز الأيوني... وفي الزاوية الغربية من الميدان بناء أو هيكل للموائد الدينية...».

ويبلغ طول الشارع الكبير ١٢٤٠ ياردة، ويمتد من الجهة الجنوبية الشرقية نحو الشمال الغربي، ومشيد في بدايته قوس نصر كبير، وعلى جوانبه أقيم ٢٧٥ عمودا اسطواني الشكل، طول كل منها ١٠ متر، وقطره متر واحد، ولا يزال ١٥٠ عمودا منها قائما حتى الآن، ويطلق عليه «الرواق الأعظم».

---

(٧) عدنان البني: الفن التدمري. ص.ص ٦٦ – ٦٩.

وهذه الأعمدة قد شيد معظمها من المرمر الأبيض، وبعضها من الجرانيت، وكلها ذات تيجان (كورنثينة)، وترتبط الأعمدة ببعضها من أعلى. وتتفرع من الشارع الكبير دروب فرعية تقام على جانبيها البيوت والحوانيت ،المخازن.

وفى داخل المدينة كانت توجد حمامات ودور فخمة استخدم فى تزيينها الفسيفساء والرخام، وأهمها قصر الملكة (الزباء) الذى يعتبر معجزة فى فن النحت.

المعابد:

وأهمها معبد (بعل)، الذى كان يعتبر أيضا هيكلا لكبار آلهة التدمريين الآخرين مثل (يرحبول)، و (عغلبول)، وهذا المعبد أبرز وأروع ما خلفته تدمر من آثار، كما يعتبر أكبر معبد فى الشرق الأدنى القديم، وقد اشترك المعماريون والفنانون التدمريون فى تجديده وتوسيعه وترميمه، جيلا بعد جيل حتى نهاية عهود تدمر.

وهذا المعبد مقام على أرض مرتفعة، وأمامه قوس كبير، وهو يتألف من صحن أو باحة مكشوفة مربعة واسعة، تتصل بدرج عريض يؤدى إلى بوابة فخمة، أمامها رواق كبير، وهذه البوابة كانت تغلق بأبواب مزخرفة بالبرونز المذهب، وحول صحن المعبد من جهاته الأربعة أروقة مزدوجة مقامة على العديد من الأعمدة ذات التيجان الكبيرة، ومثبت عليها حوامل للتماثيل.

وجملة هذه الأعمدة ٤٠٠، الباقى منها ١٠٠ عمود، مقامة فى صفوف منتظمة، وتعلو واجهة الأورقة أفاريز نحتت عليها نقوش بديعة، تمثل مشاهد دينية مختلفة، وتحتها بعض المحاريب.

ويحيط بالهيكل المركزى الشهير (هيكل بعل شمين)، أو (هيكل الشمس)، من جميع الجهات، رواق محمول على أعمدة مزينة بتيجان (كورنتية) من البرونز المذهب، وفوقها أفاريز نقشت عليها مناظر دينية، وتغطى هذه الأورقة بسقوف من الحجر، مزينة بنقوش تمثل مشاهد دينية، وأشكال نباتية رائعة.

وفى داخل الهيكل شيد محرابان، زينت سقوفهما بنقوش بديعة للغاية وبالقرب من هيكل (بعل)، ومن قوس النصر، اكتشف حديثا مسرح مدرج.

المدافن:

كان أهل تدمر يطلقون على القبر (بيت الأبدية)، وكانوا يضعون موتاهم في مدافن خارج أسوار المدينة، ويجرى دفن الموتى في إحتفالات دينية، تنصب فيها موائد الطعام.

وهذه المدافن تعتبر ميدانا آخر أظهر فيه فنان ذلك العصر براعته الخالدة، وذوقه الرفيع.

وتوجد في تدمر ثلاثة نماذج من **المدافن هي:**

١) المدفن البرج:

وهو أول نماذج المدافن في تدمر وأقدمها، وفي مظهره الخارجي يشبه البرج المربع، ويزيد عددها على مائة مدفن متناثرة حول المدينة.

وهذا النوع من المدافن قد مر في تطوره بعدة مراحل، ويتكون من طابقين أو ثلاثة إلى خمسة طوابق، وقد يتجاوز إرتفاعها عشرين مترا، وعرضها حوالي عشرة أمتار، وكان يدفن فيها العديد من الجثث من عائلات الأعيان. وبعض هذه المدافن إتخذ شكل أهرام بسيطة.

وللصعود من طابق إلى آخر، تستخدم أدراج ملتوية، وفي جنبات كل طابق توابيت و (معازب) للدفن نقشت عليها بعض الأشكال الجنائزية.

وفي واجهة الدفن الرئيسية شرفة بارزة، تضم منحوتات تمثل صاحب المدفن وأهله، إلى جانب لوحات كتب عليها تاريخ الفن.

وتشاهد بقايا مقابر مشابهة لهذه المدافن في المدن التي خضعت لنفوذ دولة تدمر، في منطقة الفرات الأوسط.

كما انتشر هذا النوع من المقابر في أطراف الشام والعراق، ويعتبر نمطا خاصا لبناء القبور لدى العرب المتحضرين.

٢) المدفن البيت:

ظهر هذا النوع من المدافن منذ القرن الثانى الميلادى، ويشبه إلى حد كبير، البيت المكون من طابق واحد، وله مدخل مزين بالنقوش الجميلة، مثبت عليه باب من ضلفتين، ووراءه دهليز يؤدى إلى باحة تضم أربعة أعمدة تحمل رواقا يحيط بجوانبه المبنى، والسقف منقوش بالكثير من الزخارف الهندسية.

وحول الباحة، وعلى طول الجدران، بنيت مصاطب أقيمت بداخلها (معازب)، ويضم كل منها ثلاثة قبور موضوعة فوق بعضها، وعلى المصاطب منحوتات جنائزية تمثل أصحاب المدهن وعائلاتهم.

٣) المدفن الأرضى:

وقد انتشر هذا النوع من المدافن فى القرنين الثانى والثالث للميلاد. وكان يحفر القبر فى طبقة صخرية بشكل حرف T المقلوب، بعمق سبعة أمتار، ويستخدم فى النزول إلى المدفن درج مستقيم أو منعطف، أو منحدر مدرج.

وكان المدفن الأرضى يتكون عادة من باحة تزينها (مضائد) بارزة قليلا عن الجدارين الجانبين، وفى واجهة المدفن الخارجية نافذة حجرية مخرمة للإنارة والتهوية، تطل على باحة داخلية تتوسط جناحا رئيسيا فى صدر المدفن، وجناحين جانبيين. وفى جدران هذه الأجنحة حفرت صفوف متوازية من (المعازب) العميقة، وتضم كل منها حوالى ستة مقابر فوق بعضها، وفى كل قبر يوضع أحد الموتى، ويغلق عليه بتمثال نصفى له.

الديانة:

وهى لا تختلف كثيرا عن الأديان التى كانت سائدة فى شمال سوريا، وعند القبائل العربية فى البادية.

وكانت تتميز غالبا (بالنظام الشمسى)، الذى ارتكزت عليه ديانة عرب الشمال، وكان التدمريون يعبدون آلهة متعددة ترمز إلى مظاهر الطبيعة، مثل بقية

الساميين فى هذه العصور القديمة، ويزيد عددها على أربعين إلها، وقد وردت فى الكتابات التدمرية أسماء حوالى ٢٢ صنما، بعضها كان معروفا عند العرب، ويحمل أسماء عربية، والبعض الآخر آرامى، أو بابلى الأصل.

وأعظم آلهتهم شأنا وأشهرها، الإله (شمشى)، أو الإله (بعل)، ويطلق عليه أيضا (بل)، وهو يمثل الشمس التى عبدوها وشيدوا لها أعظم الهياكل، والإله (بعل شمين) وهو إله السماء، الذى يحمى الزراعة.

ومنها الإله (يرح بعل)، أو (يرحبول)، وهو إله القمر، والإله (عجل بل)، و(الت) أى (اللات)، والإله (رحم) أو (رحيم)، والإله (عزيزو) أو (عزيز)، ويعتبر حامى القوافل التجارية، والإله (إشتر) أى (عشتار)، والإله (حدد).

وكثيرا ما كانت أشهر هذه الآلهة تعبد مجتمعة فى المعبد، وترسم فى صورة جماعية، يتوسطها الإله (بعل)، وعلى يمينه الإله (بعل شمين)، وعلى اليسار الإله (يرحبول).

وكان لرجال الدين نفوذ قوى فى تدمر، وبعضهم كان يقيم فى المعابد الرئيسية. وفى كثير من المناسبات كانت تقام حفلات دينية، يقدم فيها الطعام والبخور.

وإلى جانب العبادات الوثنية التى كانت أوسع إنتشارا، كان يعيش فى تدمر كثير من اليهود، كانوا يمارسون شعائرهم الدينية فى حرية تامة، ويتمتعون بحقوق المواطنين التدمريين.

كما انتشرت المسيحية فى تدمر، ويستدل على ذلك بورود أسماء عدد من أساقفة تدمر، مدونة فى سجلات الأعمال الكنسية، ومنهم الأسقف (مارينوس) Marinus، الذى حضر المجمع (النيقاوى) Micaea، فى عام ٣٢٥م، والأسقف (يوحنا)، وقد حضر أعمال مجمع (خلقيدون) Chaleedon، الذى إنعقد عام ٤٥١م.

ومنهم أيضا الأسقف (يوحنا الثانى)، الذى نفى فى عام ٥١٨م، فى عهد الإمبراطور (يوسطينوس)، لدفاعه عن عقيدة (المجمع الخلقيدونى)، التى تقول بوجود طبيعتين للمسيح.

الكتابة:

أقدم كتابة تدمرية عثر عليها ترجع إلى عام ٩ قبل الميلاد. وقد استعمل التدمريون فى تدوينهم إحدى اللهجات العوبية، وفى الكتابة استخدموا الخط الآرامى، وقاموا بتطويره إلى نموذج تدمرى، كما فعل الأنباط، وأمكن ترجمته بالإستعانة بالترجمة اليونانية التى كانت موجودة إلى جانب النصوص التى تم اكتشافها.

وفى ذلك الوقت كانت الآرامية لغة الكتابة والثقافة فى المنطقة الواسعة الواقعة فى غربى نهر الفرات.

وفى بعض الكتابات التدمرية تظهر بعض المصطلحات والكلمات العربية الأصيلة، ومنها أسماء بعض الأصنام العربية.

الفصل الثالث
دولة المناذرة أو مملكة الحيرة

- الموقع الجغرافى لمملكة الحيرة وأصلها.
- **ملوك الحيرة:**
- مالك بن فهم - جذيمة بن الأبرشى.
- عمرو بن عدى وانتقال حكم الحيرة إلى اللخميين.
- امرؤ القيس بن عمرو - النعمان الأول (النعمان بن امرئ القيس) - المنذر الأول.
- **المنذر الثالث: المنذر بن امرئ القيس (ابن ماء السماء).**
- مشاركة الحارث بن جبلة الغسانى فى الحرب إلى جانب الروم ضد الفرس والمنذر الثالث، ووقوع الصدام بين الإمارتين العربيتين.
- يوم حلمية ومقتل المنذرين ماء السماء عام ٥٥٤م.
- عمرو بن هند (عمرو بن المنذر بن امرئ القيس)، ومقتله عام ٥٧٤م.
- قابوس بن المنذر.
- تنصيب أحد الفرس على عرش الحيرة لمدة عام بعد وفاة قابوس.
- النعمان بن المنذر (النعمان الثالث)، وتدهور العلاقات بين النعمان وكسرى الفرس فى أواخر أيامه.
- مقتل النعمان بن المنذر عام ٦٠٥م، وانتهاء حكم المناذرة فى الحيرة، وتولى إياس بن قبيصة العرش.

- موقعة ذى قار، وعزل إياس بن قبيصة عقب هذه المعركة، وتعيين حاكم فارسى على الحيرة.

- المناذرة يستعيدون ملك الحيرة لمدة وجيزة، وتولى المنذر بن النعمان بن المنذر العرش خلالها..

حضارة الحيرة:

- الحياة الإجتماعية:

- العرب - فئات أخرى.

الحياة الاقتصادية:

- الزراعة - التجارة - الصناعة.

- فن البناء والعمارة.

- الحياة الدينية - الحالة العلمية والثقافة - الكتابة.

الفصل الثالث

دولة المناذرة أو مملكة الحيرة

المناذرة أو اللخميون من القبائل العربية التى ذكرت بعض الروايات أنهم هاجروا من اليمن على أثر تصدع سد مأرب «والسيل العرم»، وفى أول الأمر نزلت هذه القبائل فى منطقة البحرين حيث استقرت قبائل «تنوخت» وتحالفت معها.

وفى أواخر عهد الدولة البارثية، وقبيل قيام الدولة الساسانية فى بلاد فارس، نزحت هذه القبائل إلى منطقة الحيرة والأنبار فى جنوبى نهر الفرات.

ولم يلبث أن تألق نجم مملكة الحيرة العربية فى هذه المنطقة.

وفى هذه الفترة إمارة.عربية أخرى فى جنوبى سوريا بجهة حوران، هى إمارة الغساسنة.

وقد اضطرت دولة المناذرة أو مملكة الحيرة للخضوع لدولة الفرس الساسانيين، كما خضعت إمارة الغساسنة للدولة البيزنطية، ونتيجة لتبعية هاتين الإمارتين العربيتين للدولتين الأجنبيتين المتنافستين فقد دخلت دولتا المناذرة والفاسنة فى حروب طاحنة فيما بينهما، سفكت فيها دماء غزيرة، وذلك بتحريض دولتى الفرس والبيزنطيين.

ولقد ظل الحال فى هاتين الإمارتين على هذا المنوال، إلى أن اجتاحت جيوش العرب المسلمين أراضيهما، وأندمجا فى كيان الدولة العربية الفتية.

الموقع الجغرافى لمملكة الحيرة وأصلها:

يوجد تناقض فى روايات الإخباريين حول هجرة قبائل «تنوخ» إلى شمال الجزيرة العربية، وأنها غادرت البحرين على أثر تصدع سد مأرب، ونزلت فى البحرين قبل إنتقالها إلى جنوبى نهر الفرات فى جنوب غرب العراق.

والمعروف أن سد مأرب قد تصدع فى منتصف القرن السادس الميلادى، بينما حلت هذه القبائل فى أطراف الفرات الجنوبية فى أوائل القرن الثالث الميلادى. كما لا يوجد دليل قاطع على أنهم كانوا فى الأصل يقطنون فى اليمن، وعلى مقربة

من سد مأرب، ويستنتج من الألفاظ اللغوية وأسمائهم وعاداتهم الاجتماعية، أنهم لم ينتموا إلى قبيلة واحدة، وأغلب الظن أنهم كانوا مجموعة من القبائل القحطانية والعدنانية.

ويروى الطبرى كيفية هجرة القبائل العربية إلى منطقة الحيرة، قائلا «إن قبائل معدية عدنانية كانت تسكن تهامة فحدثت بينهم[1] حروب فتشتتوا، وأقبلت منهم قبائل نزلت البحرين، وبها جماعة من الأزد كانوا قد نزلوا فيها من زمن... فاجتمع بالبحرين جماعة من قبائل العرب فتحالفوا التنوّخ، وهو المقام، وتعاقدوا على التآزر والتناصر، فصاروا يدا على الناس، وضمهم إسم تنوخ».

وكان نزول قبائل تنوخ من البحرين إلى الضفة الغربية من وادى نهر الفرات الأسفل، مغتنمين فرصة ضعف ملوك الطوائف بالمنطقة، وأثناء التنافس بين الأسرتين الفارستين البارثية، والساسانية، فى مطلع القرن الثالث الميلادى.

وفى البداية أقاموا فى خيام من الشعر، فى الموضع المعروف باسم (الحيرة)، وتقع جنوبى الكوفة، وعلى بعد ثلاثة أميال منها، وبالقرب من مدينة النجف، عند موقع تفرع نهر الفرات إلى عدد من الفروع، وتنساب بعض الجداول منها لتروى تلك المنطقة مثل نهر (كافر)، ونهر (الحيرة)، ونهر (يوسف).

وقد اشتهرت الحيرة بطيب هوائها، وقال عنها الطبرى «منزل برئ مرئ صحيح من الأدواء والأسقام».

ووصفت فى المؤلفات الإسلامية بأنها (الحيرة) الروحاء)، والحيرة البيضاء)، وذلك نقلا عن بعض ما قاله الشعراء فيها.

ويختلف المؤرخون حول أصل تسمية مدينة (الحيرة)، ويرى بعضهم أنها مشتقة من الكلمة الآرامية أو السريانية (حرتا) Herta، وتعنى المخيم أو المعسكر عند العرب.

---

(١) د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام – الجزء الثالث. ص ص ١٦٦، ١٦٧.

ويذكر بعض الإخباريين العرب أن إسمها مشتق من (الحيرة) أى «الضلال»، وأنها سميت بهذا الإسم، على أثر قول (تبع الأكبر) لبعض جنوده الذين تركهم فى هذا الموضع، عندما قصد خراسان، (حيروابه»، أى أقيموا به.

وفى رواية أخرى، قيل أن (تبعا) لما بلغ هذا الموضع، «ضل دليله وتحير»، فسمى (الحيرة).

كما قيل أن (الخيرة) من (الحوار)، ويقصد بذلك (البياض)، لأن أبنتها كانت مطلبج باللون الأبيض.

وفى التلمود ذكرت بإسم (حرته دار جيز، ونسب إلى الساحر (ارجيز) بناء تلك المدينة.

كما عرفت فى موضع آخر بالتلمود باسم (حيرتارى طيبة) أى (معسكر العرب). وعرفت أيضا بأسماء بعض ملوكها المشهوريين، مثل (حيرتورى نعمان). أى (حيرة النعمان) وتاريخ هذه المدينة قبل الميلاد غامض، وربما كانت قرية صغيرة، وأقدم نص مكتوب ير جع إلى شهر أغسطس من عام ١٣٢ ميلادية، ويدل على أنها أقيمت فى عصر سابق لعصر الساسانيين.

ويرجع بعض الإخباريين العرب تأسيس مدينة (الحيرة) إلى (بنوخذ نصر)، كما أقام مدينة (الأنبار)، وذلك فى أيام (عدنان).

أما ياقوت الحموى، فيذكر أن الحيرة من بناء (تبع الأكبر).

كما ذكر إسم الحيرة فى المجمع الكنسى الذى انعقد فى عام ٤١٠م، وشارك فى أعماله (هوشع) أسقف (حيرتا).

كما ذكرنا إسم الحيرة فى تاريخ (يوحنا الأفسوس) John of Ephesus خلال القرن السادس الميلادى، وقال عنها (حيرتود نعمان دبيت بورسوبى) أى (حيرة النعمان التى فى بلاد الفرس).

ملوك الحيرة:

يذكر الإخباريون العرب أنهم استقوا مادتهم عن الحيرة وملوكها من موارد مشتركة، تشمل الكتب المدونة التى كانت محفوظة فى (بيع) الحيرة، بالإضافة إلى كتب الفرس.

وفى ذلك يقول (إبن الكلبى)، أنه كان «يستخرج أخبار العرب[1] وأنساب آل نصر بن ربيعة، ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى، وتأريخ سنيهم من بيع الحيرة، وفيها ملكهم وأمورهم كلها».

ومع ذلك، فهناك إختلاف غير قليل بين الإخباريين حول أسماء ملوك الحيرة، وأعمارهم، وترتيب توليهم الحكم، ومدة حكمهم، وغير ذلك.

ويذكر بعض الإخباريين أن عدد ملوك الحيرة يزيد قليلا على العشرين، وينقص عن هذا العدد عند البعض الآخر.

وإذا فحصنا القوائم التى سجلها الإخباريون لملوك الحيرة، ومدة حكم كل منهم إجمالا، نجد ذلك يختلف مع ما ذكروه مفصلا عن مدة حكم كل منهم.

ومثال ذلك ما ذكره المسعودى فى مروج الذهب، من أن عدة ملوك الحيرة ثلاثة وعشرون ملكا، من بنى نصر وغيرهم من العرب والفرس، وأن مدة حكمهم ستمائة وإثنتان وعشرون سنة وثمانية أشهر.

وفى كتابه (التنبيه)، ذكر أن «عدة من ملك الحيرة من بنى نصر والعباد وغسان وتميم وكندة والفرس وغيرهم نيفا وعشريين ملكا، ملكوا خمسمائة واثنتين وعشرين سنة وشهورا».

ولكن القائمة التى أوردها المسعودى لا تضم سوى عشرة ملوك، أولهم (عمرو بن عدى) وأن مدة حكمه مائة سنة، وآخرهم (إياس بن قبيصة الطائى)، ومدة حكمه تسع سنين، ومجموع مدة حكمهم ٤٠٤ سنة، وفى ذلك إختلاف كبير بين عدد الملوك، ومجموع مدة حكمهم فى الروايتين.

---

(١) د. جواد على: المرجع السابق – الجزء الثالث. ص ٣٠٥.

ويذكر حمزة الأصفهانى أن مجموع ملوك الحيرة من آل نصر والعباد والفرس خمسة وعشرون ملكا حكموا مدة ستمائة وثلاث وعشرين سنة وأحد عشر شهرا، وفى موضع آخر قال أن الحيرة «قد عمرت خمسمائة وبضعا وثلاثين سنة إلى أن وضعت الكوفة ونزلها عرب الإسلام».

وقد أعد حمزة قائمة بأسماء ملوك الحيرة ومدة حكم كل منهم، وإسم ملك الفرس الذى عاصره، وهذه القائمة تضم ٢٢ ملكا، ومجموع مدة حكمهم ٥٣٨ سنة، وأولهم عمرو بن عدى، ومدة حكمه ١١٨ سنة، وآخرهم المنذربن النعمان بن المنذر، ولم يحكم سوى ثمانية شهور، حين دخل خالد بن الوليد الحيرة.

وقد عرف ملوك الحيرة بآل نصر، وآل لخم، وآل محرق، وآل النعمان، وآل عدى، ومن بينهم المنذر، وكان العرب يطلقون عليهم صفة الملوك (الأشاهب) لما تميزوا به من الجمال.

وكان حكم الحيرة فى البداية فى أيدى التنوخين، ثم انتقل اللخميين.

ونذكر فيما يلى أهم الملوك الذين توالوا على **حكم الحيرة**:

مالك بن فهم

وفى نظر معظم المؤرخين، يعتبر أول من حكم الحيرة من بنى تنوخ، ويذكرون أنه من الآزديين، وأن مدة حكمه عشرون عاما.

ويروى حمزة الأصفهانى، أنه تولى الحكم فى الحيرة فى زمان ملوك الطوائف، وكان مقره فى الأنبار، وأنه توفى برمية سهم بيد إبنه سليمة، ولما علم مالك أن راميه وقاتله هو إبنه، نطق ببيتين من الشعر قبل أن يلفظ أنفاسه، **قال فيها**:

جـزانى، لاجـزاه الله خـيـرا   سليـمـة، إنه شـرا جـزانى
أعلمـه الرمايـة كل يـــوم   فلمـا اشتـد ساعده رمـانى

وعقب موته هرب سليمة إلى عمان، وحكم بعده أخوه (عمرو بن فهم)، ولا يعرف من أمره شئ يستحق الذكر.

جذيمة بن الأبرش:

وكان خطة أوفر عند الإخباريين العرب، فذكروا أنه ابن مالك بن فهم، ونسبوه إلى العرب العاربة الأوائل، وينتمى إلى (بنى وبار بن أميم بن لوذ بن سام بن نوح). كما جعلوه «من أفضل ملوك العرب رأيا[٣]، وأبعدهم مغارا، وأشدهم نكاية، وأظهرهم حزما، وأول من استجمع له الملك بأرض العراق، وضم إليه العرب، وغزا بالجيوش».

ويذكر أنه كان به برص، فهابت العرب أن تكنيه بذلك، وأطلقت عليه «جزيمة الوضاح أو الأبرش إعظاما له».

وقد استغل (جزيمة الأبرش) حالة الضعف والإضمحلال التى آلت إليها دولة الفرس البارثية، فعمل على توسيع نفوذه على الضفة الغربية لنهر الفرات، كما قيل أنه قد بسط سيطرته على «معد، وأرض اليمن، وعلى أرض البحرين».

ويروى الطبرى أن أملاك جذيمة شملت «ما بين الحيرة والأبنار، وبقّة، وهيت وناحيتهما، وعين التمر، وأطراف البر إلى الفوير، والقطقطانة،. وخفية وما والاها، وبذلك كانت تقوم على أرض العراق وحول نهر الفرات، وامتدت إلى أرض خارج حدود العراق.

وقد أدرك الساسانيون أهمية الدور الذى يمكن أن تقوم به المناذرة فى العراق لصالحهم، فاعترفوا بحكم (جذيمة بن الأبرشى)، وتحالفوا معه، ليضمنوا وقوفه أمام هجمات البدو، وتأمين حدودهم الغربية، وساعدتهم فى حروبهم ضد الروم.

ويذكر المؤرخون أن (جزيمة الأبرشى) أراد أن يضفى طابعا دينيا على حكمه، فتكهن، واتخذ صنمين سماهما (الضيزنين)، ووضعهما فى مكان معروف بالحيرة، كان «يستسقى بهما ويستنصر بهما على الأعداء»، فأضاف الإخباريون إلى أوصافه «التنبؤ والكهانة وعبادة الأصنام».

(٣) د. جواد على: نفس المرجع – الجزء الثالث. ص ١٧٨.

ويروى الطبرى أنه أثناء غزوة لجزيمة ضد بنى أياد، استطاع بنو أياد أن يسرقوا صنمى جذيمة، بعد أن سقوا سدنتهما الخمر، ودارت مراسلات بينهم وبين جذيمة، تعهدوا فيها بإعادة الصنمين إليه، مقابل أن يمتنع عن غزوهم أو حربهم، فقبل جزيمة هذا الطلب، واشترط عليهم أن يرسلوا مع الصنمين إبن أختهم (عدى بن نصر بن ربيعة)، وكان غلاما «ذا جمال وظرف»، لكى يجعله نادما له، فوافقوا على ذلك، ونزل فى قصره، وصارت له مكانة عالية. ويقال أن (رقاش) أخت جذيمة أبصرت عديا هذا، وشغفت به حبا، ثم احتالت على أخيها حتى وافق على زواجها منه، وهو فى حالة سكر، وتم الزواج فى نفس الليلة، ولما أفاق جذيمة فى صباح اليوم التالى، وأدرك ما حدث، خاف عدى على نفسه وأسرع بالهرب.

وكان نتيجة هذا الزواج المزعوم إنجاب عمرو بن عدى، الذى تقول الأساطير أن «الجن قد استطارت به فاختفى».

ثم تشاء الصدف، بعد أن شب عمرو، أن يلتقى برجلين ومعهما قينة، وكان على مذرية، فقد مواله الطعام والشراب، وبعد أن تعرف عليه الرجلان، أعاداه إلى خاله (جذيمة الأبرش)، فألبسته أمه ملابس أبناء الملوك، ووضعت طوقا فى عنقه، وأدخلته على جذيمة، فلما رآه قال «شب عمرو عن الطوق»، فذهبت هذه العبارة مثلا.

وقد طال عمر (جذيمة الأبرش)، إذ قدر بعض الإخباريين مدة حكمه بمائة وثمانى عشرة سنة، وقدرها حمزة الأصفهانى بستين عاما فقط.

وكانت نهايته على يد (الزباء) فى القصة المشهورة، عندما استدرجته إلى قصرها وقتلته، إنتقاما لمقتل والدها (عمرو بن الظرب) أثناء حربه مع جذيمة من قبل.

وقد ورد إسم جذيمة فى نص نبطى يونانى، يرجع إلى عام ٢٧٠ ميلادية، عثر عليه فى (أم الجمال) بالشام، جاء فيه «هذا موضع أى قبر نهر بن شلى، مر بى جذيمت ملك تنوخ».

ويعتبر ذلك النص من أقدم النصوص التى ورد فيها إسم (تنوخ) .

عمرو بن عدى وانتقال حكم الحيرة إلى اللخميين:

ولما لم ينجب (جذيمة الأبرش) أولادا ذكورا، فبعد وفاته فى عام ٢٦٨ ميلادية، خلفه على الملك إبن أخته (عمرو بن عدى بن نصر)، وهم من (بنى لخم) .

وبذلك فقد انتقل حكم الحيرة والأبنار إلى اللخميين.

ويذكر اليعقوبى أن عمرو بن عدى بعد أن تسلم الحكم، بادر بالإنتقام لمقتل خاله جذيمة بن الأبرش، وأرسل أحد رجاله الذى احتال على (الزباء) حتى كسب ثقتها ثم عذر بها.

ويصف الطبرى عمرو بن عدى، بأنه «أول من اتخذ الحيرة[٤] منزلا من ملوك الحيرة، وأول من مجده أهل الحيرة فى كتبهم من ملوك العرب بالعراق، وإليه ينسبون، وهم ملوك آل نصر، فلم يزل عمرو بن عدى ملكا حتى مات وهو إبن مائة وعشرين سنة، منفردا بملكه، مستبدا بأمره، يغزو المغازى ويصيب الغنائم، وتفد عليه الوفود دهره الأطول، لا يدين لملوك الطوائف بالعراق، ولا يدينون له، حتى قدم أردشيرى بابك فى أهل فارس» .

وهناك إختلاف بين الإخباريين والمؤرخين حول مدة حكم عمرو بن عدى، فيحددها حمزة الأصفهانى بمائة وثمانى عشرة سنة، ويحددها المسعودى بمائة سنة، ويجعلها الدينورى نيفا وستين سنة، ويخددها اليعقوبى بخمس وخمسين سنة.

وقد انتهج (عمرو بن عدى) سياسة سلفه وخاله (جذيمة الأبرش)، فى التحالف مع الفرس الساسانيين، مما ساعد على تقوية نفوذه على عرب العراق.

امرؤا القيس بن عمرو:

وكان يعرف بإسم (امرؤ القيس البدء) أى الأول، كما وصف (بالمحرق)، وأنه

(٤) د. جواد على: نفس المرجع – الجزء الثالث، ص.١٨٦ .

(ماوية بنت عمرو)، أخت (كعب بن عمرو الأزدى)، حسب رواية حمزة الأصفهاني.

وقد تولى الحكم بعد وفاة والده عمرو بن عدى، ويذكر حمزة الأصفهانى أنه حكم مدة مائة وأربع عشرة سنة، منها ثلاث وعشرين سنة في زمن شابور بن أردشير، وسنة وعشرة أشهر فى زمن هرمز بن شابور، وتسع سنين وثلاثة أشهر فى زمن بهرام بن هرمز، وثلاث وعشرين سنة فى زمن بهرام بن بهرام، وثلاث عشرة سنة وستة أشهر من زمن بهرام بن بهرام بن بهرام، وتسع ستين فى زمن نرس بن بهرام، بن بهرام وثلاث عشرة سنة فى زمن هرمز بن نرس، وعشرين سنة وخمسة أشهر فى زمن شابور ذى الأكتاف وهذه المدة تتفق مع ماذكره الطبرى نقلا عن إبن الكلبى، ويذكر المسعودى أن مدة حكمه ستون سنة، أما اليعقوبى فيحددها بخمس وثلاثين سنة فقط.

وإذا رجعنا إلى نص (النمارة)، الذى دون عليه تاريخ وفاة (امرؤ القيس بن عمرو)، فى عام ٣٢٨ ميلادية، تكون مدة حكمه أقل بكثير مما حدده الطبرى وحمزة الأصفهانى. ويذكر الطبرى أن وفاة أمرئ القيس بن عمرو كانت فى عهد (شابورذى الأكتاف) الذى حكم بين ٣١٠ - ٣٧٩م.

وموضع (النمارة) يقع فى الحيرة الشرقية من جبل الدروز فى الشام، وكان ضريحا لإمرئ القيس بن عمرو، وسجل على لوحته أخباره، كالتالى، بعد تقريبها إلى اللهجة العربية الشائعة:

١- «هذا قبر امرئ القيس بن عمرو(٥) ملك العرب كلهم الذى نال التاج.

٢- وملك الأسدين ونزارا وملوكهم، وهزم مدحجا بقوته، وفاد الظفر إلى أسوار نجران، مدينة شمر.

٣- وملك معدا واستعمل أبناءه على القبائل، ووكلهم لدى الفرس والروم.

٤- فلم يبلغ ملك مبلغة فى القوة.

---

(٥) د. جواد على: نفس المرجع - الجزء الثالث. ص ١٩٢.

٥- هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول (بتقويم بصرى)، (الموافق السابع من شهر كانون الأول من سنة ٣٢٨ بعد الميلاد)، ليسعد الذى ولده».

وبذلك يعتبر (امرؤ القيس بن عمرو) أول ملك من ملوك الحيرة تصل أخباره مدونة، بدلا من تداولها عن طريق الإخباريين.

ويذكر الإخباريون أن ملكه كان واسعا، وأنه كان (عاملا) للفرس (على فرج العرب بن ربيعة ومضر وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة)، وأثناء فترة حكم امرئ القيس بن عمرو وقعت عدة معارك بين الفرس فى عهد «شابور ذى الأكتاف»، والروم البيزنطين فى عهد الإمبراطور «چوليان المرتد».

ويذكر الطبرى أن العرب أرادوا الإنتقام من (شابور) لكثرة ما قتل منهم فى مطلع حكمه، فانضموا إلى جيش (چوليان)، وبلغ عددهم فى معسكره مائة وسبعون ألف مقاتل.

وفى البداية هزم جيش الفرس، وهرب (شابور) ومن بقى معه، وقتل الكثير من جنوده، وعقب ذلك دخل (چوليان) وجنوده مدينة (طيسفون) عاصمة الفرس، ونهبوا بيوت وخزائن وأموال (شابور).

رولكن (شابور) ما لبث أن جمع شتات جيشه، وعاد لمهاجمة البيرنطيين، واستطاع إخراجهم من (طيفسون).

وفى هذه الأثناء قتل الإمبراطور (چوليان) واضطر خليفته إلى طلب الصلح، وتنازل للفرس عن بعض المقاطعات التابعة له، والتى كانت تقع فى منطقة بلاد ما بين النهرين.

وبعد ذلك التقت (شابور) إلى الإنتقام من العرب، وأمعن فى قتلهم، وكان ينزع أكتاف رؤسائهم، حتى سماه العرب (شابور ذى الأكتاف).

ولكن (شابور) أدرك صعوبة الإستمرار فى سياسة العنف والقوة مع العرب، التى دفعت جماعات منهم إلى مقاتلته فى جانب الروم، أثناء اشتداد المعارك بين

الجانبين، فاضطر (شابور) إلى مصالحة العرب، والاستعانة بهم ضد أعدائه، وعلى أثر ذلك توثقت عرى التحالف بين المناذرة حكام الحيرة، والغرس، ضد الروم البيزنطيين.

ويروى الإخباريون أن إمرأ القيس بن عمرو قد تنصر، وأنه أول من اعتنق النصرانية من ملوك الحيرة، ولكن هذا الأمر تنقصه الأدلة الكافية.

ومن آثاره الباقية، حسب رأى بعض الباحثين، ذلك (المشتى) الشهير، الذى بناه ليكون قصرا له وحصنا يحمى ملكه الجديد، وقد نقلت أحجار جدرانه المزخرفة إلى متحف (القيصر فريدرش ويلهلم) فى برلين.

وبعد وفاة امرئ القيس بن عمرو، تولى الحكم بعده إبنه عمرو، وذكر أن مدة حكمه كانت خمسا وعشرين سنة، وأنه عاصر من ملوك القرس (شابور ذا الأكتاف)، وأخاه (أردشير بن هرمز بن نرس)، و (شابور الثالث)، ووصفه بعض الإخباريين (بمسعر الحرب)، أى (موقد الحرب)، ولكنهم لم يذكروا شيئا عن تلك الحروب.

ثم توالى على حكم الحيرة عدد من الملوك، لم يتفق الإخباريون على أسمائهم أو مدة حكمهم أو ترتيبهم فى تولى الحكم، ولم يذكزوا شيئا هاما عن أعمالهم، واستمر ذلك خلال الفترة ما بين منتصف القرن الرابع الميلادى ونهايته.

النعمان الأول (النعمان بن امرئ القيس):

وفى نهاية القرن الرابع، ومطلع القرن الخامس للميلاد، تولى الحكم فى الحيرة أشهر ملوكها، وهو (النعمان الأول) بن امرئ القيس بن عدى، وأمه شقيقة إبنة أبى ربيعة بن ذهل بن شيبان، وأخوها عمرو والمزدلف.

وكان يعرف (بالنعمان الأعور)، وعرف أيضا (بالسائح) لما روى عن زهده فى الدنيا فى أواخر أيامه.

ويعتبر أول مالك من بين ملوك الحيرة، تتسم الأخبار الواردة عنه بشئ من

التأكد والتحقيق والتفصيل.

ويذكر المسعودى أنه قد حكم خمسا وستين سنة، ويحدد حمزة الأصفهانى مدة حكمه بثلاثين سنة فقط، ويحددها الطبرى بتسع وعشرين سنة وأربعة أشهر.

ويمكن القول أن حكمه كان خلال الفترة بين ٣٩٠ - ٤١٨ ميلادية، وذلك تبعا لأقرب التقديرات إلى الحقيقة.

ويصفة الإخباريون بأنه كان حازما قويا. محاربا شديد البأس مع اعدائه، وقد غزا عرب الشام عدة مرات، فسبى وغنم منهم الكثير.

ويذكر أن جيش النعمان كان يتألف من خمس كتائب هي:

١- دوسر، وكان أفرادها من تنوخ، وقد اشتهرت بشدة ضرباتها، حتى قيل فى الأمثال (أبطش من دوسر).

٢- الشهباء، وأفرادها من الفرس.

٣- الرهائن، وكانت تتألف من خمسمائة رجل، أخذوا كرهائن من قبائل العرب، ويستبدلون بعدد مماثل كل سنة، ويقيمون على باب قصر الملك، حيث يستخدمهم فى غزواته وفى الأمور الأخرى، وينصرف المسرحون منهم بعد مضى سنة فى الخدمة، إلى أحيائهم وأعمالهم الخاصة.

٤- الصنائع، وأفرادها من بنى قيس وبنى تيم اللات بن ثعلبة، وكانوا (خواص للملك) ولا يبرحون بابه.

٥- الوضائع، وقوامها ألف رجل من الفرس، يتم استبدالهم بعدد مماثل بعد مضى سنة فى الخدمة، وقد وضعهم ملوك الفرس فى الحيرة لنجدة ملوكها العرب.

ولكن النعمان كان يعتمد فى غزواته على كتيبتى الدوسر والشهباء.

ويروى أن أصحاب الرهائن ووجوه العرب، كانوا يفدون على النعمان فى أيام الربيع من كل عام، حيث يعدلهم الولائم، ويقيمون طرفه لمدة شهر، ثم ينصرفون إلى أحيائهم، بعد أن يبدلوا رهائنهم، ويأخذون معهم (المرباع) أى ربع الغنائم فى

الحروب والغزوات.

وينسب إلى النعمان الأول بناء قصرى (الخورنق) و (السدير)، والخورنق) من (خرنقاه)، وهى كلمة فارسية معناها (المجلس الذى يأكل فيه الملك ويجلس). ولقصر (الخورنق)، شهرة فى كتب الأدب والتاريخ، ويذكر الطبرى عن سبب بنائه «أن يزدجر الأول المعروف بالأثيم[٦]، كان لا يبقى له ولد، فسأل عن منزل برئ مرئ صحيح من الأدواء والأسقام، فدل على ظهر الحيرة، فدفع إبنه بهرام جور إلى النعمان هذا، وأمره ببناء الخورنق سكنا له، وأنزله إياه، وأمره بإخراجه إلى بوادى العرب».

وقد بنى قصر (الخورنق) على نهر (سنداد)، بالقرب من الحيرة، واستغرق بناؤه عشرين عاما، وكان بنيانا عجيبا، لم يرد العرب مثله، وأقامه بناء رومى يدعى (سنمار)، حسب زعم الإخباريين.

ومن القصص الشائعة التى ارتبطت بقصر (الخورنق) وبانيه (سنمار)، ما يرويه الخباريون أن (سنمار) لما فرغ من بنائه، تعجب النعمان ومرافقوه من حسنه وإتقان عمله، فقال لهم (سنمار): « لو علمت أنكم توفوننى أجرى وتصنعون بى ماأنا أهله، بنيت بناء يدور مع الشمس حيثما دارت، فقال النعمان « وإنك لتقدر على أن تبنى ماهو أفضل منه ثم لم تبنه» ،فأمر به فطرح من رأس (الخورنق)، ولقى حتفه.

ويقال أن النعمان كره أن يعمل ـ(سنمار) مثله لغيره، فأرداه قتيلا.

وفى رواية أخرى، قيل أن (أحيحة بن الجلاح) أراد بناء (أطم) له، فبناه (سنمار)، وبعد أن أكمله عجب من بنائه، فقال له (سنمار) «إنى لاعرف فيه حجرا لو انتزع لتفوض من عند آخره» ، فسألة عن الحجر، فأراه موضعه، فدفعه (أحيحة) من (الأطم)، وخرميتا.

(٦) د. جواد على: نفس المرجع - الجزء التالث. ص ١٩٩.

ومن نهاية (سنمار) بهذا الشكل بعد إتقان عمله، جاء المثل المشهور (جزاء سنمار)، الذى ورد فيه أشعار بعض الشعراء العرب، مثل أبى الطمحان القينى، وسليط بن سعد، ويزيد بن إياس النهشلى.

أما قصر (السدير)، فكان على مسافة بعيدة عن مدينة الحيرة، فى وسط البرية التى تفصلها عن الشام.

و (السدير)، أصلها (سهدلى)، وهى كلمة فارسية معناها ثلاث قباب، أو ثلاث شعب متداخلة.

ويصفه الإخباريون بأنه كان قبة فى ثلاث قباب متداخلة، ولم يكن فى ضخامة قصر (الخورنق)، ولم يكن له شهرته.

وقد ورد فى بعض الروايات أن النعمان قد اعتنق النصرانية، وذلك بتأثير القديس (سمعان العمودى) Symean Stylites، الذى كان يقوم بالتبشير بين أهل الحيرة، وذكر أنه قد شفى ببركته من مرض كان يعانى منه، فتنصر على أثر ذلك، ولكن هذه الرواية ينقصها الدليل.

ويفسر إعتناقه للنصرانية، ونبذه لعبادة الأوثان، وتفكيره بخلق الله، وعزوفه عن متع الدنيا، بقصة حواره مع وزيره، وهو يجلس فى شرفة قصر (الخورنق)، ويطل على البساتين والنخيل والجنان التى تليه، وذلك ذات ليلة، فى أواخر أيامه، إذ قال لوزيره وصاحبه «هل رأيت مثل هذا المنظر فقط[7]؟ فقال: لا، لو كان يدوم، قال؛ فما الذى يدوم؟ قال: ما عند الله فى الآخرة، قال: فيم ينال ذلك؟ قال: بتركك الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده، فترك ملكه من ليلته، ولبس المسوح وخرج مستخفيا هاربا لا يعلم به».

كما يروى أن النصارى قد تمتعوا فى عهده بحرية كاملة، فأباح لهم مباشرة شعائرهم الدينية، وسمح لهم ببناء الكنائس.

وقد ذكر الطبرى أن النعمان ترك ملكه وساح فى الأرض لمدة تسع وعشرين

(٧) د. جواد على: نفس المرجع - الجزء الثالث، ص٢٠٣.

سنة وأربعة أشهر، منها خمس عشرة سنة في زمن ملك الفرس (يزدجر)، وأربع عشرة سنة في زمن إبنه (بهرام الخامس)، والمعروف أن (بهرام الخامس) قد حكم فيما بين سنة ٤٢٠ وسنة ٤٣٨ ميلادية.

وإذا أخذنا بهذه الرواية، تكون نهاية حكم النعمان الأول في عام ٤٣٤ ميلادية، بدلا من ٤١٨ ميلادية، وهو التاريخ الشائع.

المنذر الأول:

وبعد أن تخلى (النعمان الأول) عن الحكم، خلفه على العرش إبنه (المنذر الأول)، وأمه من بني غسان، حسب رواية حمزة الأصفهاني والطبرى، وتدعى (هند بنت زيد مناة بن زيد بن عمرو الغساني)، في حين ذكر المسعودى أنها من آل بكر، وإسمها (هند بنتُ الهيجانة).

ويذكر الطبرى وحمزة الأصفهاني، أن مدة حكم المنذر بن النعمان، كانت أربعا وأربعين سنة، منها ثماني سنين وتسعة أشهر في زمن بهرام جور بن يزدجرد، وثماني عشرة سنة في زمن يزدجر بن بهرام، وسبع عشرة سنة في زمن فيروز بن يزدجر.

ويحددها المسعودى بخمس وثلاثين سنة، أما اليعقوبى فيذكر أن مدة حكمه كانت ثلاثين سنة.

ويلاحظ أن الطبرى قد أغفل مدة حكم المنذر في زمن يزدجر، بعد اختفاء والده النعمان، وتؤكد ذلك روتية ابن الكلبى التى تفيد أن انتقال الحكم إلى المنذر كان في زمن (يزدجر) وليس إبنه (بهرام).

ويذكر الطبرى أنه بعد وفاة (يزدجر)، تم تنصيب شخص آخر كسرى على الفرس من خارج أسرة (يزدجر)، لسوء سيرته في الناس.

وكان الفرس قد كرهوا أن يتولى عليهم (بهرام جور)، بعد وفاة والده (يزدجرد)، وقالوا «بهرام إبنه قد نشأ بأرض العرب ولا علم له بالملك».

وكان (يزدجرد) قد دفع إبنه (بهرام جور) عقب ولادته إلى النعمان)، فاحتضنه، وأحضر له نساء عربيات لرضاعته، ولما بلغ خمس سنوات أحضر له مؤدبين علموه الكتابة والفقه والرمي والصيد والفروسية، فاكتسب أخلاقا فاضلة، ومهارة فائقة، وأقام في قصر (الخورنق)، الذى بناه (النعمان) من أجله.

ولما كبر (بهرام جور)، ورأى عزوف الفرس عن توليه عليهم مكان أبيه (يزدجر) بعد وفاته، طلب مساعدة المنذر بن النعمان، الذى بادر بإرسال قوة لمناصرته بقيادة إبنه النعمان، وسار هو على رأس قوة أخرى قوامها ثلاثون ألفا من فرسان العرب، واصطحب معه (بهرام)، وبعد مفاوضات وافق زعماء الفرس على خلع من نصّبوه كسرى عليهم، وأجلسوا (بهرام) على عرش أبيه، واستفاد بذلك التاج، وحقه الشرعى فى العرش.

وكان للمنذر بن النعمان منزلة رفيعة عند (يزدجرد)، ويرى الطبرى أنه «قد شرفه وكرمه، وملكه على العرب[٨]، وحباه بمرتبتين سنيتين، تدعى إحداهما (رام أبزود يزدجرد) أى (زاد سرور يزدجرد)، وتدعى الأخرى (بمهشت) أى (أعظم الخول)، وأمر له بصلة وكسوة بقدر استحقاقه لذلك، وأمر أن يسير ببهرام إلى بلاد العرب».

وكان للمنذر بن النعمان دور هام فى الحروب التى وقعت بين الروم والفرس، بعد تولى (بهرام جور بن يزدجرد) العرش بوقت قصير.

وقد طلب منه (بهرام) أن يهاجم بلاد الشام، ليخفف من ضغط الروم عليه، ولكن التوفيق لم يحالفه، إذ غرق جانب كبير من قواته أثناء عبور نهر الفرات، حددهم (سقراط) بنحو مائة ألف، وهو مبالغ فى ذلك، فعاد إلى بلاده مع من تبقى من جيشه، وذلك فى عام ٤٢١ ميلادية.

فى العام التالى ٤٢٢ ميلادية، تجددت الحرب بين الفرس والروم، وشارك فيها المنذر بقواته، ولكنه منى بخسارة كبيرة أيضاً.

---

(٨) د. جواد على: نفس المرجع – الجزء الثالث. ص ٢٠٧.

وقد انتهت هذه المعارك بعقد صلح بين الفرس والبيزنطيون في سنة ٤٢٢ ميلادية استمر لمدة طويلة، وكانت وفاة المنذر في عام ٤٦٢ ميلادية على الأرجح، وخلفه على عرش الحيرة إبنه (الأسود) من زوجته (هر إبنة النعمان)، من (بني الهيجمانة) حسب رواية الطبرى، ومن (لخم) تبعا لرواية حمزة الأصفهاني.

وقد وقعت حروب كثيرة بين الأسود والغساسنة، كان النصر حليفة فيها، ويذكر أنه قد أسر عددا من زعمائهم، كما غزا بني ذبيان وبني أسد. وكانت مدة حكمه إحدى وعشرين سنة، ولا تعرف نهايته على وجه التحديد.

وبعد انتهاء عهد الأسود، توالى على الحكم المنذر بن المنذر، والنعمان بن الأسود، وأبو يعفر بن علقمة الذميلي، وامرؤا القيس الثالث بن النعمان، وغيرهم، ولا يعرف من أخبارهم شئ يستحق الذكر.

المنذر الثالث: المنذر بن امرئ القيس (ابن ماء السماء):

وهو من أشهر ملوك الحيرة المناذرة اللخميين، وارتبطت سيرته ببعض القصص الأسطورية.

وقد عرف «بالمنذر بن ماء السماء»، نسبه إلى أمه (مارية إبنة عوف بن جشم بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيان بن سعد بن الخزرج بن تيم الله بن النمر بن قاسط)، وأطلق عليها (ماء السماء) لجمالها وحسنها.

كما عرف المنذر (بذى القرنين)، لأنه كان له ضفيرتان في شعره.

وقد تزوج من (هند بنت آكل المرار)، وأنجب منها عددا من الأولاد، منهم عمرو بن هند الذى تولى الحكم بعده.

ويختلف الباحثون في تحديد بدء توليه الحكم، ويذكرون أن ذلك كان في عام ٥٠٦ ميلادية، أو عام ٥٠٨م، أو عام ٥١٢م، أو عام ٥١٤م.

ولكنهم يتفقون في أن إنتهاء خكمه كان في حوالى عام ٥٥٤ ميلادية.

ويرى الطبرى أن مدة حكمه كانت تسعا وأربعين سنة، بينما حددها حمزة الأصفهاني باثنتين وثلاثين سنة، مها ست سنوات فى زمن قباد بن فيروز، وست وعشرين سنة فى زمن كسرى أنو شروان بن قباد. كما كان يعاصر الحارث بن جبلة، من ملوك الغساسنة، والحارث بن عمرو، من ملوك كندة.

وقد وصف المنذر الثالث بالشجاعة والبسالة فى الحروب، وكان له دور هام فى الحروب التى نسبت بين الفرس والروم.

وحدث فى عام ٥١٨م أن تجدد النزاع بين الفرس والروم، نتيجة لتباطئ الإمبراطور (جيستنيوس) gustinus فى دفع الإتاوة التى اتفق على دفعها للفرس فى صلح عام ٥٠٦م، عقب الحرب التى استمرت بين الجانبين من عام ٥٠٢ إلى عام ٥٠٦م.

فحرض (قباذ) المنذر على التحرش بأملاك الروم فى الشام، فهاجمها المنذر فى عام ٥١٩م، وفى بعض المعارك تمكن المنذر من أسر قائدين روميين كبيرين هما (ديمو ستراتوس) Demostratus؛ و(يوحنا) johannes.

وفى سنة ٥٢٤م أرسل الإمبراطور (جستنيوس) وفدا إلى المنذر، ضم (إبراهيم) Abraham، و(شمعون الأرشامى) Symean of Beth Arsham، وأسقف الرصافة (سرجيوس) Sergius، وذلك فى محاولة لفك أسر القائدين الروميين، ونجحوا فى تخليصهما، وكان المنذر آنذاك فى البادية فى موضع يسمى (الرملة).

ثم تجددت الحرب بين الفرس والروم فى عام ٥٢٨م، ووقف المنذر إلى جانب الفرس، وغزا أملاك الروم فى الشام، وحصل على مغانم كثيرة، وبعد قليل عاد بجنوده إلى قاعدته.

وفى العام التالى ٥٢٩م، توغل المنذر بقواته فى بلاد الشام حتى بلغ حدود أنطاكية، ثم دخل أراضى آسيا الصغرى، وفى طريقه استولى على الخابور، ونصيبين، وحمص، وأباميا، وفامية، وأنطاكية ، وخلقيدون، وأحرق كثرا من المواضع، وقتل كثيرا من السكان، وأسر أربعمائة راهبة، وزعم بعض المؤرخين السريان أنه ضحى

بهن كقربان إلى الإلهة (العزى)، ولا يوجد دليل كاف على ذلك، كما يقال أنه أخذهن لنفسه.

ويذكر أن كسرى (قباذ) قد عزل المنذر بن ماء السماء، لرفضه قبول مذهب المزدكية الذى اعتنقه (قباذ)، ونصب الحارث بن عمرو الكندى مكانه، الذى ارتضى هذا المذهب، ولما تولى كسرى (أنوشروان)، أعاد المنذر بن ماء السماء على الحيرة، وطرد منها الحارث بن عمرو.

مشاركة الحارث بن جبلة الغسانى فى الحرب إلى جانب الروم ضد الفرس والمنذر الثالث ووقوع الصدام بين الإمارتين العربيتين:

وقد رأى الأمبراطور (جستنيانوس) gustinianus، الذى خلف الإمبراطور (جستنيوس) على عرش بيزنطة، ضرورة دعم قوة حلفائه الغساسنة، والاستعانة بهم فى حماية سوريا، من هجمات المناذرة، فنصب الحارث بن جبلة الغسانى ملكا على عرب الشام، ومنحه لفت (فيلاركا) Phylrach، أى عامل على عرب بلاد الشام، وكلفه بحماية حدود الإمبراطورية من اعتداءات المنذر وعرب العراق.

وفى سنة ٥٣١م وقعت معارك بين الفرس والروم فى منطقة الفرات، واشترك الحارث بن جبلة بقواته فى هذه الحرب إلى جانب الروم، وكان المنذر وجيشه يكوّن الجناح الأيسر لجيش الفرس.

وفى العام التالى ٥٣٢م عقد الصلح بين الفرس والروم، ولكن النزاع بين الحارث بن جبلة والمنذر الثالث استمر، بسبب اختلافها على الإتاوة التى تجبى من عرب منطقة (ستيراتا) Strata الرعوية، وتقع فى جنوب تدمر وتمتد إلى دمشق، وكانت تشكل الحد الفاصل بين أملاك الدولتين، فحرض كسرى (أنوشروان) الذى خلف (قباذ)، المنذر على احتلال هذه المنطقة. وأثناء ذلك إدعى كسرى (أنوشروان) أن الإمبراطور (جستنيانوس)، قد أخل بشروط الصلح باتصاله بالمنذر، وبمحاولة إغرائه وجره إلى جانبه، بإرساله أحد قادته المحنكين ويدعى (سوموس) Summus، بكتاب خاص إلى المنذر، يمنيه فيه بالوعود المغرية، وبأموال طائلة، إذا

انضم إلى جانب الروم.

وفى عام ٥٤٠م كانت الحرب قد تهيأت من جديد بين الفرس والروم، وشارك فيها الحارث بن جبلة الذى غزا أرض الجزيرة، كما اشترك فيها المنذر الذى هاجم بلاد الشام، ووصل إلى فينيقية، وتوغل فى أراضى لبنان.

وفى عام ٥٤٥م عقدت هدنة لمدة خمس سنوات بين الفرس والروم، ومع ذلك فلم تنقطع المناوشات بين الحارث بن جبلة والمنذر بن ماء السماء، ولكن الدولتين الكبيرتين لم تتدخلا بصفة مباشرة فى هذه المنازعات المحلية.

وبعد مدة قصيرة من عقد هذه الهدنة، وأثناء اشتعال الحرب بين المناذرة والغساسنة، تمكن المنذر من أسر أحد أبناء الحارث بين جبلة، عندما كان يرعى خيوله فى البادية، ويقول (بروكو بيوس) أنه قدمه قربانا للإلهة (العزى)، الأمر الذى ملأ قلب الحارث بالحقد، ودفعه للاستعداد للانتقام من المنذر.

وبعد أن جمع كل منهما كل ما يملك من قوة وسلاح، اشتبكا فى حرب طاحنة، حقق الحارث فيها إنتصارا كبيرا، وقتل عددا كبيرا من جنود المنذر، كما تمكن من أسر اثنين من أولاده، وأسرع المنذر بالفرار للنجاة بنفسه، هو ومن بقى من أتباعه.

يوم حليمة ومقتل المنذر بن ماء السماء عام ٥٥٤م:

وكانت خاتمة الصراع بين المنذر بن ماء السماء، والحارث بن جبلة، فى عام ٥٥٤م، عندما قتل المنذر فى معركة (حليمة) التى دارت بين الجانبين، وذلك نسبة إلى (حليمة) بنت الحارث، التى قيل أنها كانت «تخلق قومها وتحرضهم على القتال»، وذكر أنها «عطرت مائة من فرسان أبيها، وألبستهم الدروع بيديها تشجيعا لهم على القتال».

وروى (إبن الأثير) أن الموضع الذى وقع فيه القتال إسمه (مرج حليمة)، وأن إسم إبنة الحارث هو (هند) لا (حليمة)، وقال أن (الأسود) هو الذى قتل فى هذه

المعركة، وليس (المنذر بن ماء السماء).

كما أن بعض المؤرخين يطلق على هذه المعركة إسم معركة (عين أباغ)، وأنها وقعت فى موضع يسمى (ذات الخيار).

ووصفه بعضهم بأنه كان يوما عظيما، واشترك فيه عدد كبير من المقاتلين، «وعظم الغبار حتى قيل؛ أن الشمس قد انحجبت وظهرت الكواكب المتباعدة من مطلع الشمس».

وينسب بعض الإخباريين إلى إبنة المنذر أبياتا من الشعر فى رثاء والدها، **منها قولها**:

وقالوا: فارسا منكم قتلنا ... فقلنا: الرمح يكلُف بالكريم

بعين أباغ قاسمنا المنايا ... فكان قسيمها خير القسيم

ويروى أن ولدين للحارث قتلا فى هذه المعركة، وقام الحارث بدفن ولديه فى الحيرة، ونهبها وأحرقها.

وجاء فى رواية أن الغساسنة قد تمكنوا من أسر أحد أبناء المنذر يدعى امرؤ القيس، وذلك فى نفس المعركة التى قتل فيها والده المنذر بن ماء السماء، وأنه ظل فى الأسر لديهم حتى قام رجال بكر بن وائل بغارة على بعض المواضع بوادى الشام، وقتلوا أحد ملوك الغساسنة، وخلصوا إمرأ القيس بن المنذر من الأسر.

وفى رأى (كوسان دى برسغال) أن هذه الغارة كانت بقيادة أحد أبناءالمنذر، وأنها كانت غارة إنتقامية لمقتله.

عمرو بن هند (عمرو بن المنذر بن امرى القيس):

خلف المنذر بن ماء السماء فى حكم الحيرة، بعد مقتله سنة ٥٥٤م، إبنه عمرو بن هند، وعرف بهذا اللقب نسبة إلى أمه (هند بنت عمرو بن حجر آكل المرار الكندى) ويتصل نسبة بالكنديين من جهة أمه.

وعرف أيضا بصفة (مضرط الحجارة)، وذلك إشارة إلى شدة بأسه وصرامته وغطرسته.

كما لقب (بالمحرق)، لأنه ألقى فى النار قتلى بنى تميم وعددهم ١٥٠ شخصا، أثناء غزوه لديارهم، وقيل أنه أحرق نخل اليمامة.

ووصف أيضا بسرعة إنفعاله، ومهابته الشديدة، واعتبره بعض الإخباريين شريرا، وزعموا أنه كان لا يبتسم ولا يضحك، وأن حياته كانت تسير على يومين، يوم بؤس، ويوم نعيم، وفى يوم بؤسه يقتل أول من يلقاه، ويوم نعيمه خصصه للصيد والشرب، حتى كان وقته يضيق عن استقبال الناس من ذوى الحاجات، مما دفع طرفه بن العبد لهجائه، بعد أن استاء من هذه المعاملة، وأمر عمرو بقتله هو وخليفه المتلمس.

وفى عهده كثر تردد الشعراء المشهورين على الحيرة، لإنشاده ونيل جوائزه، وشهدت مجالسه منافسة الشعراء فيما بينهم، ونقد بعضهم شعر الآخر. ويذكر الطبرى وحمزة الأصفهانى، أن مدة حكم عمرو بن المنذر كانت ست عشرة سنة، فى زمن كسرى (أنوشروان)، وتبلغ أربعا وعشرين سنة، حسب رواية المسعودى، وكانت له غزوات كثيرة ضد القبائل، وعرب الشام من الغساسنة، الموالين للروم.

ومن غزواته ضد القبائل غزوته لبنى تغلب، عندما رفضوا مساعدته لأخذ الثأر لمقتل أبيه من بنى غسان، وكان قد طلب منهم الرجوع إلى طاعته والغزو معه، فأبوا، وقالوا «مالنا نغزو معك، أنحن رعاء لك»؟ فغضب لذلك عمرو بن هند، وحشد الجموع، وقام بغزو تغلب فى ديارهم فى أول عمل له، فأوقع بهم وأضرهم بشدة.

ويذكر أن الشاعر (الحارث بن حلزة)، قد حضر مجلس عمرو بن هند، وأنشده معلقته الشهيرة، التى حرضه فيها على ضربنى تغلب، وسرد عدة حوادث من مواقفهم الغادرة، مما زاد من هياجه وغضبه عليهم، وقد أكزمه عمرو بن هند على هذه القصيدة التى عبرت عن حقده على التغلبيين كما غزا عمرو بن هند

بني طيء، بتحريض من زرارة بن عدس بن عبد الله الحنظلي، الذى أغراه بالغنائم الكثيرة، وكان متحرجا من غزوهم فى بادى الأمر، لارتباطه معهم فى حلف.

وتحت إلحاح زرارة بن عدس، غزاهم وأخذ سبعين رجلا من بنى عدى كأسرى، وهم من رهط حاتم الطائى.

ولما عاد عمرو بن هند إلى الحيرة، توسط، لديه حاتم الطائى فى إطلاق الأسرى، فوهبهم له.

وغزا أيضا تميما، وأحرق قتلاهم، وذلك إنتقاما منهم لقتلهم أخاه سعد، وقيل إبنه مالك فى رواية أخرى.

ويروى أن عمرو بن هند قد أغار على بلاد الشام فى عام ٥٦٣م، وكانت تحت نفوذ الحارث بن جبلة الغسانى، ولامتناع عربها عن دفع الإتاوة التى اعتادوا سدادها لملوك الحيرة، مقابل إمتناعهم عن مهاجمة حدودهم، وكان قد اتفق على ذلك فى الصلح الذى عقد بين الفرس والروم فى العام السابق ٥٦٢م.

ثم تكررت هذه الغارات على الشام فى عامى ٥٦٦ و٥٦٧، وكانت بقيادة أخيه قابوس.

وكان الروم قد أرسلوا رسولين قبل ذلك إلى الفرس لبحث موضوع دفع إتاوة لملك الحيرة، وقد أنكر الرسولان (بطرس) و (يوحنا) حق ملك الحيرة فى أخذ إتاوة سنوية من الروم.

وبعد ذلك أرسل عمرو بن هند رسولا إلى القيصر (چوستينوس) Justinus، للتفاوض على الإتاوة المطلوبة، فلقى معاملة غير لائقة، وكان ذلك دافعا لقيام غارتى عام ٥٦٦ و٥٦٧، وذلك حسب تفسير (ميننذر) Manander.

وقد استغل عمرو بن هند ضعف دولكة كندة، فعمل على توسيع نفوذه فى الجزيرة العربية، وشمل اليمامة، وكانت البحرين ضمن دائرة سلطانه فى الخليج العربى.

وتذكر إحدى الروايات أن عمرو بن هند قد جعل أخاه (قابوس بن المنذر) عاملا على البادية.

مقتل عمرو بن هند عام ٥٧٤م:

وكانت نهاية حياة عمرو بن هند فى عام ٥٧٤م على الأرجح، عندما قتله عمرو بن كلثوم التغلبى، فى قصة مشهورة يستفاد منها أن غرورة هو الذى تسبب في مقتله. وخلاصة قصة مقتله، حسب رواية صاحب الأغانى، أنه افتخر بنسبه ذات يوم أمام جلسائه، وقال لهم: «هل تعلمون[٩] أن أحدا من العرب من أهل مملكتى يأنف أن تخدم أمه أمى؟، فقالوا: ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبى، فإن أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة، وعمها كليب بن وائل، أعز العرب، وزوجها كلثوم، وإبنها عمرو، فسكت وأضمر ذلك فى نفسه».

ثم بعث عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم، يدعوه لزيارته هو وأمه، فقدما إليه وأنزلهما منزلا حسنا، وأمر بتقديم الطعام للحاضرين، وأراد أن يختبر أم عمرو، ويتأكد من صحة ما سمعه عنها، فقال لأمه «إذا فرغ الناس من الطعام ولم يبق إلا الطرف، فنحى خدمتك عنك، فإذا دنا الطرف فاستخدمى ليلى ومريها فلتناولك الشئ بعد الشئ، ففعلت هند ما أمرها به إبنها، فصاحت ليلى عندئذ: واذلاه يا آل تغلب!»، فسمعها ولدها عمرو بن كلثوم من الخباء المجاور، وثار الدم فى وجهه، والقوم يشربون، فالتقط سيفا لعمرو بن هند، كان معلقا فى السرادق، وضرب به رأس ابن هند، وأرداه قتيلا، ونادى فى التغلبيين، فأخذوا ما أمكنهم أخذه، وعادوا إلى ديارهم، وفي شعر على لسان (أفنون)، وهو (صريم بن معشر)، إشارة إلى هذا الحارث، **بالقول:**

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا — لتخدم ليلى أمه بموفق

كما يشير إلى ذلك عمرو بن كلثوم نفسه قائلا:

---

(٩) د. جواد على: نفس المرجع – الجزء الثالث. ص ٢٥٥.

ألا هُبّى بصحنك فاصْبحينا ولا تبقى خمورا لأندرينا

وهى من روائع شعره فى الفخر، وإحدى المعلقات السبع.

قابوس بن المنذر:

خلف قابوس بن المنذر أخاه عمرو بن هند فى حكم الحيرة، بعد وفاته فى عام ٥٧٤م، وكان عمرو بن هند يؤثره على بقية إخوته، فكان يعهد إليه بقيادة الجيوش فى بعض غزواته، وولاه على بعض أقاليم الدولة.

ويذكر أن هند هى أم قابوس، كما هى أم عمرو، ولكن المسعودى يجعل أمه (بنت الحارث من آل معاوية بن معدْ يكرب).

ويحدد الطبرى مدة حكمه بأربع سنوات، منها ثمانية أشهر فى زمن كسرى أنوشروان، وثلاث سنوات وأربعة أشهر فى زمن هرمز بن أنوشروان.

ومدة حكمه فى رأى حمزة الأصفهانى أربع سنوات، ولكنه جعلها كلها فى زمن كسرى (أنوشروان)، والمعروف أن عهد (أنوشروان) ينتهى فى عام ٥٧٩م. ولكن المسعودى يجعل مدة حكمه ثلاثين سنة.

وعندما آل إلى قابوس ملك الحيرة، كان شيخا متقدما فى السن، ولذلك وصفه بعض الإخباريين باللين والضعف، ويبدو أن هذه الصورة قد استخلصوها عنه من شعر الهجاء الذى قاله فيه بعض الشعراء.

وفى شعر نسب إلى طرفه بن العبد، هجا فيه عمرو بن هند وقابوسا، أضفى صفة (قينة العرس) على قابوس وعمرو، قائلا:

يأت الذى لا تخاف سبته عمرو وقابوس قينتا عرس

وعقب وفاة الحارث بن جبلة الغسانى، استغل قابوس هذه الفرصة للهجوم على الغساسنة فى ديارهم، وكان وقتها عاملا على البادية، فى أواخر عهد أخيه عمرو بن هند، ولكن المنذر بن الحارث الذى خلف أباه فى الحكم، فأجأه بهجوم مضاد، وألحق به هزيمة منكرة، وأسر عددا من الأمراء اللخميين، ولم ينج إلا

القليل من أتباعه، هرب معهم فى إتجاه نهر الفرات، والمنذر يطاردهم بقواته حتى اقترب من الحيرة، ويرى (نولدكه) أن هذه المعركة هى معركة (عين أباغ)، وأنها وقعت فى حوالى عام ٥٧٠م.

وبعد أن تولى قابوس عشر الحيرة، انتهز فرصة القطيعة بين المنذر بن الحارث والقيصر (جستينوس) Justinus، ولا يعرف سببها على وجه التحديد. وإن كان (ابن العبرى) يرجع ذلك إلى مطالبة المنذر بن الحارث للقيصر، بدفع أموال لإعداد جيش قوى يستطيع به الوقوف أمام الفرس، فأغار قابوس على حدود أملاك الروم فى الشام، حتى بلغ أنطاكية.

وقد تواصلت هجمات قابوس على بلاد الشام، طوال مدة القطيعة بين الغساسنة والروم، والتى استمرت لمدة ثلاثة سنوات، وأثناءها كان المنذر يحتمى مع أتباعه بالصحراء.

وبعد مصالحة الروم للغساسنة، جمع المنذر بن الحارث أتباعه، وشن هجوما خاطفا على الحيرة، وألحق بها كثيرا من الخسائر، وتمكن من إطلاق سراح أسرى الروم الذين كانوا فى سجونها، وكان ذلك فى حوالى عام ٥٧٨م.

ويظن (روتشتاين) أن هذا الهجوم قد وقع بعد وفاة قابوس، فى عهد أخيه وخليفته فى الحكم المنذر الرابع.

تنصيب أحد الفرس على عرش الحيرة لمدة عام بعد وفاة قابوس:

وروى الإخباريون أنه بعد وفاة قابوس فى سنة ٥٧٩م، عهدت دولة الفرس بعرش الحيرة إلى رجل فارس الأصل يدعى (فيشهرت) أو (سهرب)، أو (السهراب)، ويذكر حمزة الأصفهانى أن حكمه قد دام لمدة سنة، وذلك فى أواخر عهد كسرى (أنوشروان).

ولم يذكر الإخباريون شيئا عن سبب تنصيب هذا الرجل الغريب على الحيرة، وربما حدث نزاع بين البيت المالك فى الحيرة على من يخلف قابوس عقب وفاته، مما أدى إلى تدخل الفرس.

وبعد أن زالت أسباب الخلاف، عاد ملك الحيرة إلى آل لخم، إذ عين المنذر بن المنذر، أو المنذر الرابع، ملكا على الحيرة، وكانت مدة حكمه أربع سنوات، ولم يحدث فى عهده شئ يستحق الذكر.

النعمان بن المنذر (النعمان الثالث):

ويعرف (بأبى قابوس)، وكان بعض الشعراء يكنونه (بأبى قبيس) أو (أبى منذر).

وهو أكبر أبناء المنذر الرابع، من زوجته (سلمى بنت وائل بن عطية بن كليب)، وينسبه بعض الإخباريين إلى (آل فدك)، وهم من اليهود، وكان معظمهم يحترفون مهنة الصياغة.

وقد هجاه عمرو بن كلثوم فى إحدى قصائده قائلا أن «خاله كان صائغا ينفخ الكير ويصوغ القروط بيثرب».

ويصفه الإخباريون بأنه كان دميم الخلقة، أحمر الوجه، أبرشا، قصير القامة، وكان على عكس إخوته الإثنى عشر، الذين اشتهروا بجمال الخلقة والوسامة والهيبية، ووصفوا لذلك (بالأشاهب).

وقد أثرت هذه الصفات الخلقية الدميمة فى نفسية النعمان، وأوجدت عنده عقدة (مركب النقص)، التى لازمته طيلة حياته، وكان لها أثرها فى سلوكه، وجعلته سريع الغضب، يأخذ بالوشايات بدون تمحيص أو تروى، فنقم عليه الناس، وهجاه بعض الشعراء، وتهكموا عليه لعيوبه الخلقية والسلوكية، وأطلق عليه البعض لقب (الصعب)، ومنهم الشاعر (لبيد بن ربيعة العامرى)، الذى وصفه فى شعره (بالصعب ذى القرنين)، والقرنان ضفيرتان من شعره رباهما.

وقد تولى النعمان الثالث الحكم بعد وفاة أبيه المنذر الرابع، فى عام ٥٨٣م، ولم يكن إنتقال الملك إليه بسهولة.

ذلك أن أباه المنذر الثالث كان له ثلاثة عشر ولدا، ومعظمهم يطمع فى الملك، وكان يعلم بالخلافات القائمة بينهم فى ذلك، فلم يشأ أن يزيد هذا الخلاف، بتعيين أحدهم وفرضه على الآخرين، كما تحرج من تنصيب أكبرهم وهو النعمان، كما كانت تقضى السنة المتبعة فى انتقال الملك، ولعله كان يدرك ضعف مراكز إبنه الأكبر النعمان، وعقدة النقص التى كان يعانى منها، وعجزه عن فرض نفسه على إخوته إذا عينه خلفا له.

وعلى أثر ذلك، دعاهم كسرى (هرمز بن أنوشروان) إليه لاختبارهم، ولانتقاء أحدهم لتولى عرش الحيرة، وذلك بعد الاستفسار من مستشاره فى الشئون العربية عدى بن زيد العبادى، الذى كان يميل إلى النعمان.

ولما وفد أبناء المنذر على كسرى، نزلوا على عدى بن زيد، الذى تظاهر بأنه يفضلهم على ربيبه النعمان، ونصحهم بأن يجيبوا على سؤال كسرى بإجابة معينة، قائلا «إن سألكم الملك: أتكفوننى العرب[١٠]، فقولوا: نكفيكهم إلا النعمان»، وطلب من النعمان أن يجيب على سؤال كسرى بإجابة مختلفة يعتقد أنها ترضى كسرى، بقوله «إن سألك الملك عن إخوتك، فقل له:

إن عجزت عنهم، فأنا عن غيرهم أعجز».

وقد سر كسرى بجواب النعمان ورضى عنه، ونصبه ملكا على الحيرة، وألبسه تاجا قيمته ستون ألف درهم، مرصع باللؤلؤ والذهب.

وبذلك انتصر النعمان على إخوته، وتولى الملك، وكان ذلك من دواعى سرور عدى بن زيد العبادى.

ويذكر أن خصوم عدى بن زيد، وعلى رأسهم عدى بن أوس بن مرينا، قد حقدوا على عدى بن زيد، بسبب الحيلة الى دبرها لنجاح النعمان، فوشوا لديه حتى غضب عليه النعمان، واستدرجه إليه، ثم ألقى به فى السجن، حيث لقى حتفه بعد قليل، بأيدى أعدائه الذين أطلقهم عليه النعمان.

(١٠) د. جوتد على: نفس المرجع – الجزء الثالث. ص ٢٦٤.

وكانت مدة حكم النعمان بن المنذر اثنتين وعشرين سنة، منها سبع سنين وثمانية أشهر فى زمن هرمز بن أنوشروان، وأربع عشر سنة وأربعة أشهر فى زمن أبرويز بن هرمز.

وكان النعمان بن المنذر محبا للشعر والشعراء، والخطب والخطباء، وقد اعتبره الإخباريون من أفضل خطباء زمانه، مثل خطبه أيام كسرى في المجالس الحافلة التى دعى إليها، وكانت تضم وفودا من الروم والهند والصين، ووفودا من قبائل العرب.

كما كان قصره مقصد الشعراء، الذين وفدوا عليه لمدحه ومدح آل لخم، ونيل جوائزه، وفي مقدمتهم النابغة الذبياني، الذى كان له صلة وثيقة بالنعمان، وكان يعيش فى كنفه، ويجزل العطاد له على قصائده المشهورة التى مدحه بها، وكان الشعراء الآخرون يحسدونه على العطايا القيمة التى وهبها له النعمان، ووشى به بعضهم لديه فى بعض الأحيان.

ويروى أنه ذات يوم استأذن النابغة للدخول على النعمان، وكان فى مجلس شراب، وعنده خالد بن جعفر بن كلاب، فلما دخل عليه، سلّم وحياه بتحية الملك، جلس وقال «أيها الملك؛ أيفا خرك صاحب غسان؟ فوالك لقفاك أحسن من وجهه، ولشمالك أجود من يمينه، ولأمك خير من أبيه، ولغدك أسعد من يوميه»، فضحك النعمان، ثم قال لخالد: «من يلومنى على حب النابغة؟ ألك حاجة؟ قال: نعم، فقضى حوائجه بأسرها، وأحسن جائزته، فانصرف داعيا له».

ومن الشعراء الآخرين الذين وفدوا على النعمان ومدحوه ونالوا جوائزه، المنخل اليشكرى، والمنقفب العبدى، والأسود بن يعفر، وحاتم الطائى، وحسان بن ثابت، وغيرهم.

ويذكر أن المنخل اليشكرى قد وشى ضد النابغة الذبيانى لدى النعمان، حتى غضب عليه وأهد ردمه، فهرب إلى الغساسنة، ثم استرضاه أثناء مرضه الأخير، فعفى عنه وسمح له بعودته إلى البلاد.

أما المنخل اليشكرى فلم ينعم طويلا بالمكانة الموموقة فى غياب النابغة، فلم يلبث أن انقلب عليه النعمان، وأودعه السجن حيث لقى حنفه من التعذيب بعد قليل.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن النعمان بن المنذر قد اعتنق النصرانية، وترك عبادة الأوثان، وكان ذلك فى حوالى عام ٥٩٣م.

ولبعض مؤرخى الكنيسة وبعض الإخباريين قصص فى كيفية اهتداء النعمان إلى النصرانية، ويصدر هذه القصص غالبا نصارى الحيرة.

ومن هذه القصص أن الشيطان أصاب النعمان بلوثة ووسوسة، فلجأ إلى كهنة الأوثان لشفائه، فلجأ إلى (شمعون بن جابر) أسقف الحيرة، و(سبريشوع) أسقف (لاشوم) وغيرهما، واستفاد منهم، وتحسنت حالته الصحية، وعلى أثر ذلك قرر تغيير دينه، واعتنق النصرانية على المذهب (النسطورى)، كما تنصر بعض أولاده ومنهم الحسن والمنذر، وقبل ذلك دخلت فى النصرانية أختاه هند ومارية.

أما الإخباريون، فيرجعون قصة تنصر النعمان إلى تأثير عدى بن زيد عليه، وأنه خرج معه ذات يوم راكبا، فمرا على مقابر خارج الحيرة، فحدث عدى عن العبر التى تمكن أن يستخلصها المرء من أصحاب القبور، ومن ذلك قوله:

ربَّ ركب قد أناخوا حولنا   يشربون الخمر بالماء الزلال
ثم أضحوا لعب الدهر بهم   وكذاك الدهر حالا بعد حال

وكان لمواعظ عدى بن زيد أثرها فى نفسية النعمان، دفعه إلى اعتناق النصرانية وبعد أن دخل النعمان فى النصرانية، جعل من نفسه حاميا للمذهب النسطورى، الذى انتشر فى العراق، وصارت الحيرة أحد المعاقل الهامة لهذا المذهب، واعتنقه كثير من أصحاب الجاه والسلطان.

وبعد أن اعتنق النعمان المذهب النسطورى، أبعد أتباع مذهب اليعاقبة، وطردهم من سائر أعماله، فازدادت النسطورية قوة.

ونسب إلى النعمان رعايته (لدير اللجة)، وأطلق عليه هذا الإسم نسبة إلى إبنته (اللجة).

وطول مدة حكم النعمان بن المنذر، لم تحدث سوى بعض الغارات التى شنها على حدود بلاد الشام، ولا يعرف إلا القليل عن أخبارها.

كما حدث بعض المناوشات مع القبائل المجاورة، نتيجة لاتساع رقعة الأرض التى امتد نفوذه إليها، من البحرين جنوبا إلى جبال طئ غربا.

وفى يوم (طخّفة)، اشتبكت قوات النعمان مع بنى يربوع، كما اشتبك مع بنى عامر بن صعصعة، فى موقعة يوم (السلاّن)، ولكن النصر لم يكن حليفه فى الموقعتين، واضطر لدفع دية كبيرة لإطلاق سراح إبنه وأخيه وعدد من الرؤساء الذين أسروا فى المعركتين.

وكانت (فدية الملوك) التى دفعها النعمان لفك أسر كل منهم تقدر بألف بعير.

تدهور العلاقات بين النعمان وكسرى الفرس فى أواخر أيامه:

وفى أواخر أيام النعمان بن المنذر، ساءت العلاقات بينه وبين كسرى (إبرويز بن هرمز)، ويختلف المؤرخون حول أسباب ذلك، فمنهم من يرجع ذلك إلى سجنه لعدى بن زيد العبادى وقتله، وكان من المقربين إلى كسرى، وأوغر صدر كسرى على النعمان ابن عدى المسمى زيد، الذى كان يعمل فى بلاط كسرى.

ولا يقبل أبو حنيفة الدينورى هذا التعليل، ويعتبر أن سبب سخط كسرى محاولات النعمان وأهل بيته الاستقلال بحكم الحيرة وتوابعها عن الفرس، ويستند فى ذلك إلى كتاب نسب إلى كسرى الذى وجهه إلى إبنه، وجاء فيه:

«وأما ما زعمت من قتلى النعمان بن المنذر[(١١)] وإزالتى الملك عن آل عمرو بن عدى إلى إياس بن قبيصة، فإن النعمان وأهل بيته واطئوا العرب، وأعلموهم توقعهم خروج الملك عنا إليهم، وقد كانت وقعت إليهم ذلك فى كتب، فقتلته ووليت الأمر أعرابيا لا يعقل من ذلك شيئا».

وهذا التفسير الذى أورده الدينورى فى كتابه (الأخبار الطوال)، أقرب إلى الصواب. وهناك تفسير آخر ذكره بعض الأخباريين، بما يشبه القصص أو الأساطير، مفادها أن كسرى (أبرويز بن هرمز)، طلب ذات يوم بعض النساء لأهله وولده، وكلمه زيد بن عدى فى ذلك، وأبلغه أن عند النعمان من بناته وبنات عمه وأهله

(١١) د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول. ص ١٩٦.

أكثر من عشرين إمرأة، بنفس الصفات التى ذكرها كسرى، فأمر كسرى بالكتابة إلى النعمان لإحضارهن إليه.

وقال زيد بن عدى «أيها الملك، إن شر شئ [١٢] فى العرب وفى النعمان خاصة أنهم يتكرمون عن العجم، فأنا أكره أن يغيبهن، فابعثنى وأبعث معى رجلا من العجم من حرسك يفقه العربية، حتى أبلغ ما تحبه، فبعث معه رجلا جليدا، فخرج به زيد حتى بلغ الحيرة، فلما دخل على الملك النعمان، قال: إنه قد احتاج إلى نساء لأهله وولده، وأراد كرمتك بصهره، فبعث إليك، فشق عليه، فقال لزيد: أما فى مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته؟»

ولما عاد زيد بن عدى ومرافقة إلى فارس، أبلغا كسرى ما حدث، فغضب على النعمان، وأضمر فى نفسه الانتقام منه، وقال «رب عبد قد صار فى الطغيان إلى أكثر من هذا».

وبهذه المكيدة أوغر صدر كسرى على النعمان، إنتقاما منه لسجن والده وقتله من قبل. ويذكر أن كسرى أرسل كتابا إلى النعمان يستدعيه للحضور إلى العاصمة المدائن، فأدرك سوء المصير الذى ينتظره.

وعقب ذلك حمل النعمان سلاحه وماله وتوجه إلى ديار طئ لكى يحتمى طرفهم، وكانت له زوجة منهم هى إبنة (سعد بن حارثة بن لأم الطائى)، وهو من أشراف طئ، ولكنهم أبوا أن يحموه خوفا من كسرى، فغادرهم إلى من كان يغدق عليهم من قبل، ليحتمى بهم، فلم يجره أحد منهم، فانصرف عنهم قائلا «لا طاقة لكم بجنود كسرى».

وأخيرا نزل النعمان سرا فى ذى قار، لدى بنى شيبان، حيث لقبه هانئ بن مسعود الشيبانى، وكان سيدا مهيبا، فأودع النعمان لديه أهله وماله وسلاحه، ثم توجه إلى المدائن للقاء كسرى.

ويروى أن كسرى قد صف له فى المدائن ثمانية آلاف جارية فى صفين، وهن مزينات، فقلن له «أما فينا للملك غنى عن بقر السواد؟»، فعلم أنه لا محالة هالك.

---

(١٢) د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء الثالث. ص ٢٦٩.

وهناك لقى زيد بن عدى، فقال له النعمان «أنت فعلت هذا بى، لئن تخلصت لأسقينك بكأس أبيك»، فرد زيد قائلا «امضى نعيم، فقد أخيت لك أخية لا يقطعها المهر الآرن».

مقتل النعمان بن المنذر سنة ٦٠٥م وانتهاء حكم المناذرة فى الحيرة وتولى إياس بن قبيصة العرش:

ويذكر أن كسرى قد أمر بسجن النعمان، فأودع سجن (ساباط) فى المدائن، وقيل بسجن (خانقين)، وذكر أيضا أنه سجن فى (القطقطانة).

ويروى أن وفاته كانت بالطاعون عندما وقع هذا الوباء، وهو فى سجن خانقين. كما يذكر أن كسرى قد أمر به فرمى تحت أقدام الفيلة، فوطأته حتى مات، وقال فى موته هانى **بن مسعود:**

إن ذا التاج لا أبالك أضحى فى الورى رأسه تخوت الفيول
إن كسرى عدا علي الملك النعمان حتى سقاه مر البليل

وفى رواية أخرى قيل أنه قد مات فى سجن ساباط فى المدائن.

وذكر أن أحد أبناء النعمان، وكان يقول الشعر، قد قال شعرا عندما سمع بمقتل والده، **جاء فيه:**

قولا لكسرى والخطوب كثيرة إن الملوك بهرمز لم تجبر

ورثاه لبيد بن ربيعة فى قصيدة **منها:**

له الملك فى ضاحى معه وأسلمت إليه القياد كلها ما يحاول

وقيل أنه بعد موت النعمان، استباح كسرى أمواله وأهله وولده، وأمر ببيعهم بأبخس الأثمان.

وبموت النعمان إنتهى حكم المناذرة فى الحيرة، وقد ولى الفرس أحد عملائهم، وهو إياس به قبيصة الطائى الذى سبق أن عهد إليه بإدارة شئون الملك لعدة أشهر قبل أن يعطى التاج للنعمان، وقيل أنه كان نصرانيا. وكانت مدة حكمه تسع سنوات من عام ٦٠٥ إلى ٦١٤، فى زمن كسرى (إبرويز).

وفى بعض حروب الفرس مع الروم، دفعه كسرى (إبرويز) لقتال الروم، فألحق بهم هزيمة بالقرب من (أرزن) ومن أهم الحروب التى خاضها إلى جانب الفرس (موقعة ذى قار)، التالى ذكرها.

موقعة ذى قار:

و(ذوقار) هو موضع ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة.

أما سبب وقوع الموقعة التى جرت بالقرب منه، فيرجعه الإخباريون إلى مطالبة كسرى (إبرويز) بتسليمه تركة النعمان بن المنذر، بعد وفاته، وأرسل بذلك إلى عامله على الحيرة إياس بن قبيصة، فأخبره بأنها وديعة عند بكر بن وائل، فأمره كسرى باستردادها منهم وإرسالها إليه، فأرسل إياس بن قبيصة إلى هانئ بن مسعود الشيبانى، مطالبا برد ودائع النعمان التى لديه من أموال ودروع وغيرها، وقبل أن عدتها كانت أربعمائة أو ثمانمائة ردع أو أكثر، فامتنع هانئ أن يسلمه شيئا منها.

ولما بلغ الخبر كسرى استشاط غضبا، وهدد بقطع دابر بكر بن وائل، وأرسل يفاوضهم فى إحدى الأمور الثلاثة التالية:

(١) الاستسلام لكسرى يفعل[١٣] بهم ما يشاء.

(٢) أو الرحيل عن الديار.

(٣) أو الحرب.

وقد رفض بنو بكر الإستسلام لكسرى، أو مغادرة ديارهم، واختاروا الحرب، وأشار عليهم بالقتال (حنظلة بن تعلبة بن سيار العجلى).

وعلى أثر ذلك أخذ كسرى يستعد لقتالهم، فنصحه (النعمان بن زرعة التغلبى)، الذى كان يكره بكر بن وائل، ويسعى لهلاكهم، بأن يمهلهم حتى قدوم فصل الصيف، عندما تخور قواهم، وقال له «أمهلهم حتى تقيظ، فإنهم لو قاظوا تساقطوا على ماء لهم يقال له ذو قار، تساقط الفراش فى النار، فأخذتهم كيف شئت، وأنا أكفيكهم».

---

(١٣) د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول. ص ١٩٨.

ولما حل فصل الصيف أرسل إليهم كسرى جيشا من الفرس على رأسه الهامرز النسترى) (المزربان) الأكبر لكسرى، وكان يقود ألف فارس، وجيشا آخر من ألف فارس، بقيادة (جلا بزين)، وأرسل مع الجيشين مجموعة من الفيلة. وقد جعل كسرى قيادة الجيش العليا لإياس بن قبيصة، الذى خرج فى كتيبتين شهباويتين، وكتيبة روسر، وكان برفقته قيس بن مسعود بن خالد بن ذى الجدين، عامل كسرى على (سفوان)، وخالد بن يزيد البهرانى، والنعمان بن زرعة التغلبى والنمر بن قاسط، وهم زعماء العرب الموالين للفرس.

ولما اقترب الفرس من العرب، «انسل قيس بن مسعود ليلا فأتى هانئا، فقال له: اعط قومك سلاح النعمان فيقووا به، فإن هلكوا كان تبعا لأنفسهم، وكنت قد أخذت بالحزم، وإن ظفروا ردوه عليك، ففعل، فقسم الدروع والسلاح فى ذوى القوى والجلد من قومه».

وكان هانئ بن مسعود يخشى عاقبة هذه الحرب، ويكره مقابلة الفرس، فلما دنا الجمع من قومه، قال لهم «يا معشر بكر، إنه لا طاقة لكم بجنود كسرى ومن معهم من العرب، فاركبوا الفلاة». فنهض حنظلة بن ثعلبة، وقال له «إنما أردت نجاتنا، فلم تزد على أن ألقيتنا فى الهلكة»، فرد الناس، وقطع (وضُن الهوادج)، وهى أربطة الرحال، لئلا تستطيع بكر أن تسوق نساءهم إن هربوا.

وقد اشتبك العرب والفرس فى قتال عنيف، وخاضه إلى جانب بكر، بنو عجل، وبنو إياد، وبنو شيبان، وغيرهم من قبائل العرب، الذين يشعروا أن هذه المعركة ستقرر مصير العرب فى المنطقة، فخاضوها ببسالة نادرة.

ولقد استمرت هذه المعركة عدة أيام، وفى اليوم الأول، كان النصر حليف الفرس، وفى اليوم الثانى جزع الفرس من العطش، وتراجعوا إلى (الجبابات)، فتبعهم بنو بكر وبنو عجل وباقى العرب.

ولما اشتد العطش بجنود الفرس، مالوا إلى بطحاء ذى قار، حيث حمى القتال، وفى هذا اليوم أظهر بنو عجل بطولات رائعة، وكانت إحدى نسائهم تحثهم على القتال قائلة:

إن يظفروا فينا الغزل   أيها فداء لكم بنو عجل

وأثناء ذلك أرسل بنو إياد إلى بنى بكر سرا، يعرضون عليهم أن يتعاونوا معهم عندما يلتقون بالفرس وأعوانهم، واتفقوا على أن يتراخوا فى القتال حتى ينهزموا، وحدث ذلك عندما التقى الفريقان فى مكان من ذوى قار يسمى (الجب)، فانهزمت (أياد)، حسب الإتفاق السابق، كما انهزم الفرس.

وفى هذه المعركة استبسل بنو شيبان فى القتال، ومنى الفرس بهزيمة نكراء، وقتل منهم عدد كبير، ومن بينهم (الهامرز) و (جلابزين).

ويطلق الإخباريون على موقعة (ذى قار) عدة أسماء، منها يوم قراقر، ويوم الحنو، أى حنوذى قار، ويوم الجبايات، ويوم الفذوان، ويوم البطحاء، أى بطحاء ذى قار، ويوم ذى العجرم، وقد أطلقت هذه الأسماء على المعارك التى وقعت حول موضع ذى قار كما اختلف المؤرخون والإخباريون فى تاريخ وقوع هذه المعركة، وحددها بعضهم بين عام ٦٠٤ وعام ٦١٠ ميلادية، ومنهم (روتشتاين). و(نولدكه). ويتفاوت هذا التاريخ بين الإخباريين العرب، فبعضهم جعلها يوم ولادة الرسول، أو يوم بعثه بالرسالة، أو بعد هجرته إلى يثرب، أو عقب غزوة بدر.

وتعتبر معركة (ذى قار) أول معركة ينتصر فيها العرب على جيوش الفرس، وقد أعطاهم هذا النصر ثقة كبيرة بأنفسهم.

وهى بمثابة حركة استطلاعية، ومقدمة للفتوح الإسلامية التى لم تلبث أن اكتسحت إمبراطورية الفرس الساسانيين، مع بداية ظهور الإسلام. وحول انتصار العرب على الفرس فى معركة (ذى قار)، قال الرسول عليه الصلاة والسلام «هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، ونصرت عليهم بى».

عزل إياس بن قبيصة عقب معركة ذى قار وتعيين حاكم فارسى على الحيرة:

وبعد معركة (ذى قار) أقصى الفرس إياس بن قبيصة عن حكم الحيرة، وأخضعوها لحكمهم المباشر، وعينوا عليها حاكما فارسيا يدعى (أزاذ به بن ما هيبيان بن مهرا بنداد الهمذانى)، أو (أزاد به بن ماهان بن مهر بنداد الهمذانى)، وأطلق عليه أيضا (زادويه الفارسى).

وكانت مدة حكمه سبع عشرة سنة، من عام ٦١٤ إلى عام ٦٣١م، ومن هذه المدة أربع عشرة سنة من زمن كسرى (إبرويز)، وثمانية أشهر من زمن (شيروية بن إبرويز)، وسنة وسبعة أشهر فى زمن (أردشير بن شيرويه)، وشهرا واحدا فى زمن (بوران بنت إبرويز).

ولم يذكر الإخباريون شيئا عن أحواله طوال مدة حكمه.

المناذرة يستعيدون ملك الحيرة لمدة وجيزة وتولى المنذر بن النعمان بن المنذر العرش خلالها:

وكان المناذرة بعد سجن النعمان بن المنذر ووفاته، وانتهاء حكمهم فى الحيرة، قد توجهوا إلى جهات البحرين، حيث استطاع أحد أبناء النعمان، وهو المنذر الخامس، المعروف (بالمغرور)، أن يكوّن إمارة عربية مستقلة.

ثم استقل عرب الحيرة اندلاع الإضطرابات فى الدولة الساسانية، فأعلنوا الثورة، وتمكنوا من خلع (آزدابه) الفارسى، وأقاموا المنذر بن النعمان ملكا عليهم، وذلك فى عام ٦٣١م.

وبذلك استعاد المناذرة ملك الحيرة، وإن لم يدم ذلك سوى ثمانية أشهر، هى مدة حكم المنذر بن النعمان.

وخلال هذه الفترة بدأت الفتوحات الإسلامية، وعلى أثر دخول خالد بن الوليد الحيرة بجيشه، إنتهت دولة المناذرة، وزال حكم المنذر بن النعمان، أو المنذر الخامس.

وروى أن المنذر بن النعمان قد اضطر لمغادرة الحيرة، قبل وصول جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد إليها.

وقيل أنه عاد إلى البحرين، فجعله أهلها أميرا عليهم، وهم من ربيعة، وقيس بن ثعلبة، وكانوا قد ارتدوا عن الإسلام. فأوفد إليهم الخليفة أبو بكر الصديق جيشا بقيادة العلاء بن الحضرمى، ودارت معركة أنتصر فيها العلاء فى المرحلة الثانية، وقتل المنذر، وتعرف هذه المعركة (بيوم جوانا).

ويذكر أنه بعد دخول خالد بن الوليد الحيرة، فرض على أهلها إتاوة قدرها مائة ألف درهم.

حضارة الحيرة

كانت الحيرة في عهد المناذرة اللخميين، من المراكز الحضارية الهامة في الميادين المختلفة. وكان موقعها بين العراق والشام والجزيرة العربية، أثره في إحتكاك أهلها بالشعوب الأخرى، وتأثرهم بثقافاتهم العالمية، آنذاك، وهي الفارسية، واليونانية، والسريانية.

ونتناول فيما يلي أهم مظاهر حضارة الحيرة.

الحياة الإجتماعية

أ) العرب:

كان أغلب سكان الحيرة من العرب، وهم خليط من قبائل متعددة، ينتمون إلى القحطانيين والعدنانيين، ويقسمهم الإخباريون إلى ثلاث طوائف هي:

١) تنوخ:

وهم مجموعة قبائل، سبق أن هاجر الأوائل منهم من اليمن، ونزلوا في منطقة البحرين، قبل أن ينتقلوا إلى غربي الفرات ما بين الحيرة والأنبار.

وكانوا يسكنون في بيوت من الشعر والوبر والمظال، واشتغلوا بالرعي، وبحماية القوافل التجارية المارة بأراضي الحيرة، كما عملوا في التجارة، وكانوا يعيشون حياة أهل البادية، ولا يتزاوجون مع أهل الحضر، وأطلق عليهم (عرب الضاحية).

٢) العباد:

وهم من الحضر المستقرين، الذين بنوا الدور في الحيرة وسكنوا بها.

وينتمون إلى قبائل شتى، من بطون لخم، وربيعة، وعبد القيس وغيرهم. وكانوا يدينون بالنصرانية، وورد إسمهم في الحديث الشريف «أبعد الناس عن الإسلام، الروم، والعباد، وأحسبهم هؤلاء، لأنهم تنصروا وهم من ربيعة، ثم من بني عبد القيس».

ويختلف الإخباريون فى تفسير أصل تسمية (العباد)، فيذكر بعضهم أن وفدا منهم وفدوا ذات يوم على كسرى، فسألهم عن أسمائهم، وكانت كلها تبتدئ بكلة (عبد)، مثل عبد المسيح، فقال لهم «أنتم عباد كلكم»، ومن ثم أطلق عليهم (العباد).

ويقول البعض الآخر أنهم سموا (العباد)، لأنهم كانوا يعبدون الله، ولم يعبدوا الأوثان.

وكانت تسمية (العباد) تطلق على النصارى من سكان الحيرة، لتميزهم عن باقى سكانها من الوثنيين، كما كانت تميزهم عن نصارى العرب من غير أهل الحيرة. وكان (العباد) أكثر أهل الحيرة ثقافة، ودرس بعضهم العلوم، وأجادوا عدة لغات منها الآرامية والعربية والفارسية، ولذلك اختار حكام الفرس منهم تراجمتهم والمراسلين بينهم وبين العرب، وكان منهم زيد بن عدى العبادى، كما استغل بعضهم فى الصناعة، وحذقوا عددا من الصناعات.

٣) الأحلاف:

وهم من القبائل العربية الذين نزلوا فى الحيرة ، ولم يكونوا من التنوخيين أو العباد.

وهؤلاء كانوا متحالفين مع المناذرة، واعترفوا بسيادتهم عليهم.

ب) فئات أخرى:

وإلى جانب العرب، كان يعيش فى الحيرة جماعة من النبط، ويقصد بهم بقايا سكان العراق الأصليين، من الكلدانيين، والبابليين، والآراميين، وكانوا يشتغلون بالزراعة، وكان يتكلم بعضهم العربية بلكنة ظاهرة.

كما كان يسكن فى الحيرة وما حولها من اليهود الذين استقروا بالمنطقة بعد (السبى البابلى)، وهاجر إليها من فلسطين مجموعة أخرى من اليهود؛ على أثر إضطهاد الرومان لهم، وكان رئيس جاليتهم يعرف بإسم(رأس جالوتا)، وكانت لهم مدارس خاصة.

كذلك كان يعيش فى الحيرة جماعة من الفرس.

ونتيجة لاختلاط هذه الجماعات بعرب الحيرة، شابت لهجتهم العربية لكنة نبطية.

الحياة الإقتصادية

إزدهرت الحياة الإقتصادية فى الحيرة، بسبب وقوعها فى أرض السواد ذات المياه الوفيرة، ولقربها من نهر الفرات، ووقوعها على طريق القوافل التجارية.

الزراعة:

كانت الزراعة والرعى من أهم حرف أهل الحيرة، بسبب قربها من نهر الفرات وخصوبة أرض المنطقة التى تقع بينها، ووفرة مياهها، فكانت مزارع النخيل والبساتين تمتد فى نواحيها من النجف حتى نهر الفرات.

التجارة:

اشتغل أهل الحيرة بالتجارة، وعن طريقها تدفقت الثروات عليهم، وارتفع مستوى معيشتهم.

وكان للحيرة سوق مشهور يقصده الأعراب وتجار الجزيرة العربية لبيع سلعهم، أو شراء ما فيها من سلع نفيسة يرغبها العرب.

وكانت القوافل التجارية تتجه من الحيرة إلى تدمر وحوران بالشام، وهى تحمل منتجات الهند والصين والبحرين وعمان.

وكان ملوك الحيرة وخاصة النعمان بن المنذر، يرسلون إلى سوق عكاظ بالجزيرة العربية، قافلة تجارية تسمى (اللطيمة)، لبيع منتجات الحيرة، وتعود محملة بسلع اليمن والحجاز.

وبسبب قرب الحيرة من نهر الفرات، فقد تشجع أهلها على ركوب السفن فى الفرات حتى الأيلة، ومن الخليج انطلقوا إلى البحار الكبرى، حتى الهند والصين شرقا، وعمان غربا، للمتاجرة مع هذه البلدان.

الصناعة:

بلغت الصناعة فى الحيرة درجة كبيرة من التقدم، والجودة والإتقان.

وقد اشتهرت الحيرة بكثير من الصناعات، ومن أهمها صناعة النسيج، وخاصة نسيج الحرير والكتان والصوف، التى تميزت بجودتها، وبرع صناعها فى تطريز أثواب النسيج بالقصب وخيوط الذهب والزمرد وغيرهما، وامتدت شهرة الحيرة فى ذلك حتى العهد الإسلامى.

ومن نماذج أزياء وأكسية الحيرة التى نالت شهرة كبيرة، الساج، والطيلسان، واليلمق، والشرعبية، والسيراء، والطوع الحارية، والمرفل.

ومن أهم هذه النماذج (أثواب الرضا) التى كان يخلعها ملوك الحيرة على الشعراء وغيرهم من المقربين إليهم، وكانت عبارة عن جباب مطرز أطواقها بالقصب وخيوط الذهب وقضبان الزمرد.

وقد أشاد بعض الشعراء فى قصائدهم بنساجى الحيرة، وأنماط الأثواب الراقية، ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم:

وإذ لا ترجى سلمى أن يكون لها ... من بالخورنق من قين ونساج

وقال النابغة الذبيانى:

والأدم قد خيست فتلا مرافقها ... مشدودة برجال الحيرة الجدد

وقال امرؤ القيس:

فلما دخلناه أضفنا ظهورنا ... إلى كل حارى جديد مشطب

كما اشتهرت الحيرة بضاعة الأسلحة، من سيوف ونصال ورماح، وقد اشتهرت الحيرة بنوع خاص من السيوف، عرف بإسم (السيوف الحادية)، وكانت لها سمعة عريضة بين العرب.

كذلك برع أهل الحيرة فى صناعة أدوات الزينة والحلى، التى كانت تطعّم بالذهب والفضة والياقوت والجواهر الأخرى.

وقد ذاعت شهرة خزف الحيرة، وأوانى الفخار المصنوعة بها.

وعرفوا أيضا صناعة الجلود والدباغة، والتحف المعدنية، والتحف المصنوعة من العاج.

فن البناء والعمارة

تقدم فن البناء والعمارة فى الحيرة بشكل ملموس، وفى هذا الميدان تجلت عبقرية أهل الحيرة وفنهم.

وقد تأثر أهل الحيرة فى فن العمارة بجيرانهم الفرس، وخاصة فى بناء القصور، ثم طوروا فى هذا الميدان وأدخلوا عليه إضافات كبيرة من أذواقهم المحلية، حتى أصبح فنا خاصا، ونموذجا قائما بذاته، عرف عن الحيرة، وصار مثالا يحتذى فى مجال البناء.

وكان فن البناء فى مدينة (سامراء) متأثرا بأسلوب أهل الحيرة فى البناء، كما شيد قصر المتوكل على نظام قصور الحيرة، وعرف باسم (الحيرى)، وقد استمر هذا التأثير حتى فى العصور الإسلامية المتأخرة.

وكانت براعة أهل الحيرة فى فن البناء، تتحلى فى ميدانين: فى تشييد القصور، وبناء الأديرة والكنائس.

وبوجه عام، كان فن بناء القصورة فى الحيرة لملوك اللخميين والمناذرة، متأثرا بالفن الساسانى، إذ كان القصر يتكون من رواق فى الوسط، هو مجلس الملك، ويمثل الصدر، وفى طرفى الرواق، على اليمين واليسار، يوجد جناحان أو كمّان.

وكان هذا الطراز سمة مميزة لفن بناء القصور فى الحيرة.

كما تأثر أسلوب زخرفة ونقش حدران القصور والبيوت فى الحيرة، بطريقة الفن الساسانى.

وقد تجلى فن بناء القصور بهذا الطراز فى القصور العظيمة التى بناها ملوك الحيرة، وأهمها قصر الخورنق والسدير، وهما من تشييد النعمان الأول.

ومن القصور الأخرى الأقل شهرة، قصر الفرس، وقصر الزوراء، والقصر الأبيض، وتقع فى الحيرة، ومنها قصر سنداد، وكان يقع بين الحيرة والأيلة،

وقصرى العذيب والصنبر، وقد بناهما امرؤ القيس بن النعمان، بالقرب من الفرات.

ومنها قصر مقاتل، وقصر العدسيين، الذى بناه فى طرف الحيرة بنور عمار بن عبد المسيح بن قيس بن حرملة بن علقمة بن عشير الكلبى، وسمى بهذا الإسم نسبة إلى جدتهم عدسة بنت مالك بن عوف الكلبى.

أما الأديرة والكنائس، فقد بنى الكثير منها فى الحيرة وما جاورها، وخاصة بعد أن تنصر المناذرة، وازداد عدد سكانها من النصارى، وبعد أن أصبحت الحيرة أسقفية، تابعة لكرسى (جاثليق) المدائن.

ومن أشهر الأديرة التي شيدت فى الحيرة، ديرهند الكبرى.

الحياة الدينية

كان سكان الحيرة يشكلون عدة طوائف مختلفة دينيا، فمنهم الوثنيون، والصائبة، والمجوس، والنصارى، واليهود.

وكان الوثنيون يمثلون غالبية أهل الحيرة فى أول الأمر، ومن أهم الأصنام التى عبدوها (الضيزنين) اللذين أدخلهما جذيمة الأبرشي، وكان يستسقى ويستنصر بهما على أعدائه، وظلا فى مكانهما حتى عهد المنذر بن ماء السماء، حيث نقلهما إلى باب المدينة، لكى ينحنى لهما الداخلون إليها.

ومن الأصنام الأخرى التى عبدها الوثنيون فى الحيرة، ضم كان يطلق عليه (سبد)، كانوا يقسمون به، بقولهم (وحق سبد)، وعبدوا أيضا (العزى) مثل العرب الآخرين فى البادية.

وقد انتشرت فى الحيرة ديانات الفرس مثل الزراد شتيه، والمجوسية، والصائبية، وكان كسرى (قباذ) يحاول نشر هذه المذاهب الدينية بين أهل الحيرة.

كما انتشرت المسيحية فى الحيرة، وعلى الأخص المذهب السنطورى، وإزداد عدد النصارى، واخصة بعد أن اعتنقها امرؤ القيس، والنعمان بن المنذر.

وكان النصارى فى الحيرة يطلق عليهم (العباد)، وكانوا يتمتعون بممارسة شعائرهم الدينية فى حرية تامة، وبنوا كثيرا من الأديرة والكنائس، وخاصة أثناء حكم الملوك اللخميين النصارى.

وكان الأسقف (جابر بن شمعون) من الأساقفة المعروفين، وهو صاحب القصر الأبيض فى الحيرة، وكان له نفوذ واسع بين قومه.

وكانت مدينة (فيروز سابور)، وهى الأنبار، مركزا هامة للثقافة اليهودية فى العراق، والتى كانت تخضع لحكم ملوك الحيرة، وذلك بعد انتقال أحبار اليهود فى مدينتى (سورا) و (بومبيدثا) إليها، بعد أن أغلق كسرى (هرمز الرابع) مدارس اليهود فى تلك المدينتين، وكان يضطهد اليهود.

وقد أسهم كبار أخبار اليهود الذين تخرجوا من المراكز العلمية اليهودية فى الأبنار و (فومبدثا) فى تدوين التلمود البابلى، وفى جمع التراث اليهودى القديم.

ومن أهم علماء اليهود الذين شاركوا فى هذا المجال (ماردرابة الفاؤون).

الحالة العلمية والثقافية

نتيجة لمعرفة أهل الحيرة باللغة الفارسية، فقد تمكنوا من نقل آداب الفرس إليهم.

كما ساهم بعض أسرى الروم فى نقل علوم اليونان وآدابهم، وكانوا قد أسروا أثناء الاشتباكات التى وقعت بين ملوك الحيرة والروم.

ومن العلوم التى أحرزت تقدما كبيرا فى الحيرة، علم الطب، وقد استمرت شهرة الحيرة كمركز طبى، بعد ظهور الإسلام، وقيام الدولة الإسلامية، ومن مشاهير أطباء المسلمين الذين ينتمون إلى الحيرة جبر بن إسحق، وكان أبوه يعمل صيدلاينا فى الحيرة.

وكانت الحيرة تزخر بمعاهد ومدارس العلم، ويذكر ياقوت الحموى، أن «الصبيان فى الحيرة كانوا يتعلمون القراءة والكتابة فى كنيسة من قراها إسمها النقيرة».

ومن مدارس الحيرة الدينية تخرج (إيليا الحيرى) مؤسس (ديرمار إيليا) فى الموصل، كما تلقى (مارعبد الكبير) دراسته فى إحدى مدارسها.

كذلك كانت الحيرة مركزا للثقافة العربية، إذ كان يتوافد عليها الشعراء، مثل المرقش الصغير، والتلمس، وطرفه بن العبد، والنابغة الذبيانى، والمنخل اليشكرى، وحسان بن ثابت، وعمرو بن كلثوم، وغيرهم من مشاهير شعراء الجاهلية.

وهؤلاء الشعراء كانوا يقصدون بلاط ملوك الحيرة، الذين كانوا يشجعونهم ويغدقون عليهم الهبات والعطايا.

وفى مجلس الملك كان هؤلاء الشعراء يتبارون فى مدحه، وينقد بعضهم أشعار الآخرين.

الكتابة

يرى البعض أن الخط الحيرى، هو أساس الخط العربى، ومن المعروف أن الخط العربى الكوفى، هو تطور للخط الحيرى.

وفى رأى البعض الآخر، أن بلاد الحجاز قد عرفت الكتابة عن طريق البتراء، وأن الكتابة النبطية كانت تستخدم فى الأعمال التجارية.

الفصل الرابع

دولة الغساسنة

- أصل الغساسنة وظروف قيام دولتهم وموقعها الجغرافى
- **ملوك الغساسنة:**
- الحارث بن جبلة (٥٢٩ - ٥٦٩م)
- المنذر بن الحارث بن جبلة (٥٧٠ - ٥٨٢م)
- تصدع إمارة الغساسنة
- جبلة بن الأيهم
- **حضارة الغساسنة**
- الزراعة
- القصور والمنشآت العمرانية
- الفنون الحربية
- التأثر باللغة اليونانية

الفصل الرابع
دولة الغساسنة

قامت دولة الغساسنة فى بادية الشام، واستمرت فترة طويلة تتراوح بين أربعمائة وستمائة عام.

وكان الغساسنة حلفاء للدولة البيزنطية، وحلوا مكان الرومان فى هذه المنطقة.

أصل الغساسنة وظروف قيام دولتهم وموقعها الجغرافى:

الغساسنة من قبائل الأزد اليمنية، وقد نزحوا من جنوب الجزيرة العربية على أثر حادثة سيل العرم.

ويذكر أن هذه الجماعات لم ترحل مباشرة إلى الشام، وإنما نزلوا لحين من الزمن فى سهل تهامة، عند نبع ماء يسمى «غسان»، فنسبوا إليه، ويتحدث عن ذلك المسعودى بقوله «وإنما غسان ماء[1] شربوا منه، فسموا بذلك، وهو ما بين زبيد ورمع، بوادى الأشعريين بأرض اليمن».

ويستشهد المسعودى فى تفسيره بالبيت التالى من شعر **حسان بن ثابت**:

أما سألت فإنا مشعر نجب ∴ الأزد نسبتنا والماء غسان

وكانت هجرة الغساسنة بقيادة زعيمهم عمرو بن مزيقياء، وهو «ابن عامر ماء السماء بن حادثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزدبن الفوث».

وللإخباريين تفسيران مختلفان حول تسمية عمرو «بمزيقياء»، فيذكر حمزة الأصفهانى، نقلا عن الأزد «أن عمرا إنما سمى[2] مزيقيا لأنه كان يمزق كل يوم من سنى ملكه حلتين لئلا يلبسهما غيره، فسمى هومزيقيا وسمى ولده المزاقية وقيل فى رأى آخر «إنما سمى مزيقيا، لأن الأزد تمزقت على عهده كل ممزق عند هربهم من سيل العرم».

ويعتبر التفسير الأول تفسيرا خرافيا، ربما قصد به إظهار ثراء عمرو بن عامر، وجاهه. ويرجح التفسير الثانى، الذى يعتمد على قوله تعالى فى سورة سبأ «فقالوا

---

(١) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر الجزء الثانى. ص ١٠٦.

(٢) حمزة الأصفهانى: تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء. ص ٧٧.

ربنا باعد بين أسفارنا، وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور».

ويسمى الغساسنة أيضا بآل جفنة، أولاد جفنة، نسبة إلى أول ملوكهم «جفنة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن أمرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد».

ويسمون كذلك بآل ثعلبة نسبة إلى جدلهم يعرف «بثعلبة بن مازن». وعندما نزل الغساسنة في بادية الشام، كانت تسكنها قبائل قضاعة، والضجاعمة وغيرها، ولم يكن من السهل أن يستقر الغساسنة إلى جانبهم. فلما نزل الغساسنة في جوار سليح بن حلوان، فرض عليهم سليح إتاوة، وقد تحايل جذع بن عمرو الغساني على سبيط الضجعي حتى قتله، عندما طلب سبيط الضجعي الإتاوة من ثعلبة بن عمرو الغساني، وعلى أثر ذلك قامت الحرب بين سليح وغسان، وانتهت بهزيمة سليح، وآل الملك إلى بني غسان. ولكن الغساسنة لم يتمكنوا من القضاء نهائيا على بني سليح الضجاعمة، فقد ظل الضخاعمة مقيمين في مواضع أخرى من الشام، إلى زمن متأخر، ويذكر أن جماعة منهم قد حاربوا خالد بن الوليد في رومة الجندل، وفي قصيم.

وكانت مملكة الغساسنة تمتد من بادية الشام إلى دمشق فيما بين الجولان واليرموك، ومن أهم مدنهم «الجابية»، التي كانت مركز الدولة، ومنها «جلق»، وتقع على نهر بردى.

وكان الغساسنة يدينون بالمسيحية[٣] مثل البيزنطيين، ولكنهم كانوا يؤمنون بالمذهب اليعقوبي المخالف لمذهب البيزنطيين الذى انتشر في الشام ومصر. وقد عرف الغساسنة بإسم «العرب المتنصرة».

كما انتشرت اليهودية بينهم، لمحاورتهم ليهود فلسطين.

وكان الغساسنة حلفاء دائما للبيزنطيين، وكانت الدولة البيزنطية تعتمد عليهم في صد غارات البدو على بادية الشام، وكانوا يعرفون «بروم العرب»، نسبة إلى حلفائهم الروم البيزنطيين.

(٣) د. عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى للدولة العربية. ص.ص ٨٨ و ٨٩.

ملوك الغساسنة

يذكر حمزة الأصفهانى أن أول أمراء بنى غسان هو جفنة بن عمرو مزيقياء، الذى عاصر الإمبراطور الرومانى «أنطاسيوس».

ويضيف حمزة الأصفهانى أنه بعد جفنة، تولى إبنه عمرو، ومن أعماله إقامة عدد من الأديرة، منها دير حالى، ودير أيوب، ودير هناد، وبعد عمرو تولى إبنه ثعلبه، الذى ينسب إليه بناء عقه وصرح الغدير فى أطراف حوران، ثم خلفه إبنه الحارث الجفنى.

ولكن المسعودى وابن قتيبة يخالفان حمزة الأصفهانى، ويذكران أول من تولى ملك الغساسنة هو الحارث بن عمرو بن عامر.

ويطلق العرب على ملوك الغساسنة من بنى جفنة إسم «ملوك الشام»، **ومن أهمهم:**

الحارث بن جبلة (٥٢٩ - ٥٦٩م):

وهو أول أمراء الغساسنة العظام، وإبن الحارث الجفنى.

ويذكر المؤرخ السريانى «إيزيس ملالاس»، أن الحارث بن جبلة كان عاملا للروم فى المنطقة.

وكان الحارث بن جبلة يعاصر الإمبراطور «جستنيان» Gustinianus (٥٢٧ - ٥٦٥م)، ويعاصر كسرى قباذ، وكسرى أنوشروان، من ملوك الفرس.

وذكر «بروكوبيوس» أن «جستنيان»، قد منح الحارث بن جبلة لقب «ملك» Basileus، وهذا اللقب لم يمنحه الروم من قبل لأحد من عمال العرب فى سورية.

وكان ذلك تقديرا لجهود الحارث بن جبلة فى ضبط الأمور ورعاية مصالح الروم فى الشام، أثناء إنشغال «جستنيان» فى حروبه فى أسبانيا وفى شمال إفريقيا، ولمحاربته أعداء الروم من الفرس وأتباعهم من عرب الحيرة بالعراق.

ويستنتج «نلدكة» أن لقب «ملك» قد منح للحارث بن جبلة فى سنة ٥٢٩م.

ولكن «نلدكة» يشك فى منح الحارث لقب «ملك»، لأن هذا اللقب كان قاصرا على قيصر الروم وحده، ويعتقد أنه منح لقب «البطريق» Patricius، أو لقب

شيخ القبيلة «فيلاركوس» Phylarcos.

وكان لقب «البطريق» من أسمى الألقاب عند الروم، وهذه الرتبة كانت أرقى من رتبة القنصل».

وقد شارك الحارث بن جبلة فى الحرب ضد الفرس إلى جانب الروم، كما اشتبك فى نزاع طويل مع المنذر بن ماء السماء (المنذر الثالث)، ملك الحيرة، بسبب الأراضى التى تقع على جانبى الطريق بين دمشق وتدمر، وتمثل الحد الفاصل بين الإمارتين، وتنازع الجانبين على الإتاوة التى كانت تجبى من قبائل العرب التى تنزل فى هذه الأراضى.

وفى إحدى المعارك فى سنة ٥٤٤م التى وقعت بين أتباع الحارث بن جبلة والمنذر الثالث، لحقت الهزيمة بالحارث بن جبلة،. وأسر أحد أبنائه، وقدمه المنذر الثالث قربانا للإلهة العزى.

وقد حانت الفرصة فى عام ٥٥٤م، أثناء معركة (حليمة)، لكى ينتقم الحارث بن جبلة لهزيمته السابقة ومقتل ولده، حيث لقى المنذر الثالث مصرعه فى هذه المعركة.

وكان الحارث بن جبلة يدين بالمسيحية على المذهب «المونوفيزيتى» أى مذهب الطبيعة الواحدة، وجعل من نفسه حاميا للكنيسة «المونوفيزية»، واستطاع أن يحول نصارى عرب الشام إلى هذا المذهب.

وكان ذلك سببا لاستياء القياصرة البيزنطيين، وبطارقة القسطنطينية، من الحارث بن جبلة الذى يدين بمذهب يخالف مذهبهم وعقيدتهم.

وحدث أن رحل الحارث بن جبلة فى سنة ٥٦٣م إلى القسطنطينية، للاتفاق مع الحكومة البيزنطية على من يخلفه من أولاده بعد وفاته، ولبحث الخطط العسكرية اللازمة لمواجهة عمرو بن المنذر، فلم يحظ بمقابلة لائقة.

وكانت وفاة الحارث بن جبلة فى آخر عام ٥٦٩، أو أول عام ٥٧٠م، بعد أن قضى فى الحكم ٤٠ عاما، وهى أطول مدة فى عهد أمراء الغساسنة.

وكان الحارث بن جبلة يشغل مكانة عظيمة فى نفوس العرب.

خلفاء الحارث بن جبلة:

المنذر بن الحارث بن جبل (٥٧٠ - ٥٨٢ م):

إنتقلت الإمارة بعد وفاة الحارث بن جبلة، إلى إبنه المنذر، الذى يعرف فى المصادر اليونانية واللاتينية والسريانية باسم Alamundaros.

ويذكر حمزة الأصفهانى، أنه كان يلقب بالمنذر الأكبر، لتمييزه عن أخيه المنذر الأصغر. وفى عام ٥٧٠م، فى بداية عهد المنذر بن الحارث، انتصر على جيش عمرو بن المنذر (عمرو بن هند)، ملك الحيرة فى موقعة عين أباغ، قرب الأنبار على طريق الفرات إلى الشام، وذكر بعض المؤرخين العرب أن عمرو بن المنذر قتل فى هذه الموقعة، وحقيقة الأمر أنه قتل بعد ذلك فى عام ٥٧٤م، على يدى عمرو بن كلثوم التغلبى.

ولم يكن الإمبراطور البيزنطى «جستين الثانى» على وفاق مع المنذر بن الحارث، بسبب تعصب المنذر مثل أبيه، للمذهب «المونوفيزينى»، وساءت العلاقة بينهما إلى حد الجفوة، وذكر أن الإمبراطور أوعز إلى البطريق «مرقيانوس» بأن يدبر حيلة لقتل المنذر، ولكن المنذر أحس بهذه المكيدة، ففر إلى البادية، وأعلن العصيان على الإمبراطور «جستين» مدة ثلاث سنوات، وأثناء ذلك أغار اللخميون حكام الحيرة على سورية وأعملوا النهب والفساد فيها، فاضطر البيزنطيون إلى مصالحة المنذر بن الحارث، وتم ذلك فى بلدة الرصافة فى أواخر أيام الإمبراطور «جستين»، وبواسطة مبعوث القسطنطينية البطريق «جستنيان».

وفى مارس سنة ٥٨٠م قام المنذر بن الحارث بزيارة الإمبراطور الجديد «طيباريوس الثانى» فى القسطنطينية بصحبة اثنين من أبنائه، وهناك حظى باستقبال حافل، وأنعم عليه الإمبراطور بالتاج.

ولكن لم تلبث أن ساءت العلاقات من جديد بين المنذر والإمبراطورية البيزنطية، فى نفس السنة ٥٨٠م، عندما عزم «موريق» على غزو إحدى ولايات فارس، بالاشتراك مع المنذر بن الحارث، وسارت قواتهما حتى الجسر الكبير على نهر الفرات، فوجداه مهدما، فاضطر «موريق» إلى العودة خائبا، واعتقد أن هناك مؤامرة فى الأمر، وتواطئا بين المنذر والفرس، واعتبر هدم جسر الفرات خيانة من جانب المنذر، وأبلغ «موريق» الإمبراطور بهذه الخيانة.

ولكى يثبت المنذر براءته من هذه التهمة، قام وحده على رأس جيش كبير

بمهاجمة بلاد اللخميين، وأحرق مدينة الحيرة، وحصل على غنائم كبيرة.

ولكن البيزنطيين اعتبروا النجاح الذى أحرزه فى هذه الغزوة، تحديا سافرا لجيشهم، فصمموا على الإنتقام منه، وعهدوا إلى «ماجنوس» حاكم سورية الرومانى، بتنفيذ ذلك.

ورغم أن «ماجنوس» كان صديقا للمنذر، فلم يجد بدا من تنفيذ الأمر الصادر إليه، واحتال على المنذر للقبض عليه، فدعاه لحضور حفل إفتتاح كنيسة شيدها فى بلدة حوارين بين تدمر ودمشق، وتم القبض عليه، بعد أن انخدع بهذه الدعوة، وأرسل المنذر إلى القسطنطينة، وبصحبته ولدين له وإحدى نسائه.

وبعد قليل توفى الإمبراطور «طيباريوس»، وخلفه موريق (٥٨٢ - ٦٠٢م)، وهو العدو اللدود للمنذر، فقام بنفيه إلى جزيرة صقلية، كما أمر بقطع المعونة السنوية التى اعتادت الدولة البيزنطية أن تقدمها إلى أسرة الغساسنة الحاكمة.

وهذا التصرف قد أغضب الغساسنة، فبادر أولاد المنذر بالخروج على طاعة الدولة البيزنطية، وتركوا ديارهم وتحصنوا فى البادية، وأخذوا يشنون الغارات منها على حدود سورية، وينهبون ويخربون كلما يصادفهم، ومن ذلك مدينة بصرى التى تعرضت لغاراتهم.

وعلى أثر ذلك أرسل الإمبراطور «موريق»، حملة بقيادة «ماجنوس» لتأديب أبناء المنذر، وسير معه أحد أبنائه الذى عينه على إمارة الغساسنة بدلا من أبيه المنذر، ولكن هذا الأمير قد توفى بعد أيام قليلة.

وقد فشلت هذه الحملة بالرغم من تمكن «ماجنوس» من القبض على النعمان أكبر أبناء المنذر، وذلك باستخدام الخدعة والدهاء، وأرسل النعمان إلى القسطنطينية فى سنة ٥٨٣ هـ.

تصدع إمارة الغساسنة:

ويذكر أنه بعد القبض على النعمان انقسم عرب غسان إلى ١٥ فرقة، لكل منها رئيس، وتفرقوا، وانضم بعضها إلى ملك الفرس، ورحل عدد منها إلى بلاد الروم، واعتنقوا مذهب الطبيعتين للسيد المسيح الذى يؤمن به البيزنطيون، ورحل البعض الآخر إلى «قباذق» Cappadocia.

وبذلك فقد تصدعت إمارة الغساسنة، وتفككت وحدة عرب سوريا، وأخذت القبائل تتطاحن فيما بينها، وبدأت تغير على المناطق المتحضرة والعامرة فى سورية، وتعيث فيها فسادا.

وفى هذه الفترة تولى على إمارة الغساسنة عدد من الأمراء الضعاف، كانت مدة حكمهم قصيرة وخلال الفترة من عام٦١٣ إلى عام ٦٢٩م، دخلت إلى بلاد الشام تحت سيطرة الفرس، وقضى على نفوذ الغساسنة، ويذكر أن كسرى «أبرويز» قدقتل أحد أمرائهم.

جبلة بن الأيهم:

وهو آخر أمراء الغساسنة، وقد اشترك مع الروم فى قتال العرب المسلمين بقيادة خالد بن الوليد، أثناء فتح الشام.

ثم انضم إلى العرب وأسلم أثناء خلافه عمر بن الخطاب، على أثر انتصار العرب فى معركة اليرموك.

ولكنه لم يلبث أن تنصر وخرج إلى بلاد الروم فى ٣٠ ألف من أتباعه، وكان ذلك أيضا فى عهد عمر بن الخطاب.

ويذكر فى سبب تنصر جبلة بن الأيهم «أنه مر فى سوق[٤] دمشق فأوطأ رجلا فرسه، فوثب الرجل فلطمه، فأخذه الغسانيون فأدخلوه على أبى عبيدة بن الجراح، فقالوا: هذا لطم سيدنا، فقال أبو عبيدة بن الجراح: البينة أن هذا لطمك، قال: وما تصنع بالبينة، قال: إن كان لطمك لطمته بلطمتك، قال: ولا ويقتل: قال لا.

قال: تقطع يده، قال: لا، إنما أمر الله بالقصاص، فهى بلطمة، فخرج جبلة ولحق بأرض الروم وتنصر، ولم يزل هناك إلى أن هلك».

ويذكر أبو الفدا، أن أحد العامة من بنى[٥] فزارة، وطئ ذيل إزاره وهو يطوف بالكعبة، فلطمه جبلة حتى هشم أنفه، فاشتكاه إلى عمر بن الخطاب، الذى حكم بأن يلطم بالقصاص، فاحتال جبلة وهرب إلى بلاد الروم، ولجأ إلى القيصر هرقل ومعه خمسمائة من أتباعه، وتنصروا جميعا، وأكرمهم هرقل.

---

(٤) ابن قتيبة الدنيوى: كتاب المعارف. ص ٢١٧.

(٥) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، جـ١. ص ص ١٦١ ، ١٦٢.

كما يذكر أن جبلة أتى عمر بن الخطاب، وهو على نصرانيته، وقال له «أقيم على دينى وأؤدى الصدقة[٦]، فقال عمر: إن أقمت على دينك فأد الجزية، فأنف منها، فقال عمر: ما عندنا لك إلا واحدة من ثلاث: إما الإسلام، وإما أداء الجزية، وإما الذهاب إلى حيث شئت، فدخل بلاد الروم فى ثلاثين ألفا، فلما بلغ ذلك عمر ندم».

ويصف حسان بن ثابت أحد مجالس جبلة بن الأيهم، للغناء والشراب، عندما كان أميرا على الغساسنة، فقال:

«لقد رأيت عشر قيان: خمس روميات يغنين بالرومية[٧] بالبرابط، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة، وأهداهن إليه إياس بن قبيصة، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها، وكان إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب، وأتى بالمسك الصحيح فى صحاف الفضة، وأوقد له العود المندى إن كان شاتيا، وإن كان صائفا بطن الثلج، وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية ينفضل هو وأصحابه بها فى الصيف، وفى الشتاء الغراء الفنك وما أشبهه. ولا والله ما جلست معه يوما قط إلا خلع على ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم، وعلى غيرى من جلسائه، هذا مع حلم عمن جهل وضحك وبذل من غير مسئلة مع حسن وجه وحسن حديث».

حضارة الغساسنة

كان للغساسنة حضارة مزدهرة، تأثرت إلى حد كبير بالحضارتين الساسانية والبيزنطية، وتتفق فى ذلك مع الحضارة الأموية، التى استمدت أصولها من الحضارتين الساسانية والبيزنطية أيضا، الأمر الذى أدى إلى ارتباك علماء الآثار فى نسبة بعض الآثار العربية فى البادية، مثل قصر المشتى، إذ ينسبه بعضهم إلى العصر الأموى، والبعض الآخر ينسبها إلى الغساسنة.

---

(٦) البلاذرى: كتاب فتوح البلدان – جزء أول. ص ١٦١.

(٧) أبو الفرج الأصفهانى: كتاب الأغانى – مجلد ١٦. ص ٢٦.

الزراعة:

اشتغل الغساسنة بالزراعة، واستغلوا المياه التى تتدفق من أعلى جبال حوران، فى رى المزروعات، فعمرت القرى والضياع التى بلغ عددها ثلاثين قرية.

القصور والمنشآت العمرانية:

اهتم أمراء الغساسنة بإقامة القصور والقناطر والأبراج والقلاع وغيرها من المنشآت العامة.

وينسب حمزة الأصفهانى إلى ثلاثة عشر من أمراء الغساسنة، تشييد كثير من القصور والمبانى العامة.

ومن القصور التى أقامها أمراء الغساسنة، قصر المشتى الذى غلب عليه فن العمارة الساسانية، وينسب بعض الأثريين هذا القصر إلى الخلفاء الأمويين.

وإلى جانب قصر المشتى، قلعة القسطل التى ينسب حمزة الأصفهانى تشييدها إلى جبلة الحارث.

ومن المنشآت الدينية إقامة كثير من البيع والكنائش.

وبوجه عام كانت المبانى التى شيدها الغساسنة، متأثرة بدرجة أكبر بالفنون الساسانية، كما تأثرت بدرجة أقل بالفنون البيزنطية.

ومعظم هذه المبانى كانت مطلية بالحجر الأبيض الذى كان يجلب من الجبال القريبة منها.

الفنون الحربية:

نتيجة لمخالطة الغساسنة للروم، واشتراكهم فى قتال الفرس، فقد أجادوا الفنون الحربية، ووسائل الدفاع، واكتسبوا خبرة عسكرية فائقة.

التأثر باللغة اليونانية:

آخذ الغساسنة من اللغة اليونانية كثيرا[٨] من الكلمات، مثل الكنيسة والراهب، واستخدموها فى كتاباتهم ومخاطباتهم.

---

(٨) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى. الجزء الأول. ص ٤٤.

الفصل الخامس

دولة كندة

- نسب كندة وموقعها الجغرافى
- **ملوك كندة:**
- حجر آكل المرار بن عمرو (٤٦٠ - ٤٨٠م تقريبا)
- عمرو المقصور (٤٨٠ - ٤٩٥م تقريبا)
- الحارث بن عمرو بن حجر الكندى (٤٩٥ - ٥٢٨م)
- حجر بن الحارث بن عمرو
- شرحبيل وسلمة ابنى الحارث والصراع فيما بينهما.
- معد يكرب بن الحارث
- امرؤ القيس بن حجر
- نهاية دولة كندة
- **حضارة كندة**
- الشعر عند الكنديين
- ديانة الكنديين

الفصل الخامس

دولة كندة

يذكر إبن خلدون أن الكنديين كان لهم الملك على بادية الحجاز من بنى عدنان، ولذلك كانت دولتهم تعرف «بكندة الملوك».

نسب كندة وموقعها الجغرافى:

تنسب قبيلة كندة إلى ثور بن عفير» الذى يتصل نسبه بكهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان».

وكندة كان لقب ثور بن عفير.

ويذكر الإخباريون أن بلاد كندة كانت فى البداية تقع فى شرقى بلاد اليمن مما يلى حضرموت، وكانت مدينة «دمون» عاصمتهم.

ثم نزح الكنديون إلى أرض معد بنجد، واستقروا بها، وقد اختلف الإخباريون فى تعليل سبب نزوح الكنديين إلى الشمال، فيذكر اليعقوبى أن ذلك كان نتيجة لوقوع حرب طويلة الأمد بين قبائل حضرموت وكندة.

ويرجح فريق من الإخباريين سبب نزوح الكنديين إلى نجد، إلى وجود قرابة بين تبع ملك حمير حجر بن عمرو زعيم كندة، وفى ذلك الوقت كان سلطان تبع يشمل نجد والحجاز وجهات أخرى من بلاد العرب، فولى حسان بن تبع حجرا على قبائل معد كلها، ليعمل على إخضاعها.

ملوك كندة:

يذكر أن أول ملوك كندة كان مرتع بن معاوية بن ثور، الذى دام ملكه عشرين سنة، ثم خلفه إبنه ثور بن مرتع، الذى مات بعد قليل، وخلفه الحارث بن معاوية الذى دام ملكه أربعين سنة، ثم آل الملك إلى رهب بن الحارث لمدة عشرين سنة. وكان أشهر ملوك كندة بعد انتقالهم إلى نجد كالتالى:

حجر آكل المرار بن عمرو (٤٦٠ - ٤٨٠م تقريبا)

وهو حجر بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية، حسب رواية حمزة الأصفهانى، أو حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث الأصغر بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية ابن كندة، حسب رواية الطبرى.

وتبعا لمعظم الروايات، فإن حجر بن عمرو هو أول ملوك كندة منذ نزولها ببطن عاقل في نجد.

ويذكر إبن الأثير أن السبب في تنصيب حجر بن عمرو ملكا في نجد، أن سفهاء بكر فيها «كانوا قد غلبوا على عقلائها[١] وغلبوهم على الأمر وأكل القوى الضعيف، فنظر العقلاء في أمرهم، فرأوا أن يملكوا عليهم ملكا يأخذ للضعف من القوى، فنهاهم العرب، وعلموا أن هذا لا يستقيم بأن يكون الملك منهم لأنه يطيعه قوم ويخالفه آخرون، فساروا إلى بعض تبايعة اليمن، وكانوا للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين، وطلبوا منه أن يملك عليهم ملكا، فملك عليهم حجر بن عمرو آكل المرار، فقدم عليهم، ونزل ببطن عاقل، وأغار ببكر، فانتزع عامة ما كان بأيدى اللخميين من أرض بكر، وبقى كذلك إلى أن مات، فدفن ببطن عاقل، فلما مات صار عمرو بن حجر آكل المرار، وهو المقصور ملكا بعد أبيه».

وكان حجر بن عمرو يعرف عند الإخباريين «بآكل المرار»، وينسبون هذه التسمية إلى حادث مفادة أن أحد أمراء غسان إنتهز فرصة غياب حجر بن عمرو في بعض غزواته «فاكتسح له مالا وسبى[٢] له جارية، وأوغلوا بالجارية يديرون المال خوف التبع، فأقبلت الجارية تلفت، فقيل لها: ما تلفتك؟ فقالت: كأنى بحجر قد كربكم، فاغرافاه كأنه جمل آكل مرار، فلم يعتم أن لحق على تلك الهيئة فسمى آكل المرار».

ويذكر إبن الوردى أن إمرأته قالت عنه «كأنه جمل قد أكل المرار[٣]، بغضا له، فغلب عليه لقبا».

ويبدو أن حجر بن عمرو كان له ثلاث زوجات، هن هند بنت ظالم بن وهب، وأن أناس بنت عوف بن محلم الشيبابى، والزوجة الثالثة من حمير، وبهذه الزيجات، يغلب على الظن أنه قد تمكن من توسيع سلطانه في بلاد العرب.

وغير معروف على وجه الدقة تاريخ وفاة حجر بن عمرو، ويعتقد أن وفاته كانت في السنوات العشرة الأخيرة من القرن الخامس الميلادى.

---

(١) ابن الأثير: كتاب الكامل في التاريخ – جزء أول ص ٣٠٤.
(٢) ابن الفقيه بن الهمزانى: مختصر كتاب البلدان. ص ٨٦.
(٣) ابن الوردى (زين الدين عمر بن مظفر): تاريخ ابن الوردى – الجزء الأول. ص ٨٤.

عمرو المقصور (٤٨٠ - ٤٩٥م تقريبا):

هو عمرو بن حجر بن عمرو، وتولى الملك بعد أبيه حجر.

وسبب تلقيبة «بالمقصور»، أنه اقتصر على ملك أبيه، كما يذكر أن ربيعة جعلته يقتصر على ملك أبيه.

وكان لعمرو أخ يدعى معاوية، ويعرف بالجون، تولى حكم اليمامة، بينما أقتصر حكم عمرو على منطقة نجد.

ولم يكن عمرو ملكا قويا، مما دعى الإخباريين إلى تسميته (بالمقصور)، ويبدو أنه كان مجرد عامل للتبابعة فى كندة، فكان يخدم حسان بن تبع، فلما قتل عمرو بن تبع أخاه حسان، قرّب إليه عمر ابن حجر، وزوّجه من إبنة أخيه حسان، فأنجبت له الحارث بن عمر.

وكانت علاقة عمرو المقصور باللخميين، علاقة مودة وحسن جوار، انتهت بزواج الأسود بن المنذر ملك الحيرة، من إبنة عمرو، وأنجبت له النعمان بن الأسود.

وأما علاقة عمرو المقصور بالغساسنة، فكانت عدائية، وكان يكثر من الإغارة على بلاد الغساسنة، وفى إحدى هذه الغارات، تمكن الحارث بن أبى شمر الغسانى، من هزيمته وقتله.

الحارث بن عمرو بن حجر الكندى (٤٩٥ - ٥٢٨م):

وهو أكبر أبناء عمرو المقصور من إبنة حسان بن تبع.

وكان الحارث بن عمرو أقوى ملوك كندة، وأشدهم بأسا، وأكثرهم طموحا، وهذا قد جعل قبائل معد تقبل به ملكا عليها، بعد أن لمست قوته ومقدرته.

وخلال الفترة من عام ٥٢٤ إلى ٥٢٨ م، تمكن الحارث بن عمرو من مد نفوذ كندة حتى الحيرة، وذلك بموافقة كسرى «قباذ»، ويذكر حمزة الأصفهانى، أن سبب ذلك، هو رفض المنذر بن ماء السماء، ملك الحيرة، قبول مذهب المزدكية، الذى اعتنقه كسرى قباذ، وعرضه على المنذر بن ماء السماء، فعزله قباذ، ونصب مكانه الحارث بن عمرو، الذى قبل الزندقة المزدكية.

ويضيف حمزة الأصفهانى قائلا:

«فعظم لذلك سلطانه وفخم أمره، وانتشر ولده[٤]، فملكهم على بكر وتميم

وقيس وتغلب وأسد، وكان من حل نجدا من أحياء نزار تحت سلطان الحارث دون من نأى منهم عن نجد، وبقى الحارث ملكا على قبائل معد حتى ملك أنوشروان».

وقد طمع الحارث بن عمرو فى التوسع فى العراق على حساب الفرس، بعد أن لمس حالة الضعف عند كسرى قباذ، فطمع فى ضم إقليم السواد فيما وراء نهر الفرات، وقام جنده بشن الغارة على ذلك الإقليم، فمنحه قباذ ستة (طساسيج) مجاورة للحيرة، بقصد استرضائه.

ولكن الحارث بن عمرو استضعف قباذ، وتطلع إلى ضم المزيد من بلاد الفرس، فبعث إلى تبع ملك اليمن يغريه بالتوسع على حساب الفرس.

وعلى أثر ذلك، نزل الحيرة تبع وأخوه شمر، وقاما بمحاربة كسرى قباذ وتغلبا عليه.

وبعد وفاة قباذ، خلفه كسرى أنو شيروان، فتخلص من «مزدك»، وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى عرشه بالحيرة، وطرد منها الحارث بن عمرو، فخرج هاربا، ومعه أصحابه وولده وأمواله.

ويذكر أن نفرا من قبيلة تغلب طاردوا الحارث بن عمرو، ونهبوا أمواله، وأسروا ثمانية وأربعين من أفراد بيت حجر آكل المرار، بينهم إثنان من ولد الحارث بن عمرو ومالك، وقادوهم إلى المنذر بن ماء السماء الذى ضرب رقابهم فى ديار بنى مرين. ويصف امرؤ القيس بن حجر هذه النكبة **قائلا**:

ألا يا عين بكى لى شيئا[5] ... وبكىّ لى الملوك الذاهبينا
ملوك من بنى حجر بن عمرو ... يساقون العشية يقتلونا
فلو فى معركة أصيبوا ... ولكنه فى ديار بنى مرينا
ولم تغسل جماجمهم بغسل ... ولكن فى الدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم ... وتنزع الحواجب والعيونا

وقد اختلف الإخباريون فى مصير الحارث بن عمرو، فيذكر حمزة

(٤) حمزة الأصفهانى: تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء. ص ص. ٩٢، ٩٣.
(٥) إبن الوردى (زين الدين عمر بن مظفر): تاريخ ابن الوردى – الجزء الأول. ص ٨٤.

الأصفهاني أنه هرب من العراق، «وتبعته خيل المنذر[٦]، فأدركوا إبنا له فجأة فقتلوه، ونجا الحارث هاربا لا يعرج على شئ، فوقع عليه بنوكلب بمسحلان فقتلوه».

ويذكر إبن الأثير أن الحارث بن عمرو خرج للصيد وهو (بمسحلان)، «فتتبع تيسا من الظباء وأقسم[٧] أن يأكل كبده، فلما ظفر به شواه وتناول فلذة من كبده حارة فمات».

وكان الحارث بن عمرو، قد قسم مملكته في حياته، بين أولاده الأربعة، فولى إبنه الأكبر حجرا على بنى أسد وكنانة وبنى خزيمة وغطفان، وملّك إبنه شرحبيل على بكر بن وائل، وبنى حنظلة، وولى إبنه معد يكرب الذى يعرف بغلفاء، على قيس عيلان، وإبنه الأصغر سلمة، أقامه على تغلب، والنمر بن قاسط.

حجر بن الحارث بن عمرو:

وهو والد الشاعر امرئ القيس، وكان أكثر أبناء الحارث بن عمرو ذكرا عند الإخباريين.

وكان أبوه قد ولاه على أسد وكنانة المضريتين، وكان يقيم فى تهامة، ورفض أن يقيم فى منازل أسد وكنانة، لأنه كان يشعر ببغضهم له وسعيهم للتخلص منه لسوء سيرته فيهم.

وفى كل عام كان حجر بن الحارث يبعث رسله إلى بنى أسد وكنانة لتحصيل الإتاوة منهم، ولما مات أبوه الحارث إعتزم بنو أسد القضاء على حجر، وامتنعوا عن دفع الإتاوة السنوية، وضربوا رسله وطردوهم.

وعى أثر ذلك، سار إليهم حجر بن الحارث بجند من ربيعة وقيس وكنانة، وقتل سادتهم، وأسر عددا منهم أرسلهم إلى تهامة، وحبس جماعة من أشرافهم من بينهم الشاعر ابن الأبرص، الذى قال شعرا يستعطف فيه حجرا، حتى رق له وأمر بإطلاق سراحهم، وردهم إليه، وفى الصباح وهم فى الطريق إليه، وبتأثير كاهنهم عوف بن ربيعة بن عامر الأسدى، انقلبوا عليه، ولما بلغوا معسكره، هجموا عليه

---

(٦) حمزة الأصفهانى: تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء. ص ٩٣.

(٧) ابن الأثير: كتاب الكامل فى التاريخ – جزء أول. ص ٣٠٥.

فى قبته وقتلوه، وقام بقتله علباء بن الحارث الكاهلى، إنتقاما لقتل حجر لأبيه من قبل.

فلما قتل حجر قالت بنو أسد «يا معشر كنانة وقيس[8]، أنتم إخواننا وبنو عمنا، والرجل بعيد النسب منا ومنكم، وقد رأيتم سيرته، وما كان يصنع بكم هو وقومه، فانتهبوهم».

وعقب ذلك، انضمت كنانة وقيس إلى أسد، وهجموا على معسكر حجر ونهبوه، ثم وضعوا جثته فى «ربطة بيضاء وألقوه على الطريق».

ويذكر أن بنى أسد اشتبكوا مع أتباع حجر فى معركة ضارية، إنتهت بهزيمة كندة ومصرع حجر، ورثاه إبنه امرؤ القيس بشعر جاء فيه:

بنو أسد قتلوا ربهم ألا كل شئ سواه جلل

شرحبيل وسلمة ابنى الحارث والصراع فيما بينهما:

كان الحارث بن عمرو قد جعل شرحبيل ملكا على بكر بن وائل وحنظلة بن مالك وبنى أسد الرباب من بنى مضر، فى القسم الشرقى من أملاكه.

أما سلمة فقد جعله الحارث ملكا على تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة، وكانت ديارهم مجاورة لديار مضر وربيعة.

وكان المنذر ملك الحيرة قد حاول التفريق والدس بين أولاد الحارث بن عمرو، بعد أن عجز عن القضاء عليهم.

وقد استمر المنذر فى تحريض شرحبيل وسلمة على محاربة بعضهما البعض حتى نشبت الحرب بينهما، وزحف شرحبيل بجيوشه لمحاربة أخيه سلمة، الذى أقبل ومعه قواته، واشتبكت قوات الأخوين فى قتال شديد، أسفر عن هزيمة قوات شرحبيل من بنى حنظلة وعمرو بن تميم والرباب، وفر شرحبيل من ميدان المعركة وتتبعه من أراده قتيلا، وقيل أن ذا السنينة التغلبى هو الذى قتله، وفى رأى آخر أن عصيم بن النعمان بن مالك التغلبى هو الذى قام بقتله.

ويذكر أن سلمة قد جزع لمقتل أخيه، وتبين له أن المنذر قد أراد أن يقتل بعضهم بعضا.

---

(٨) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب فى عصر الجاهلية. ص ٣٢٢.

وبعد ذلك؛ أخرجت تغلب سلمة عنها، فلجأ إلى بكر بن وائل فأذعنت له، ولكن المنذر دعاهم إلى طاعته، فأبوا ذلك، وتمسكوا برئاسة سلمة لهم، فأقسم المنذر أن يسير إليهم، «فإن ظفر بهم فليذبحنهم على قمة جبل أوارة حتى يبلغ الدم الحضيض، ثم زحف إليهم بجموعه وهزمهم وقتل منه على جبل أوارة خلفا كثيرين، ويعرف هذا اليوم بيوم أوارة الأول»(٩).

أما سلمة، فقد ذكر إبن خلدون أن أصيب الفالج ومات.

معد يكرب بن الحارث:

وقد ولاه أبوه الحارث بن عمرو على قيس وعيلان، وذكر أنه شن غارة على جنوب الشام في حوالى عام ٥٠٢م فى عهد والده، كان من نتائجها عقد صلح بين الإمبراطور الرومانى «انسطاسيوس» والحارث بن عمرو.

وبعد مقتل شرحبيل وحجر وموت سلمة، قضى معد يكرب أيامه الأخيرة حزينا على فقد إخوته، وعو على رأس قيس وعيلان، وقد استبد به الحزن «حتى اعتراه وسواس هلك به»(١٠).

امرؤ القيس بن حجر:

وأبوه حجر بن الحارث، وأمه فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير، أخت كليب بن وائل والمهلهل التغلبين.

ويذكر أن أباه حجر لم يكن راضيا عن قوله الشعر وخاصة تعزله بالنساء بشكل بعيد عن البراءة، فطرده، وأخذ يتجول فى بلاد العرب، وأقبل على شرب الخمر والصيد، حتى أتاه خبر مقتل أبيه، وكان مقيما فى دمون من أرض حضرموت. ولما سمع بمقتل أبيه قال:

تطاول الليل علينا دمون ∴ دمون إننا معشر يمانون

وإنـــنا لقومـــنا محـــبون

---

(٩) اليعقوبى (أحمد بن يعقوب): تاريخ اليعقوبى – الجزء ١. ص ٤٣٣.

(١٠) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): كتاب العبر وديوان المبتدأ أو الخبر – الجزء الثانى. ص ٤٧٢.

ثم قال عن أبيه «ضيفي صغيرا، وحمله دمه كبيرا، لاصحو اليوم، ولا سكر غدا، اليوم خمر وغدا أمر»(١١).

وبعد ذلك رحل امرؤ القيس إلى بكر وتغلب، وسألهم أن ينصروه على بنى أسد الذين قتلوا أباه حجرا، فأجابوه إلى مطلبه

وقد علم امرؤ القيس عن طريق عيونه الذين بعثهم إلى بنى أسد، أن هؤلاء قد لجأوا إلى بنى كنانة، فسار بمن معه من بكر وتغلب إلى كنانة وباغتهم بالهجوم، وهو يظن أن بنى أسد بينهم، فقالوا له «أبيت اللعن لسنا لك بثأر، نحن بنو كنانة، فدونك ثأرك فاطلبهم، فإن القوم قد ساروا بالأمس».

وكان بنوا أسد قد رحلوا عن منازل بنى كنانة، بعد أن أدركوا أن عيون امرئ القيس تتعقبهم.

وعلى أثر ذلك أخذ امرؤ القيس يتعقب بنى أسد، حتى أدركهم ظهر اليوم التالى، وقد انهكت خيوله من طول الطريق، وأرهق العطش رجاله، واشتبك مع بنى أسد وقتل أعدادا كبيرة منهم، وتمكن الباقون من الفرار.

وبعد ذلك امتنعت بكر وتغلب عن متابعة امرئ القيس، بحجة أنه قد أصاب ثأره، فرحل إلى اليمن فى طلب مناصرته على بنى أسد، فأمده مرثد الخير بن ذى جدن الحميرى بخمسمائة رجل من حمير، وبعد وفاته زوده قرمل الذى خلف مرثد بكل ما يلزمه، وسار أمرؤ القيس بهذا الجيش وبمن أستأجرهم من قبائل اليمن، إلى بنى أسد ونال مأربه منهم، وقيل أنه «قتل الأشقر ابن عمرو وسيد بنى أسد، وشرب فى قحف رأسه(١٢)».

ويبدو أن بنى أسد قد طلبوا حماية المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة، فلما ظفر بهم امرؤ القيس أراد المنذر أن يثأر منه، وسير الجيوش فى طلبه، ولما بلغ امرؤ القيس ذلك أراد الرجوع إلى اليمن، ولكنه خاف من أهل حضرموت، وطلب الثأر منه بنو أسد وقبائل معد، وتخلى عنه من كانوا معه من حمير وغيرهم، فنزل هو وجماعة من أهله على الحارث بن شهاب اليربوعى، وكان معه خمسة أدرع كان

---

(١١) ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكرم): كتاب الكامل فى التاريخ – الجزء الأول. ص ٣٠٧.

(١٢) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى – الجزء ١، ص ١٧٩.

بنو حجر آكل المرار بن عمرو يتوار ثونها ملكا بعد ملك، فعلم المنذر بنزول امرئ القيس عند بني يربوع بن حنظلة، فأرسل إلى الحارث بن شهاب، وتوعده إذا امتنع عن تسليمهم إليه، فاضطر إلى تسليم جماعة منهم، ونجا امرؤ القيس ومعه ابنته هند ويزيد بن معاوية بن الحارث، ودروعه وسلاحه وماله، ونزل على سعد بن الضباب، وكان عاملا لكسرى على بعض مناطق العراق، فاختبأ عنده لفترة حتى مات سعد بن الضباب، فخرج إلى منازل طيء، ثم أخذ يتنقل من مكانه لآخر.

وأخيرا نزل امرؤ القيس عند السموأل بن عادياة بتيماء، فأكرمه وأقام عنده امرؤ القيس حينا، ثم طلب منه أن يكتب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني يوصيه بأن يوصله إلى قيصر «جستنيان»، وعزم على الرحيل وسار إلى الحارث الغساني، بعد أن أودع أهله ودروعه عند السموأل.

وبعد ذلك رحل امرؤ القيس إلى القسطنطينية، ووصل إلى قيصر الذى أكرمه، ولم يلبث أن نشأت علاقة غرامية بينه وبين إبنة قيصر التى أعجبت به، وبلغ ذلك بنى أسد، فأرسلوا أحد رجالهم ويدعى الطماح بن قيس الأسدى، كان امرؤ القيس قد قتل أخاه، فدخل الطماح على قيصر وأبلغه أن امرئ القيس غوى وعاهر، وأنه على صلة بابنته وقال فيها أشعارا انتشرت عند العرب، فغضب قيصر، واعتزم الانتقام منه.

وفى ذلك الوقت كان قيصر قد سيّر امرئ القيس على رأس جيش كثيف، ومعه جماعة من أبناء الملوك وأبناء البطارقة، فبعث إليه قيصر بحلة منسوجة بالذهب مسمومة، وكتب إليه أنه أرسل هذه الحلة الخاصة تكريما وتقديرا لشخصه، وأمره بأن يلبسها، وأن يكتب إليه بأخباره من مكان لآخر.

وقد سر امرؤ القيس من مبالغة القيصر فى إكرامه، ولبس الحلة التى أرسلها إليه، فدخل السم إلى جسمه وتساقط جلده.

ولم يلبث أن اكتشف امرؤ القيس حقيقة هذه الحلة، والمكيدة التى دبرت له، فقال في ذلك:

لقد طمع الطماح من نحو أرضه ليلبسني مما يلبسه بؤسا
فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

وعندما وصل امرؤ القيس إلى أنقرة فى بلاد الروم، وافته المنية، ودفن هناك(١٣).

ولما مات امرؤ القيس سار الحارث بن أبى شمر الغسانى إلى السموأل بن عادياه، وطلب تسليمه أدرع امرئ القيس، فامتنع عن تسليمها إليه، فأخذ الحارث أحد أبناء السموأل، وهدد بقتله إذا لم يسلم الأدرع إليه، ولما أبى السموأل أن يعطيها له، أقدم الحارث على قتل إبنه.

وقد سجل السموأل هذه الواقعة فى شعره قائلا:

وفيت بأدرع الكندى إنى إذا ما ذم أقوام وفيت
وأوصى عاديا يوما بأن لا تهدم يا سموأل ما بنيت
بنى عاديا حصنا حصينا وماء كلما شئت استقيت

نهاية دولة كندة:

بعد موت أولاد الحارث بن عمرو، انهارت دولة كندة، ولم يبق من الكنديين سوى جماعة من أحفاد حجر آكل المرار، احتفظوا بالرئاسة فى البحريين وحضرموت، وكان منهم الأشعث بن قيس، وهو آخر الملوك الكنديين، من بنى معاوية الجون أخرى عمرو المقصور.

وقد توجه الأشعث بن قيس إلى النبى عليه الصلاة والسلام، ومعه سبعون من أشراف كندة، فأسلموا، ثم ارتدوا بعد ذلك، وقاتلوا المسلمين فى حروب الردة بعد وفاة الرسول الكريم.

وبعد أن أرتد عن الإسلام لجأ الأشعث إلى حصن منيع قرب حضرموت يطلق عليه «النجير»، فحاصره زياد بن لبيد البياضى والمهاجر بن أبى أمية، لحق بها عكرمة بن أبى جهل، وتم فتح النجير، ونزل الأشعث عن الحكم، وأسره

(١٣) ابن الأثير: كتاب الكامل فى التاريخ – الجزء الأول. ص ٣٠٩.

مصادر الكتاب

المراجع العربية والمترجمة:

١- ابن الأثير: كتاب الكامل فى التاريخ - الجزء الأول
٢- ابن الفقية الهمذانى: مختصر كتاب البلدان
٣- ابن الكلبى (أبو المنذر هشام بن محمد): كتاب الأصنام
٤- ابن النجار (محمد بن محمود): كتاب الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة.
٥- ابن الوردى (زين الدين عمر بن مظفر): تاريخ ابن الوردى - الجزء الأول
٦- ابن حوقل (أبو القاسم محمد): كتاب صورة الأرض
٧- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): كتاب العبر وديوان المبتدأ أو الخبر - الجزء الثانى
٨- ابن قتيبة الدينورى: كتاب المعارف
٩- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك): كتاب سيرة النبى - الجزئين الأول والثانى
١٠- أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر - الجزء الأول
١١- أبو الفرج الأصفهانى: كتاب الأغانى - مجلد ١٦
١٢- أبو حنيفة الدينورى: الأخبار الطوال
١٣- د. أحمد أمين سليم: دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم (سوريا وبلاد العرب)
١٤- الآصفهانى (حمزة بن الحسن): تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء
١٥- البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر): أنساب الأشراف - الجزء الأول
١٦- البلاذرى: كتاب فتوح البلدان - الجزء الأول
١٧- السمهودى (أبو الحسن بن عبد الله): كتاب وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى - الجزء الأول
١٨- د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب فى عصر الجاهلية
١٩- الشريف (أحمد إبراهيم): مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول
٢٠- المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين): مروج الذهب ومعاون الجوهر - الجزء الثانى

٢١- المقدس (المطهر بن طاهر): كتاب البدء والتاريخ - الجزء الرابع
٢٢- المقدس (شمس الدين أبو عبد الله محمد): أحسن التقاسيم فى معرفة الإقاليم
٢٣- الهمدانى (أبو محمد الحسن بن أحمد): كتاب الإكليل - الجزء الثامن
٢٤- الواقدى (أبو عبد الله محمد بن عمر): مغازى رسول الله
٢٥- ليوا وينهايم وترجمة حسين علوان حسين: العراق القديم
٢٦- اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب): تاريخ اليعقوبى - الجزء الأول
٢٧- ألويس موسل، وترجمة د. عبد المحسن الحسينى: شمال الحجاز
٢٨- د. توفيق سليمان: دراسات فى حضارات غرب آسيا القديمة
٢٩- د. جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام - الأجزاء ٢، ٣، ٤
٣٠- چورچ رو، وترجمة حسين علوان حسين: العراق القديم
٣١- چورچى زيدان: العرب قبل الإسلام
٣٢- د. صالح أحمد العلي: محاضرات في تاريخ العرب - الجزء الأول
٣٣- عدنان النبي: الفن التدمرى
٣٤- فرتز هومل: التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية
٣٥- فيليب حتى: تاريخ العرب - الجزء الأول
٣٦- لانكستر هاردنج، وتعريب سليمان موسى: آثار الأردن
٣٧- د. محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم
٣٨- محمد بن جرير الطبرى: تاريخ الأمم والملوك - الجزء الثانى
٣٩- د. محمد عبد اللطيف: سجلات مارى
٤٠- مورتجات، وتعريب سليمان وأبو عساف: تاريخ الشرق الأدنى القديم
٤١- د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول
٤٢- وهب بن منبه: كتاب التيجان فى ملوك حمير، حيدر آباد الدكن
٤٣- ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله): معجم البلدان - المجلدان ٤، ٥.

المراجع الأفرنجية:

1) D.G. Hogarth: The Ancient Mear Least, London, 1950.

2) F. Kucher: Beitrage sur Kentniss des Assyrisch- Bobylonischen, Medisin, Leipsig, 1904.

3) Gearges Roux: Ancient Irag.

4) L, W.King: Chronicales Concerning Early Babylonian Kings. Tom. 2.

5) R. Labat: Traite Akkadien de Diagnosties et Pranosties medieaux, Laiden, 1951.

6) R.C. Thompson: Assytian prescriptions for diseuses of the urine... Babyloniaca, XIV (1934).

7) S.N. Kramer: Sumerian Mythalogy.

8) Th. Jacobsen: The Sumerian King List. 1939.

محتويات الكتاب

بيان الموضوعات	رقم الصفحة

بيان الموضوعات	رقم الصفحة

بيان الموضوعات	رقم الصفحة
٤٨- مملكة أوجاريت	١٤٨
الفصل الثانى	
الفينيقيون	١٤٩-١٥٩
٤٩- الموقع الجغرافى للفينيقيين	١٥٠
٥٠- دويلات المدن الفينيقية ونظام الحكم فيها	١٥١
٥١- أهم المدن الفينيقية:	١٥٢-١٥٦
٥٢- جبيل - صور - أرواد	١٥٢
٥٣- توسيع الفينيقيين فى حوض البحر المتوسط:	١٥٦-١٥٩
٥٤- الفينيقيون ودورهم فى التجارة البحرية	١٥٦
٥٥- المستعمرات الفينيقية على سواحل البحر المتوسط - قرطاج	١٥٨-١٥٩
الفصل الثالث	
الأموريون	١٦٠-١٦٩
٥٦- الموطن الأصلى للآراميين	١٦٠
٥٧- دويلات المدن الآرامية:	١٦٢-١٦٦
٥٨- فى شمال العراق	١٦٢
٥٩- فى شمال سورية	١٦٣
٦٠- فى وسط وجنوب سورية - دويلة آرام دمشق	١٦٤-١٦٦
٦١- الحضارة الآرامية:	١٦٦-١٦٩
٦٢- اللغة الآرامية	١٦٧
٦٣- التجارة عند الآراميين	١٦٨
٦٤- الفن عند الآراميين	١٦٨
٦٥- ديانة الآراميين	١٦٩

بيان الموضوعات	رقم الصفحة

بيان الموضوعات	رقم الصفحة

بيان الموضوعات	رقم الصفحة

بيان الموضوعات	رقم الصفحة
الصغرى وسوريا من نفوذ التدمريين	٢٩٣
١٦٤- زحف الرومان على العاصمة تدمر ودعوة الملكة الزباء للإستسلام	٢٩٥
١٦٥- سقوط تدمر فى بداية عام ٢٧٣م وخضوعها للحكم الرومانى المباشر	٢٩٨
١٦٦- اندلاع الثورة على حكم الرومان فى تدمر ومصر وتصدى الإمبراطور أورليانوس لقمعها	٢٩٩
١٦٧- الملكة الزباء ومدينة تدمر فى أيامها الأخيرة	٣٠١
١٦٨- حضارة تدمر:	٣٠٢-٣١٣
١٦٩- نظام الحكم	٣٠٢
١٧٠- الحياة الإقتصادية (التجارة - الزراعة)	٣٠٣
١٧١- الحياة الإجتماعية	٣٠٥
١٧٢- الفن والعمران (فن النحت - العمارة - المعابد - المدافن)	٣٠٦
١٧٣- الديانة	٣١١
١٧٤- الكتابة	٣١٣
الفصل الثالث	
دولة المناذرة أو مملكة الحيرة	٣١٥-٣٦٢
١٧٥- الموقع الجغرافى لمملكة الحيرة وأصلها	٣١٧
١٧٦- ملوك الحيرة:	٣٢٠-٣٥٤
١٧٧- مالك بن فهم - جذيمة بن الأبرش	٣٢١-٣٢٢
١٧٨- عمرو بن عدى وانتقال حكم الحيرة إلى اللخميين	٣٢٤
١٧٩- امرؤ القيس بن عمرو - النعمان الأول (النعمان بن امرئ القيس) - المنذر الأول	٣٢٥-٣٣١
١٨٠-المنذر الثالث: المنذر بن امرئ القيس (ابن ماء السماء):	٣٣٣

رقم الصفحة

بيان الموضوعات

بيان الموضوعات	رقم الصفحة

الفصل الرابع

الفصل الخامس

بيان الموضوعات	رقم الصفحة
٢١٦– امرؤ القيس بن حجر	٣٨١
٢١٧– نهاية دولة كندة	٣٨٤
٢١٨– حضارة كندة:	٣٨٥–٣٨٦
٢١٩– الشعر عند الكنديين	٣٨٥
٢٢٠– ديانة الكنديين	٣٨٥
٢٢١– مصادر الكتاب:	٣٨٧–٣٨٩
٢٢٢– المراجع العربية والمترجمة	٣٨٧
٢٢٣– المراجع الإفرنجية	٣٨٩
٢٢٤– محتويات الكتاب (الفهرس)	٣٩٠–٤٠٢